وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ

مشاهداتي في جزيرة العرب

احمد حسين

مشاهداتي في جزيرة العرب

تأليف

أحمد حسين

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٩٥٠



عبد العزيز آل سعود الكبير

ملك المملكة العربية السعودية وباعث مجد الجزيرة العربية



الأمير سعود

ولي عهد المملكة العربية السعودية

يا أخي مصطفى [1]

قد قطعت العهد على نفسى أن أهديك كل كتبى ، وكل ما يمكن أن تخطه يراعتى ، أو ينبعث من ذات قلبى وعقلى حتى ألحق بك .

فأنت الشهيد الحى فى نفسى وروحى ، أنت مثلى الأعلى وقدوتى . ولكن هيهات هيهات أن ألحق بك أو أن أسمو الى بعض ما سموت ، وكل الذى أطمع فيه أن أظل حتى آخر عمرى أمينا على ذكراك ، جديرا بالحب والتكريم الذى جعلتنى محلا له فى يوم من الأيام .

---

(١) هو الدكتور مصطفى الوكيل الذى استشهد فى مارس سنة ١٩٤٤ وقد كان نائبا لرئيس حزب مصر الفتاة ثم سافر منتدبا من الحزب الى العراق فى سنة ١٩٤٠ حيث شبت نيران الثورة العراقية ضد الانجليز فانضم الى الثورة ثم رحل من العراق مع من رحل الى ايران فتركيا فشرق أوربا فبرلين حيث استشهد فذهب مع الأبرار والشهداء والصديقين .

تصدير

ليس هذا الكتاب قطعة من الأدب ؛ فحظى من هذه الناحية محدود ، وليس هو كتاب دين أو فلسفة فلست من فقهاء الشريعة ، ولا هو بكتاب تاريخ فلست من المؤرخين ، ولا هو بكتاب جغرافيا فلست من علمائها ، وليس هو كتاب سياسة أريد به خدمة أغراض خفية ، أو كتاب دعاية قصد بها اظهار محاسن الحكومة السعودية ... وانما هو مجرد خواطر وسوانح جاشت فى النفس وأنا أتهيأ لحج بيت الله الحرام للمرة الرابعة ، وأنا أطوف حول الكعبة ، وأنا أسعى بين الصفا والمروة ، وفى الموقف العظيم ، وفى الطريق بعد ذلك نحو الطائف ثم الى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، ومن بعدها نحو الظهران أول هدف للحرب المقبلة باعتبارها عاصمة بترول الشرق الأوسط . فهى رحلة صحفية سريعة فليؤخذ كل ماجاء فى هذا الكتاب على هذا المحمل . فغايتى منه هو أن أجعلك تطوف معى فى أرجاء الجزيرة حيث ذهبت ، وأنى توجهت ، فأبثك أفكارى وخواطرى وما انطبع على صفحة نفسى من مؤثرات مختلفة . وقد يكون فى هذه الآراء والخواطر ما يختلف مع رأيك وفكرك ، وقد يكون فيها ما لا يتفق والتمحيص العلمى الدقيق . ولكن هناك حقيقة لا تحتمل الشك أو التأويل ، وهى أننى بثثتك ذات نفسى فى صدق واخلاص ووصفت لك ما وقع تحت حسى وكل ما رأيت وسمعت قدر جهدى واستطاعتى مسجلا كل ما وعيت فى أمانة . فاذا كنت ممن يحبون هذا اللون من الكتابة فقد يكون فى مطالعة هذا الكتاب بعض المتعة والفائدة .

المؤلف

القسم الأول

لبيك اللهم لبيك

— ١ —

فى الرابع من أكتوبر سنة ١٩٤٨ الموافق ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٦٧ هـ نشرت لى جريدة مصر الفتاة المقال التالى :

« لماذا أحج »

بعد أيام قليلة آخذ طريقى الى حج بيت الله الحرام بمعونة الله وتوفيقه . وليست هذه أول مرة أخف فيها الى الحج فقد سعدت به من قبل عدة مرات ولكنى هذه المرة أشعر كأننى أحج للمرة الأولى وتغمرنى موجة من الاحساسات التى غمرتنى فى المرة الأولى .

كان ذلك فى عام ١٩٣٤ وكنت قد بدأت كفاحى المستميت من أجل مصر الفتاة وكانت الاضطهادات تنهال على من كل مكان وكانت الاتهامات تكال لى من هنا وهناك . وشعرت بنفسى أقف وحدى وسط جو من الزعازع والأعاصير ولم يكن لى سند أو معين الا من ايمانى بالله وثقتى بأنى أسير فى طريق الحق . كان الله هو ملجئى الأول والأخير ، كان هو مفزعى الذى أتضرع اليه بالليل والنهار ... كانوا يلقون بى الى السجن فى حجرة مظلمة ضيقة فأشعر بضعفى وقوة خصومى وأنوء تحت عبء المسئولية التى أخذتها على عاتقى ولكنى لا ألبث بعد قليل أن أفزع الى الصلاة فأسجد لله وأطيل السجود فلا أكاد أتم الصلوات حتى أشعر بروحى وقد تجددت .. وثقتى بنفسى وقد عادت الى وقواى وقد نشطت وغمرنى الاحساس اننى لست وحيدا ، فهناك هذه القوة العالية المسيطرة على كل شىء ترانى وتسمعنى ولن تتخلى عنى . وبهذا الايمان كانت قضبان السجن تلين ثم تذوب ولا ألبث أن أسترد حريتى . وبهذا الايمان خرجت منصورا فائزا من كل القضايا والمكائد والفخاخ والشباك التى حيكت لى وبهذا الايمان توجهت صوب بيت الله الحرام للمرة الأولى لأستمد العون والمدد .

لم يكن معى كبير مال بل لقد حصلت على تذكرة السفر كمنحة من شركة مصر للملاحة البحرية بمعونة طلعت حرب باشا وكانت كل ثروتى

ابان الحج لاتزيد عن ثلاثة جنيهات ذهبية هي كل ما كنت (أحتكم عليه) ، ولم يكن هناك أحد يدرك هذا السر سوى ربى الذى خلقنى فقد كان من العبث أن تخطر أحدا بهذه الحقيقة فقد يتصورك مجنونا أو معتوها أو أنك ستذهب الى الحجاز متسولا شحاذا فكتمت سرى فى نفسى ويممت صوب الحجاز ورأسمالى الحقيقى هو ايمانى بأن ربى لن يتركنى أجوع ولن يفضحنى أو يغض من قدرى • سوف يرعانى وسوف يكلؤنى • وسوف يهيىء لى من أسباب الاحترام ما هو جدير بعبد من عبيده المجاهدين الصادقين •

كنت أمتحن نفسى وأمتحن دعوتى وأمتحن مكانى من رضا الله وتوفيقه وناشدت ربى أن يهدينى سواء السبيل وأن يرشدنى الى طريق الصواب والخطأ • قلت فى نفسى ياربى وأنت سيدى الوحيد وأملى وملجئى اذا كنت تعرف أننى على الحق واذا كنت تعرف أننى صادق فيما أقول وأدعى من أننى أعمل لانقاذ البلد ونصرة العرب والمسلمين والمنكوبين فاللهم خذ بناصرى واجعلنى أرى آياتك وأشعر برضائك • وان كنت تعرف أننى ضال مضل • ان كنت تعرف أننى مخادع منافق • اذا كنت تعرف أننى طالب مأرب شخصى أو ذاتى فاللهم سد المسالك فى وجهى واللهم افضحنى ولا تسترنى فاننى أريد أن أعرف أى الطريقين أسلك وأى الطريقين قد فرض على •

ولقد تجلت آيات الله كأسطع ما تتجلى الآيات ووجدت نفسى محوطا بالكرامة والاحترام منذ اللحظة التى وطأت قدماى عتبة الباخرة ووجدتنى أحلق وأطير فى سماء من السعادة والغبطة الروحية وما أظن أننى صادفت فى حياتى قبل هذه الحجة أو بعدها ما يدانيها من الفتوح الروحية • ولقد مضى على هذه الحجة الأولى أربعة عشر عاما كاملة ولقد وقعت فى هذه الأعوام الأربعة عشر أحداث وأحداث وعدت الى بيت الله الحرام أكثر من مرة فى هذه الفترة • ولقد وقفت فى كل مرة سلكت فيها هذا السبيل ولقد أحدثت دويا بخطبى وجولاتى ومقابلاتى فى هذه البقاع المقدسة ، ولكنها كانت دون حجتى الأولى التى ذهبت اليها فقيرا فردنى

الله غنيا وذهبت اليها ضعيفا فردنى الله قويا وذهبت اليها مترددا فردنى الله واثقا مطمئنا .

واليوم أتوجه للحجاز للمرة الرابعة فاذا بهذه الأربعة عشر عاما التى تفرقنى عن حجتى الأولى كأنها ما كانت وها أنذا أحس كأننى أحج للمرة الأولى وما أشبه الليلة بالبارحة ... وما أشبهنى بالفتى الصغير الذى كان منذ أربعة عشر عاما .

ما أشد شعورى بالحاجة الى نجدة روحية . والى مدد الهى . ما أشد شعورى بأننى أقف وحيدا وقد تألبت على عناصر الضعف والهزيمة والاضطهاد ... حقا لا توجد فى هذه الفترة سجون أو محاكمات . ولكن يخطىء من يتصور أن السجن والمحاكمة بالنسبة للمجاهد لون من ألوان الضيق والعذاب . انما السجن للمجاهد روح وريحان . انما السجن للمجاهد جنة عرضها السموات والأرض ... انما السجن للمجاهد أكبر أكسير يطهره وينعش روحه ويكسبه البراءة والنقاء ... وانما الاضطهاد أشد الاضطهاد أن ترى أنصارك حولك وهم كسالى لا يتحركون ... انما الاضطهاد أمر الاضطهاد أن ترى الأمة وقد شغلت كلها بالقرش تجرى خلف القرش . فلا ترى الا طالب وظيفة أو ساعيا لترقية أو عاقدا لصفقة . وقد طرح الناس وراء ظهورهم كل حديث عن المعنويات والقيم الروحية والمثل العليا .

انما الاضطهاد أشنع الاضطهاد أن يتخيل أصدقائى وأصحابى وأفراد جماعتى أننى صرت صاحب شأن فى هذه الدولة فينهالون على بمطالبهم . هذا يريدنى أن أعينه فى وظيفة . وهذا يريدنى أن ألحقه بمدرسة . وهذا يريدنى أن أنقله من بلد الى بلد . وهذا يريدنى أن أترافع له فى قضية . وهذا يريدنى أن أصفى منازعاته التجارية ... الخ ...

هذا هو جحيم المجاهد ... وهذه هى ناره ... وهذا هو الذى أتلظى به هذه الأيام — خمول وكسل ... وتقاعد واشتغال بالسفاسف من الأمور ونسيان لروح التضحية والجهاد والمثل الأعلى الذى نكافح للوصول اليه .

من هذا الجحيم أردت أن أهرب ومن هذا السعير دعوت الله أن ينقذنى فعسى أن يستجيب ... وأن تكون حجتى المقبلة طهارة لى من هذا الدنس وتنقية لى من هذا العبث .

وان ربى وحده هو الذى يعلم ماذا يخالج نفسى . وما هى طبيعة مشاعرى فاننى أتوجه الى الحج وكل رغبتى أن أفنى فى هذا الوجود . كل رغبتى أن أنسى كل شىء . وأن أدوس على كل الاعتبارات المادية . وأن أسير فلا يعرفنى أحد . وأن أنام فلا يعبأ بى انسان .

وربى وحده هو الذى يعلم مقدار حاجتى الى عونه ومدده ... ولست بمستطيع أن أمضى فى الكتابة أكثر من ذلك . أو كشف الستار عن خواطرى بأكثر من ذلك . والا خرجت المسألة عن أن تكون ضراعة الى الله . وتحولت الى لون من ألوان البيان أو البلاغة أو الفصاحة فليكن موعدنا بعد العودة اذا كانت العودة من حظنا ونصيبنا ...

والى اللقاء يا أحبائى ويا أعزائى ... أسأل الله أن يغمر قلوبكم بالايمان والثقة . وأن يكملكم بالفضائل والخلق الرفيع . وأن يتم عليكم نعمته بالطمأنينة والسعادة الروحية ... » .

— ٢ —

باريس أو مكة

ولكى تكون الصورة، صورة حالتى النفسية قبل سفرى الى الحجاز، كاملة . لابد أن أشير الى أنه كان من الممكن أن تكون رحلتى الى باريس بدلا من مكة . ولكن شاء الله أن يختار لى الحسنى وأن يصرف عنى السوء وأن يتم نعمته علىّ فكانت العراقيل فى طريق سفرى الى باريس وكان التيسير فى طريق سفرى الى حج بيت الله الحرام .

أما قصة السفر الى باريس فقد نشأت بسبب انعقاد دورة هيئة الأمم بها وشعور الناس والرأى العام بالحاجة الى الدعاية لقضية فلسطين ،

ولتحريك القضية المصرية واخراجها من دائرة الركود والخمود الذى سيطر عليها •

كفرت بالدعاية

ولقد كفرت بالدعاية لحل قضيتنا أو قضية فلسطين بعد أن سافرت الى أمريكا ورأيت انشغال الناس بأنفسهم الى الدرجة التى تجعل من العبث أن يأمل الانسان فى تحريك الشعب الأمريكى لمصلحة مصر والشرق العربى ، خاصة وأن اليهود يسيطرون على وسائل الدعاية الثلاث وأعنى بها الصحافة والسينما والاذاعة فأصبحت الدعوة لمصر أو البلاد العربية من الناحية السياسية أشبه بالمستحيلات • فاذا نجح الداعى فى ابلاغ صوته الى الرأى العام ، لم يجد من هذا الرأى العام الا اعراضا وازورارا ،

عبادة الدولار

فليس للناس هناك من شاغل يشغلهم سوى الدولار وعبادة الدولار وقد تستطيع أن تحصل على اهتمام الأمريكيين اذا حدثتهم عن انشاء صناعة جديدة فى مصر أو استغلال مورد من الموارد أما أن تحدثهم عن حق مصر أو فلسطين فى الحياة أو الحرية أو أن تحدثهم عن العدالة أو الانسانية فهنا لن تجد الا آذانا صماء وبسمات باهتة ليست سوى ترجمة لما يشعرون به من الازدراء لهذه النغمة •

ان أمريكا والشعب الأمريكى كأى دولة أخرى من دول الغرب لا تعرف سوى مصالحها ولا تسعى الا وراء تحقيق أطماعها • وقد بدأت هذه الأطماع تأخذ لونا استعماريا ذا منظر يختلف عن منظر الاستعمار القديم ولكنه يهدف الى نفس الغاية وذات الموضوع •

كفرت بالدعاية فى أمريكا وفى هيئة الأمم وآمنت بأننا لن نلقى من هذه الدول الغربية سوى الشر تلو الشر والويلات تعقبها الويلات • وانه لا عاصم لنا من هذه الأخطار المحدقة بنا ولا ملجأ أو مفزع لحل قضايانا الا فى سواعدنا ودمائنا وما نبذل من جهد وعمل متصل بالليل والنهار •

آمنت فوق ايمان أنه لا مستقبل لنا الا اذا تعلمنا بالدرجة التى تجعلنا نسابق القوم فى علومهم • والا اذا أتتجنا فى الصناعة مثل انتاجهم ،

والا اذا تذرعنا بالوسائل المادية والعسكرية فى الدفاع عن أنفسنا مثل مايفعلون أو أكثر . فاذا فعلنا ذلك حق لنا أن ننتصر عليهم لأننا نتفوق عليهم بقوتنا الروحية ونتفوق عليهم بهذا الايمان العميق بخالق الكون وهو ما يجعلنا نؤمن بالعدل بفطرتنا ونؤمن بالحق ونقدس الأخلاق ونرى فى الدنيا سبيلا للحصول على رضاء الله ورضوانه . هذا هو ما نتفوق فيه على الغربيين أمريكان كانوا أو أوربيين وهو سلاح النصر الذى نكتنزه ونخفيه للساعة المناسبة . ولكن لا جدوى من هذا السلاح الا بعد اصطناع الأسلحة الأخرى أسلحة العلم والانتاج الصناعى والقوة العسكرية فلا سبيل لظهور الروح الا من خلال المادة ولولا هذا الوعاء المادى من الطين لما كان الانسان انسانا . ولما استطاعت الروح أن تجد هذا المسرح الذى تقوم عليه بدور الحياة .

سبيلنا الى النهضة

عبث ، اذن ، ماتحته طائل هذا الاهتمام بهيئة الأمم المتحدة أو بمجلس الامن . عبث بل وغفلة وسفاهة أن يظل ساستنا مخدوعين بهذه المؤسسات التى لا يفيد منها الا الأقوياء والتى يتخذونها سبيلا لتحقيق مآربهم من الأمم الصغيرة والضعيفة . وميدانا للدعاية يهيئون فيه الأذهان لحربهم المقبلة بينهم وبين بعض .

وانه لاجرام ما بعده اجرام أن يخدع رجال السياسة العرب شعوبهم بايهامهم بأنهم سينالون بعض حقهم من خلال الخطب البليغة التى تلقى فى هذه المجالس . ان هذه المناورات تفعل فى الشعوب العربية فعل المخدر . انها تشعرهم أنهم يفعلون شيئا أو أنهم يجاهدون مع أنهم يضيعون وقتهم عبثا وجهودهم سدى بينما لا يضيع خصومهم ساعة واحدة لا يعملون فيها عملا ايجابيا .

مسئولية ساسة العرب

ومن هنا فقد كفرت بالدعاية فى بلاد الغرب ويئست أن يكون من وراء ذلك أى جدوى فلم يدر بخلدى أن أسافر الى باريس ابان انعقاد هيئة الأمم . ولكننى ما ارتدت مجلسا من المجالس الا وبادرنى القوم بالسؤال : هل ستذهب الى باريس ؟ فكنت أجيب بالنفى فيبدى

الجميع أسفهم لحرمان القضية من مساعدتى ويسألوننى عن سبب امتناعى عن السفر فأشرح لهم وجهة نظرى فيقتنع بها البعض ويأبى أن يقتنع البعض الآخر فيظل يلح علىّ فى ضرورة السفر • ولقد تكرر ذلك أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة حتى بدأ يقينى يتزعزع وبدأت أسائل نفسى ولماذا لا أسافر الى باريس على أن لا يكون حديثى للقوم استجداء أو توسلا بل أنذارا وأعذارا ••• رحت أسائل نفسى ولماذا لا أسافر الى باريس متحديا ، أصب جام اللعنات على القوم ••• لماذا لا يكون حديثى معهم انهم سيدفعون ثمن هذا الحيف والظلم الذى يوقعونه بمصر والعرب وأن الحرب لن تلبث أن تندلع نيرانها فلا تبقى عليهم ولا تذر ، جزاء بما كسبت أيديهم • وعند هذا المعنى معنى التحدى والانذار بما سيحل عليهم من غضب الرحمن بدأت نفسى تطمئن الى السفر على أن تكون هذه هى رسالتى •

السفر للانذار والاعذار

وعندما صح عزمى على هذا القرار لم أخبر به أحدا من اخوانى حتى أنظر ماذا يكون من ناحية الاجراءات وأسرعت الى ادارة الجوازات أجدد جواز سفرى فقد كانت مدته قد انصرمت • ثم تقدمت بطلب الإذن لى بالسفر الى الخارج ولما كانت هذه الطلبات تعرض على دولة رئيس الحكومة المصرية شخصيا فقد كتبت فى الخانة المخصصة لتبيان أسباب السفر « الدعاية لقضية وادى النيل وقضية فلسطين » ولقد قدرت فى نفسى أن ذكر هذا السبب قد يحمل رئيس الحكومة على عدم الموافقة على التصريح بالسفر لسبب أو لآخر ولكننى أبلغت أن رئيس الحكومة قد وافق على سفرى وان الوزارة قد أشرت على جواز سفرى بالموافقة •

التجهز للسفر لباريس

وقد كانت هـذه الموافقة بمثابة نصف الطريق الى باريس فلم يبق الا أن أحصل على تأشيرة من القنصلية الفرنسية لكى أحزم حقائبى فى اليوم التالى الى باريس •

وذهبت الى القنصلية الفرنسية وكان العهد بها أن تفرح بسفر أى مصرى الى فرنسا فكانت تمنح الاجازة لدى كل طلب وبأيسر سبيل •

فما راعنى الا أنهم أعطونى خمس استمارات كى أملأها وطلبوا منى أن أشترى خمس خطابات دولية من أحد مكاتب البريد وأن أحضر ذلك كله للقنصلية ثم أنتظر شهرا من الزمان ريثما تأتى الموافقة من باريس بالسفر • ولم يكد القوم يقولون لى ذلك حتى امتلأت نفسى بالاشمئزاز وشعرت بأن الرحلة الى فرنسا أهون من أن تستحق كل هذا النصب والعناء •

عدولى عن السفر الى فرنسا

وكنت متأكدا أننى أستطيع أن أعرفهم بشخصيتى أو أن ألجأ الى المفوضية فتختزل هذه الاجراءات وأحصل على التصريح للسفر بدون عناء ولكن الشعور بالكراهية لفرنسا ولهيئة الأمم سرعان ما عاودنى وملأ علىّ نفسى فقررت أن أعدل عن الرحلة ورميت بالأوراق التى سلمت الىّ فى أحد أدراج مكتبى وحاولت أن أصرف النظر نهائيا عن هذا المشروع •

دعوة كريمة الى الحج

وذهبت الى المفوضية الحجازية فى عمل بخصوص بعض الحجاج من أقربائى فاذا بهم يفاجئوننى بأنه قد وردت على المفوضية تعليمات تقضى بدعوتى ورفيق لى لحج بيت الله الحرام[1] ولقد كانت مفاجأة من أسر المفاجآت التى صادفتها فى حياتى • تبارك الله ما أعظم آلاءه وما أكمل نعمته علىّ لقد علم ما يخالج نفسى من مقت للعالم الغربى فأراد أن يثبت عقيدتى ويضاعف ايمانى بهذه الدعوة لبيت الله الحرام فقد تحولت الرحلة بذلك من الغرب الى الشرق وتحولت من رحلة سياسية الى رحلة عبادة تزكو فيها الروح وتتطهر فيها النفس • وتحولت من رحلة تظاهر ودعاية الى رحلة جد وحقيقة •••

وطربت نفسى لهذا التحول الخطير وأشرق قلبى بنور الأمل والتفاؤل من جديد بعد أن كانت موجة من الشك توشك أن تطغى على

(١) وردت هذه الدعوة الى المفوضية السعودية من معالى الوزير الكبير الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية بناء على اقتراح وكيله فى مصر صديقى الأستاذ ابراهيم الشورى فاستحق بذلك شكرى وتقديرى •

نفسى . ولعل هذه المقالة التى صدرت بها هذا الكتاب والتى نشرت فى مصر الفتاة تعكس هـذا التشاؤم وهذا الشك أما وقد جاءت هذه الدعوة الكريمة التى اعتبرتها بمثابة دعوة من الله جل جلاله فقد زال التشاؤم ومحق اليأس وانتعشت الروح . كيف لا وأنا ذاهب الى مبعث النور والى مهبط الوحى والى قطب الرحى وقبلة العالمين مكة المكرمة والمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

— ٣ —

« إشـــفاق »

تحدد اليوم السابع من أكتوبر للسفر الى جدة بالطائرة ومذ تحدد ذلك اليوم وقد بدأت بعض الأفكار والهواجس تعتلج فى نفسى ماذا عسى أن يكون موقفى فى البلاد السعودية ؟ .

لقد ذهبت أول ما ذهبت منذ أربعة عشر عاما فلقيت من الحفاوة والاكرام ما أطلق لسانى بالمدح والثناء على جلالة الملك ابن السعود ورجال حكومته فردا فردا . بل اننى بعد أن عرفت من أمر ذلك الرجل الفذ ما عرفت أصبحت أهيم به كما يهيم الناس بالأبطال ولقد كتبت عنه فى مصر الفتاة صفحات توشك أن تتقد من الحرارة ؛ حرارة الحب والاعجاب . فهذا رجل شيد ملكه بذراعه وسيفه منذ استرد الرياض بأربعين رجلا لا يزيدون ، وياله من ملك لم يسبقه اليه انسان فى كل تاريخ الجزيرة الا سيد الخلق وخلفاؤه الراشدون .

(اعجابى بابن السعود)

فالبدو الذين يؤلفون الجزء الأكبر من سكان الجزيرة قوم شديدو الأنفة والكبرياء . جامحو النفوس لا يرضون بحاكم أو سلطان . قوم حياتهم على السطو والغزو والنهب والسلب يرون ذلك من مقومات حياتهم وميدان التفاخر والتسامى . ولذلك فقد كانوا طوال القرون الخاليات بل واللاحقـات فى حروب دائمة مستمرة . يغيرون ويكرون ويفرون

(طبيعة البدو فى الجاهلية)

ويتباهون بما قتلوا وبما سبوا وبما غنموا . ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون بالأحساب والأنساب ويكرمون الضيف. وهذه هى كل حياتهم : فيها نقط بيضاء مشرقة ولكن أغلبها سواد وظلام وحلكة . ولقد استطاع الاسلام بسطوته الروحية والمادية يوما من الأيام أن يؤلف بين هذه القلوب المتنافرة وأن يوحد بينها وأن يوجهها كلها فى سبيل الخير والرشاد . فكان ذلك من أعظم المنن التى امتن بها الله على المسلمين فيقول لهم « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

معجزة الاسلام فى توحيد العرب

وقد كان هذا التأليف بين العرب معجزة المعجزات ولذلك ترتبت عليه آثار جسام فى تاريخ البشر كله . فهؤلاء الأعراب المتباغضون المتحاسدون الذين أذاقوا بعضهم بأس بعض وأفنوا أنفسهم حربا وتقتيلا ، سرعان ما أصبحوا كالسيل الدافق ، والنور المشرق الذى أضاء على الدنيا كلها وروى النفوس الظامئة عندما توحد سبيلهم وتركوا الخلاف بينهم .

على أن هذه الوحدة التى تمت على أيدى الرسول الكريم لم تكن الا وحدة مؤقتة فما هو الا أن ذهب الى الرفيق الأعلى، حتى انتكست شبه الجزيرة ثانية وأرادت أن تعود الى غيها القديم والى فرقتها والى فتنتها . ولولا أن قيض الله للاسلام أبا بكر ، لأصبح أثرا بعد عين ولخبا هذا الضوء وذهبت هذه النعمة . وياله من ثمن باهظ ذلك الذى دفعه أبو بكر للابقاء على الوحدة ولقمع رأس الفتنة . فكم من الأبطال استشهدوا ، وكم من الدماء أريقت ، وكم من الأموال خربت ، حتى عاد السلام واستتب الأمن مرة أخرى . وكان يمكن أن تقوم الفتنة من جديد لولا أن أبا بكر كان من الحذق والعبقرية بحيث ساق هذه الجموع لحرب الروم والفرس معا فاستغل بذلك غريزتهم فى حب القتال وقدرتهم عليه أحسن استغلال بأعلاء راية الدين ونشر رسالة التوحيد .

عودة العرب الى الفتنة

وما هو الا أن انتهى عهد الفتوحات ، حتى عاد البدو فى صحراء العرب ، والذين انتشروا فى مختلف الأمصار ، الى سابق عهدهم فأوضعوا السيف بين صفوفهم • والمتصفح لتاريخ الدول العربية والاسلام بقدر ما تروعه هذه النهضة الجبارة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، بقدر ما يحس بالألم والكمد لبعض صفحات فى هذا التاريخ يقف أمامها حائرا مشدوها لا يكاد يصدق ما يطالع من هول ما يقرأ ويتمنى لو استطاع أن ينتزع هـذه الصفحات من سجل التاريخ ليمزقهـا ويحرقها حرقا فلا تكون • ولكنها هناك وا أسفاه شاهدة بأن جرثومة الجراثيم الفتاكة فى بنية العرب ، هى استعدادهم السريع للعودة للعصبية القبلية ونسيان كل شىء ما عداها وتضحيتهم بكل شىء من أجل الأخذ بثأر شخصى أو اشفاء القلب من غل وحقد قديمين •

صفحات مؤلمة

فلا عجب أن كانت شبه جزيرة العرب دائما أبدا موطن فتن مستمرة واضطرابات لاتنتهى • ويحدثنا التاريخ الحديث ، تاريخ القرن التاسع عشر وهو التاريخ الذى وصل الينا بالتفصيل عن الحالة فى شبه جزيرة العرب أحاديثا يشيب لهولها الولدان مما كان يتعرض له حجاج بيت الله الحرام من نهب وسلب وذبح وتقتيل • يحدثنا تاريخ الجبرتى كيف كان الحج الى بيت الله الحرام أشبه بغزوة من الغزوات يتجهز لها بالسلاح والعتاد ويعتبر الحاج مفقودا حتى يعود فيكون مولودا من جديد • ولقد حدثنا فيما حدث كيف أن الحجاج فى كثير من السنوات كانوا يبادون عن بكرة أبيهم • وكيف أن سنوات متوالية كانت تنقضى بدون أن يحج الناس خوفا على أنفسهم من الموت • وياله من حج سعيد ذلك الذى لا يقتل منه الا بنسبة خمسة فى المائة أو أقل أو أكثر قليلا •

مخاطر الحج فى القرنين الثامن والتاسع عشر

أما ما سمعناه من أمهاتنا وجداتنا عما كان يلحق بالحجاج فصورة طبق الأصل مما يحدثنا عنه الجبرتى ولقد فتحنا أعيننا فوجدنا الحكومة المصرية تبعث مع الحجاج جيشا كامل العدد والعدة وذلك لتأمين الحجاج وضمـانة سلامتهم •

ويحدثنا المغفور له اللواء ابراهيم رفعت باشا الذى كان أميرا للحج فى سنوات ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ فى كتابه الرائع « مرآة الحرمين » عن تجاربه الشخصية فى هذا الموضوع فيرسم لنا صورا تفتت الأكباد ويندى لها الجبين ، أن يقع ذلك فى البلد الحرام فى الشهر الحرام بين المسلمين . من ذلك ما حدث من قتل أعرابى لأحد الحجاج لسلب أمواله ، فلم يجد معه سوى ريال واحد ، فقيل له قتلت حاجا من أجل ريال ! ؟ فأجابهم « الريال أحسن منه » .

ابن السعود يؤمن الجزيرة

وجاء ابن السعود الى الحجاز وهيمن على شبه الجزيرة فانتشر الأمن ومد رواقه فى كل مكان وانقضى اليوم خمس وعشرون سنة كاملة لم يقع فيها حادث واحد اعتدى فيه على حياة حاج أو على ماله ... خمس وعشرون سنة كاملة يذهب الناس الى مكة من الشرق والغرب رجالا وركبانا ، أقوياء وضعفاء ، أغنياء وفقراء ، يسيرون بالليل والنهار أفرادا وجماعات فى ربوع صحراء بلقع موحش ، فما اعتدى على واحد منهم وما ضاع لواحد منهم شىء لم يرد له ، وما سرق واحد منهم غصبا أو باكراه مسلح أبدا . وانى لأقرر وأنا مطمئن ، أقرر بروح الناقد الذى لا يسف فى حكمه ولا يشتط فى رأيه أن ليس لهذه الحالة مثيل آخر فى أى بقعة من بقاع الدنيا .

وليس ذلك الا من عمل ابن السعود وليست هذه الا هيبة ابن السعود التى ملأت السهل والجبل أمنا وعدلا وسلاما .

تجنيب الجزيرة ويلات الحرب

واستطاع ابن السعود كملك مستقل أن يجنب بلاده فى حربين عالميتين كبيرتين مغبة الاشتراك فيهما أو الانحياز لهذا الجانب أو ذاك . وكم لوح له الألمان والطليان وكم وعدوه وأغروه والظواهر تدل أنهم سيجتاحون العالم اجتياحا ، ولكن الرجل استطاع بلباقة أن يأمن جانب القوم دون أن يندفع معهم . وكذلك فعل مع الجانب الآخر وأعنى به جانب الحلفاء فما استطاع الانجليز أن يحملوه على الانحياز الى جانبهم . فظلت علاقته السياسية قائمة مع رجال المحور حتى آخر دقيقة وحتى

قاربت الحرب الزوال بفشل دول المحور فشلا ذريعا . هنا وهنا فقط ، وعندما أصبحت الكلمة للسياسة لا للحرب، انحاز ابن السعود للحلفاء فى الساعة الأخيرة كى يضمن حقوقه ويضمن استقلاله . ذلك هو ابن السعود . أما كرمه فشىء لا يستطيع الكاتب أن يتحدث عنه لئلا يتهم بأنه قد لج فى باب الخرافات والخزعبلات . وغاية ما أستطيع قوله أنه رجل لا يرفض طلبا يقدم اليه وانه ليس على الانسان كائنا من كان الا أن يصل اليه فاذا وصل اليه فقد كفى حاجته مهما كانت ومهما عظمت .

واذا تحدثت عن الكرم واجابة المطالب فلست أعنى بها ناحية المال وحده بل وناحية العفو والصفح فابن السعود لا يقتل عدوا يطلب منه أن يبقى عليه حتى ولو كان هذا العدو قد فعل به الأفاعيل ونكل وقتل . كم من الثوار والبغاة تحدوا ابن السعود فأظفره الله عليهم فعفا عنهم ووصلهم وأسبغ عليهم من النعم ما يعد فى حسابنا وتقديرنا من الاسراف . ثم عادوا للانتقاض عليه والتمرد فيظفر بهم ثانية فيطلبون الصفح فيمنحه ويكرر معهم منحه السابقة . ولقد فعل ذلك ابن السعود مع أشخاص معروفين مرة وثانية وثالثة حتى أراحه الله منهم بالموت الطبيعى .

قدرة ابن السعود الخارقة على الصفح

وحسبى الآن هذا القدر من التحدث عن شخصية ابن السعود لئلا نخرج عن طبيعة موضوعنا . وقد دفعنى الى هذا الاستطراد ما قدمته من أننى أعجبت بابن السعود الى الحد الذى جعل حديثى عنه يتهم ، خاصة بعد أن عرف الخاص والعام أنه يشملنى دائما بعطفه ورعايته ويحبونى بكرمه وبره . فلما أن دعيت للحج هذا العام داخلنى الاشفاق من هذه الحالة فقد انقضت لى ثمانى سنوات لم أزر فيها البلاد المقدسة وفى هذه الثمانى سنوات تكونت لى آراء غير الآراء ورسمت برنامجا لنهضة العرب والمسلمين قد لا ينسجم مع حالة المملكة العربية السعودية . فماذا عساى فاعل فى هذه الحالة وماذا عساى أقول . أنا رجل لا يستطيع أن يرى النقص فيسكت عنه ، ولا يستطيع أن يغضى عن قولة الحق فكيف أستطيع أن أوفق بين حبى لشخصية ابن السعود واجلالى له ، وبين عدم رضائى عن حالة هذا القسم من البلاد العربية . فما عدت أطيق أن أرى مسلمين

خوف من التورط

يتصورون أنهم سينتصرون بالدعوات والصلوات ما عدت أطيق رؤية
سوء حالة المجتمع الاسلامى مسلمين ينظرون الى العلم كأنه رجس من عمل الشيطان • وينظرون الى المدنية والحضارة كأنها زخرف ممقوت ينبغى على المسلم أن يحاربها وأن يستعيذ منها كما يتعوذ من الشيطان • لم أعد أطيق رؤية أقوام يقدسون الجهل ويظنونه دينا ، ويقدسون الفقر ويظنونه زهدا وورعا ويقدسون الضعف والمسكنة والذل ويتصورونه عبادة وتبتيلا •

وما عدت أطيق رؤية مجتمعات اسلامية تقف جامدة والعالم من حولها يسير • ومجتمعات تحكم بنظام العصور الوسطى وبعقلية القرون الوسطى حيث لا حكومة ولا نظام ولا قانون أو شرائع وانما رجل فرد يحكم اقطاعية ويحكم الناس كقطيع من العبيد •

بأى لسان أستطيع أن أحادث ابن السعود وأن أثنى عليه اذا لم أر البلاد تغص بالمدارس • بأى لسان أستطيع أن أتحدث معه اذا لم أر روح الاصـلاح والنهضة قد دبت الى كل مكان ••• الحق أن الحرج
فلنأخذ بسياسة الصمت بدأ يدب الى نفسى وداخلنى الاشفاق من دقة الموقف فرسمت لنفسى منهاجا أخرج به من هذا الحرج وهو أن أحدد الغاية من رحلتى وانها بقصد الحج الى بيت الله الحرام ولا زيادة • فهى ليست رحلة للسياسة ولا هى رحلة للدعاية ولا هى للظهور ولكنها رحلة خالصة من أجل الله • وجعلت من هذه الغاية ستارا أستتر به فلا كلام ولا حديث ولا تعليق ولا قيل أو قال وانما توجه الى الله بالعبادة والدعاء •

ولقد كان ذلك يخالف برنامجى فى البلاد المقدسة الذى ألفته وألفوه منى فقد كنت أخطب فى حضرة الملك ، وأخطب فى حضرة الأمراء وأخطب فى جموع الحجاج وأتحدث وأدعو بالليل والنهار ، ايمانا منى أن هذه احدى حكم الحج وسننه • ولذلك فان خطتى الجديدة وأعنى بها التزام الصمت ستلفت الأنظار الىّ • ولكننى صممت عليها لأنجو من الحرج الذى شرحتـه سابقا واطمأنت نفسى الى هذا الوضع وأعددت العدة وتوكلت على الله قاصدا وجه الله ولا شىء الا وجهه •

— ٤ —

« القيـام »

وكان رفيقى فى السفر هو أخى الأستاذ محمد حلمى الغندور والسيدة المحترمة والدة زوجتى ولما كانت الطائرة لاتكاد تغادر القاهرة حتى تصل بنا الى جدة فقد أخبرت الأستاذ الغندور أننا سنحرم من بيوتنا ونركب الطائرة محرمين ملبين • وأشهد أن ليس هناك ما هو أروع فى مناسك الحج من الاحرام حيث ينسلخ الانسان من ملابسه وأثوابه وعما ألفه من زينة واعتاده من أساليب للمحافظة على صحته مكتفيا بقطعتين من القماش احداهما يتزر بها والثانية يرتديها ولا شىء غير ذلك ولا شىء أكثر من ذلك الا أن يكون نعلا من الجلد فى قدمه •

الاحرام أروع مناسك الحج

ما أجمل أن يشعر الانسان أنه يفنى ويتجرد من كل شىء من أجل ربه وخالقه • ما أجمل أن ينسى الانسان الاشتغال بكل شىء الا عبادة ربه وتلبية ندائه ! ما أجمل أن يتصل الانسان بخالقه وهو ينزل عن كل ما اعتاده وألفه فيخلع أثواب الحرير ، ان كان ممن يلبسون الحرير ويضع عن نفسه الذهب والجواهر واليواقيت ان كان من أرباب التيجان واليسار ! ما أجمل أن ينزل عن كل شىء مرضاة لربه ثم ينطلق هاتفا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك • أى والله وصدق الله ورسوله فالحمد لله والنعمة والملك لله الذى لا شريك له •

لبيك اللهم لبيك

أى انتعاش يحس به الانسان بعد أن يحرم وخاصة عندما يحرم قلبه مثل ما يحرم جسده[1] • وأعنى باحرام القلب أن يكف عن كل

---

(١) يحرم على المحرم لبس المخيط من الثياب ، وتغطية الرأس ، وازالة الشعر ، وتقليم الاظافر • ومس الطيب فى البدن أو الثوب ، وصيد الحيوان أو قتله أو ازعاجه ، وقطع شجر الحرم ، فان فعل شيئا من ذلك متعمدا أو ناسيا فعليه الفدية (ذبح شاة) ويحرم على المحرم بالأكثر مقاربة النساء فمن فعل فقد فسد حجه •

ما يشغله عن عبـادة ربه ، وأن ينسى العواطف البشرية فلا يعود هناك مجال للبغض أو الكره أو الحسد أو الجشع أو الطمع أو الثـأر أو الانتقام ، وانما عاطفة واحدة قوية صادقة وهى التجرد الى الله والرغبة فى الحصول على رضوان الله •

احرام القلب

ولقد شاء الله أن يقع على حادث اعتداء قبيل سفرى مباشرة فكاد هذا الحادث أن يجعل حياتى جحيما لا يطاق ، حتى اذا دخلت الحمام فى فجر اليوم السابع من اكتوبر واغتسلت بنية الاحرام وارتديت هـذه الملابس البسيطة المتواضعة ، وخرجت من الحمام هاتفا : لبيك اللهم لبيك ، فاذا بالنار التى تشتعل فى قلبى ، برد وسلام ، واذا بى نسيت كل شىء ، واذا بالطمأنينة تغمر نفسى والرجاء والأمل يضيئان لى طريق الحياة •

وشاءت الظروف أن افترق عن الأستاذ حلمى الغندور فى المطـار فامتطى طائرة قامت فى الفجر المبكر وانتظرت قيام طائرة أخـرى لم تبرح مطار فاروق الا فى الظهر تماما أو بعد الظهر بقليل ولقد وجـدت غيرى من الركاب يتململون لذلك التأخير ويتضجرون بل ويسخطون ويثورون وهؤلاء لم يدركوا حقيقة روح الحج ، وان الانسان اذ خرج من بيته قاصدا حج بيت الله الحرام فقد بدأ رحلته ووقع أجره على الله • فما عليهم أن يتأخروا أو أن ينتظروا • وما عليهم أن يحتملوا بعض المشاق التى لم يألفوها فحكمة الحج لا تتجلى أكثر من تجليها فى تجربة صبر الانسان واحتماله فى سبيل مرضاة الله •

قامت الطائرة فى نفس الوقت الذى قامت فيه طائرة ثانية سارتا جنبا الى جنب أى أن شركة الخطوط الجوية السعودية قد أطلقت فى هـذا اليوم ثلاث طائرات لنقل الحجاج ولقد كان هذا محل رضائى وابتهاجى • فاقبال المصريين على استعمال الطائرة الى هذا الحد ظاهرة تبشر بالخير لأن من تذوق ركوب الطائرة وهى تطوى البلاد والممالك والأقطـار فى ساعات قلائل لا يعود بعد ذلك قادرا على اضاعة الوقت أو الاستهانة

نجاح فكرة الحج بالطائرة

به . ولا يعود بعـد ذلك قادرا على الكسل أو الخمول وهو يرى أن ساعتين أو ثلاثا ينقلانه من مملكة الى مملكة ومن قارة الى قارة .

وفرحت لشركة الخطوط الجوية السعودية اذ استطاعت أن تلبى كل ما قدم لها من طلبات للسفر بالطائرة وأن تساير الضغط المستمر وأن تصل الى مستواه .

ورحت أفكر فى هذه الطفرة التى طفرتها البلاد العربية السعودية . فمنذ بضع سنوات فقط كان لايزال هناك فريق كبير من الحجاج يحجون على الجمل وكانت الحكومة المصرية تحصل الرسوم ممن يرغبون أن يحجوا بالجمـل وما أدراك ما الجمـل انه لحيوان نبيل وانه لملك الصحراء وسفينتها وسيدها بين الحيوانات من غير منازع ولكنه سيد فيه كبرياء لا يسير الا مختالا ولا يقطع الطريق الا فى أناة وما هو أبطأ من الأناة . ولقد يقطع فى الساعة أربعة كيلو مترات ولا يستطيع الراكب عليـه أن يصبر على ركوبه أكثر من ثلاث أو أربع ساعات فى مرحلة واحـدة وهكذا لا يقطع الحاج الطريق الا فى أسابيع وأسابيع وأشهر تتلوها أشهر .

من الجمل الى الطائرة

ولقد كان الجمل هو مركبة النقل الكبرى فى جزيرة العرب منذ أن خلق الله الدنيا حتى جاء الى جزيرة العرب ابن السعود فاذا به يدخل السيارة كى تنافس الجمل فكانت ضجة وكان تهديد بالويل والثبور بل كانت ثورات على ابن السعود الذى مرق من الدين وخرب البلاد ولقد سمعت بأذنى عندما حججت للمرة الأولى كيف كان اللغط يجرى فى كل مكان وعلى كل لسان : أن البلاد مقبلة على الخراب بدخول هذه السيارة اللعينة خليفة الشيطان .

ولكن السيارة ثبتت اقدامها فى الجزيرة حتى لقد قضت على الجمل نهائيا كوسيلة من وسائل المواصلات وقد كان هذا انقلابا خطيرا فى حياة الجزيرة وثورة اصلاحية ، ألا وهى تحويل شعب من حياة الجمل الى حياة السيارة .

أما أن يصل الأمر وتصل الطفرة من الجمل الى الطائرة فأحسب أن هذه مسألة لا تحتاج الى تعليق .

وانطلقت الطائرة فى الفضاء وكان الى جوارى والدتى أو بالأحرى والدة زوجتى التى أعزها كوالدتى وكانت هذه أول مرة تركب الطائرة وكانت تتهيب هذه الخطوة فلما استوت الطائرة وانطلقت مع الريح اذا بالروع يذهب عنها واذا بها جد مبتهجة واذا بها تسائلنى فى عجب ودهشة عن سر ما يشعر به أحد أقاربنا الأعزاء من التعب فى الطائرة مع انها مريحة الى أقصى حد .

والطيران فى هذا الجزء من العالم وأعنى به مصر ، وما يجاورها ، ويقع الى الجنوب منها ، هو احدى المتع النفسية والعلمية . اذ يرى الانسان الأرض وهى تطوى تحته طيا ، ويرى نفسه مشرفا عليها ومحلقا فوقها وكأنها خريطة كبيرة مجسدة . فهذا خليج السويس كما يرى فى الخريطة ، وهذه شبه جزيرة سيناء ، التى نراها فى الخريطة الصفراء ملساء فيخيل لنا أن لها من طبيعتها شبها بهذا المصور ، هاهى ذى شبه جزيرة سيناء كأنها غابة من الجبال والصخور وكأن وجه الأرض فى هذه المنطقة وجه عجوز طعن فى السن فتغضن وامتلأ بالنتوءات . وسرعان ما سرح فكرى فى هذا الجزء من ديارنا المصرية وكم يحوى من الكنوز والخيرات وذهبت فى سؤالى الى أبعد من ذلك ، ترى هل كانت خصوبة الأرض حول النيل نعمة على مصر أم نقمة ؟ حقا لقد أطعمت الناس من جوع وكستهم من عرى ولكنها ربطتهم الى الأرض فحالت بينهم وبين التجوال فى طلب الرزق واستخراج كنوز الأرض وثرواتها الأخرى . ولكن التاريخ لاح أمام ناظرى فاذا به يذكرنى ان القدماء لم يقصروا عن ارتياد كل شبر فى مصر وأن صحراء سيناء لم تكن شيئا مهجورا كما هى اليوم ولا تزال آثار الفراعنة الأقدمين تملأ صحراء سيناء بل وصحراء مصر كلها ، شاهدة على أن القوم بحثوا ونقبوا وسادوا العالم فى ذلك الزمان بعملهم فى مختلف الميادين فلم يكونوا زراعا فحسب بل كانوا صناعا ومعدّنين .

شبه جزيرة سينا

حضارة قدماء المصريين

ولم تكن مصر هذا الشريط الضيق من الأرض على جانبى النيل بل كانت هذا المليون كيلو مربع من الأرضين فليس العيب عيب النيل ولكنه عيب الخمول والتقاعس الذى آذن بالزوال ان شاء الله •

سوء حالة مطار المدينة

وما هو الا أيسر الوقت حتى كنا قد وصلنا الى المدينة أو بالأحرى الى مطار المدينة على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وياله من مطار ويا لسلامة الهبوط فيه والتحليق منه من آية الآيات •

عهدنا بالطائرات ذات أجهزة حساسة يؤذيها أن يتسرب اليها أى ذرة من تراب أو رمال وما أعظم الجهد الذى يبــذل فى صيانة الطائرات وما أكثر ما ينال الطائرة من عناية ورعاية ، فاذا جئت الى مطار المدينة فقد انعكس كل ذلك ، ورأيت منظرا عجيبا ينخلع له قلبك فى بادىء الأمر ، حتى تألف الأمر وتعتاده وتتبدد من نفسك هذه المعلومات المفرطة عن صيانة الطائرات •

هذا الكون الغامض

فهذا مطار لا يعدو أن يكون منبسطا فى الأرض بين الجبال.أما أرضه فليست معبدة بل مليئة بالحصى والرمال والفجوات • فاذا هبطت الطائرة اليه أو حلقت منه امتــلأ الجو بالعواصف والزوابع الرملية وخيل اليك أن الطائرة توشك أن يحدث لها حدث جلل لهذه القرقعة التى يحدثها اصطدام الحصى والرمال بجسم الطائرة وأجنحتها • ولكن الطائرات تمضى سليمة كأسلم طائرات العــالم ، فمنذ اليوم الذى أسست فيه هــذه المؤسسة فى ختام عام ١٩٤٥ ، ولم يقع لطائراتها حادث واحد كبر أو صغر مع أن أعظم شركات العالم دقة لا يكاد ينقضى عليها العام ، دون أن يقع لها حادث هنا أو هناك على فرط العناية بالطائرات والمطارات ، ومع تعدد الأجهزة وكثرة الرقباء والمفتشين والملاحين والمهندسين ••• أما هنــا حيث تهبط الطائرة وسط الجبال وفوق الحصى والرمال بدون رقبــاء أو بدون وسائط وبدون لاسلكى وبدون توجيه أو ارشاد فليس ثمــة خطر أو شبه خطر ، وليس لذلك من تفسير أو تعليل غير أن هذا الكون ينطوى على أسرار وراء المادة ووراء الطبيعــة وان كل ما يتصــوره

المتصـــورون من أنهم قد أحاطوا بالعـــلم كله وبالأسباب والمسببات هم جد واهمين فسر هذا الكون غامض ، غامض ، وما علمنا منه حتى الآن الا قليلا وأقل من القليل وصدق الله العظيم اذ يقول « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » •

وغنى عن البيان أن الحكومة السعودية لابد عاملة فى أقرب فرصة على اصلاح هذا المطار وأمثاله وجعله أكثر صلاحية وراحـــة للركاب. وللطائرة نفسها التى لا يمكن أن تدوم طويلا أو أن تحتمل طويلا هذا الطراز من الاستعمال كما كان الشأن فى السيارات حيث كان الحجاز يخسر فى كل عام مئات الألوف من الجنيهات ثمنا للسيارات التى تستهلك وتصبح غير صالحة للسير فى أقل من عامين أو ثلاثة على الأكثر وما ذلك الا لسوء حالة الطرقات • وأخشى ما نخشاه أن يكون ذلك هو مصير الطائرات فتستهلك الطائرة التى تساوى خمسين ألفا من الجنيهات بعد عام أو عامين فلا مناص والحالة هذه من اصلاح هذه المطارات صيانة للطائرات نفسها ولاشك أن هذه الملاحظة ليست بعيـــدة عن أذهان المسئولين فى حكومة الحجاز ولكنهم كانوا بين عاملين — اما أن يبدأوا استعمال الطيران فورا قبل أن ينشئوا المطارات الصالحة واما أن ينتظروا حتى يفرغوا من أنشائها • ففضلوا البدء بأى ثمن وحسنا فعلوا •

ضرورة اصلاح المطار

نحن اذن فى مطار المدينة المنورة ، وقد نزل بعض الحجاج ليبدأوا بالزيارة • وشعر القلب بلذعة الحرمان أن لانكون ممن يعرجون على المدينة فيبدأون بالسلام على رسول الله • والذين قدر لهم زيارة المدينة يعرفون أكثر من غيرهم مدى النسمات الروحية التى تنعش نفوسهم • وأشهد أن ماقيـــل من أن زيارة الرســـول فى قبره كزيارته فى حياته ، لأنه حى فى قبره ، أشـــهد أن هـــذا القول حق وصـــدق بل ان زيارته اليوم لتفعـــل فى النفس أشـــد من فعـــل الزيارة ابان حيـــاته • فلقد قرأنا فى القرآن وطالعنـــا فى الســـيرة أن أقواما كانوا يغلظون له أحيـــانا وآخرون يشتدون عليـــه • أما اليوم وبعد هـــذه القرون والدهور

فى حضرة الرسول

فمن الذى لايخشع بحضرة النبى ومن الذى لايمتلىء قلبه بجلال النبى وأنواره • أما فى حياة النبى فقد ظل أقوام فى مرية من نبوته ، وظل أقوام ينافقونه ويضمرون فى أنفسهم خلاف مايظهرون • وقد ظل أقوام ينكرون عليه حتى النفس الأخير أن يكون رسولا من رب العالمين • أما نحن اليوم وبعد انقضاء ألف وثلثمائة وثمانية وستين عاما من هجرته من قريته الى هذه المدينة هل نستطيع الا أن نقرر وأن نشهد أنه رسول من رب العالمين وأنه ما كان ينطق عن الهوى وانما هو وحى يوحى علمه شديد القوى • هل هناك شك أو ريب فى أن هذا العربى الذى خرج من قريته شريدا طريدا فأوى الى هذه القرية النائية وسط هذه الجبال والصحارى والتى قلما كان يسمع بها انسان فى خارج الجزيرة أو يحفل بها ، هل هناك شك أو ريب فى أن هذا العربى الذى عاش فى هذا الجو ، قد استطاع أن يقلب الدنيا رأسا على عقب وأن يجعل الأرض تشرق بنور ربها فكان ايمان وكان عدل وكان توحيد وكان سلام ••• هل هناك شك فى أن هذا العربى الأمى الذى عاداه قومه وأعنتوه بكل صنوف الاعنات والاضطهاد قد استطاع أن ينتصر بقوة خارقة لا على مواطنيه وأبناء جلدته بل على القياصرة والأكاسرة وأن يمد سلطان مبادئه وتعاليمه على ربوع العالمين • هل هناك شك أو ريب فى أن هذا العربى الأمى قد جاء بكتاب يتعبد به مئات الملايين من البشر على اختلاف الأجناس والقوميات والألوان وان هذا الكتاب لا يزال قائما لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ هل هناك شك فى أن التاريخ لم يعرف قبل محمد بن عبد الله ولابعده رجلا فذا فعل مثل مافعل وأثر فى الدنيا مثل ما أثر وأعتق العقل البشرى من رقة مثل ما أعتق ؟ ومن هنا كان وقوفنا اليوم بحضرته أشد رهبة من وقوف الذين وقفوا فى حياته والذين لم يروا ما رأينا ولم يسمعوا بما سمعنا ولم تفحمهم معجزة الدهر والخلود كما أفحمتنا •

الزمن يشهد برسالة محمد

ولقد وقفت فى حضرة الرسول من قبل ثلاث مرات فكنت أرانى

بمجرد أن أخطو عتبة باب السلام أو باب الرحمة أو أى باب من أبواب الحرم تثقل خطواتى فلا أستطيع أن أحركها بسرعة • واذا بى وقد امتلأت نفسى هيبة كأشد ماعرفت فى موقف من المواقف وفى ساعة من الساعات حتى اذا بلغت الموقف بين يدى رسول الله انعقد الكلام على لسانى فلم يعد هناك كلام وما هو الا أن أرى نفسى واقفا وقد ضاع من فكرى كل فكر أو ذكر وليس سوى قلبى وقد أصبح ثقيلا وثمة شىء كأنه الهواء يصب فيه صبا بغير انقطاع وأستيقظ بعد قليل فاذا الدموع تترقرق فى عينى واذا بى أنسحب فى تثاقل كما قدمت ولا أكاد أغادر المكان حتى أحس بخفة عجيبة وكأن جسدى يوشك أن يطير أو يثب هنا وهناك •

— ٥ —

« إلى مكة »

انطلقت سيارتنا تعدو صوب مكة فوق طريق معبـدة وما أعظم الانقلاب الذى أحدثه هذا التعبيد فقد كانت الرحلة الى مكة من جدة أمرا جللا وحادثا ذا شأن يهنأ الناس بعده على سلامة الوصول • أما اليوم فقد أصبحت الرحلة بمثابة نزهة خلوية ولقد يذهب بعض الناس ويجيئون من جدة الى مكة مرتين وثلاثا فى اليوم الواحد دون أن يشعروا بكلل أو ملل •

ذكريات رحلتى الأولى

ولقد رحت أستعيد ذكرياتى الأولى عن أول رحلة لى الى مكة •• كانت أقدامى تطأ للمرة الأولى أعتاب هذه الأراضى المقـدسة وكنت فى حالة لايمكن أن توصف الا « بالهيمان » لم أكن أصدق نفسى ، لم أكن أصدق حسى ، كان يخيل الى أننى فى حلم وكنت أصيح من الأعماق : هل صحيح أننى فى جزيرة العرب ؟ وهل أنا فى الطريق الى مكة ورؤية الكعبة ؟ أهذه الجبال هى ذات الجبال التى سار من بينها الرسول ؟ أهذه الرمال هى التى وطأتها اقدام الرسول أهذه النسمات هى التى استنشقها الرسول ؟ وهل نحن عما قريب سنبلغ مكة ونطوف بالكعبة ؟

يالها من فكرة وياله من حلم الحياة والروح . وترتفع عقائرنا بالروح كلها هاتفة لبيك اللهم لبيك . لبيك لاشريك لك لبيك . أن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

ويا لها من رحلة تزداد طولا كلما اقتربت نهايتها بازدياد الشوق فالانسان فيها يعد الساعات ثم لا يلبث أن يعد الدقائق ثم لا يلبث أن يعد الثوانى ثم يكتشف أن لايزال أمامه ساعات وساعات .. ان الطريق بين جدة ومكة لا يتجاوز الخمسة والسبعين من الكيلو مترات ولكنها فى ذلك الوقت كانت وسط الرمال الناعمة وكان القوم قريبى عهد بالسيارات فكانت السيارة تسير سيرا وئيدا ثم لا تلبث أن تغوص فى الرمال فينزل بعض الحجاج يرفعونها ويدفعونها (يدفونها) وقد تستغرق هذه العملية ساعة من الزمان فى بعض الأحيان . تستأنف السيارة السير بعدها ثم لاتلبث أن تتعطل لسوء حالة الماكينات وجهل السواقين بقيادتها ويعود الحجاج للتصايح « دف .. دف » أى (زق ... زق) .

الأجر على قدر المشقة

ولقد كانت كل هذه الصعوبات جزءا لايتجزأ من مناسك الحج . وكانت تزيد فى روحانيتنا وكانت تزيدنى قوة وشوقا وشغفا .. كانت تضفى على الرحلة جمالا وجلالا .. فان يشعر الانسان أنه ذاهب لملاقاة ربه ، أن يشعر الانسان أنه داخل مكة عما قريب وأنه يلاقى فى سبيل ذلك صعوبات ومشقات يحتملها بصدر رحب وثغر بسام . كل ذلك كان يزيد الموقف جمالا وجلالا .. ماكنت تسمع من يتضجر أو يتبرم .. ما كنت تسمع الا تهليلا وتكبيرا وتلبية فكل من جاء الى هذا المكان قد وطد نفسه على احتمال المشقات وهو يرى فيها لونا من ألوان التعبد والتقرب الى الله حتى يصبح الشعار الذى يتردد على لسان الجميع هو : « الأجر على قدر المشقة » .

مراحل الطريق

كان الطريق بين جدة ومكة مقسما الى عدة مراحل ، فى كل مرحلة تقوم

بعض المقاهى التى تقدم للحجاج الماء والشاهى (الشاى) وما يبتغون من طعام بقدر الامكان • وكان وصولنا الى أول هذه المحطات يشبه أن يكون عيدا من الأعياد فلا يكاد من بالسيارة يلمحون أنوار المحطة حتى يضجون بالتهليل والتكبير • ولا تكاد السيارة تدخل الى المحطة حتى يستقبلها ركاب السيارات المتقدمة بمثل تكبيرها أو أشد وفى اللحظة التى تصل فيها سيارة بركابها تكون سيارة أخرى قد أتمت راحتها واستأنفت السير نحو مكة وركابها يضجون بالبشرى والتهليل فننظر اليهم فى حسرة واغتباط ونعد الدقائق والثوانى التى نستأنف بعدها السير على آثارهم •

سلطان سائقى السيارات

وتبرح السيارة أو بالأحرى (اللورى) أو بمعنى أدق هذا الصندوق الخشبى الذى يحشر فيه الحجاج وأمتعتهم حشرا فلست ترى الا رؤوسا تطل من وسط أمتعة • والحق أن الحاج لم يكن بالنسبة لعقلية السائق وبالنسبة لمن يسيرون السيارات الا بعض هذه الأمتعة ولقد كانوا يمنون عليه أنه أصبح ينقل باللورى بعد أن كان ينقل بالجمل فى بضـــعة أيام يعيشها عبدا ذليلا لهذا الجمال الذى كان يملك عليه حق الحياة أو الموت • فسبحان الذى جعله يمتطى سيارة ولا لوم ولا تثريب اذا كانت هذه السيارة لا تزيد عن صندوق خشبى قبيح المنظر ، ولا لوم ولا تثريب أن يحشر الحجاج والأمتعة حشرا فبعضهم من بعض •

وتبدأ مشكلة القيام واستئناف السير ؛ فهؤلاء الذين يحجون للمرة الأولى كلهم شوق للاسراع نحو الكعبة • أما هؤلاء الذين سبقوا بالحج فالأمر عندهم مألوف فيأخذوا راحتهم ما استطاعوا الى الراحة سبيلا • وعلى كل حال فالأمر ليس لهؤلاء أو هؤلاء وانما هو للسائق الذى على الجميع أن يسترضوه بكل أنواع الاسترضاءات وأن يعدوه ويمنوه بزيادة الجعل الذى سيمنحونه اياه عند الوصول على سبيل المكافأة (والبقشيش) ونحن نفهم أن ربان أى سفينة هو الحاكم بأمره على ظهر السفينة ما بقيت فى عرض البحر وارادته هى القانون وهى السلطان فلا عجب أن كان لسائقى السيارات فى ذلك الزمان كل ذلك السلطان •

وأخيرا تستأنف السيارة السير ويعاود الناس الشوق والحنين وترتفع العقائر بالتلبية لرب العالمين . لن أنسى ماحييت هذه اللذة التى يشعر بها الانسان كلما اقترب من مكة لأول مرة . لقد كنت أهتف ضاغطا على الكلمات والحروف ولم يكن لسانى الذى ينطق بل روحى هى التى تصيح وكأنى أسمع الداعى العظيم يدعونى فأسرع بالجواب لبيك وسعديك .

بحرة

فاذا وصل الركب الى بحرة وهى فى منتصف الطريق بين جدة ومكة فهذه المحطة الكبرى وهنا الفرح الأكبر .. وصلنا بحرة فلن نسير بعدها الا أقل مما سرنا قبلها ... ويلتف حولك الصبية الصغار ذوو الأجسام العارية والعيون اللامعة وهم يرددون الأناشيد التى يستدرون بها العطف والاحسان :

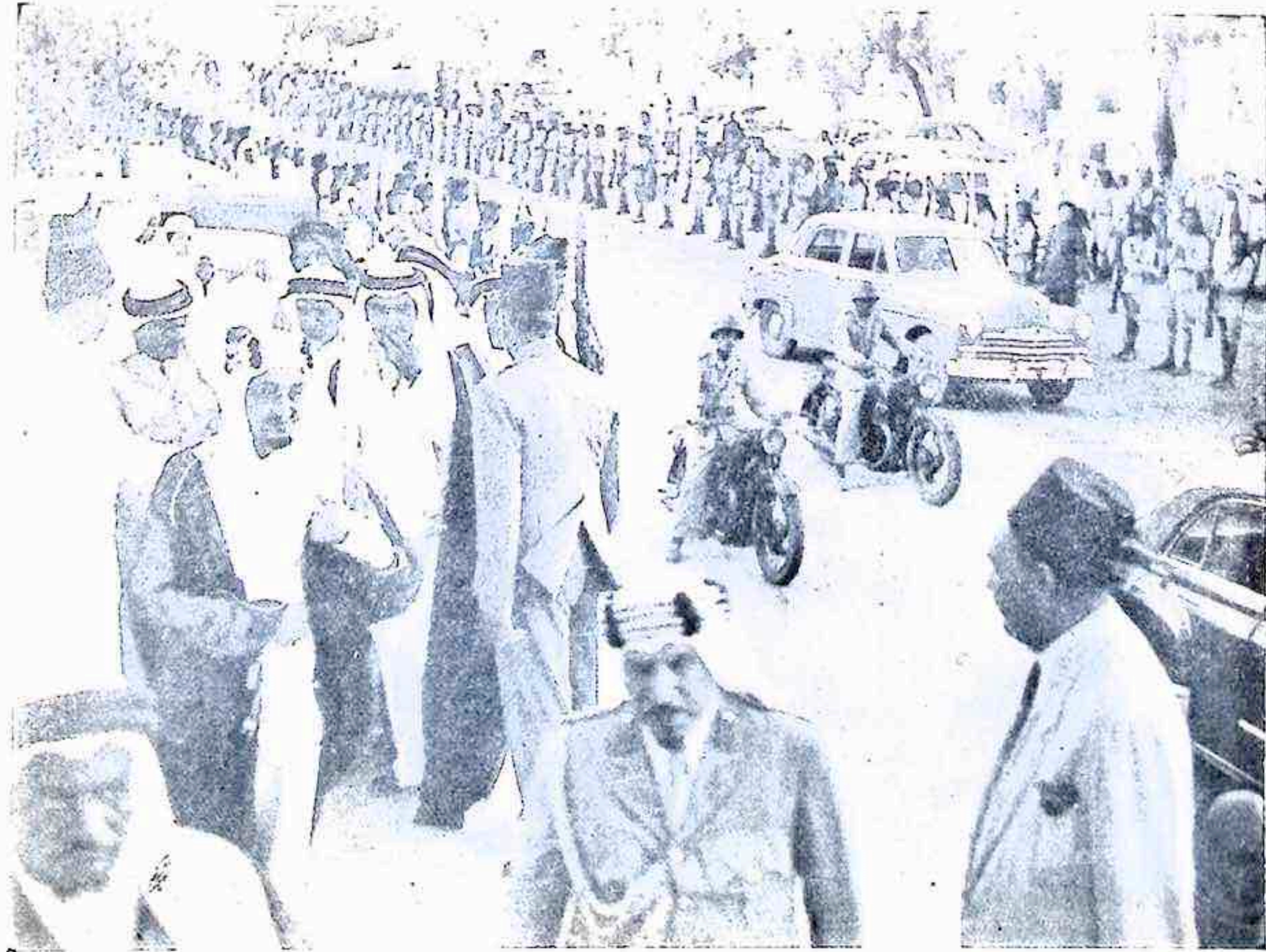
سيدى الحاج يا عكة الله يوصلك مكة
من مكة للمدينة والمدينة لبلادك
وبلادك لعيالك

ولو عزفت كل جوقات العالم وموسيقاه لما بلغت فى النفس مبلغ هذا النشيد البسيط الساذج فى هذا الجو وفى هذه المناسبة ، فى هدأة الليل وسكونه وياله من ليل متألق بالنجوم والكواكب .

تأمل فى سماء الجزيرة

اننى لأنتهز فرصة وقوف السيارة كى أرقد قليلا على ظهرى لأطالع هذه النجوم والكواكب فصفاء السماء فى جزيرة العرب بالليل ليس مما يرى فى كل مكان . هذه اذن هى السماء التى حدق فيها محمد بن عبد الله سنوات وسنوات محاولا استكناه هذا السر الأزلى الرهيب . هذه هى النجوم والكواكب التى حدثته وحدثها . حدثته بعظمتها وسألها عن خالقها . هذه اذن سماء جزيرة العرب الصافية اللامعة التى جعلت العرب أشد الناس علما بالفلك ؛ كيف لا وليس للعربى السائر فى هذا الخضم من الصحراء سوى هذه الكائنات العلوية تؤنس وحشته وتهديه سواء السبيل .

لقد أطلق العربى على كل منها اسما وقسم السماء الى أقسام وصفها وسماها كما لو كان يتكلم عن احياء وكائنات .



الأمير فيصل

نائب الملك بالحجاز ووزير خارجيتها يلبى دعوة وزير مصر المفوض فى حفلة اقيمت على شرف الأمير



عبد الله آل سليمان

رجل الملك الأول ووزيره والأمين على ماليته والى جواره مؤلف الكتاب بالملابس العربية

ويقطع عليك سلسلة أفكارك صوت سيارة قادمة يضج من فيها بالتكبير والتلبية فأهم واقفا وأهيب بالجماعة أن تستأنف السير صوب مكة •

ومرة أخرى تنطلق السيارة فى ذات الجو الروحى بعد أن يزيده الاقتراب من مكة تأججا ولهيبا ويروعك هذا المنظر الذى قد لا تلحظه فى بادىء الأمر أو قد لايكون قد أخذ كل جلاله وأبهته بعد ؛ منظر هذه القوافل المتصلة من الجمال تحمل الحجاج فوقها وتسير فى بطء ولكن فى اطراد وموسيقى • ليس للزمن عندها حساب ولكن هناك حقيقة مؤكدة هى أنها ستصل ، ستصل حتما بهذا السير الرتيب الوئيد وسوف تصل فى ساعة معينة كما لو كانت قطار سكة حديد • ان هذه السيارة تسرع الى جوارها كالبرق الخاطف وتتركها وراءها لبضع ساعات ولكن السيارة قد تغوص فى الرمال أما هذه فلن تغوص أبدا وما أكثر ما تتلف السيارة ويصيبها العطب • أما هذه فلن تتلف أو تعطب أبدا •

قطارات الابل

انها تسير وتسير دائما فى هدوء وصمت ان الحجاج ينامون على ظهرها فى هذه الهوادج (الشقادف) التى تتسع لفراشين كاملين ينام فوقهما من يشاء ، اثنان أو ثلاثة أو أربعة • انه سكن كامل لرجل وزوجته وأولاده يعيشون فى هناء فوق جمل من الجمال يالها من آية خالق أبدع الكائنات وصورها فأبدع صورها وطبائعها وقدرتها •

ليس هناك فى الصحراء أفتن من منظر الجمل وهو يتهادى بين الجبال تظله السماء الصافية وتسمع خفق الرمال تحت أقدامه اللينة « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » • صورة كاملة رائعة لن تتذوقها الا فى جزيرة العرب وفى هدأة الليل عندما ترى قوافل الجمال تسير تحف بها الجبال وكأنها قدت منها وتظلها السماء بجلالها • جلال فى جلال فى جلال •

الحديبية

الله أكبر الله أكبر لقد وصلنا الشميسى لقد وصلنا حد الحرم ولم يبق بيننا وبين مكة سوى بضع وعشرين كيلو .

ومال على صاحبى وأسر فى أذنى هذه هى الشميسى — هنا عقد صلح الحديبية . هنا تمت البيعة . هنا كانت الشجرة .

ولم يكد صاحبى يذكر لى ذلك حتى انتفضت لذة ونشوة .

لقد انبثقت فى قلبى ينابيع من الذكريات . لقد تمثلت لى سيرة الرسول فى عشرين سنة كاملة من الكفاح والجهاد ، لقد برق فى خاطرى ، كما لو كان شريطا سينمائيا كل ما مر على الرسول من أحداث ووقائع لقد جرى على لسانى على الفور آيات من التنزيل « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » اذن كان هنا ذلك اليوم المشهود الذى حول مجرى التاريخ وكان ايذانا بالفتح المبين . وسرعان ما تحلق الروح فى سماء الذكريات ويحاول الخيال استجماع الصورة .

انا فتحنا لك فتحا مبينا

خرج الرسول من مكة مهاجرا لينجو بدينه ورسالته وحياته من الاضطهاد والموت الذى كان يعده له مشركو قريش . خرج هاربا لا رفيق له غير أبى بكر الصديق . يتعقبهما الموت فى كل لحظة وفى كل خطوة بل كان الموت منهما قاب قوسين أو أدنى كان الموت لا يفرقه عنهما سوى نسيج من عنكبوت وقد ملأ الغم والهم أبا بكر خوفا وخشية على حياة الرسول فسكن روعه وهدأ باله مذكرا أياه أن الله معهما فكانت النجاة وكان المهرب والمخلص « اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

الهجرة

ووصل محمد صلى الله عليه وسلم الى المدينة حيث وجد المأوى والنصرة وبدأ حياة جديدة فى نضال قريش فكانت معارك انتصر فى أولها

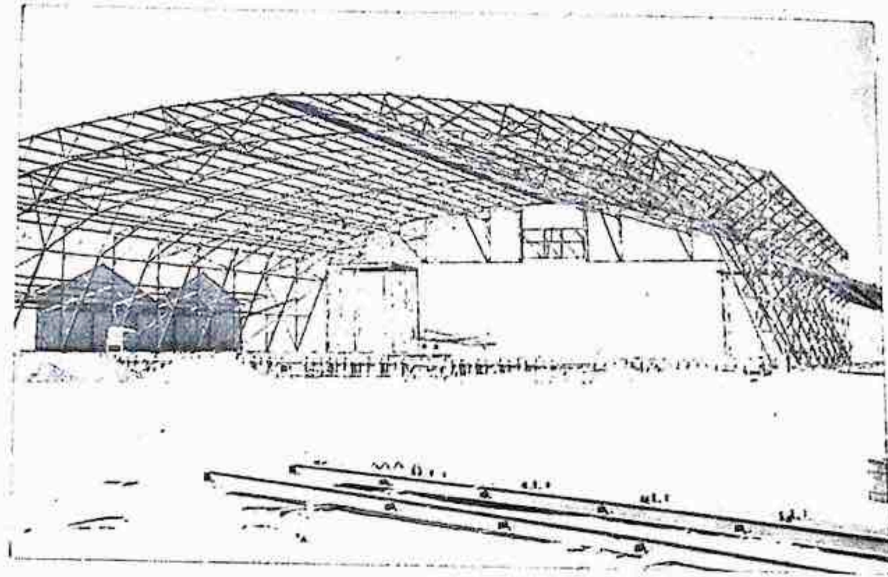


مطار جدة

وعندما تهبط بك الطائرة فى مطار جدة تطالعك هذه المنشآت المصرية الرائعة



ما أعظم الفارق بين اليوم والأمس ... هـــذه السيارة الفاخرة التى تسير فوق هذا الطريق المعبد ليست سوى احدى سيارات نقل الحجاج الحديثة فى الطريق بين جدة ومكة



منشآت ضخمة عصرية ـ هذا هو طابع الحياة الآن فى مدن الحجاز الكبرى
فى مطار جدة

(بدر) وخذل فى ثانيتها (أحد) وتعادل فى ثالثتها (الخندق) ثم دعا أصحابه للذهاب الى مكة معتمرين ليطوفوا حول الكعبة آمنين مطمئنين ولينحروا ذبائحهم ويقدموا تضحياتهم تقربا وزلفى لرب العالمين •

وخف معه المهاجرون والأنصار فرحين مستبشرين أن سيدخلوا مكة مسقط الرأس ومدرج الصبا وموطن الأهل والآباء والأبناء • فرح المهاجرون أن سيدخلوا مكة التى طردتهم وعذبتهم وشردتهم وفرح الأنصار أن سيدخلوا مكة معتزين منتصرين بتأييدهم للرسول الذى اعتزوا بنصرته •

قريش تحول بين المسلمين والكعبة

وكان العهد منذ أقدم العصور أن لا يمنع أى انسان عن الوصول الى الحرم ما دام قد جاء حاجا أو معتمرا . على ذلك جرى دين العرب وجرت تقاليدهم التى ما كان لأحد أن يقدم على الاخلال بها • ولكن قريشا أحست بالاذلال الذى سينالها عندما يدخل « محمد » على رأس أصحابه الى مكة على أى صورة من الصور • لقد طردته من بين ظهرانيها • لقد هموا وتآمروا عليه ولم ينج منهم الا بأعجوبة • لقد حاربهم وحاربوه فقتل أقيالهم وعترة بيوتاتهم • لقد فشلوا فشلا ذريعا أمام أسوار مدينته فعادوا وهم عشرة ألوف لم يجتمع مثلها فى تاريخ العرب دون أن ينالوا منه منالا وهاهو ذا اليوم يدخل عليهم عقر دارهم على رأس جيش عظيم بحجة أنه جاء معتمرا « الموت ولا العار ، الموت ولا الهزيمة ، الموت ولا الدنية . لا واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لاوحق هبل ومن خلق هبل لن يدخلها علينا محمد أبدا » • بهذا تصايحت قريش وتنادت وداست تقاليد العرب وداست على دين العرب وضربت عرض الحائط بالشهامة والفروسية فاليوم لادين ولاتقاليد ولاشهامة أو فروسية وانما حقد وبغض لهذا النور الذى جاء به محمد ففرقهم شيعا وأحزابا بزعمهم وأوقف الولد ضد أبيه والزوجة ضد زوجها وقتل الأحبة والصحاب والأمجاد •

بيعة الرضوان

وتسامع المسلمون بما يجرى فى صفوف المشركين فهرعوا بدورهم نحو الرسول يبايعونه على الموت اذا صدته قريش عن الدخول الى البيت وبدأته بالعدوان ورضى الله عن هذا النفر من المؤمنين الصادقين الذين

فدوا الرسول بالأرواح والمهج واستحقوا أن ينزل فيهم قرآن فيؤكد عليهم العهد والميثاق ثم يؤذنهم بالرضاء والغفران •

« ان الذين يبـايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمَن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليـه الله فسيؤتيـه أجرا عظيما » •

لقد رضى الله عن المؤمنين

« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا — ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما » •

هى الحرب اذن لم يعد منها مناص ويا لها من حرب فى الشهر الحرام فى البيت الحرام بين أفراد أسرة واحدة ولذلك فلم يكن غريبا أن يرتفع بينهم صوت العقـل والحكمة فيسعى أناس بين الطرفين بالصلح على أساس أن يرجع محمد برجاله فى عامه هذا فلا يدخل مكة على أن يعود فى مثل ذلك الوقت من العام القادم حيث يخلى المشركون مكة ثلاثة أيام للرسول وأنصاره يعتمر فيها ويطوف بالبيت ويؤدى صلواته وبضعة شروط أخرى تقرر هدنة طويلة الأجل بين الرسول وبين قريش • ولقد ارتضى الرسول بهذا الصلح وأنكره أصحابه فقد رأوا فى بعض الشروط اجحافا بهم ونزولا عما ظنوه لائقا بهم كأقوام يؤمنون بالله ويدينون دين الحق وكان على رأس المعترضين عمر[1] ولكن الرسول الذى يعلم من الأمر ما لا يعلمون أمضى عقد الصلح ووقعه وطلب من أصحابه أن ينصرفوا عائدين فكان ازورارا وكان اعراضا ثم تم الأمر[1] وعاد الرسول وعاد أصحابه الى المدينة بسلام الله • وفى الطريق نزلت سورة الفتح التى فسّرت للمسلمين ما أغلق عليهم فهمه والتى وعدتهم بالنصر والفتح المبين وبشرتهم فى ختامها بدخول المسجد الحرام آمنين مطمئنين « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » •

مفاوضة فمهادنة

(١) راجع حديث الحـديبية بالتفصيل فى كتب السيرة •

وصدق الله العظيم فما هما الا عامان فقط بعد هذا الصلح حتى كانت مكة تفتح أبوابها لاستقبال الرسول فائزا منتصرا وحتى كانت جزيرة العرب كلها تدين له بالسمع والطاعة وتشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

ذلك هو صلح الحديبية وتلك ذكرياته ثارت كلها فى النفس بمجرد أن أسر الى زميلى عند الشميسى أن هذه هى الحديبية وهنا عقد صلحها . يا للبقاع المقدسة انها كلها رمال وجبال يشبه بعضها بعضا ومع ذلك فان فى كل شبر منها ذكريات غاليات . وفى كل شبر منها تمت وقائع وأحداث كانت تقرر مصير البشر الى أبد الآبدين .

ومادمت قد بلغت الشميسى فقد اقتربت من مكة وأصبحت تتهيأ لدخولها .



كانت كل هذه الصور تتراءى لى وسيارتنا الصغيرة التى وضعتها الحكومة تحت تصرفنا تندفع بنا فى يسر وسهولة كيف لا وهى عربة فورد ماركة ٤٩ والطريق ناعم أملس .

الفارق بين أمس واليوم

ما أعظم الفارق بين رحلتنا الآن ورحلتى منذ أربعة عشر عاما لم يعد الطريق من جدة الى مكة بالطريق الذى يحسب حسابه فان باستطاعة السيارة العادية أن تقطعه فى ساعة وربع وكثير من السيارات تقطعه فى ساعة لاتزيد دقيقة وهناك بعض الأمراء يأبون الا أن يقطعوه فى أقل من الساعة أليست المسافة لاتتجاوز الخمسة والسبعين كيلو وأليست سياراتهم تقوى على السير بسرعة مائة كيلو أو تسعين على الأقل .

انطفأت الأنوار فى هذه المحطات التى كنا نمر عليها وسط الضجيج والتكبير وذبلت كل هذه المراكز فالسيارات لم تعد تعنى بالوقوف الا فى مكة أما هذا القطار الذى لاينقطع من الجمال فلم يعد له أثر وانقرض

نزول الجمل الجمل وطويت صفحته كسبيل من سبل الانتقال من جدة الى مكة .
عن عرشه يا سبحان الله من كان يتصور أن ذلك سيتم وأن الجمل سيهاجم فى عقر داره وفى دولته وسلطانه ويصبح حيوانا للزينة أو للأكل بعد أن كان ملكا مهيبا لا يستغنى عنه فى الصحراء . انها الدنيا والأيام غير وتقلبات ترفع وتخفض وتعز وتذل وتغنى وتبلى وليس سوى الخالق الديان من تفرد بالبقاء والدوام وعدم التشكل أو الانتقال من حال الى حال .

وما أكثر ما سمعنا من ندب وعويل عندما دخلت السيارة لأول مرة . ما أكثر ما هددوا بالويل والثبور اذا انتشرت السيارات وانقرضت الجمال . ما أكثر ماتوعدوا بالفقر والفاقة ولكن الجمال انقرضت والسيارات انتشرت فازداد الغنى وازدادت الثروة وأصبح يعمل فى هذه السيارات وفى قيادتها وفى اصلاحها وفى ادارتها ، من يكسبون أضعاف أضعاف ماكان يكسبه أصحاب الجمال . وهذا شأن النهوض والتقدم دائما لا يمكن الا أن يعود بالخير على كل الناس على شريطة أن تتدخل الحكومات لتعويض من فقدوا أرزاقهم بسبب هذا التقدم العلمى وتعاونهم على ترتيب حياتهم فى ظل التطور الجديد .

أصبح الطريق الى مكة اذن هينا تنطلق فيه السيارة انطلاقا ولم يعد هناك أثر لهذه المشقات والمتاعب التى كان يعانيها الحجاج من قبل وساءلت نفسى أخيرا عن هذا التبدل أهو خير أم شر ؟. أمن الخير أن يكد الحجاج ويتعبوا ويتحملوا المشاق ، أم أن يصبح أمرهم سهلا ميسورا ؟
هذا التطور أهو خير أم شر ؟ ان فى احتمال المشاق لذة من غير شك لا يحسها الانسان الذى لا يلقاها ويعتادها . ولكن عدت الى نفسى فوجدت أن الأمور نسبية من ناحية ، وستظل النسبة محفوظة دائما أبدا فى كل شىء ، ووجدت روح الاسلام من ناحية أخرى ترضى عن التيسير والراحة وتأنف التعذيب والتصعيب ووردت الأحاديث تترى عن الرسول أنه كان يختار دائما أسهل الأمور وأيسرها وأنه دعا دائما الى التخفيف عن الناس فان فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة واذن فمرحبا باليسر فى كل ما اتصل بالحج ومناسكه وليمض المسلمون فى التماس أسباب اليسر والسهولة فان ذلك من صميم الاسلام ومن أسمى غاياته وأهدافه .

- ٦ -

حول البيت

وصلنا مكة أخيرا ولست بمستطيع أن أصور لك مشاعر المسلم اذ يدخل مكة فانها شيء فوق الطاقة أو على الأقل طاقتى . لقد رحت أقول لنفسي بصوت عال : مكة ! هذه مكة، انني الآن في حرمها . انني أجوس خلالها . مكة الخالدة ، مدينة الامن والسلام وكعبة المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها . انني في مكة أم القرى ومهبط الوحي ومبعث الهداية . انني في مكة حيث ولد الرسول وسار ودرج . انني في مكة التي أخرجت الرجل الذي حول مجرى التاريخ . ولم تكن هذه أول مرة أدخل فيها مكة فلعلها المرة الرابعة ، ومع ذلك فقد كانت هذه العبارات تتردد في نفسي أو قل تدوى في نفسي حتى ليخيل الي أن كل الناس تسمعني . ومرة أخرى استيقظت من تأملاتي هاتفا لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

هذه أم القرى
هذه مكة

وقصدت بنا السيارة الى بيت أخي حضرة اليوزباشي أحمد عشرة المنتدب من الحكومة المصرية للاشراف على مدرسة الشرطة (البوليس) حيث كان ينبغي أن تنزل والدتي أولا ثم غادرنا السيارة ميممين صوب الحرم فلم تعد السيارات قادرة على أن تقترب من الحرم في هذه الفترة من الموسم منعا للازدحام والاكتظاظ .

هاهي ذي أنوار الحرم كالعهد بها تتلألأ، كأجمل ماتتلألأ الأنوار بالرغم من بساطتها . وهاهي ذي الكعبة المشرفة ببنائها الشامخ المهيب وأستارها السوداء تتجلى من خلال أبواب الحرم فيراها السائر في الطريق وينطلق اللسان ترجمانا للقلب فيردد هذا الدعاء المأثور «اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وأمنا » . وهاهو ذا القلب يخفق كالعهد به لمرآها والعين تفرح والخاطر يطيب « الله أكبر ، اللهم انك أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام » . ويقترب الانسان من الكعبة فتعظم

اللهم زد
هذا البيت
تشريفاً
وتعظيما

فى نفسه كلما ازداد قربا منها وكأنها الصخرة الشماء تطوّف بها أمواج البحر المتلاطمة وليست هذه الأمواج سوى عشرات الألوف من البشر الذين يطوفون بالكعبة مهللين مكبرين بمختلف اللغات واللهجات فترتفع أصواتهم فى السماء وكأنها هدير البحر واصطخاب الأمواج •

لقد وصلنا الى خاتمة المطاف • وصلنا الى قطب الرحى والقبلة التى تتوجه اليها فى أربعة أركان المعمورة • وصلنا الى هذه الكعبة التى نستقبلها ماشرقنا وماغربنا • ففى انجلترا مثل مافى أمريكا ومثل مافى فرنسا أو فى سويسرا ، مثل مافى سوريا ولبنان والسودان ، فى الصحة والمرض ، فى الحل والترحال ، صليت دائما مستقبلا القبلة كما تصلى ملايين المسلمين • وما أبعدنا عن هذه القبلة فى كثير من الأحيان • وما أعظم الشقة التى تفرق بيننا وبينها •••

ان المحيطات لتفصل بيننا وبينها أحيانا ، فاذا لم يفصلنا عنها غير ألف ميل أو ألفين اعتبرنا أنفسنا قريبين منها • أما الآن فنحن بحزاء القبلة ، بل نحن فى القبلة نفسها فهى بأركانها الأربعة قبلة ومن أى ناحية صليت لها فانك تصلى للقبلة • انها المحور الذى تدور حوله هذه الدائرة الكبرى دائرة المسلمين فى قارات الدنيا الست ومحيطاتها الخمس فهى النقطة الثابتة وكل من حولها يتحرك •

«الكعبة كلها قبلة

الطواف

فلنمض اذن كما شرع الله لنا أن نعبد فى هذا المكان وهو أن نطوف حول هذا المحور فنكون رمزا لهذا الكون الذى يتحرك كله ويتحرك فى دوائر • باسمك اللهم نبدأ الطواف وابتغاء مرضاتك وتصديقا لنبيك باسم الله — الله أكبر •

«الاضطباع

ولكن قبل أن نبدأ الطواف يجب أولا أن نعدل من ملابس احرامنا فنضطبع بالرداء بأن نجعله تحت ابطنا الأيمن ليظهر كتفنا الأيمن وساعدنا

عملا بسنة أبى القاسم فى عمرة القضاء عندما قال لأصحابه : رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة[1] .

باسم الله الله أكبر

وما أجمل أن يبدأ الطواف باستلام الحجر الأسود وتقبيله ولكن هيهات أن يتحقق لنا ذلك وسط هذه الألوف المؤلفة من الحجاج والتى تطوف كلها حول البيت وتتزاحم حول استلام الركن وهذا سيد الخلق ومعلم الدين الأول قد أنبأنا أنه يجزىء عن الانسان فى مثل هذا الزحام أن يمس الحجر الأسود بقضيب فى يده . بل أن يشير اليه عن بعد هاتفا باسم الله الله أكبر ... فلنكن اذن ممن يشيرون عن بعد لنوفر لأنفسنا السكينة والخشوع اللازمين فى هذا المقام ولنبدأ طوافنا باسم الله .

---

(١) ذكرنا فى حديث صلح الحديبية ، أن قريشا اتفقت مع الرسول (ص) أن يعود من عامه هذا فلا يدخل عليهم مكة ، فى مقابل أن يسمحوا له بدخولها فى العام التالى وأن يمكث بها ثلاثة أيام كاملة . فلما حل الأجل سار محمد (ص) فى ألفين من أصحابه لأداء عمرة القضاء وعند ما وصل مكة أخلتها له قريش كراهية أن يروا المسلمين وأن يختلطوا بهم . ولكنهم فى ذات الوقت صعدوا الى جبل أبى قبيس ليرقبوا أحوال المسلمين عن بعد . وكان الظن بين صفوف المشركين أن محمدا وأصحابه قد نهكتهم الحمى وأنهم أصبحوا عجافا نحافا لا يكادون يقوون على السير . فأراد الرسول أن يقوم أمامهم بمظاهرة تريهم مقدار خطأ ظنونهم وأوهامهم ، وما عليه المسلمون من صحة وعافية وقوة ، فأخرج صلوات الله عليه عضده الأيمن من الرداء بأن وضعه تحت أبطه ثم قال قولته المشهورة : رحم الله امرأ ، أراهم من نفسه اليوم قوة . وراح الرسول يهرول فى طوافه فى جانبى الكعبة المواجهين لجبل أبى قبيس حيث وقف المشركون يرقبون ، فاذا وصل الى الركنين الذين لا يراهما فيه المشركون خفف مشيته وسار سيرا وئيدا ، حتى اذا عاد الى حيث يراه المشركون هرول ثانية وهكذا .

وقد كان لهذه المظاهرة أثرها فى نفوس المشركين ، أذ آيستهم نهائيا من امكان التغلب على اتباع محمد فسقط فى أيديهم ، ولم يلبثوا أن دخلوا فى دين ا للهأفواجا .

وقد فكر عمر بن الخطاب فيما بعد أن يوقف هذه السنة ، سنة الاضطباع والهرولة فى الطواف ، وذلك لزوال سببهما ، ثم لم يلبث أن عدل عن هذا الرأى تمسكا بعمل فعله الرسول وفعلوه معه . وهكذا بقيت سنة الاضطباع والهرولة فى الطواف من سنن الحج حتى اليوم .

وهل أستطيع أن أحدثك عن خلجات النفس فى هذه الدورات السبع حول الكعبة . أو هل بقدرتى أن أصف لك أحوال الناس ... أما الناس فلندعهم لخالقهم فهو أعرف بما يجيش فى سرائرهم أما أنا فلست بمستطيع أن أعبر عن احساسى بالدقة فكل مايتعلق بالروح أمر جد مبهم . وما الايمان الا فرع من الروح .

سريرة نفسى

كل ما أستطيع أن أقوله اننى جئت من بلاد بعيدة الى هذا المكان الذى يقصده الملايين على مر العصور كى أتجرد من كل شىء الا عبادة الله واظهار الخضوع والاستسلام له . كل ما أستطيع أن أقوله أننى جئت أناجى الله فى هذه البوتقة الروحية حيث تشف عندها الوسائط التى تفرقنا عن الله وماذا عساى قائل لربى, وماذا عساى طالب منه . انه لشهيد علىّ اننى ما طلبت منه جاها ولا طلبت مالا ولا سداد دين . ما طلبت منه أمرا معينا أكثر من رضائه وتوفيقه وأن يوزعنى أن أشكر نعمته وأن يهدينى الى ما يحب ويرضى . ويلى من غضب الله وسخطه . ويلى وويل أى انسان اذا أشاح الله عنه بوجهه فاللهم لا أسألك الا كبرى نعمك وهى الرضا .

مناجاة

رب أنت خلقتنى وأنا عبدك ، تعلم ما أخفى وما أعلن . ما أغناك عن أن أحدثك بحالى ، ما أجهلنى اذا رفعت عقيرتى لأسمعك صوتى وندائى ، انك تسمعنى وترانى وتعلم خلجات عقلى ونبضات قلبى ، فماذا أنا قائل لك . ذنوبى قدرتها . أنت علىّ منذ خلقتنى ضعيفا فان لم تغفر لى وترحمنى فمن الذى يغفر أو يرحم ؟ نحن نصفح يارب عند المقدرة وأى قادر فوق قدرتك فمن الذى يصفح بأكثر مما تصفح ؟ ان كرمك كبير وعميق انه أكبر من الكون ، انه أعمق من الوجود منذ بدأ وحتى يعود ، فمن الذى يقول انك لا تعفو وتصفح عن عبيدك الخاطئين ؟

أشهد أنك الغفور الرحيم

أشهد أنك غفور رحيم . أشهد أنك التواب الكريم . أشهد أن رأفتك بالناس لهى البحر المحيط تذوب فيه الأرجاس والأنجاس .

أنت خلقتنى كبعض خلقك وزودتنى بالسمع والبصر والقوام ورزقتنى وأنعمت علىّ فأسبغت نعمك ، فما هو السبيل الى شكرك ؟ كيف أستطيع أن أشكرك وأنا أجد فى الشكر نعمة جديدة تريد بدورها شكرا ؟ .

رب وأنت واهب الحياة قدرنى أن أسخرها فيما تحبه وترضاه رب لا تجعل فى قلبى غلا ضد أحد ولا حسدا ولا حقدا . رب وانزع من نفسى كل عاطفة الا عاطفة الايمان بك والحب لك والجهاد فى سبيل رضائك .

أنت واهب الحياة

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أعظم ! سبحانك ما أعظم ملكوتك ! سبحانك ما أعمق أسرارك ! سبحانك احتجبت عن العقول والأبصار ! سبحانك ما أشد قدرتك ، وما أعجزنا حتى عن فهم أحكامك ! أنت هناك أنت موجود . أنت حق ، كل شىء يصيح انك حق . كل شىء يهتف بجلالك ومع ذلك فما أبعدنا عنك مع شديد قربك منا ، وما أشد حاجتنا اليك واستغناك عنا ، ومع ذلك فقد خلقتنا وما أشقانا اذا لم تضىء لنا نورا نعرفك به ونعبدك به ونسترضيك به . سبحانك تباركت وتعاليت علوا كبيرا انه لخير لى أن أصمت ، فلست أعرف ماذا أقول أو أحكى . حسبى من القول أننى أعبدك ، أعبدك ياخالقى ، أعبدك يافاطر السموات والأرض ، أعبدك وها أنذا أطوف حول كعبتك كما علمنا رسولك ونبيك . أعبدك ولو كان فى ازهاق الروح مرضاتك لأزهقتها ، ولو كان بتقطيع الأوصال عبادتك لقطعتها . اننا عبيدك وأنت السيد ... اننا مخلوقاتك وأنت الخالق . فارحمنا يارب وسدد خطانا يارب وأقل عثرتنا واصفح عن زلتنا واهدنا سواء السبيل فالهداية منك واليك .

أنت كائن
أنت موجود

أقل عثرتنا
واصفح عن
زلتنا

ادعوا ربكم تضرعا وخفية

بهذه العبارات وغيرها رحت أناجى الله وأعبده وأدعوه وأسبحه وأستغفره وكم أتمنى لو أن هذا الأمر شرح للمسلمين فعلموا أن يدعوا ربهم تضرعا وخفية وأن يسبحوه ويحمدوه كما ينبعث الحمد والتسبيح من قلوبهم لا كما يلقنهم الملقن أو بالأحرى المطوف وهم يردون خلفه كأنهم

ببغاوات لاتدرك ماتقول[1]. كم أتمنى أن يأتى ذلك اليوم الذى يطوف فيه

(١) نرى أن نثبت هنا الدعوات والعبارات التقليدية التى يلقنها المطوفون للحجاج . وهى أدعيات جميلة من غير شك لاحتوائها على آيات القرآن ، وبعض الدعوات الطيبة ، ولكن البلية الكبرى هى طريقة النطق بها وترديد الحجاج لها دون وعى أو ادراك . فمن شاء استعمالها فليدرك معناها ، وليجعلها صادرة من قلبه لا من طرف لسانه وليغض بها صوته واليك الآن نصها :

اذا جاء الحاج الحرم دخل من باب السلام قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم . اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام بفضلك ياذا الجلال والاكرام .

ثم يسير الحاج نحو البيت من جهة الشرق قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك ، والأمن أمنك ، والعبد عبدك ، اللهم حرم جسدى على النار . وأدخلنا الجنة مع الابرار .

وعند ما يقترب من الكعبة يهتف مكبرا : بسم الله ، الله أكبر (ثلاثا) لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

فاذا دخل من باب شيبة قال : رب أدخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا جاء الحجر الأسود يستقبله ثم يقول : بسم الله ، الله أكبر ولله الحمد ، اللهم اغفرلى ذنبى وطهرلى قلبى واشرح لى صدرى وعافنى برحمتك فيمن تعافى . ثم يستلم الحجر باليمين أو يقبل (ان أمكن) وينوى الحاج الطواف قائلا : اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم ، اللهم يسرهالى وتقبلها منى . ثم ينطلق الحاج قائلا : اللهم ايمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك ، والحرم حرمك ، والأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار ، فاعذنى منها يا عزيز يا غفار ، اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر ، وعذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم انى أسالك العفو والعافية ، والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة اللهم أظلنى تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك ، واسقنى بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، شربة هنيئة ، مريئة لا أظمأ بعدها أبدا . اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور . اللهم انى أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الأخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر فى المال والأهل والولد . اللهم انى عبدك وابن عبدك قد أتيت بذنوب كثيرة ، من بلاد بعيدة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لى وما كان منها لعبادك فاحمله عنى .

وكلما قرب الحاج من الحجر الأسود قال : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

المسلمون حول الكعبة فى خشوع ومهابة خافضين الصوت غاضين الطرف فهم لا يدعون أصمّ ولا يدعون بعيدا أو ليس هو القائل « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » • ففيم الصراخ والتهويل وفيم تكرير الألفاظ المحفوظة المعادة التى لا تنبعث من قلب كل حاج بقدر ما تنبعث من طرف لسانه • لم يرد عن الرسول أدعيات خاصة فى طوافه حول البيت لم يؤثر عنه سوى قوله بين الركنين « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ولم ينقل عنه أى دعاء خاص بل لم ينقل عن الصحابة أو التابعين دعوات مأثورة وانما المتفق عليه أن يدعو الانسان ربه بما شاء من حوائج الدنيا والآخرة وأن يسبح فى طوافه ويذكر الله ويدعوه • الدعاء مخ العبادة

لقد قيل ان الدعاء هو مخ العبادة وهو لا يكون كذلك الا اذا كان صادرا من القلب ولن يصدر الدعاء من القلب الا اذا كان منبعثا من ذات روح الانسان بحسب ظروفه وأحواله فعلى الحجاج أن يعلموا هذه الحقيقة ، وعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يبصروا الناس بأن هذا الأسلوب الذى يتبعه المطوفون فى تلقين الحجاج أدعيات خاصة يرددونها مجتمعين بصوت عال وفى نطق ركيك ليست من الدين فى شىء وليست من المستحبات أو المندوبات •

زمزم والمقام

واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى

واتنهينا من الطواف سبعة أشواط وانتقلنا الى مقام ابراهيم اتباعا للسنة واتباعا للقرآن « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فصلينا فيه ركعتين قرأنا فى احداهما سورة الاخلاص والثانية بيا أيها الكافرون أسوة بما فعل الرسول وقرأ • ثم قصدنا بئر زمزم المجاورة لمقام ابراهيم والمواجهة للكعبة فشربنا من مياهها • وقد صح عن الرسول صلوات الله عليه قوله « ماء زمزم لما شرب له » وعندى أن من شربها باعتقاد وايمان شفته من كل همّ وغمّ كمن يقبل الحجر الأسود بهذا

ماء زمزم لما شرب له

الاعتقاد فانه يكون له دواء وشفاء فى كثير من الأحيان ، وهؤلاء الذين يؤمنون بالأسباب والعلم لا ينبغى أن ينكروا هـذا القول . فالطب يعترف اليوم بقوة الايحاء وما يفعله فى نفس المريض وليس أقتل للناس وأفتك بهم من فعل الأوهام فكم من النـاس مرضى ولا مـرض بهم الا ما اعتقدوه . وكم من الناس يتألمون من علل موهومة صورها خيالهم . فالاعتقاد والوهم والتخيل كل هذه عوامل ذات أثر كبير فى الصحة والمرض والقوة والضعف . وانى مازلت أذكر عندما حججت للمرة الأولى كيف كان كثيرون من الحجاج يتحدثون عن الأمراض والأوجاع التى شفاهم منها شرب ماء زمزم . ولم يكن القوم كاذبين فى حديثهم فلم يكن هنـاك ما يدعو للكذب . ولـكن الدعايات تكاثرت حول بئر زمزم وانتشرت حولها الأقاويل وكتبت عنها التقارير فبدأ الوهن يتسرب الى عقائد الناس فى ماء زمزم وصلاحيته للعلاج ولست أذكر أننى سمعت حاجا واحدا هذه المرة يشيد بماء زمزم أو يتحدث عن نفعها فى علاجه . وهكذا صح قول الرسول الكريم : « ماء زمزم لما شرب له » فلو شربها الشارب بنية الشفاء وآمن به واعتقده لشفى . ولو تزعزع يقينه فى هذا العلاج فما يفيده شيئا .

ماء زمزم معدنى

بقى أن أشير الى أن هناك اتفاقا على أن مياه زمزم من نوع المياه المعدنية التى تحوى بعض الأملاح والتى لا جدال فى نفعها من الناحية العلمية البحتة فى بعض الحالات . ولقد شربت من ماء زمزم لأن الرسول فعل كذلك وما أجمل أن تكون هذه العين باقية وأن تظل هذه البئر خالدة ليستطيع كل مسلم أن يشرب مما شرب منه الرسول وأن يقف حيث وقف الرسول وأن يحيا لحظات فى هـذا الجو العبق من الذكريات المجيدة التى تنعش الروح وتحيى الفؤاد .

الصفا والمروة

وكان علينا بعد ذلك أن نخرج للسعى بين الصفا والمروة اتماما لعمرتنا . وقصدنا صوب الصفا وكانت الجموع تتسابق نحوه وهى تصيح

بالتهليل والتلبية مرددة قول القرآن الكريم « أن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يّطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » .

حافى القدمين

ولقد اعتدت أن أسعى بين الصفا والمروة حافى القدمين فان ذلك مما يريحنى ماديا ومعنويا فهذه النعال التى نلبسها فى مناسبة الحج تؤذى قدمى ، ومن ناحية أخرى فانى أجد فى الحفاء بعض مايريح نفسى . فان الاحساس الذى يغمرنى فى هذه الرحلة دائما هو الاحساس بالذلة أمام عظمة الله ، وليس هناك ما يحمل الانسان على الشعور بالذل أكثر من أن يسير فى الطرقات حافيا .

الاسلام قوة وغزةوكرامة

اننى لست من دعاة الذل والاستكانة وانى لأرجو للمسلمين أن يكونوا أقوياء أعزة مرفوعى الرؤوس وأن يفرقوا بين موقفهم من الرب وموقفهم من الخلق . فلنشعر بالذلة أمام الله لنستمد من ذلك الايمان والقوة ازاء البشر . لنطهر أنفسنا من الأرجاس ولنسع بكل الطرق والوسائل للحصول على مرضاة الله فيعطينا ذلك من المعنوية والقوة المادية مايقدرنا على مواجهة قوى الدنيا مجتمعة . ان من يؤمن بالله لايخاف أحدا ، ان من يعتبر نفسه عبدا لله لايمكن أن يكون عبدا للناس . فالتجرد لله فى لحظات نستشعر فيها كل ضعفنا ازاء قوته ، وكل عجزنا جوار جبروته . وكل نقصنا جوار كماله ، وكل حاجتنا اليه حيال استغنائه ، هذه اللحظات التى نستشعر فيها هذا الشعور ، هى نهاية الأكسير الذى يمدنا بالقوة لمواجهة الحياة بعد ذلك . وهذا هو الشعور الذى يتملكنى فى حجى فيطغى علىّ الشعور بالضعف والذلة والهوان أمام القضاء والقدر أو بالأحرى أمام ارادة الله . ولقد أنعشنى ذلك دائما وملأ نفسى ثقة وطمأنينة وقوة بعد الحج .

سوء حالة السعى

وقد يعجب متعجب ممن لم يزر الحجاز أن أكتب هذا البحث الطويل عن السعى حافيا وهو يتصور أن كل الناس يسعون حفاة ... أو ليست

الصفا والمروة من شعائر الله ، أو ليستا جزءا من الحرم فكيف يسعى الناس بينهما منتعلين ؟ .

المسعى سوق للبيع والشراء

والحق أن ليس هناك ما يصدم الحاج فى شعوره أكثر من صدمة السعى بين الصفا والمروة . فهو يطالع فى القرآن أن السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله وهو يعلم أنهما من متممات الحج فيسرح خياله قبل الحج فى هذا السعى وكيف سيتم فى جلال ووقار حتى اذا وصل الى مكة فوجىء مفاجأة تذهله وتذهب بخشوعه وورعه وتنقله من جو روحى الى جو مادى دنيوى . فقد تحوّل المسعى الى شارع يغص بالتجار كأنه شارع بين الصورين أو تحت الربع فيسعى الحجاج وسط التجار هذا يبيع الأقمشة وهذا يبيع الطعام وهذا يقدم المثلجات وهذا يصرف النقود وهذا يتشاجر مع ذاك وليس فى مكة كلها سوق غاص بالمتاجر كهذا السوق . وهكذا تحوّل المشعر الحرام الى منطقة بيع وشراء وسوق من الأسواق . وفى القرون الماضية قرون الانحلال عندما كان المسلمون فى غمرتهم ساهين لم يكن هذا الوضع يثير أى اعتراض أو اشمئزاز فلم يكن الدين عندهم سوى حركات تؤدى وصور تتبع بدون روح أو حياة . أما اليوم وقد بدأ العالم الاسلامى يتطور وينهض فقد بدأت الاعتراضات تنهال من كل مكان على هذا الوضع وصيحات الاستنكار ترتفع من حين لآخر . ولا جدال أننا كنا من أول الذين استنكروا هذا الوضع ولم يرتضوه ولانزال نستنكره وندعو للعمل السريع على ازالته ، ولكننا نخالف المستنكرين فى تحميلهم حكومة الملك ابن السعود وزر هذا الأمر من ناحية والذين لايقدرون صعوبة الاصلاح من ناحية أخرى . فهذا السوق الذى أنشىء على المسعى ليس وليد عشرات السنين بل هو وليد مئات من السنين بحيث أصبح جزءا لايتجزأ من مكة وحقوقا مكتسبة بل ومقدسة لايمكن المساس بها . والقرآن صريح فى أباحة الاتجار والتكسب خلال موسم الحج « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » .

التجنى على الحكومة السعودية

فلو أقدمت الحكومة على اغلاق هذه المتاجر جملة لكان ذلك اعتداء على أناس أصحاب حقوق ثابتة ملكوها بطريقة مشروعة ودفعوا ثمنا لها ألوف الجنيهات الذهبية ، وأخذها منهم غصبا هو ظلم لا يرضى به فى البلاد العادية فكيف فى البلد الحرام الآمن الذى لا يظلم فيه انسان « ومن يرد فيه بألحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » •

فلا ظلم فى البلاد الحرام ، واغتصاب حقوق الناس ظلم أشد الظلم • لم يبق اذن الا أن تتراضى الحكومة مع أصحاب الحقوق ليتخلوا عنها ومثل ذلك يكلف أموالا باهظة قد تصل الى ملايين الجنيهات مما لاقبل للحكومة بدفعه • ومن هنا نشأت هذه المشكلة • فهؤلاء الذين يحملون الحكومة السعودية وزر هذا الوضع هم جد مخطئين لأنها ورثته عن أجيال سابقة ولا تستطيع المساس به قوة واعتسافا ، وهى لا تملك من المال مايمكنها من الشراء والانفاق • ومن المعلوم والمتفق عليه أنه لايمكن لحكومة فى الحجاز أن تجد من الموارد ما يمكنها من الانفاق على الحرمين ولذلك كان الانفاق على الحرمين دائما من خصائص العالم الاسلامى فكانت الأوقاف من ملوك مصر وأمرائها وملوك الشام وأمرائه والخلفاء العثمانيين وقفا على هذا الغرض وهو خدمة الحرمين ولم تعد هذه الأوقاف اليوم بذات جدوى أو كبير نفع • فعلى الذين يوجهون النقد واللوم أن يتوجهوا به الى العالم الاسلامى الذى يتساوى فى حملان مسئولية هذا الوضع الشاذ فى المسعى وفى غيره من المناسك •

مسئولية العالم الاسلامى

ومع ذلك فقد سمعت هذا العام من الأمير عبد الله الفيصل أنهم قد اعتزموا القيام بمشروع ضخم ينزعون فيه ملكية البيوت المطوفة بالحرم بحيث ينشئون شارعا أو بالأحرى ميدانا يطوف بالحرم عرضه أربعون مترا يغرسون على جانبيه الأشجار وتنشأ فى نهايته عمارات وبيوتات جديدة على الطراز العصرى ولو صح هذا أو بالأحرى لو تم لكان ذلك مأثرة يدين بها الملك عبد العزيز آل سعود العالم الاسلامى بأكمله ولا يكون قد سبقه اليها سابق الا أن يكون عمر بن الخطاب وعثمان والسيدة زبيدة

مشروع اصلاحى ضخم

والخليفة المهدى — أولئك الذين عمروا فى بنايات الحرم ومرافقه عمارات ضخمة . على أن هؤلاء جميعا كانوا يسيطرون على العالم الاسلامى بأكمله وتجبى اليهم ضرائبه — أما ابن السعود فسيكون أول حاكم من حكام جزيرة العرب ينفق على البيت الحرام ومشاعره مثل هذه النفقة فليمض قدما مستعينا بالله مخلدا ذكره بين الملوك العظام . فهذا البيت الحرام هدف ملايين المسلمين وليس هناك مجد يبقى ويدوم كمجد اصلاحه وتعميره وتطهيره . على أن هذه الأصلاحات اذا كانت تحتاج الى كبير وقت وزمن فان هناك اجراء لا مناص ولا فكاك من وجوبه حالا والا استحقت الحكومة اللوم والتثريب وذلك هو منع السعى بين الصفا والمروة بالسيارات منعا باتا لا استثناء فيه لأحد حتى ولو كان جلالة الملك ذاته .

المساواة جوهر العبادة

ان هؤلاء الذين أجازوا لأنفسهم السعى بالسيارات قد نظروا للأمر من ناحية الفقه وهل يجوز أو لا يجوز فلم يستطع الفقهاء الا أن يفتوا بجوازه من الناحية النظرية أسوة بالسعى على الجمل أو الحمار أو فى محفة أو هودج . ولكن المسألة فى السيارة أنها تزعج الناس وتؤذيهم فى مشاعرهم وأجسادهم وتزحم عليهم الطريق . وهى فى النهاية صورة كريهة من صور التعالى فى العبادة مما ينبغى أن تتجرد منه العبادات كلها وعلى رأسها منسك الحج .

فأساس العبادة هى المساواة بين الناس لا تفاضل بين أمير وحقير واختصاص بعض الناس بالسعى بالسيارة لنفوذهم أو سلطانهم فيه اهدار لمعنى المساواة . ولقد تنبهت الحكومة لذلك فمنعت هذا العام السعى بالسيارات فاستحقت بذلك الشكر ولكن الطريق بعد أن فتح لمرور السيارات لضرورة الحج عادت بعض السيارات للظهور[1] وهذه مسألة يجب أن تنتهى نهائيا فلا تقع بأى حال من الأحوال . ولقد لاحظت

---

(١) قيل لى ان الحكومة اشترت بيت « بناجة » الكائن فى المسعى وأنها هدمته تمهيدا لانشاء نفق فى هذا الجزء لتمر منه السيارات فى طريقها الى منى وعرفات ، منعا لهذا الاضطراب والفوضى .

لأول وهلة أن المسعى قد أقيمت عليه سقيفة من الصلب لتقى الساعين من الحر وقد ركبت بها الأنوار الكهربائية فى نظام بديع فجعلت للمسعى بالليل منظرا بهيجا — فسررت لهذا الاصلاح واعتبرته دليلا محسوسا ملموسا على أن القوم بدأوا يفكرون فى الاصلاح والتعمير بعد أن كان شعار هذه البلاد هو ترك القديم على قدمه حتى ولو أصبح خربا وخطرا على حياة الناس •

بادرة من بوادر الاصلاح

التحلل بعد تمام المناسك

وبدأت السعى وهو السير بين ربوتين عاليتين يطلق على احداهما الصفا وعلى الثانية المروة ويبعدان عن بعضهما ٤٢٠ مترا • والأصل فى السعى أن يرتقى الانسان الصفا داعيا الله بما شاء ثم ينحدر صوب المروة مسبحا الله ذاكرا اياه وداعيا حتى يصل الى المروة فيرتقيه فيدعو الله ويتوجه اليه ثم يكر صوب الصفا من جديد بنفس الأسلوب والطريقة وهكذا حتى تمام سبعة أشواط • وماقيل عن كيفية الدعاء فى المطاف يقال هنا عن الدعاء فى المسعى فهو يتم بذات الطريقة وذات الأسلوب • مطوف أو أحد صبيانه يقود جماعات من الحجاج ويصيح فيهم بأدعية محفوظة فيرددونها دون أن يفقه الكثيرون لما يقولون معنى ، وخير لهم أن يسيروا فى خشوع وسكينة يحف بهم الوقار والجلال وأن تذكر قلوبهم الله وتدعو نفوسهم وأرواحهم الله بما يريحها ويدخل السعادة عليها وأن يسبحوا الله ويكبروه ويحمدوه طوال الشوط •

السعى بين الصفا والمروة

حتى اذا فرغنا من السعى بعد الأشواط السبعة فقد قضينا مناسك العمرة ولم يبق أمامنا الا أن نقص بعض شعر الرأس كى نتحلل من الاحرام فنعود الى ارتداء ملابسنا والاستمتاع بكل ما يستمتع به الانسان فى حياته العادية وهذا هو التمتع الذى يوجب على الحاج أن يفدى عن نفسه بذبيحة (شاة) نزولا على نص القرآن « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى » •

التمتع

الحج والعمرة والاحرام بهما

وموضوع الأحرام بالحج أو بالعمرة أو بالاثنين معا مما يثير جدلا وصخبا فى كل عام بين الحجاج • وهو الموضوع الخالد الذى يتكلم فيه كل حاج مع أى حاج آخر ، ويتعارض فيه كل عالم مع أى عالم آخر • كما أن كثيرين من الناس سواء من حج أو لم يحج بعد ، لا يفهم الفارق بين الحج والعمرة • ولست أريد أن أقوم الآن ببحث فقهى دقيق ولكنى أريد أن أسوق بعض كلمات عامة فى الموضوع ليستأنس بها من يريد •

أما الحج فهو أحد أركان الاسلام الخمسة الذى لا يتم الاسلام الا به لمن استطاع اليه سبيلا فهو من أعظم مافرض على المسلم لأنه ركن لا يقوم الاسلام الا به • ويتألف الحج من احرام بالحج ثم طواف حول الكعبة فسعى بين الصفا والمروة ثم وقوف بعرفات فى اليوم التاسع من ذى الحجة ولا يكون الوقوف الا فى هذا اليوم من السنة ، فأفاضة من عرفات اذا غربت شمس هذا اليوم ، ثم وقوف بالمزدلفة (المشعر الحرام) لذكر الله ، ثم اقامة بمنى يوم النحر أى العاشر من ذى الحجة والاستقرار بها بعد ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم عودة الى مكة للطواف بها طواف الافاضة ، وبذلك تتم مناسك الحج • ولعلك قد رأيت من هذا الاستعراض أن الحج عبارة عن رحلة تبدأ من مكة بالطواف حول الكعبة ثم انتقال الى عرفات التى تبعد ٢٢ كيلو عن مكة ووقوف بها فى زمن معين وتاريخ معين ثم عودة الى مكة ثانية للطواف حول الكعبة بعد قضاء زمن معين فى الطريق •

أعمال الحج

هذا هو الحج فما هى العمرة • هى احرام بالعمرة وطواف حول البيت وسعى بين الصفا والمروة غير مقيد بزمان أو وقت معين فى السنة بل هى واجبة على كل قادم على مكة فى أى يوم من أيام السنة أى أنها بمثابة تحية القدوم للبلد الحرام ومن هنا جاء تداخل العمرة فى الحج •

حقيقة العمرة

وقد أصبحت العمرة واجبا على كل مسلم من نص القرآن « وأتموا الحج والعمرة لله » • ومن هنا جاء هذا المشكل الذى يجد الحجاج

أنفسهم فيه كل عام هل يدخلون مكة محرمين بالحج على أن يحرموا بالعمرة بعد انتهاء مناسك الحج . أم يدخلون مكة محرمين بالعمرة ثم ينتظرون موعد الحج فيحرمون من جديد بالحج أم يقرنون الحج والعمرة معا وينتهون من كليهما معا .

أى المناسك أفضل

والخلاف ينشأ فى أن بعض المذاهب الأربعة يستحسن وجها من هذه الأوجه الثلاثة وبعض المذاهب الأخرى يستحسن وجها آخر .

تعصب علماء الحجاز فى مكة

ويقوم علماء الحديث فى الحجاز ويقعدون كلما رأوا حاجا قد خالف فى ظنهم سنة الرسول فى حجته . فالرسول صلوات الله عليه خرج من المدينة حاجا حجة الوداع والصحابة من حوله بعضهم قد أحرم بنية الحج ، وبعضهم قد أحرم بنية الحج والعمرة معا . فلما أن وصل الى مكة وطاف حول البيت وسعى بين الصفا والمروة ، طلب ممن كانوا معه وسبق لهم أن أحرموا بالحج ، ولم يسوقوا هديا ، أن يفسخوا حجهم ويعتبروه عمرة . وكذلك الذين أحرموا مقرنين الحج بالعمرة أن يقصروا احرامهم على العمرة . فأصبح من الواجب فى رأى علماء الحديث العصريين فى مكة أن لايجوز لمسلم أن يفعل غير ذلك ولذلك فهم لايرضون عن الحجاج الذين يدخلون مكة محرمين بالحج ، أو بالحج والعمرة معا ، وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور لكل من لم يدخل مكة بنية العمرة أولا ثم بنية الحج بعد ذلك .

ويسير علماء الحجاز المعاصرون فى مكة مع منطقهم فى أنهم يتتبعون فعل النبى فى حجة الوداع ويترسمون خطاه فى كل حركاته ويشددون على كل من خالف هذه الحركات فقدم فى بعضها أو أخر . ولقد كنت ممن يرون هذا الرأى واتبعته فى كل مرة حججت فيها وسوف أتبعه ان شاء الله فى كل مرة يقدر لى فيها أن أحج لأن قلبى وخاطرى يطمئنان اليه فهو الأفضل فى نظرى .

ولكنى أخالف علماء الحجاز فى تشددهم مع الآخرين الذين

لايسيرون على هـذا النهج ويقدمون فيه ويؤخرون تبعـا لظروفهم ولأحوالهم ولاجتهادهم • فالحج طواف بالبيت ووقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة وكل ما زاد على ذلك فهو من المكملات والمحسنات التى يتفاوت فيها الناس تبعا لقدرتهم وظروفهم • وعلى هؤلاء العلماء الذين يدينون بالحـديث ويعطون لأنفسهم وحدهم الحق فى تفسيره ضاربين عرض الحائط بتفسير الامام الشافعى لهذا الحديث أو الامام مالك • على هؤلاء العلماء الأفاضل أن يذكروا ما جاء فى حديث حجة الوداع من أن النبى صلوات الله عليه وسلامه ما سئل فى هذا اليوم عن شىء قدم أو أخر الا قال افعل ولا حرج وما ذلك الا لأن رسول الله أراد التيسير على عباد الله وأن يرفع عنهم العنت والارهاق • ولقـد أصبحت بعد أن رأيت ما رأيت من كثرة الحجاج هـذا العام أومن بالتيسير على الناس وعدم الزامهم جميعا بفعـل الشىء فى وقت معين أو ساعة معينة والا كان معنى ذلك الهلاك والدمار .. لقد كان عدد الحجاج يبلغ الثلثمائة ألف هذا العام فماذا يكون الحال لو أنهم التزموا جميعا أن يرموا الجمرات فى ساعة واحدة ودقيقة واحدة ؟ وماذا يكون الحال لو التزموا كلهم أن يطوفوا طواف الافاضة صباح يوم النحر ؟.• أشهد أن معنى ذلك يكون هلاك العباد • ولقد آمنت أن اختلاف المذاهب على هذه الجزئيات هو من باب الرحمة والتيسير على المسلمين فيتأخر هذا عن ذاك ويتقدم مسلم عن مسلم فيكون فى الأمر فرج للناس والعباد .

افعل ولا حرج

واذا كان سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى قد اختلفوا فى موضوع العمرة والحج وبأيهما يكون الاهلال ؛ بل انه روى عن أبى بكر وعمر أنهما منعا الاهلال بالعمرة فكم بالأحرى يكون اختلاف الرأى فى الوقت الحاضر ، وليس فى الناس من يزعم أنه كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى • ان التزمت والتعصب للرأى هما ضرب من ضروب الجهل يجب أن يتنزه عنهما العلماء وانى أفهم أن يقول علماء الحديث فى مكة ، لمن سألهم عن الأفضلية فى المناسك الثلاثة : ان الأفراد بالعمرة أفضل • أما أن ينكروا

التعصب جهل

عليهم التلبية بالحج أو بالاقران ، وأن يزيدوا على ذلك فيغلظوا فى الرأى ويشتدوا فهو جهل مطبق لا خير فيه •

وقد جاء فى كتاب المغنى والشرح الكبير فى الجزء الثالث صفحة ٢٣٢ مايأتى بالحرف الواحد :

ماورد فى المغنى والشرح الكبير

« مسئلة » وهو مخير بين التمتع والافراد والقران •

لاخلاف بين أهل العلم فى جواز الاحرام بأى الأنساك الثلاثة شاء ، وقد دل على ذلك قول عائشة رضى الله عنها : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنا من أهلّ بعمرة ومنا من أهل بحج وعمرة ومنا من أهل بحج • متفق عليه — فذكرت التمتع والقران والافراد • واختلف أهل العلم فى أفضلها فاختار امامنا (ابن حنبل) التمتع ثم الافراد ثم القران •

وقد جاء فى هذا المبحث أنه روى عن مروان بن الحكم قال : كنت جالسا عند عثمان بن عفان فسمع عليا يلبى بعمرة وحج فأرسل اليه فقال ألم نكن نهينا عن هذا قال بلى ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبى بهما جميعا فلم أكن أدع قول رسول الله لقولك رواه سعيد •

فالمسألة اذن مسألة خلافية من البداية حتى النهاية والتشبث برأى دون بقية الآراء والانكار على الآخرين ما فعلوه هو من قبيل الخلط والجهل فليحذر المشتغلون بالحديث فى مكة من تكرار الوقوع فى هذا الخطأ •

فليختر كل حاج ما يلائمه

فليمض المسلمون على سجيتهم ليهل بالحج وحده من شاء أن يهل واطمأن خاطره لهذا النسك ، وليهل بالعمرة وحدها من شاء أن يهل بها واطمأن خاطره لذلك ، وليهل بهما مجتمعين من اطمأن خاطره لذلك فالعبادة هى الاطمئنان والسكينة وكل من اطمأن قلبه الى اجراء فهو حق مادام يستند فى ذلك الى قول صحيح ورأى أئمة سبقوه بالعلم والاجتهاد •

وليفهم من لم يكن يفهم أن هــذا الخلاف ليس هو السر فى تأخر المسلمين كما يزعمون فليس فى الأمر خلاف والكل يحج الى بيت الله

فى يوم معلوم والكل يتوجه بقلب سليم لمرضاة الله رب العالمين • وانما الخلاف هو الذى يخلقه التعصب المذموم فيجعل المسلم يقع فى عرض المسلم ويحكم بكفره وزندقته ويفتى بحربه والاعتداء عليه • فهذا هو الخلاف أشد الخلاف وهى الفتنة أشد الفتنة التى لعن الرسول من يوقظها •

التعصب هو باعث الفتنة

— ٧ —

وما البيت الحرام وزمزم والمقام والصفا والمروة ..؟

ويتساءل الحاج الذى يريد أن يعرف ، ويتساءل العقل ، ويتساءل المسلمون الذين يريدون اليوم أن يعرفوا كل شىء وأن يفهموا كل شىء ماهو البيت الحرام ، وماهو أصله ؟ ماهى بئر زمزم وما المقام ؟ وما السعى بين الصفا والمروة ؟ لماذا كان أمر هذه المقدسات على هذا الشكل ولماذا كان النسك على هذه الوتيرة ؟ ولن يتم حديث عن الحج ومكة والكعبة الا اذا أشرنا بالمامة سريعة الى هذه المعانى ، خاصة وأنها بعض ما تجيش فى نفس الحاج وهو يطوف حول الكعبة وهو يشرب من ماء زمزم وهو يسعى بين الصفا والمروة •

البيت الحرام

لو أنك طالعت كتب الأقدمين فى تاريخ الكعبة ولماذا أنشئت فى مكة ، بل لو أنك طالعت كتاب الأزرقى وهو عمدة الذين كتبوا عن تاريخ مكة وخططها أذن لرأيت أحاديث طويلة تتصل بخلق الدنيا والأرض وأنها دحيت من تحت الكعبة ، وأن الكعبة قد بنيت تحت العرش مباشرة وأن الحجاج يطوفون بها كما يطوف الملائكة حول العرش • وأن أول من بنى الكعبة الملائكة قبل خلق آدم ثم بناها آدم عليه السلام ثم اكتسحها الطوفان فبناها نوح عليه السلام وان الملائكة اذا نزلوا الى الأرض طافوا حول الكعبة وأن فريقا منهم يستأذن الله جل وعلا للنزول الى

أقاويل فى أصل الكعبة

الأرض والطواف حول الكعبة • وكل هذه أقوال وأخبار لانستطيع أن تتعرض لهـا بنفى أو اثبات فهى كلها من أحاديث الغيب الذى هو سر من الأسرار المغلقة على عقول البشر • وانما القول الثابت الذى نستطيع أن نحققه بعقولنا هو الذى حدثنا عنه القرآن الكريم وشرحته الأحاديث وهذان هما المصدر ، الذى لامصدر غيره لمعرفة تاريخ الكعبة •

الرسول يقص قصة إنشاء الكعبة

وفى الكتب الموجودة الآن بأيدى المسيحيين والتى يطلقون عليها اسم العهد القديم اشارة الى هذه الحادثة التاريخية على التفصيل الذى أورده القرآن والحديث الشريف • وجملة مايستخلص من هذه المصادر : أن سيدنا ابراهيم عليه السـلام كان يعيش فى الأرض فى زمن يقرب من عام ١٨٩٢ قبل المسيح • ومن المعروف والمشهور فى سيرة ابراهيم أنه لم يرزق ولدا من زوجته سارة فى بادىء الأمر فبنى بجاريته هاجر المصرية فرزق منها باسماعيل فأكلت الغيرة قلب زوجته سارة ، وطلبت منه أن يغرب أو بالأحرى ينفى هاجر المصرية وابنها اسماعيل ، ولم يكن هذا التغريب فى الواقع الا اردة الله فى أن يكون نقطة البدأ لتاريخ شعب عظيم[1] • فسار ابراهيم عليه السلام حتى وصل الى حيث توجد الآن مكة

---

(١) الاصحاح الحادى والعشرون من سفر التكوين فى العهد القديم •

٩ ــ ورأت ساره ابن هاجر الذى ولدته من ابراهيم يمزح ١٠ ــفقالت لابراهيم أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هـذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق ١١ ــ فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم ١٢ ــ فقال الله لابراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك • فى كل ما تقـول لك سارة اسمع لقولها لأنه باسحاق يدعى لك نسل ١٣ ــ وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك ١٤ ــ فبكر ابراهيم صبـاحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطـاها لهاجر واضعـا اياهما على كتفها والولد وصرفها فمضـت وتاهت فى برية بئر سبع ــ ١٥ ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ١٦ ــ ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس لأنهـا قالت لا أنظر مـوت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسـمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافى لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو ١٧ ــ قومى احملى الغـلام وشدى يدك لأنى سأجعله أمة عظيمة ١٨ ــ وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ١٩ ــ وكان الله مع الغلام فكبر ولكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس ٢٠ ــ وسـكن فى برية فاران (جبال مكة) وأخذت له أمه زوجة من مصر •

ولندع الآن الحديث للامام البخارى حيث نقل بسنده عن ابن عباس عن رسول الله صلوات الله عليه قال : « جاء ابراهيم بأم اسماعيل وابنها وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند درجة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر . وسقاء فيه ماء . ثم مضى ابراهيم منطلقا فمنعته أم اسماعيل . فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انسى ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لايلتفت اليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت اذا لايضيعنا . ثم رجعت . فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت . ثم دعا بهؤلاء الكلمات « رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » حتى بلغ « يشكرون » وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى (أو قال يتلبط) فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى . ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات — « قال ابن عباس — قال النبى صلى الله عليه وسلم : فذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد — نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضا . فقالت قد أسمعت ان كان عندك غوث : فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبة حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع

(قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا) .

وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لاتخافوا الضيعة فان ها هنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لايضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (أو أهل بيت من جرهم) مقبلين من طريق كداء . فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا عائفا فقالوا : ان هذا الطير ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فأخبروهم بالماء فأقبلوا (قال) وأم اسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت : نعم ولكن لاحق لكم فى الماء . قالوا نعم . (قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم) فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وثب الغلام (اسماعيل) وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل . فسأل امرأته عنه . فقالت خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر . نحن فى ضيق وشدة فشكت اليه . قال اذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه — فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته . وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غيّر عتبة بابك . قال ذلك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك . فطلقها وتزوج أخرى . فلبث عنهم ابراهيم ماشاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده . فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا . قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله . فقال ما طعامكم . قالت اللحم . قال فما شرابكم . قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . (قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه . قال منهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه) قال فاذا جاء زوجك فاقرئى

غير عتبة بابك

عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه • فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة — وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشتنا ، فأخبرته انا بخير • قال ما أوصاك بشيء • قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك • قال ذلك أبى وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله — ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نباله قريبا من زمزم • فلما رآه قام اليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد • ثم قال يا اسماعيل • ان الله أمرني بأمر • قال فاصنع ما أمرك ربك • قال وتعينني • قال وأعينك • قال فان الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا — وأشار على أكمة مرتفعة على ماحولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت • فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (يعنى المقام) فوضعه له فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » انتهى حديث البخارى •

ثبت عتبة بابك

واليك الآن ما جاء فى بعض الآيات القرآنيـة اشـارة الى هـذا الحديث العظيم •

أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين — فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين» • آل عمران

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود — واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير — واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم — ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك

أنت التواب الرحيم — ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » • البقرة

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود — وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير — ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق — ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام الا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور — حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق — ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب — لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق » • الحج

وأذن فى الناس بالحج

هذه هى جملة الآثار والتواريخ المحققة عن كيفية انشاء مكة والبيت الحرام وزمزم والمقام • وهذه هى نشأة مناسك الحج الأولى وبذرتها فهذا السعى بين الصفا والمروة ليس الا ترديدا لهذا الموقف الخالد الذى وقفته هاجر المصرية فى هاتيك البقاع تلتمس من الله الرزق والأمن والسلام فمنحها ذلك كله ففجر لها من الأرض ينبوعا وجاء لها بالناس يعيشون حولها وحول ابنها وجعل هذا القسم من العالم حرما آمنا وكان ذلك بدء ميلاد شعب عظيم وأحداث تغير وجه العالمين •

فالحاج اذ يقف اليوم فوق الصفا داعيا فانه يدعو مجيبا وهو اذ يسعى مهرولا نحو المروة داعيا ذاكرا ملبيا فهو يعيد للذكرى موقفا رهيبا انتهى بالفتح والنصر المبين •

حقيقة مقام ابراهيم

وبئر زمزم هى ذات البئر التى وفق الله لها هاجر فأنقذها من الهلاك والدمار • أما البيت فهو من بناء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وما يطلق عليه اليوم اسم المقام ليس سوى ذلك الحجر الذى كان ابراهيم يقف

عليه ليكمل البناء بعد أن ارتفع عن الأرض فلا يظنن ظان أن ابراهيم مدفون فيه فقد دفن ابراهيم فى منطقة الخليل من فلسطين •

عمارة الكعبة

ولقد تهدم بناء ابراهيم الأول بطبيعة الحال وأعيد بناء الكعبة على ذات القواعد أكثر من مرة والمطالع لتاريخ السيرة النبوية يعلم أن موقفا من أعظم مواقف الرسول قبل البعث عندما أنقذ قومه من الحرج الذى وقعوا فيه عندما كانوا يعيدون بناء الكعبة واختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه فى مكانه فبسط الرسول رداءه ووضع فوقه الحجر ثم طلب منهم أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء وأن يرفعوا الحجر حتى اذا ساووا بينه وبين مكان وضعه من البناء أخذه بيده الشريفة من فوق الرداء ثم وضعه فى مكانه فضجت قريش بالبشرى والابتهاج رضاء بحل الأمين للمشكلة • ولم تكن هذه أول مرة يعاد فيها بناء الكعبة ففى القرن الثانى قبل الهجرة هدمها قصى بن كلاب عندما آل أمر البيت اليه وبناها فأحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخيل وبنى الى جانبها دار الندوة وهى أول بناء بعد الكعبة فى مكة وكان بها حكومته ومجلس الشورى مع صحابته •

هدم الكعبة وبناؤها أكثر من مرة

أما فى الاسلام فقد هدمت الكعبة ابان ثورة عبد الله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية عندما قذفها الحصين بن نمير قائد جيش يزيد بالمنجنيق وفى هذه الواقعة يحدث ابن الوليد الأزرقى بحديث عن عبد الله بن عمرو ابن العاص « انه دخل المسجد الحرام والكعبة محرقة حين أدبر جيش الحصين بن نمير والكعبة تتناثر حجارتها فوقف ومعه ناس غير قليل فبكى حتى انى لأنظر الى دموعه تحدر كحلا فى عينيه من أثمد كأنه رؤوس الذباب على وجنتيه فقال : يا أيها الناس والله لو أن أبا هريرة أخبركم : أنكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ، وحارقوا بيت ربكم لقلتم ما من أحد أكذب من أبى هريرة أنحن نقتل ابن نبينا ونحرق بيت ربنا ؟ فقد والله فعلتم ، لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله فانتظروا النقمة فوالذى نفس عبد الله بن عمرو بيده ليلبسنكم الله شيعا وليذيقن بعضكم

بأس بعض يقولها ثلاثا ثم رفع صوته فى المسجد فما فى المسـجد أحد الا وهو يفهم مايقول » •

ومات يزيد فى هذه الأثناء فانصرف قائده عن محاصرة ابن الزبير ونهض عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة مدخلا فيها ما يقرب من ستة أذرع وهو القسم الذى يسمى الآن « حجر اسماعيل » وقد فعل ذلك عبد الله بن الزبير تلبية منه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة حيث قال لها « ان قومك استقصروا فى بناء البيت وعجزت بهم النفقة فتركوا فى الحجر منها أذرعا ولولا حداثة قومك بالكفر لهدمت الكعبة وأعدت ما تركوا منها ولجعلت لها بابين موضوعين بالأرض بابا شرقيا يدخل منه الناس وبابا غربيا يخرج منه الناس • وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : لا ، قال تعززا أن لا يدخلها الا من أرادوا فكان الرجل اذا كرهوا أن يدخلها ، يدعونه أن يرتقى حتى اذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط • فان بدا لقومك هدمها فهلمى لأريك ماتركوا فى الحجر منها ، فأراها قريبا من سبعة أذرع » •

عبد الله ابن الزبير يعيد بناءها

وعلى هذا الأساس بنى عبد الله بن الزبير الكعبة من جديد مدخلا فيها هذه الزيادة وجاعلا للكعبة بابين وسواهما على الأرض • حتى اذا قتل عبد الله بن الزبير ودخل الحجاج مكة فكتب الى عبد الملك بن مروان أن ابن الزبير زاد فى البيت ما ليس منه وأحدث فيه بابا آخر واستأذنه فى رد البيت على ما كان عليه فى الجاهلية فكتب اليه عبد الملك بن مروان أن سد بابها الغربى الذى كان فتحه ابن الزبير وأهدم ما كان زاد فيها من الحجر وأكبسها به على ما كانت • فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مما يلى الحجر وبناها على أساس قريش الذى كانت استقصرت به وسد الباب الذى فى ظهرها وترك سائرها لم يحرك منها شيئا • فالكعبة كما هى الآن من بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقى والجنوبى والغربى وبناء الحجاج من جانبها الشمالى • ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التى تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ هـ ثم العمارة الترميمية التى

الحجاج يعيدها الى ما كانت عليـه

حصلت فى زمن السلطان أحمد ١٠٢١ هـ ثم أعقبتها العمارة التى قام بها السلطان مراد الرابع على أثر السيل الهائل الذى حصل فى سنة ١٠٣٩ هـ ووصل ارتفاعه الى مترين فوق أرضيتها فهدم حوائطها الشمالى والغربى والشرقى • وعمر فيها سلاطين مصر • الأشرف برسباى وقايتباى ونرى أسماءهم محفورة ومنحوتة على الرخام تخليدا لعمل ملوك مصر فى تعمير الكعبة • أما ما عمر فيها بعد ذلك فشىء لا يذكر •. والكعبة على ما هى عليه الآن وهو ما كانت عليه مدة النبى صلى الله عليه وسلم ذات شكل مكعب مبنية بحجارة زرقاء صلبة أشبه بالجرانيت ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترا وطول ضلعها الشمالى والجنوبى عشرة أمتار وعشرة سنتى وطول الضلع الشرقى الذى يوجد به البـاب وكذلك الضلع الغربى أثنا عشر مترا وبابها على ارتفاع مترين من الأرض •

الكعبة من الداخل

وعنـدما ينفذ الانسان الى داخل الكعبة بعـد أن يرتقى هـذا البـاب يجد نفسه فى حجرة مغلقـة لايدخل اليهـا الضـوء الا من خـلال البـاب ويغشى الانسان موجـة من الخشوع العميق فهو فى داخل الكعبـة ويساعد على ذلك هذه العطور والبخور الذى يملأ سماء المكان وفى وسط الحجرة ثلاثة أعمدة ترتفع الى السقف وهى من خشب العود وهى من زمن عبد الله بن الزبير على ما يقولون • ويوجد على يمين الداخل فى زاوية الركن الشمال الشرقى باب يصعد منه على مدرج الى أعلا الكعبة يقال له باب التوبة مسدول عليه ستارة من الحرير ومعلوم أن الرسول عندما فتح مكة صلى ركعتين فى داخل الكعبة ولذلك لايزال بداخلها قبلة تحدد الاتجاه الذى صلى اليه الرسول • ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب عليها « الله جل جلاله » • أما من الخارج فكسوة الكعبة معروفة ومشهورة تقدمها مصر كل عام من صنع مصلحة الكسوة وهى من الحرير الأسود الموشى والمطرز فى بعض أجزائه بالذهب والفضة •

الحجر الأسود

لم يبق بعـد ذلك مايثير التساؤل فى نفس الحاج اذ يطوف حول البيت الا هذا الحجر الأسود الذى يبدأ منه الطواف والذى يروعك

أول ما يروعك هــذا التزاحم على تقبيله حتى ليصاب بعض الناس من الضعفاء بالأذى ولولا وجود الشرطة باستمرار حول هذا الحجر لوقعت من الحوادث ما لا يعلم الا الله مداها . فالجميع يأبون الا تقبيل الحجر ومن العلماء والشيوخ من أفتى بوجوب المزاحمة على ذلك ولو أدى الأمر الى اصابة الانسان بجراح . والحجر الأسود حجر صقيل بيضاوى غير منتظم لونه أسود براق كأنه قطعة من الأبنوس يميل سواده نحو الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى من أثر لحام القطع التى تكسرت منه وقطره نحو ثلاثين سنتيمرا ويحيط به اطار من الفضة عرضه عشرة سنتيمترات .

والأقوال فى الحجر الأسود كالأقوال فى أصل الكعبة كثيرة وكما قيل أن الكعبة قد بنيت بعد خلق الأرض وأن الملائكة بنوها وكانوا أول من طاف بهــا ، فكذلك الحجر الأسود قيل أنه من أحجار الجنة وأن الملائكة قد جاءت به ووضعته فى هذا الموضع . وقيل فى فوائده أنه شفاء من كل سقم وانه غافر من كل ذنب ، وانه يمين الله فى الأرض . وهذه كلها أقوال تتصل بعــالم الغيب لانستطيع أن ننفيها أو نثبتها ولنا ماقاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه « اللهم انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبّلتك » .

اللهم انك حجر لا تضر ولا تنفع

وحدثنا أبو الوليد الأزرقى عن جده عن سفيان بن عبيدة عن مجاهد عن الشعبى . قال : لما أمر ابراهيم أن يبنى البيت وانتهى الى الحجر (الأسود) قال لاسماعيل : ايتنى بحجر ليكون علما للناس يبتدئون منه الطواف فأتاه بحجر فلم يرضه فأتى ابراهيم بهذا الحجر ثم قال : أتانى به من لم يكلنى على حجرك .

علامة لبدء الطواف

فالغاية من الحجر الأسود هو تحديد نقطة لابتداء الطواف وتنظيمه ولولا ذلك لاضطرب أمر الطواف وأصبح فوضى بغير نظام فهلك الناس والعباد لاصطدام بعضهم ببعض على عكس ماهو حاصل الآن حيث يطوف عشرات من الألوف فى صعيد واحــد ومكان محدود ولكن

فى نظام يبدأون من الحجر الأسود ويسيرون فى اتجاه واحد منطلقين يطوفون ويختمون أشواطهم السبعة وهكذا دواليك دون تعارض أو اختلاف بين الناس •

أما تقبيل الحجر فكما قال عمر بن الخطاب بحق لا ينبغى أن ينطوى على اعتقاد فى الحجر وانه يضر أو ينفع أو أنه يحوى سرا ربانيا لا يحويه أى حجر آخر وانما نقبل الحجر تصديقا لفعل رسول الله ولأنه موطن يستسلم الانسان فيه الى خالقه مبديا له من صنوف الضراعة وألوانها ما يقر فيه بالعبودية للخالق العظيم والذى بث أسراره لا فى هذا الحجر فحسب بل فى كل كائناته ومخلوقاته ابتداء من الشمس وما هو أعظم منها حتى أصغر ذرة وأصغر حشرة من الحشرات[1] •

— ٨ —

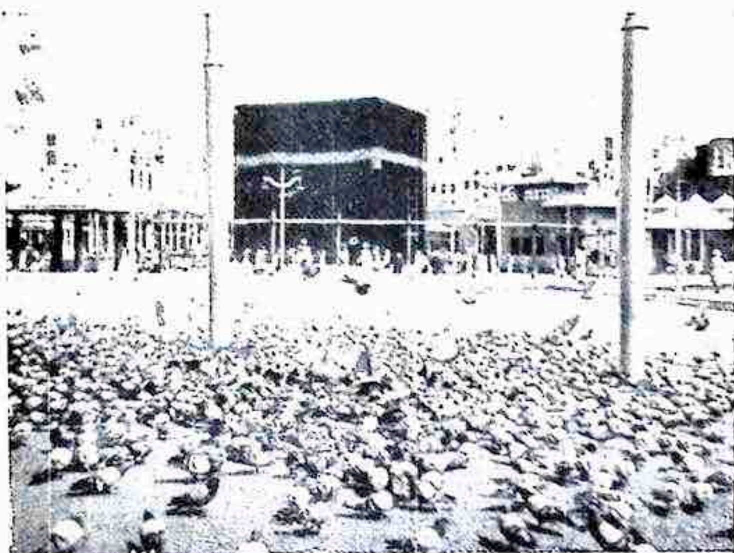
اعتكاف حول البيت

أدينا مناسكنا وفرغنا منها قبيل الفجر ثم صلينا الفجر فى الحرم المكى وعدنا الى بيت الشيخ عبد السلام غالى لنبيت فيه بعد أن تعذر فى هذا الوقت المتأخر أن نجد مكانا آخر للمبيت • والشيخ عبد السلام غالى يعرفه كل من قدر له أن يحج بيت الله الحرام فهو صاحب دار الضيافة ومديرها ، وهو من هؤلاء الأشخاص القلائل النادرين الذين يمنحهم الله القدرة على ارضاء الناس جميعا • بسمة عريضة من قلب خلى من الحقد

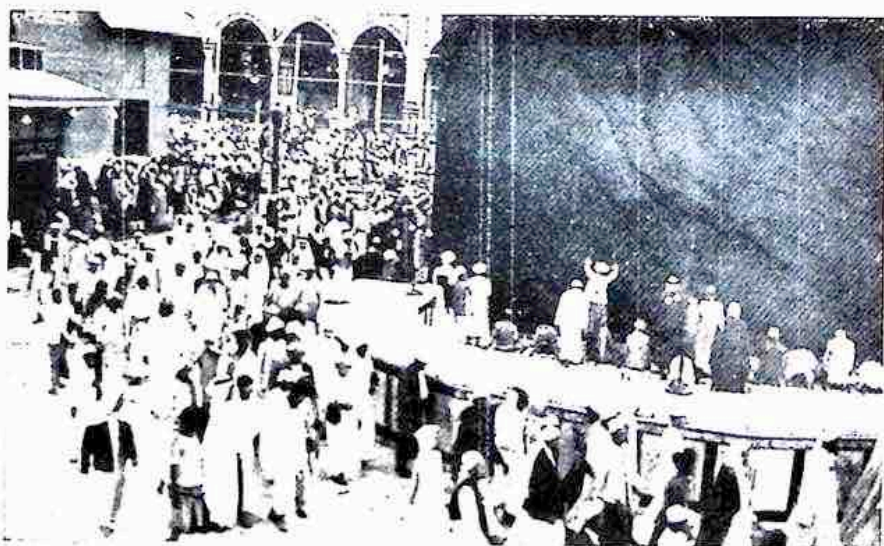
عبد السلام غالى

(١) لقصة الحجر الأسود بقية : ظهر فى أيام المقتدر العباسى طائفة فى العراق يسمون القرامطة وهم يدينون بأن محمد بن الحنفية بن على كرم الله وجهه هو الامام الذى لا امام غيره وأول من ظهر منهم هو أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى دارا فى هجر ، من أعمال البحرين فى شرق جزيرة العرب ، وسمى هذه الدار دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحجاج اليها فكان يقصد الطرق المؤدية الى مكة فيفتك بمن يسير فيها قاصدا الحج • ثم توجه الى مكة فى عسكر كثيف فى ابان موسم الحج ودخل الى الكعبة بخيله ورجله وأوضع السيف فى الراكعين والطائفين فقتل فى مكة وشعابها أكثر من ثلاثين ألفا على ما يقولون • ثم انتزع الحجر الأسود وانصرف به الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم •

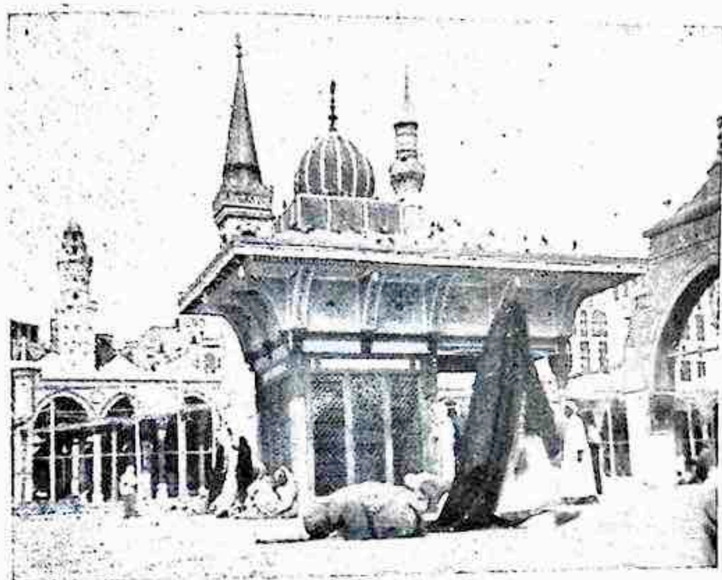
وبعد موت طاهر القرمطى رأى قومه أنه من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم فأعادوا الحجر الى مكانه من الكعبة حيث ظل بها الى الآن •



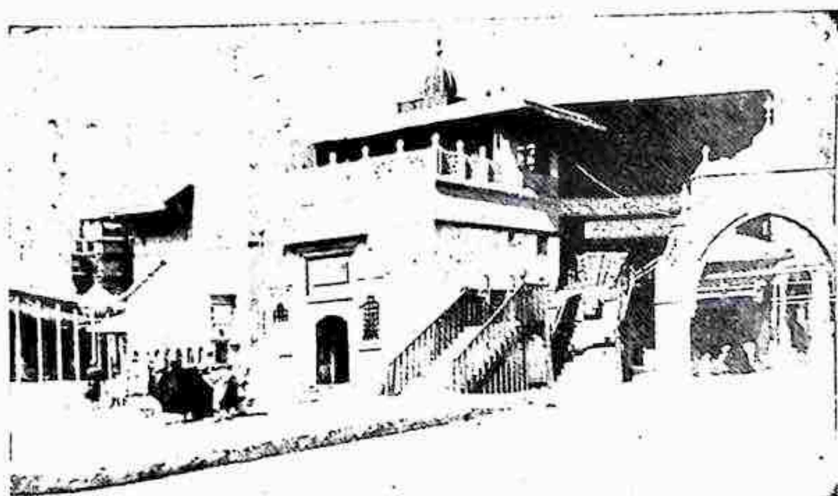
ها هى ذى الكعبة المشرفة ببنائها الشامخ المهيب وأستارها السوداء ،
وها هو حمام الحمى يرتع فى ظلالها رمزا على السلام والأمن



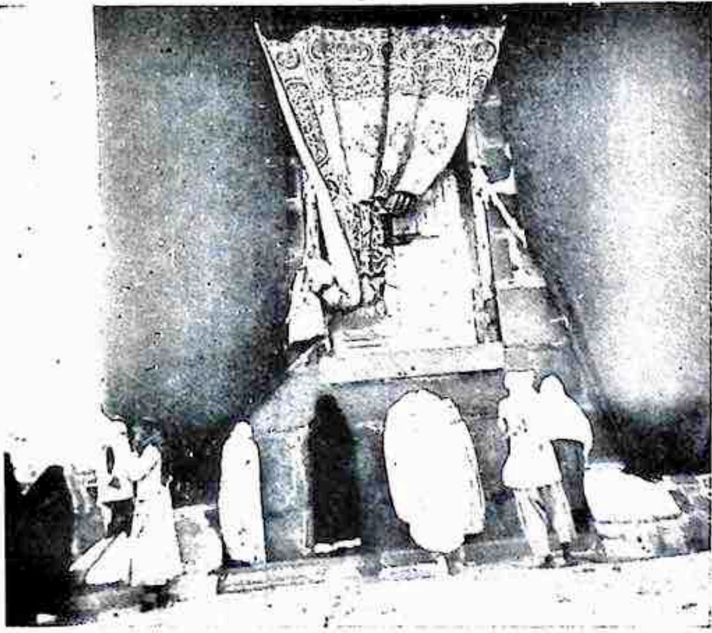
ويقترب الانسان من الكعبة فتعظم فى نفسه كلما ازداد قربا منها وكأنها الصخرة الشماء تطوف بها أمواج البحر المتلاطمة ، بحر الحجاج المتدفق ويرى فى هذا الجانب من الكعبة حجر اسماعيل والبعض يصلون فيه والبعض يطوفون من حوله



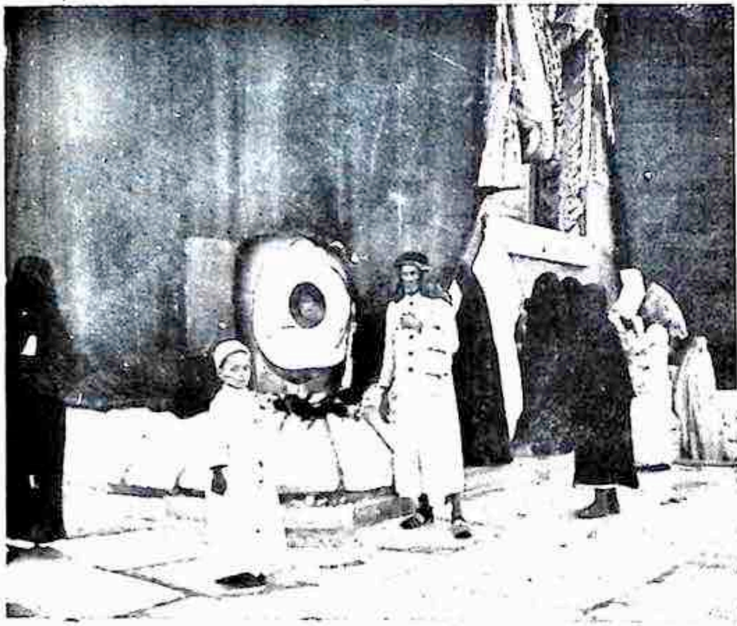
مقام ابراهيم
واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى



مبنى عين زمزم
ماء زمزم لما شرب له



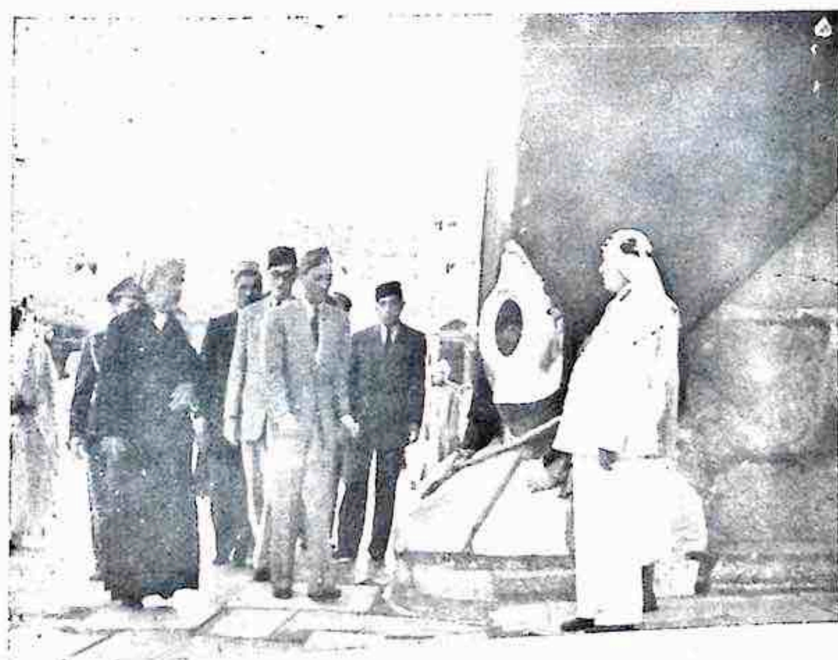
باب الكعبة



الحجر الأسود وباب الكعبة والشاذروان



الحجر الأسود يحيطه اطار من الفضة لصيانته



ملك الأفغـــان
كأى عبد خاشع يبدأ طوافه من الحجر الأسود

والحسد والأطمــاع يخف لخدمة أصغر الناس كأكبرهم ، يفرج كربة المكروبين ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويواسى من يحتاج الى المواساة ويخفف غضب الغاضبين ويتحمل أوزار المسيئين ، ويعتذر عن أغلاط الخاطئين بعد أن ينسبها الى نفسه • وانك لتراه فى كل مكان فى الأيام العصيبة ، هو هنا وهو هناك ، والجميع يتصايحون به يا شيخ عبد السلام ، يا شيخ عبد السلام ولو قطع الشيخ عبد السلام اربا لما استطاع بأجزائه المتناثرة أن يلبى كافة ما يطلب منه ، ولكنك لا ترى الشيخ عبد السلام شاكيا ولا تراه ألا ساعيا فى هــذا العمل أو ذاك قادرا على الاعتذار أجمل اعتذار لهؤلاء الذين لم يستطع أن يحقق لهم ما يطمعون •

ولقد عرفت الرجل منذ حجتى الأولى ورأيته بعد ذلك فى كل مرة حججت فيها فكانت سعادتى لا تقدر أن يكون هو أول من يخف للقائنا كما هى العادة وأن يكون بيته هو الذى يأوينا فى ليلتنا الأولى •

وما ألذ النوم فى هذه الليلة الأولى ، ما ألذه بعد هذه المتاعب الجسدية والنشوة الروحية ، بعد أن يكون الانسان قد أتم مناسك العمرة فأحرم وطاف وسعى وصلى واستحق بعد ذلك أن ينام مرتاح الضمير والقلب والروح • فهو قد جاء من بلاد بعيدة ملتمسا القربى والزلفى من الله وجدير به أن يشــعر بالرضا والغبطة اذا كان صادقا فى مسعاه فهل يمكن الا أن يتقبل الله ! وهل يمكن الا أن يرضى عن المخلصين الصــادقين ! ذهبنــا فى الغــداة الى بيت الشــيخ محمد الراضى المطوف لنرى اذا كان بيته يصــلح لاقامتنــا فقــد خيرنا القوم جريا على عادتهم أن نختــار لأنفسنا ما يحلو وما نطمئن اليه وعرض الشيخ الراضى بيته المطل على الحرم ليكون مستقرا لنا فلم أكد أذهب الى البيت وأرى القاعة التى ستخصص لنا فيه حتى أيقنت أن هذه أول علائم الرضا الربانية ، فلقد جئت الى الحجاز كما قدمت طامعا هذه المرة فى أن أعيش فى عزلة واعتكاف بعيدا عن الناس ومخالطتهم وخاصة عن الرؤساء والحكام ، بعيدا عن التظاهر والرياء والادعاء الكاذب • لقد كانت نفسى وجسدى مجروحين

فى بيت الشيخ الراضى

وكنت أريد أن أشفى فى هــدوء وفى صمت بعيدا عن الأنظار فكان ما أطمع فيه خلوة أعتكف فيها ، وأن أؤدى صلواتى الخمس فى الحرم فاذا بالشيخ الراضى يقدم لى هذه الخلوة فى داخل الحرم نفسه أى فى بناء الحرم فقد كانت (المدرسة) التى سنقيم فيها عبارة عن حجرة فى سور الحرم ، فهى من الحرم ، ويتألف أحد جدرانها من نافذة كبيرة فى مواجهة الكعبة الشريفــة . وهكذا تحقق المثل الأعلى الذى رجوته لأقامتى . فلقد كنت أمضى طول يومى فى عزلتى أطالع القرآن أو أحد الكتب ، فاذا حان أوان الصلاة أديناها مع الجماعة فى الحرم دون أن نبرح حجرتنا فقد كنا فى الواقع نقف جميعا فى مؤخرة الصفوف ، وكنا نرى الامام ونسمع ترتيله ونقتدى بحركاته وليس بيننا وبينه فاصل أو حجاب . وهذه هى كل الشروط التى اشترطها الفقهاء لتكون الصلاة مع الجماعة . وحتى لو قال الفقهاء بغير ذلك لما غير ذلك من سرورى واغتباطى بالصلاة على هذا الأسلوب وشعورى بأنها مع الجماعة وفيها كل ما فى صلاة الجماعة من خير فالعبادة عندى هى اطمئنان واقتناع وسكينة ، ولقد اطمأنت نفسى وسكن قلبى ورضيت عقيدتى بهــذه الوحدة وهذا الاعتكاف فأنا بعيد عن الناس متصل بهم يفصلنى عنهم هذا الجدار وهذه النافذة الحديدية ولكنى معهم وحلقة فى سلسلتهم ولبنة فى بناء جماعتهم ويالها من جماعة وياله من منظر ويالها من عبادة .

شروط صحة صلاة الجماعة

صلاة الجماعة فى الحرم

انى رجل طوفت كثيرا فى الدنيا ورأيت مناظر ورأيت حشودا من الناس فى شتى الصــور والأشكال ولقــد راعتنى كثير من التجمعات هنا وهناك ، ولكنى أشهد أن ليس فى الدنيا كلها حشد كهذا الحشد المتجمع فى الحرم الشريف اذا حضرته الصلاة سواء من حيث الغاية التى اجتمع من أجلها ، أو النظام الذى تحتذيه الجماعة . لقد رأيت بضع مئات من الآلاف يحتشدون فى صــعيد واحد لمشاهدة احتفالات رياضية فى تشيكوسلوفاكيا ورأيت عددا أقل وان كان يتجاوز المائة ألف يشهدون فى انجلترا احدى مباريات كرة القدم ، ولقد راعنى استطاعة هذه الجموع

الحشود الرياضية

أن تجتمع وأن تنصت دون أن يقع حادث وراعنى ما هى غليه من نظام وانسجام حتى ليصل بها الأمر الى أن تنشد كلها نشيدا واحدا فى صوت واحد وكأنهم رجل واحد • ولقد رأيت جموعا أخرى تناهز العشرة آلاف وقد احتشدت فى قاعة واحدة لتشهد حفلة موسيقية وقد راعنى منها هذا الصمت العميق الذى يشبه أن يكون صلاة وهم يستمعون لنغمات الموسيقى حتى ان الرجل يكاد أن يحبس أنفاسه خوفا من أن يحدث صوتا يعكر هذا الصمت الرهيب الذى لا يجب أن تسمع فيه سوى أصوات الموسيقى التى قد تخفت حينا حتى لتتحول الى همس أو الى ما يشبه حفيف النسمات •

الحفلات الموسيقية

كل ذلك رأيته وسمعته وأعجبت به ومع ذلك فأشهد أن ليس هناك ما يمكن أن يصل أو يسمو الى بعض مرتبة هذا الحشد فى الحرم المكى أبان الصلاة الجامعة فى موسم الحج • فهؤلاء اناس ليسوا من شعب واحد ولا أمة واحدة ولا يتكلمون بلغة واحدة ولا يمتون الى جنس واحد انهم خليط من كل شعوب الأرض أبيضها وأسودها وأصفرها وأحمرها ، وقد جاءوا جميعا من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر • جاءوا على متون الطائرات أو على ظهور البواخر أو سيرا على الأقدام عشرات الألوف ومئاتها جاءوا يشقون ويكدحون الأيام الطوال والأسابيع والشهور لا ليلتمسوا ربحا أو تجارة ، لا ليلهوا أو يرفهوا عن أنفسهم ولكن ليعبدوا الله مخلصين له الدين متجردين من كل شيء الا الرغبة فى اظهار الطاعة والخشوع أمام عظمته • انها غاية تتضاءل الى جوارها أعظم الغايات فهذا الحشد الضخم لا مثيل له فى العالمين لافى القديم ولا فى الحديث فليس سوى الاسلام من استطاع أن يجمع الناس على اختلاف أجناسها وشعوبها وتباعد أماكنها فى صعيد واحد • فاذا هتف المؤذن (حى على الصلاة) توافدت الجموع فى لحظات واصطفت كلها فى حلقات حول الكعبة وليس لها منظمون أو مشرفون • وليس لها من يأمر أو يوجه ، وانما الجميع مسلمون يعرفون من أمر الصلاة أنها نظام وصفوف فهم يتراصون من تلقاء أنفسهم وفى غمضة عين ترى ربع مليون

الكل فى واحد

من البشر أو يزيد وقد وقفوا جميعا فى حلقات متتالية ولقد كنت أنظر اليهم من كوتى وكأنى أنظر الى فيلم سينمائى وقدصيغ من أبدع الألوان فالملابس الزاهيــة الحمراء والخضراء والبيضاء والصفراء والبنفسجية والقرمزية والزرقاء تتلألأ كلها وتتمازج وتتماوج تحت أشعة الشمس فى النهار أو فى أضواء الكهرباء الساطعة بالليل والكعبة شامخة سامقة عالية البنيان بكسائها الأسود المقصب ويكبر الامام تكبيرة الاحرام فاذا الجميع يكبرون ثم يقفون خشعا كأن على رؤوسهم الطير ، ويسود الصمت العميق على هذه المئات من الألوف ، حتى لتوشك أن تسمع نبضات القلوب • ويرتل الامام القرآن فينصت الجميع ويستمعون بالروح كلها ، حتى اذا ختم التلاوة وكبر راكعا ركع الجميع ثم كبر ساجدا سـجد الجميع • وانى أتحدى أن يكون لذلك مثيل أو شبيه فى أى قطر أو مصر من أمصار العالم فى أى زمان أو مكان أو عصر من العصور قبل التاريخ أو بعد التاريخ أو فيما يجد من الزمان ، أتحدى أن يكون لذلك شبيه أو قرين أن يتجمع ربع مليون من البشر فى مسجد واحد وأن يصلوا مجتمعين تحت قيادة امام واحد • انها معجزة الاسلام الخالدة والتى لا يتسامى اليها دين من الأديان •

مشهد فريد

ولو رأيت هؤلاء المصلين كما رأيتهم فى يوم الجمعة السابق على الحج مباشرة وقد تضاعف عددهم حتى ناهز النصف مليون وقد وقفوا جميعا للصلاة فى شدة القيظ والصخور الجرانيتية والحصا تحت أقدامهم تستعر نارا والشمس من فوقهم تصب فوق الرؤوس نارا حامية ولقد خطب الامام فأطال الخطبة متجاهلا ما يعانيه الناس من حرارة القيظ ثم بدأ صلاة الجمعة فأطالها حتى لقد قرأ فيها سورتين من المفصل ولقد انتقدت الشيخ عبد الظاهر أبى السمح فى هذه الاطالة فعلى الرغم من أننى كنت فى خلوتى مستظلا بالظل فقد كنت أشعر بما يعانيه هؤلاء الناس وكان جسدى يرتعش كلما تخيلت الأرض التى تشوى الأقدام شيا وقد وقفوا عليها ، والشمس التى تصـهر الحجر وقد وقفوا عراة

صلاة الجمعة

انرءوس تحت وطأتها وشيخنا يطيل فى الخطاب ويطيل فى الصلاة وليس هناك من يشكو أو يتضجر ، وليس هناك من يخرج على الصف أو يسرع فى الحركة أو يخل بالنظام . ولست أشك لحظة فى أن الكثيرين منهم ماكانوا ليحتملوا بعض الذى عانوه فى غير هذا المكان ، ولست أشك لحظة أن عشرات الألوف منهم كانت تصاب بضربة شمس قاتلة فى غير هذا المكان ، أما هنا فالايمان الذى يملأ قلوبهم هو أعظم وقاية لهم من هذه النكبات . وكم للايمان فى مكة من معجزات تذهل الطبيب وتحير العالم فالميكروبات تنتشر فى كل مكان عن طريق العدوى باللمس والاحتكاك والاستنشاق ولو كانت هذه القاعدة سارية فى مكة وسط هذه الجموع لوجب فى كل عام أن تجتاحها الأوبئة والأمراض فما أكثر المرضى بمختلف الأمراض الذين يغشون مكة والذين يدخلون اليها بدون رقابة صحية فمن الذى يجرؤ فى زعمهم على منع حاج من الوصول الى بيت الله الحرام ولو كان مريضا بأخبث الأمراض ؟ وأنظر بعد ذلك اليهم وهم يقبلون الحجر الأسود ويلعقونه والجميع يتهافتون على هذا العمل ، وانظر اليهم وهم يتخالطون ويتمازجون بأقوى مما يتخالط أو تمتزج جماعة من الجماعات وحسبك هذا الزحام فى صلاة جامعة ومع ذلك فلا مجال للأوبئة أو العدوى . وينقضى العام بعد العام والبلاغات تصدر أن الحج كان نظيفا ولم يقع فيه ما يكدر وأن الذين ماتوا ، وقد يعدون على الأصابع ، قد ماتوا موتا طبيعيا لفرط الشيخوخة .

معجزة الايمان

انها احدى معجزات الايمان التى لا يستطيع العلم لها تفسيرا وقد طالعت للأمير شكيب أرسلان تفسيرا تقبلته بعض الوقت فهو يعزو الى شدة حرارة مكة وجفافها السر فى هذه الظاهرة فهو يرى أن لا سبيل لحياة الميكروبات فى هذه البيئة . على أن الفنيين لايستطيعون أن يسلموا فى بساطة بهذه الحجة ففى أمكنة أخرى يشتد فيها الجفاف وترتفع الحرارة بأكثر مما هو الحال فى مكة لاتنعدم الأمراض أو الأوبئة ولا تتعطل العدوى كما هو الحال فى مكة وعندى أن لا تعليل لهذا الأمر الا سر الايمان الذى لم نستطع حتى الآن اكتناه مغاليقه .

الايمان سر مغلق

الميكروفون فى الحرم

ولقد لفت نظرى بمجرد استقرارى فى خلوتى والاشتراك فى صلاة الحرم أن الميكرفون يستعمل فى صلاة المغرب والعشاء والفجر وهى الصلوات الجهرية وقد ابتهجت أشد الابتهاج لاستعمال الميكروفون بحيث تصورت دائما أنه سيكون مرحلة تحول فى حياة مكة كلها باعتبارها كعبة الحجاج . فمن اليوم سيتذوق الحجاج جميعا جمال الحج وسيعرفون معنى النظام وتنسيق الحركات فقديما لم يكن هناك سبيل لتنظيم هذه الجموع وقيادتها الا فى خلال الصلاة فى الحرم كما قدمنا على أساس أن الكل يعرفون الصلاة ويعرفون أصولها وقواعدها أما فيما خلا الصلاة فليس ثم سبيل للتفاهم مع هذه الجموع التى تتكلم بلغات مختلفة والتى لا يصل الصوت الى أسماعها . أما اليوم وبنعمة العلم الحديث فسوف يمكن توجيه الحديث لهم بل سوف يمكن ازجاء التعليمات لهم بمختلف اللغات وسيقادون جميعا كما يقادون الآن فى الصلاة بواسطة امام .

الأمير سعود والمذياع

سوف يتمكنون اليوم فى لحظات معينة أن يقفوا فى صعيد واحد ليستمعوا جميعا كلمة امام واحد وأن يرتلوا خلفه ماشاء من أدعيات وابتهالات . سوف ينظم المرور ، سوف تقاد مواكب الحجاج وفق خطط مرسومة بحيث تكفل الراحة للجميع وكل ذلك من خلال استعمال الميكروفون . ولقد سمعنا القصص المعتادة فى مثل هذه المناسبة وكيف أن استعمال الميكروفون بدعة من البدع التى قاومها علماء نجد حتى اللحظة الأخيرة وأن الفضل كل الفضل فى استعمال الميكرفون فى الحرم انما يرجع أولا وأخيرا الى سمو الأمير سعود ولى العهد والذى أمر بوضعه عندما ناب عن والده فى موسم حج ١٣٦٦ — ١٩٤٧ أى فى العام الماضى .

وكان ذلك أول ما طرق سمعى عن دور الأمير سعود فى وضع دعائم الاصلاح فى المملكة السعودية وعدت بذاكرتى الى أيام رحلتى فى أمريكا عندما جاء الأمير سعود زائرا وقابلته فى فندق والدورف استوريا فلما

سمع باسمى أقبل علىّ وأحاطنى بعطفه قائلا اننا نعتبرك دائما أبدا كأحد أولادنا ولم يكن هناك ما يمكن أن يدخل السرور على نفسى أكثر من هذا التعبير • عادت الىّ هذه الذكرى كومض الخاطر بمجرد أن قيل لى ان الفضل فى استعمال هذا الميكروفون انما يعود الى الأمير سعود وقلت فى نفسى وأى عجب فى ذلك بعد هذه الزيارة وانما العجيب أن لا يتم ذلك • هل يمكن للأمير سعود بعد أن رأى ما رأى فى أمريكا ، وبعد أن صعد الى قمة عمارة الامباير ستيت بلدنج ونظر للدنيا الجديدة من حوله دنيا العلم والمال والصناعة والفن ، هل يمكن بعد أن طاف أرجاء الولايات المتحدة وشاهد ما شاهد من معجزات العلم الذى صير هؤلاء الأمريكان والأوربيين من قبلهم سادة الدنيا ، هل يمكن الا أن يؤمن برسالة العلم والتقدم والنهوض • انه لحق وعدل أن يكون أول ما يعمله الأمير سعود بعد عودته من أمريكا أن يأمر بالميكروفون ليستعمل فى الحرم المكى فهو أمر يسير لا يكلف قليلا أو كثيرا فالميكروفون استعمل من قبل فى حفلات القصر الملكى فالأدوات موجودة والأجهزة موجودة والفنيون حاضرون واذن فليبدأ العمل فورا • وقد بدأ بصورة متواضعة ثم طلب من الحكومة المصرية أن توفد من المهندسين من يضع نظام الاذاعة فى الحرم على أسس علمية واسعة النطاق وهذه هى بداية العمل • وان الميكروفون يبدو مضطربا فى بعض الأحوال مما يجعل بعض المتزمتين الجهلة يصيح من جديد مظهرا سوء هذه البدعة الجديدة ولكن هذه العيوب لن تلبث أن تصلح بل لقد صلحت بالفعل قرب انتهاء موسم الحج فأصبح الميكروفون كخير ما يمكن أن يكون وسترسخ أقدامه كما رسخت أقدام السيارة والتليفون اللاسلكى من قبل وينعم الحجاز وتنعم المملكة السعودية بل وينعم الحجاج الذين كانوا يعانون ويلات الفوضى سينعم هؤلاء جميعا بنعمة هذه المعجزة العلمية معجزة ايصال صوت الفرد الى ملايين واستطاعة انسان واحد أن يوجه أمما وشعوبا فرقت بينها المحيطات والصحارى والجبال فى مشارق الدنيا ومغاربها • وغدا عندما يذهب الحجاج الى الحرم المكى فيسمعون تلاوة القرآن أثناء الصلاة

الأمير سعود فى أمريكا

معجزة الاذاعة ونعمتها

وبعد الصلاة ، ويستمعون الى الدروس الدينية والتوجيهات الاصلاحية سوف يتساءلون فى دهشة وحيرة كيف كان الحجاج من قبل يقدرون على تسيير شئونهم بغير هذا الميكروفون وكيف كانوا يستفيدون أى فائدة من هذا الحج بدون هذا الميكروفون ؟ وسيظلون يذكرون أن الأمير سعود هو أول من خطا هذه الخطوة لمصلحة المسلمين .

ولقد كان استعمال الميكروفون احدى الأمانى التى دارت فى خيالى منذ أمد بعيد فوجدتها وقد تحققت هـذه المرة فاذا أضفت الى ذلك أننى حضرت الى الحجاز فى بضع ساعات بالطائرة وسرت من جدة لمكة فى ساعة ونصف ساعة فى طريق معبد وما لاحظته فى خلال السعى بين الصفا والمروة من أن السيارات قد حيل بينها وبين ازعاج الساعين فأصبح محرما عليها قطع المسعى عرضا وطولا وأخيرا هذه السقيفة الجميلة المضاءة بأنوار كهربائية فى الليل والتى قصد بها حماية الساعين من قيظ الشمس الشديد كل ذلك أدخل بعض الطمأنينة على نفسى فقد كان

نشوء فكرة الاصلاح

أخشى ما أخشاه أن أعود بعد هذه السنوات الطوال فأرى الأمور كسابق العهد بها .. اهمال وجاهلية مضاعفة وظلمات فوق ظلمات . كان أخشى ما أخشاه أن أجيء فأرى الحكام لا يعرفون أن الدنيا تندفع من حولهم وأن الجمود ليس له سوى نتيجة واحدة وأثر واحد هو فناء الجماعات والأمم .

— ٩ —

الحج

انتهت الأيام القليلة الباقية على الحج على هذه الحال حتى اذا جاء اليوم الثامن من ذى الحجة أعلنت أننى سأتجه صوب منى ، أول مراحل الطريق الى عرفات ، سيرا على الأقدام وقد دهش الجميع لهذا العزم خاصة وأن الحكومة تفضلت فوضعت سيارة صغيرة تحت تصرفى فى خلال أيام الحج وكان الأستاذ الغندور أشد المعترضين فهو يرى نفسه مضطرا

لزاملتى اذا أصررت على السير على الأقدام وحالته الصحية لا تمكنه من هذا السير وهو أمر لم أتبينه الا بعد أن وصلنا الى منى • ولذلك فقد أصررت على أن تكون رحلتى الى منى سيرا على الأقدام والمسافة من مكة الى منى ليست بالشيء الطويل فهى لا تتجاوز ثمانية كيلو مترات ولقد اعتدت هذه الرحلة سيرا على الأقدام فى كل حجاتى السابقة • وليس فيها صعوبة الا من ناحية النعـل الذى طالما آذى قدمى لعدم تعودى على لبسه فاذا خلعت النعل أوذيت قدماى من الحصى والأحجار والأشواك فى الطريق وأوذيت بالأكثر من حرارة الشمس الشديدة عندما ترفع حرارة الأرض الى أعلى الدرجات • ولذلك فقد قررت أن تكون رحلتى فى هذه المرة عقب صلاة الفجر مباشرة قبل أن تشرق الشمس وترتفع حرارتها فيتسنى لى أن أسير حافى القدمين دون أن أتأذى •

الى منى سيراً على الأقدام

والسير على الأقدام الى منى والسير بقدم عارية ليس من سنن الحج ولا من مستحباته وانى لأعلم أشد العلم أن الاسلام يكره الصعب من الأمور بل ويحرم التعذيب • والعبادة فى الاسلام على خلاف العبادة فى بعض الأديان الأخرى لا تعتمد على هذا الضرب من انهاك الجسد فضلا عن ايذائه ، واننى لأعرف بل أدعو المسلمين أن لا يتصوروا روح دينهم قائمة على الحرمان أو التقشف أو الزهد فالدين الاســلامى دين اجتماعى انسانى يريد للمسلمين القوة والعزة والفتوة ويريد لهم حيــاة طيبة فى الدنيا والآخرة معا • فلست أتصور أنه بأيثارى المشى على الأقدام ازداد قربا من الله ولست أتصور السير حافيا مما يزيدنى تقربا الى الله • ولكن المسألة عندى كما أشرت من قبل هى مسألة راحة ضمير واقتناع فهؤلاء الذين يعيشون طوال حياتهم وهم يسيرون على الأقدام أحب لهم اذا جاءوا الى الحج أن يركبوا ما شاءوا ، هؤلاء الذين عاشوا فى الحرمان أحب لهم أن لا يحرموا من شيء سواء فى الحج أو فى غير الحج • أما أنا الذى أعيش فى القــاهرة فى بيت نظيف ، أنا الذى أركب الســيارة ويعاملنى الناس على أننى رجل غير عادى لا أكاد أحس أننى استفدت

أى فائدة روحيــة لو أننى سرت فى موضوع الحج نفس الســيرة . لو أننى لم أتحرك الا فى السيارة ولم أعامل الا باعتبارى رئيس حزب أو رئيس جماعة فأى رياضة روحية أكون قد أفدت من الحج . لقد كان الحج فى القديم رحلة طويلة المدى على الجمال تستغرق بضعة شهور حتى فى عصورنا الحديثة كان الأمر يتطلب ركوب البحر ثلاثة أيام كاملة أما أنا فقد حضرت فى بضع ساعات بالطائرة فلو أننى سرت كغيرى من الناس أركب السيارة وأحضر الحفلات وأحيا حيــاة اجتماعية كاملة فأى فائدة روحية أكون قد أفدت من الحج وما رحلتى.كلها الا بقصد هذه الفائدة وهذه الرياضة النفسية الروحية . فكل ما يمكننى من أن أعيش وحيدا هو من برنامجى وكل ما يخرجنى عما ألفته فى حياتى العادية هو من أهدافى ومن هنا كان تفكيرى فى أن أسير الى منى حافى القدمين ملبيا ومكبرا بل ومتأملا فى أكثر الوقت .

يوم التروية

وهكذا أحرمت ملبيا بالحج قبيل فجر يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة وانطلقت عقب صلاة الفجر وبصحبتى أخى حلمى الذى أبى الا أن يلازمنى وصاحب ثالث استحب أن يحضر معنا وتركنا السيارة لصديقنا الشيخ الراضى ينتفع بها مع بقية حجاجه .

كان الجو جميلا ونور الفجر قد عم الأرجاء ولم نكن نحن بطبيعة الحال الوحيدين فى طريقنا فمئات وألوف من الحجاج الفقراء وخاصة التكارنة أبناء نيجيريا بصفة خاصة وأفريقيا بصفة عامة يؤثرون السير على كل ما عداه من وسائل الانتقال وهناك جماعات أخرى تفكر نفس تفكيرنا ولذلك فقد سرنا وسط الآخرين نسرع حينا ونبطىء حينا نجتمع بهم ونفترق عنهم وليس أحب الىّ من أن أرى نفسى أسير منفردا بعيدا عن كل انسان . أسير وقد تلاشيت فى هذا الوجود ، ما ألذ أن أشعر أننى مجهول نكرة بل أصغر من نكرة . ما ألذ أن يحس الانسان أنه ذرة ، ذرة وسط هذا العالم اللانهائى .

الفناء فى الوجود

وما أكثر ما يغمرنى هــذا الاحساس وأنا أســير وسط هذه البادية مجردا من الملابس الا من الأزار الذى لا أعنى بتنسيقه وتنميقه كما يفعل البعض ، فهو عندى مجرد خرقة تستر العورة ، شاعرا بأننى لا شىء ، لا جاه ، لا سلطان ، لا مال ، لا مكانة أو مركز . اننى لازلت أذكر اللذة التى شعرت بها فى أحد حجاتى السابقة عندما وصلت الى منى مكدودا منهوكا بعد هذا السير الطويل فبحثت عن مكان فيه ظل أستظل به فلم أجد الا شبرا من الظل الى جوار حائط فألقيت بنفسى الى جوار الحائط وجعلت من نعلى وسادة ثم استغرقت فى نوم عميق يرفرف علىّ الاحساس اننى لا شىء ولم يبق منى شىء الا حبى لله وعبوديتى له .

ولقد كانت هذه الذكرى تطوف دائما بخيالى وكان أقصى ما أتمناه أن أوفق هذه المرة لمثل هذه النومة الى جدار حائط ولكن هيهات أن يكون بقدرتك أن تفعل كل ما يحلو لك وأنت فى رفقة آخرين فلست أحب أن أبدو شاذا أو نافرا أو صعب المراس ولذلك فقد كان علىّ أن أساير صاحبى وقد اختار صاحباى أن يجلسا بعد وصولنا الى منى فى احدى المقاهى فتناولنا طعام الافطار (فولا مدمسا) ممزوجا بالحصى وبعض الأحجار الصغيرة ثم شربنا الشاى وهو الشراب الوحيد السائغ فى بلاد الحجاز ثم نمت على احدى طاولات المقهى وظللت نائما حتى استيقظت على أثر انتهار حاج آخر لم تعجبه نومتى لسبب من الأسباب والحق انها لم تعجبنى أنا أيضا وقد كنت أوثر عليها نومتى الى جوار جدار ولذلك فقد انتهزت فرصة هذا الحادث وطلبت من الجماعة أن نبرح المقهى ولقد شعرت بشىء من الرضا عن نفسى والرجل الآخر ينتهرنى بدون وجــه حق ويظهر الغضب علىّ دون أن أتجهم أو أغضب أو يتغير دمى أو مزاجى وكل ما شعرت به هو الأسف فى أن أكون سببا لازعاج آخر .

حاج ينتهرنى

ولقد كان حلمى الغندور بدوره فرحا أنه استطاع أن يقطع هذه المرحلة سيرا على الأقدام فقد شعر لذلك بلذة لم يكن يحسها لو أن السيارة حملته فى بضع عشرة دقيقة .

وبحثنا عن المكان الذى سنبيت فيه كما وصفه لنا مطوفنا فلم نكد نصل اليه حتى وجدنا بعض الحجاج قد سبقونا اليه مع المعدات اللازمة للمبيت • والرحيل الى منى فى اليوم الثامن من ذى الحجة والمبيت بها من الأعمال التى قام بها الرسول فى حجة الوداع ولذلك يصيح رجال السنة مرة أخرى محتجين على كل من لم يفعل ذلك ويصفونه بالمروق من السنة بل من الدين بأكمله فلا فارق عندهم بين الأثنين وعلى الرغم من أننى أفعل ذلك شخصيا وأستحبه فلست أستطيع موافقتهم على ما يذهبون اليه كما قدمت فقد كان الرسول صلوات الله عليه يفعل ذلك حيث لم تكن له مركب للاستعمال سوى الجمل والمسافة ما بين مكة وعرفات ٢٢ كيلو ومثل هذه المسافة لا يمكن قطعها سواء لركاب الجمال أو المشاة وهم الأكثرية الساحقة فى ذلك الوقت فى يوم واحد فكان لابد من تجزئتها تخفيفا على الناس وتوفيرا للمشقة • ومن هنا كان الرحيل الى منى فى اليوم الثامن لقطع ثمانية كيلو مترات من المسافة فلا يبقى بعد ذلك سوى أربعة عشر كيلو وهى مسافة يمكن قطعها فى مرحلتين أو مرحلة واحدة فى ثلاث أو أربع ساعات وبذلك يمكن الوصول الى عرفات فى وقت مناسب فى يوم الوقفة • هذه هى حكمة التبكير بالذهاب الى منى فى اليوم السابق قصد منها التيسير على الناس ورفع المشقة • أما اليوم وبعد استعمال السيارات التى تستطيع أن تنطلق من مكة الى عرفات فى أقل من ساعة واحدة من الزمان فقد أصبح الذهاب الى منى والمبيت بها ليس ضربا من ضروب التيسير قدر ما هو ضرب من ضروب التشديد فالذين يعرفون صعوبة الاستعداد وقلة المواصلات يدركون كم يكلف المبيت فى منى لعامة الحجاج من مشقات •

حكمة المبيت بمنى

ولقد كنت أسأل المرحوم الشيخ حسن البنا عن رأيه فى هذا الموضوع فكان هو الذى أعطانى التفسير المتقدم فى حكمة المبيت الى منى فى اليوم الثامن وقال لى رحمة الله عليه لقد اعتدت أن أفعل ذلك بنفسى فى كل عام أما بعد هذه المرة فسوف أقصد عرفات مباشرة فى اليوم التاسع تخفيفا على الناس ورفعا للعنت عنهم والمشقة •

رأى حسن البنا

ومرة أخرى أناشد أهل السنة أن لا يتشددوا فى هذه الجزئيات التى ليست من صميم الموضوع ، ومرة أخرى ألفت نظرهم الى سوء حالة الحجاج لو عمدوا جميعا الى الأخذ بنظام واحد فساروا فى دفعة واحدة والتزموا جميعا مواقيت معينة وحركات معينة فان هذا من شأنه أن يحدث لهم أكبر الحرج والمضرة . والقاعدة الأساسية فى الدين أن لا ضرر ولا ضرار • فليذهب الى منى من استطاع من الحجاج فى اليوم الثامن فى طريقه الى عرفات وليذهب الى عرفات من مكة مباشرة من أراد فى اليوم التاسع فالجميع لا يبتغون سوى مرضاة الله وعبادته واختلافهم فى التفاصيل والجزئيات هو من قبيل الرحمة لا النقمة •

يوم الحج الأكبر

أوثر الجمل على السيارة

بتنا ليلتنا فى منى وفى الصباح صلينا الفجر وأصبحنا على استعداد للتحرك صوب عرفات • وأردت أن أستعمل الجمل فى هذه المرحلة فركوب الجمل فى البلاد الحجازية هو فى نظرى بعض النسك أو هو بعض السنة على الأقل أو لم يركب الرسول الجمل فأينا لايحب أن يركب مركب الرسول ومرة أخرى لا أريد أن أجعل البعض يتصور أننى أوثر الجمل على السيارة فنحن يجب أن نعيش فى عصرنا ولقد انقضى عهد الجمل وانتهى وأصبحت الطيارة هى سبيل الانتقال ومع ذلك فاستعمال الجمل من حين لآخر وفى ساعات قصيرة وبخاصة فى هذه البقاع المقدسة هو مبعث للسرور والانشراح واللذة الروحية • ما أقبح السيارة وهى تنطلق بنا من منى الى عرفات وهى تنهب الأرض نهبا وسط مثيلاتها من السيارات فلا نلبث أن نرى أنفسنا وسط الحشد والجموع الزاخرة بدون فترة انتقال أو استعداد وما أجمل الرحلة فوق الجمل حيث يسير متهاديا كالماء الرقراق ينساب جداول ، ما أبدع الرحلة فوق الجمل تحت هذه السماء الزرقاء ووسط هذه الجبال الشامخات والحاج يلبى ويكبر ويهلل لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك • ان تسعة أعشار أسرار الحج الروحية فى نظرى هى التأمل والتفكر فكلما أتيحت للحاج الفرصة أن يتأمل وأن يفكر وأن يستعرض أسرار الخالق كلما كان حجه أصدق وأنضج وذلك لايتأتى بحال من الأحوال فى هـذه

التفكر جوهر العبادة

الانتقالات السريعة عن طريق السيارة فى هذه المسافات القصيرة أما فوق الجمل وهو منعزل عن الناس والرحلة أمامه تستغرق ساعتين أو ثلاث فليس له سوى التأمل والتفكير العميق ، ولقد جربت ذلك فى حجاتى السابقة فكان لذلك أكبر الأثر فى نفسى . أما هذه المرة فقد ظهر الاحتجاج الصامت على الغندور : انه يرى نفسه مضطرا لمسايرتى ويعتبر ذلك فرضا واجبا عليه ومن ناحية أخرى فهو يرى فى ذلك الأمر تكليفا بما لايطاق ولذلك فقد أمسك عن الكلام ولكننى كنت أحس أنه محتج على هذا الأسلوب الذى أتبعه فى تنفيذ أغراضى وأهوائى (كما تبـدو له) وانى أحب دائما أن لا أشذ عن اخوانى أو أن أبدو لهم فى صـورة المستبد بآرائى وأفكارى ومن ناحية أخرى فقد طلب منى الشيخ الراضى مطوفنا فى شبه استعطاف ورجاء أن أستعمل السيارة حتى لاننفرق عن بعضنا فأسبب له متاعب لايقوى على احتمالها ولذلك كله فقد عدلت كارها عن تحقيق مافيه راحـة نفسى وضحيت بسعادتى الخاصة ارضاء للآخرين وامتطيت السيارة الصغيرة فاندفعت بنا صوب عرفات تبطىء حينا ريثما ينفسح لها الطريق وتسرع حينا اذا خلا الطريق حتى وجدنا أنفسنا فى سهل عرفات وهو يغص بالجموع الزاخرة كما يزخر البحر بمياهه وكان علينا أن ننتظر فى مكان معين ريثما يتجمع بقية الحجاج ويحين موعد صلاة الظهر فى مسجد نمرة فجلسنا فى بعض هذه المقاهى التى تقام على عجل لمثل هذه المناسبة ، ولقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى لا آبه بما يحيط بى ولا أشعر بما فيه من نقص أو خطأ واضطراب ... ولكن الغندور كان يحس لشخصين لى ولنفسه ولولا أننى كنت أضغط عليه من حين لآخر وأذكره بما نحن فيه من موقف وماينبغى أن نكون عليه من التسامح بل والاتجاه بكلياتنا الى الله ... لولا هذه التذكرة من حين لآخر لانفجر أكثر من مرة لشناعة مايحيط بنا من ظروف وأحوال . فأنت تجلس فى مقهى على قارعة الطريق تتألف من قطع خيش ممزقة نستظل بظلها ثم يقدم لك الرجل بعض الشاى أو غيره فى أوان وأوعية غير نظيفة ، ولكى ننظفها بأيدينا نصب بعض الشاى المغلى ونغسلها به

فى عرفات

ثم هو يعاملك فى جفاف وغلظة ويطالبك بمبلغ باهظ جدا ثمنا لهـذا الشاى ثم لايلبث كل بضع دقائق أن يطالبك بالانصراف أو طلب شاى آخر وهو فى كل ذلك عنيف غليظ • ويسبب ذلك الكثير من المشاجرات مع الناس بطبيعة الحال وكان يمكن أن يسبب معنا بالذات ماهو أكثر من مشاجرة لولا أننى لم أكن أحس من الرجل الا ناحيته الخيرة فهو قد أمدنا بهذا الظل وبهذا المكان نأوى اليه وسط هذا اليوم العصيب كأنه يوم الحشر •

في مسجد نمرة

واقترب موعد صلاة الظهر فقمنا الى المسجد وأخذنا مكاننا فيه فى الصفوف المتقدمة تحت القسم المسقف وهو ما يعتبر نعيما بالنسبة لبقية المسجد غير المسقوفة حيث تتسلط الشمس فتجعله كأنه قطعة من الجحيم • وجلست أقطع الوقت فى تلاوة القرآن وقد كنت أضع على رأسى غطاء (طاقية) بسبب هذا الجرح الذى كان بها وقد أوصانى الأطباء أن لا أعرضه للشمس أو التلوث وبالرغم من أن الجرح كان قد أوشك أن يلتئم أو هو قد التأم بالفعل فقد كانت قواعد الحرص تقضى أن أظل أغطى رأسى ولقد فعلت ذلك مخالفا قواعد الاحرام التى تقضى بكشف الرأس غير أن الدين الاسلامى وهو دين كله يسر قد أجاز ذلك فى مثل هذه الحالة فى مقابل أضحية يقدمها الحاج ولقد انتويت أن أفعل ذلك واطمأن خاطرى بهذا الاجراء ولكن من أنى لبقية الحجاج أن يدركوا هذه الحقيقة ولذلك فقد وجدتنى بعد قليل محل أنظار الحجاج نظرات كلها تفيض بالاستنكار بطبيعـة الحال ومن حين لآخر يقترب منى أحدهم قائلا : « ياحاج اخلع هذه الطاقية ولا تفسد حجك » فأقول له السبب فى لبسى اياها وهو أن برأسى جرحا واننى سأقدم فدية فى مقابل ارتداء الطاقية فيهز رأسه مقتنعا أو غير مقتنع ثم ينصرف عنى فلا يلبث بعد قليل أن يأتى ثان وثالث يتحدث أحدهما بالهندية والآخر بالفارسية وثالث بلهجة لا أستطيع أن أميزها ولكن الجميع بطبيعة الحال يشيرون الى خطأ تغطية الرأس ومخالفته لمناسك الحج • وقد رأيت أنه من العبث أن أظل أسبب للناس

مشكلة تغطية رأسى

كل هذه الفتنة بارتدائى هذه القلنسوة ولما كنت لا أريد أن أكون محط أنظار الناس لا بالرضاء أو الاستهجان فقد قررت أن أخلع « الطاقية » وأن أعرض رأسى للهواء والشمس هاتفا لله فى أعماق نفسى أن لا يجعل ذلك شرا علىّ وأنا لا أبغى سوى مرضاته وبركاته .

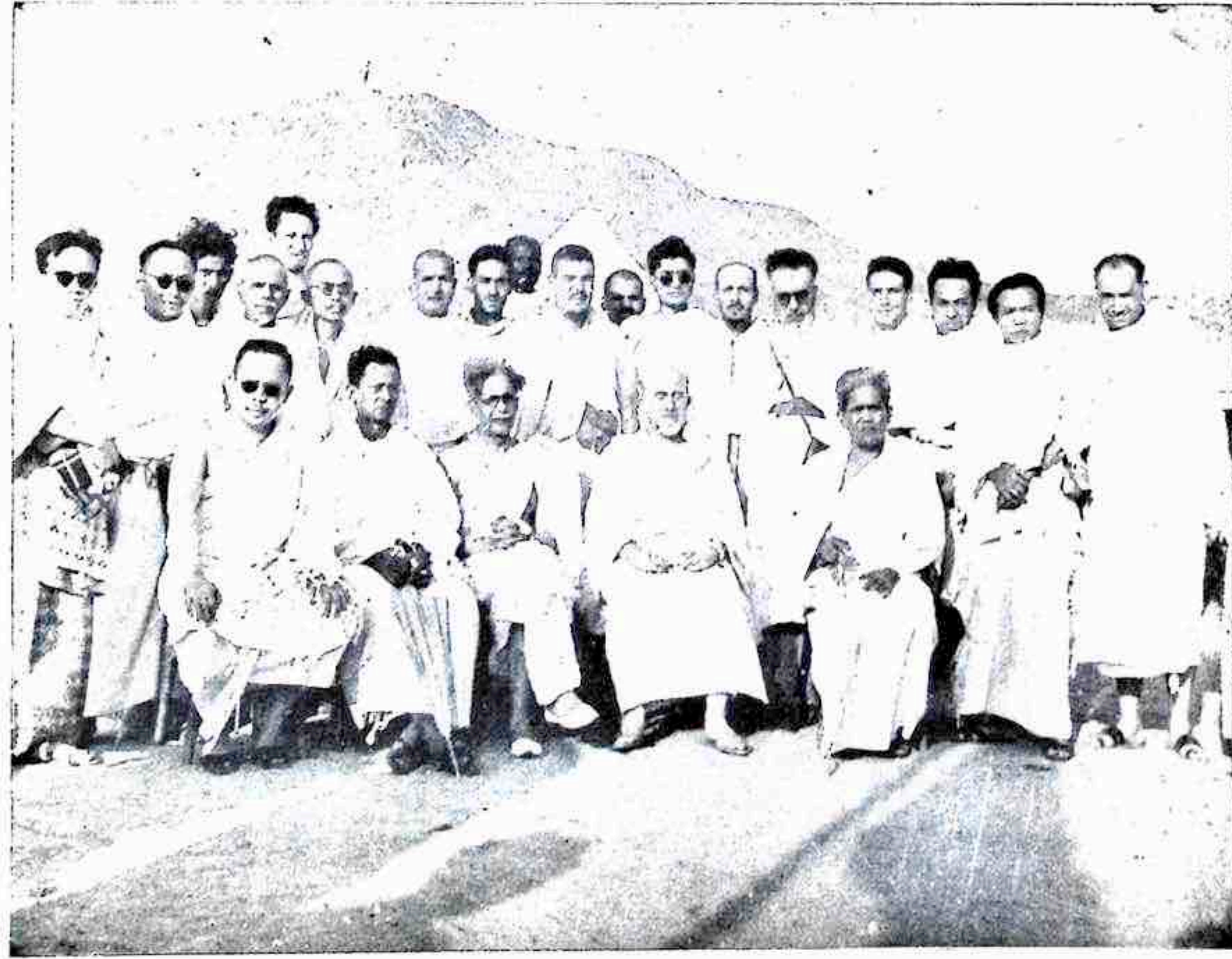
وشعرت بالراحة الشديدة بعد خلع الطاقية فلن ألفت النظر بعد الآن ولن يحلق فىّ محلق ولم يكن هناك ما أصبو اليه أكثر من أن أشعر أننى أعيش وأتحرك كذرة من ذرات الصحراء أو نقطة فى أغوار المحيط لا يحس بها انسان أو يدخلها فى اعتباره ، ولكنها هناك كائنة وموجودة شاعرة بأنها موجودة .

وفرغنا من صلاة الظهر والعصر معا قصرا وجمعا جمع تقديم أسوة بما فعل الرسول ثم اتجهنا عقب الصلاة صوب مخيمنا الذى أقامه الشيخ الراضى كغيره من المطوفين وجلسنا تحت احدى السرادقات تتقى وهج الشمس وحرها وكان هذا هو الموقف ، فكل عرفة موقف ، وليس كما يظن بعض الجهلة من الحجاج أن الوقوف لا يتم الا بتسلق المرتفعات القائمة هناك وخاصة مايطلق عليه جبل الرحمة فلو أن هذه المئات من الألوف تزاحمت لترتقى قمة هذا التل ، اذن لهلك منهم عشرات الألوف وجرح من جرح وأوذى من أوذى ولذلك فقد قال الرسول صلوات الله عليه « كل عرفة موقف » فلم يعد هناك مجال للتزاحم والتكأكؤ حول منطقة معينة أو مكان معين .

كل عرفة موقف

الحج عرفة

وبالوقوف جزءا من نهار اليوم التاسع من ذى الحجة يتم الحج ويكمل ، ولا يكمل الا به فكل ماسبق هذا الموقف من اجراءات ومناسك ليس الا تمهيدا له وكل مالحقه من مناسك ليس الا تتميما له ولكن فريضة الحج لاتكون الا بالوقوف فى هذا اليوم المحدد بعرفة ولاتكون الا به ذلك أن حكمة الحج الذى شرع من أجله لاتتجلى فى منسك قدر ماتتجلى فى هذا الموقف العظيم الذى يذكر الناس بيوم الحشر .



فى يوم الحج الأكبر ـ انك تعرف الكثيرين منهم ولكن ملابس الاحرام قد سوت بينهم . ان فيهم مفتى فلسطين الأكبر ـ وفيهم وزير اندونيسيا المفوض ـ وفيهم الأستاذ على الغاياتى ... وغيرهم وهذه آية الحج الكبرى

المساواة فى ذروتها العليا

شىء الا ملابس الاحرام البيضاء — مئزر يستر العورة ورداء يقى الجسد لفحة الشمس ولاشىء يغطى الرأس ولن تعرف فى هذا الزى الملك من الجندى ولا الراعى من الرعية ولن تعرف الجنسية أو القومية ولن تعرف العالم أو الجاهل فالجميع سواء جاءوا من بلاد بعيدة يدعون الله أن يكفر عنهم سيئاتهم وأن يهديهم سواء السبيل •

ولقد كان الموقف فى عرفة يصل الى ذروته عندما يقف الامام أو من يمثله ليخطب هذه الجماهير ويعظها ثم يدعو باسمهم ويؤمنون على دعائه • ولكن مذ بدأت الدولة السعودية وقد امتنع هذا التقليد لأسباب سياسية ورغبة فى تفادي الخلافات أما اليوم وبعد استعمال الميكروفونات فلابد من أن يعود هذا التقليد الحميد فيكون على هذه الجموع أن تلبى كلها بصوت واحد فى ساعة واحدة خلف امام واحد وأن يدعو هذا الامام ويدعون بدعائه وانه ليكون صوتا يهز السماوات والأرض ذلك الذى ينبعث من حناجر وقلوب نصف مليون من البشر يكبرون الله ويعظمونه ويستغفرونه ويتوبون اليه •

سوء حالة الموقف

أما اليوم فالموقف تسوده الفوضى والهرج وانك لترى المنظر الذى تراه حول الحرم وفى المسعى حيث يقود كل مطوف أو صبى مطوف جماعات وزمرا من الحجاج داعيا بصوت ولهجة توجب السخرية فى كثير من الأحيان والحجاج يرددون وراءه ترديد الببغاء • وترى المكان وكأنه سوق وليس موقف عبادة بل هو سوق على وجه التحقيق تجرى فيه المساومات والمقاولات حول المطاعم والمشارب وبقية أنواع السلع ويثير ذلك من الجدل مايثار فى كل سوق من الأسواق • والجماهير فى مجموعها تؤدى هذه العملية عملية الوقوف فى عرفة كاجراء ميكانيكى آلى لايستلزم منهم أكثر من مجرد الوقوف فى عرفة وقوف الاستقرار وليس يهم فى قليل أو كثير ماذا يقولون أو ماذا يفعلون ولقد ترى التجار يعقدون صفقات وترى البعض يتناقشون ويتحاسبون وآخرون يتجادلون الى أن يذكرهم مذكر أنهم فى عرفات حيث لا جدال ولا مناقشة ولا خصام فيتظاهرون

بالانصياع الى الصواب ولكن قلوبهم تظل مشغولة بما كانت مشغولة به •

وقد تسبب أزمة نقصان المياه أو انعدامها فى بعض الأحيان كربا لعشرات الألوف فيظل الظمأ شغلهم الشاغل يلهيهم عن كل شيء وقد يضيع أقوام أو بالأحرى ينقطعون عن بقية زملائهم فينالهم الفزع والجزع ويشغلون بالبحث عن رفقائهم عن كل شيء آخر ، وما أكثر مايسود عرفة من أشياء ومواقف وظواهر تصدم خيال الحاج الصادق المخلص ونفسيته ولقد أصبحت هذه الأشياء معروفة ومشهورة يتحدث بها الخاص والعام وأجمع الكل على وجوب الاصلاح وضرورته كما وضعت المشروعات اللازمة لذلك ولم تعد بعيدة عن حساب الحكومة السعودية وعلى رأس هذه المشروعات تقسيم عرفة الى شوارع وأقسام ذات نمر معينة حتى يعرف كل حاج مكانه ومستقره فلايخشى على نفسه من الضياع وأن تمد مواسير المياه وحنفياته فى طول عرفة وعرضه وأن يجهز بمحطة للاذاعة ليتسنى قيادة هذه الجموع وتوجيهها وتوحيدها ولو بعض الوقت كما هو الشأن فى صلاة الجماعة حول الحرم ليأخذ الموقف جلاله وروعته ولقد حدثنا بذلك كله وزير المالية معالى الشيخ عبد الله السليمان وانه جاد فى تنفيذ ذلك بعد أن توافرت لديه وسائل العمل ولن ينتظر مايجود به المسلمون لتحقيق هذه المشروعات الضخمة • فنرجو أن يوفقه الله لتحقيق هذا الاصلاح الحيوى • أزمة المياه

تجرد وابتهال

على أننى كنت فى شغل شاغل عن كل هذه الأفكار وأنا فى ذلك الموقف•وما هذه الآراء والأفكار الا خواطر جاشت فى النفس قبل هذه المرة أو بعد ذلك فى محادثاتنا مع المسئولين ، أما يومها فلم يكن فى نفسى أى محل للنقد أو الاعتراض أو عدم الرضا عن شيء من الأشياء •

لقد جلست أتلو القرآن سورة تلو سورة وتلاوة القرآن تحدث فى الروح ما يحدثه الغسل بالنسبة للجسد فاذا ما استحم الانسان شعر بنفسه وقد انتعش وابتهج وعندما يتلو الانسان القرآن ويتفهم معانيه يشعر بروحه وقد انتعشت وابتهجت وشفت ورقت ثم انتحيت ناحية منعزلة

دعاء واستجابة

ورحت أدعوا الله دعاءً ما أظننى دعوته من قبل على كثرة ما دعوت الله ، لقد رحت أبكى وأبكى أكثر ما أكون شعورا بالضعف والهزيمة ، أكثر ما أكون شعورا بالعجز وقلة الحيلة • وفجأة شعرت وكأنما قد أزيح عن كاهلى عبء ثقيل ، وكأننى كنت مقيدا بالأغلال والسلاسل ثم تحررت منها ، أو كأننى كنت فى ظلام دامس مخيف ثم خرجت الى النور • أحسست كأن يدا رحيمة قد مست قلبى ونفسى ، كأنها أنهضتنى من سجدتى ومنحتنى العفو والشفاء ، لقد وجدت لسانى يردد : لقد استجيب دعائى ، لقد استجيب دعائى • ولم يكن هناك مايدعو الى هذا التصوز والظن ، ولكنها راحة غمرتنى ، وشعور نفسى ملك علىّ حواسى ، فوجدت الدموع التى كانت تنهمر من عينى وقد كفت عن الانهمار ، والكآبة التى كانت تسود حياتى وقد انقشعت ، وانتشرت على فمى ، أو هكذا خيل الى ، ابتسامة عريضة هى ابتسامة الرضا والهناءة •

غيث من السماء

ولا جدال فى أن هذا الاحساس كان يغمر الكثيرين ممن وقفوا موقفى، وعلى أية حال فلم تكد الشمس توشك على الغروب حتى تساقط من السماء رذاذ من المطر ، والحق انه لشىء عجيب لا نعرفه نحن المصريين ، حيث لانرى المطر الا فى الشتاء فى سماء ملبدة بالغيوم ، أما فى يوم قائظ كهذا اليوم فقد كان هبوط هذه القطرات من المطر قبيل غروب الشمس شيئا جميلا من غير شك • وهتف الجميع كما كنت أهتف بينى وبين نفسى منـذ لحظات ، لقد اسـتجيب لنا فالمطر آية الرحمة ، وهطوله فى هذه اللحظات الأخيرة من الموقف علامة الرضا والقبول •

وتلك مسائل كما ذكرت من قبل لا يقر بها العلم ، فهو لا يعترف بأية علاقة بين هطول المطر وبين دعاء الناس ، فلنزول المطر أسباب طبيعية مقررة فى كل زمان ومكان ، وأنا كما قدمت ممن يؤمنون برسالة العلم ، وما يقدمه من أسباب ظاهرة لمعرفة طبائع الأشياء ، ومع ذلك فستبقى هذه الظاهرة التى حدثت أمامى شيئا ينطوى على سر أعمق من الأسرار العلمية : لقد هطلت الأمطار فى يوم قائظ شديد الجفاف لايرى فيه فى

السماء سحاب أو غمام ، هطلت على غير انتظار أو توقع ، والشمس تؤذن بالمغيب بعد يوم حافل بالدعاء لرب العالمين ، أن يتقبل من الناس حجهم ، وأن يغفر لهم خطاياهم ، ويطهر ذنوبهم ، فهطلت الأمطار وكأنها رسالة علوية تقول للعالمين : لقد تقبل منكم ، لقد تقبل منكم .

(ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)

وغربت الشمس ووجبت الافاضة من عرفة الى المشعر الحرام ، أى ما يسمونه المزدلفة . ولقد كانت قريش تأبى صلفا وكبرياء أن تقف على عرفة مع الواقفين ، مخالفين بذلك سنة الحج من عهد ابراهيم ، قائلين نحن أبناء الحرم لانبارح حرمنا ، ولا نقف حيث يقف الناس ولانفيض من حيث يفيض الناس . ولذلك فقد كانت قريش على عهد النبى تجعل موقفها فى المزدلفة باعتبارها نهاية الحرم على خلاف بقية الناس التى كانت تقف فى عرفة . فلما جاء الاسلام وطابعه أن لايفرق بين المسلمين وأن يجعل من البشر كافة أخوة متساوين ، ندد بهذا التقليد وجعل الحج عرفة ، ولا شىء غير عرفة تغليظا على الذين ادعوا أن الحج يمكن أن تتم مناسكه بدون الوقوف فى عرفة ، وأن تكون الافاضة من عرفات ، وليست من المزدلفة وفى ذلك يقول القرآن « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » أى من حيث تفيض الجماعة ويقول فى آية أخرى « فاذا أفضتم من عرفات » وما أجمل التعبير بكلمة الفيض والفيضان وصفا لعودة الحجاج الى منى ، ولو قيل الطوفان لكان المعنى مستقيما كذلك ، فكما ترتفع المياه فى خزان من الخزانات ، أو بحيرة من البحيرات أو واد من الأودية ، حتى تصل الى ذروتها فتسيل على جوانبها مندفعة ذات اليمين وذات الشمال ، حتى تجد لنفسها مجرى طبيعيا تنحدر فيه باتساق واطراد ، فكذلك شأن الحجاج ، فلا تكاد شمس اليوم التاسع من ذى الحجة تقترب من المغيب حتى يستعدوا جميعا للارتحال ؛ مئات الألوف من الناس يرتحلون فى ساعة معينة وفى دقيقة معينة ، فاذا جاءت الساعة الموعودة وجدت هذا البحر العجاج من الناس وقد بدأ يئز ويفور ،

فاذاأفضتم من عرفات

ساعة النفرة أو الطوفان

كما يفور التنور ، فالكل يحزم أمتعته ، والكل يستعد للنفرة ، ومن رحمة الله بالعباد ، وهم على ماهم عليه الآن من انعدام وسائل التنظيم : أن فرق أفكارهم ، فجعل البعض يعجل بهذه النفرة ، والبعض يتريث ، والبعض يبطىء ، والا فلو أنهم هموا جميعا فى لحظة واحدة لهلك الكثير من الدواب ، ولمات الناس ولعم الفزع ، وسادت الفوضى ، ولكن رحمة الله وسره العجيب ، لايتجليان فى موقف كما يتجليان فى مثل هذه الساعة ، حيث تنقضى ساعة الهول والفزع فى يسر وسهولة ، ونعومة عجيبة ، فلا حوادث ولا أضرار • وقديما عندما كان الجمل هو مركب الناس الوحيد لم تكن حركة المرور تتعطل لحظة واحدة ، فالجمل قادر على أن يسير فى كل الاتجاهات ، أما اليوم وبعد أن أصبحت السيارة هى المركب الأول ، ولابد للسيارة من طريق معبد لتسير عليه ، فقد كانت السيارة تقف بنا طويلا من حين لآخر قبل أن نبرح ساحة عرفات ، ومع ذلك فقد كان يبدو عجيبا من أشد العجب أن تتمكن هذه السيارات المتلاطمة المتزاحمة أن تنتظم هكذا فى يسر وسهولة ، وأن تقف فى خط طويل متتابع • لاجدال فى أن الحكومة السعودية قد أوفدت من رجالها وشرطتها وكبرائها من يعاون على تيسير هذه المهمة ، ولقد وصل الأمر الى حد أن ترى الأمراء يقفون فيمن يقف لتنظيم المرور ، ولقد ترى عربيا يدفع سيارة بعض الحجاج التى غرزت فى الرمال ، ثم تعلم فيما بعد أن هذا العربى لم يكن سوى الأمير عبد الله الفيصل نائب أبيـه الأمير فيصل فى حكم الحجاز • أقول لاجدال أن القوم قد بذلوا همة مشكورة فوق العادة لتمكين هذا البحر المتلاطم من الحجاج والجمال والسيارات أن يفيض فى يسر وسهولة ، ومع ذلك فسيبقى ما رأيته هذه المرة ساعة النفرة من عرفات لونا من ألوان المعجزات التى تنطوى على سر يستعصى على التعليل العلمى ، ورد الأسباب الى مسبباتها • انه الفيضان والطوفان ،

نهر الحجيج وبحيراته

ولست بمستطيع أن أجد وصفا غير هاتين الكلمتين ، فاذا ابتعدت عن ساحة عرفات قليلا ، فقد انتظم الفيضان ، وخلق لنفسه نهرا جاريا كلما ابتعد عن منبعه ومصدره ، كلما ازداد هدوءا واتساقا ، وخلا من الأمواج

والمد والجزر واندفع فى يسر وسهولة نحو المصب ، ولكنه قبل أن يصل الى المصب وهو مكة تعترضه بحيرة مترامية الأطراف فتتبدد فيها مياهه ولكنها لا تلبث أن تتجمع من جديد فى طرف البحيرة لتنساب منها مرة أخرى نحو بحيرة ثانية أعمق من البحيرة الأولى ، بحيث تحبس الميـاه بها مدة أطول قد تمتد الى ثلاثة أيام أو أربعة ، ولكن النهر لا يلبث أن يعود الى جريانه فيغادر البحيرة الى مصبه النهائى فى مكة حيث يتحول النهر مرة أخرى الى قطرات لاتلبث أن تمتزج فى البحر المحيط بحر الدنيا بأسرها .

هذه هى قصة نهر الحجيج وفيضانه من بحيرته العظمى فى عرفات ، وبحيرته الثانية فى المزدلفة ثم بحيرته الكبيرة فى منى فى أيام التشريق ، ثم مصبه فى مكة .

فاذكروا الله عند المشعر الحرام

ولقد اندفعنا مع المندفعين فى لجة النهر فوصلنا الى المزدلفة بعد صلاة العشاء ، فنزلنا بها وصلينا المغرب والعشاء جمع تأخير ، ومن الناس من يكتفى بفعل ذلك ، ولايبقى بها بعد ذلك الا ريثما يجمع الجمرات السبع التى سيرجم بها العقبة الكبرى ، ثم يبرح المزدلفة الى منى فى نفس الليلة ، ومن الناس من يمكث بها حتى منتصف الليـل ثم يبرحهـا . ومنهم من يفعل كفعلنا اقتداء بسنة الرسول ، فيبيت بها الى أن يصلى الفجر ثم يبرحها بعد ذلك ، والمذاهب الأربعة تجيز ذلك كله رحمة بالناس ، ولذلك فلست ترى فى المزدلفة هذا الذى تراه فى عرفات ساعة النفرة ، فالمرور اليها ومنها لاينقطع طول الليل ، فلايتجمع بها السيل تجمعه فى عرفات . والمزدلفـة هى التى ورد ذكرها فى القرآن باسم المشعر الحرام ، وطلب من الحجاج أن يذكروا الله عنده شاكرين ما أسبغ عليهم من نعم وهداية « فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين » .

ولقد كنا ممن اختاروا المبيت فى المزدلفة جريا على سنة الرسول كما قدمت .

سحر المبيت بالمزدلفة

وللمبيت بالمزدلفة بدوره قصة من قصص الأيمان ، فهؤلاء هم الناس الذين اعتادوا فى بيوتهم أن لايناموا الا على الفراش الوثير وأن يتحروا النظافة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، حيث يضعون رؤوسهم وجباههم . بل ان من بينهم من لايستطيع النوم الا فى حجرة مقفلة ، لايشاركه فيها انسان آخر بل ان منهم وان منهم ... فانظر اليهم وهم يتوسدون الأرض ، ويلتحفون السماء ، انظر اليهم وقد التمسوا حيزا من الأرض حيثما اتفق لكى يناموا ، والسعيد من استطاع أن يفرش على الأرض بطانية أو ثوبا لينام عليه ، أما الأغلبية العظمى الساحقة فلا فراش ولاغطاء سوى الأرض ، وترى الناس يتخطون رقاب النائمين ، بل ترى الجمال تمور وتخور ، وتحت أقدامها الحجاج يغطون فى سبات عميق . نساء ورجال كهول وشبان وأطفال ، عرب وعجم وترك وسود وبيض يناموں متجاورين ، وقد تلاشى كل مظهر من هذه الفوارق التى اعتادت أن تفرق بين الناس ، الغنى هنا لاسبيل لاظهار غناه ، والفقير هنا هو سيد الموقف ، لأن الكل يصبحون من حوله فقراء ولأول مرة يحس أنه ليس منبوذا أو ليس وحيدا ، فمئات الألوف من حوله تتوسد التراب كما اعتاد أن يتوسد ، وتبحث عن جرعة الماء بشق النفس كما اعتاد أن يبحث.

ويستيقظ الناس فى الصباح أشد نشاطا وحبورا بطبيعة الحال ، كما لو كانوا فى عقر دورهم ، فقد ناموا فى أحضان الطبيعة الأم الرءوم ، فليس من يسعل وليس من يشعر بكسل ، أو يشعر بصداع أو وجع هنا أو هناك ، بل ان هذه الليلة القمرية فى الهواء الطلق بعيدا عن أوضاع المجتمع لا يمكن الا أن ترد للضعفاء قوتهم ، وللمرضى صحتهم ، وللخاملين حيويتهم .

— ١٠ —

الاقامة فى منى

صلينا الفجر فى المزدلفة ، وجمعنا منها الجمرات التى ترجم بها العقبة الكبرى ، وقدرها سبع جمرات ، وهى حصاة فى حجم الفولة أو أكبر

أو أصغر قليلا ، ومن الناس من يجمع الجمرات كلها التى يرجم بها طوال أيام التشريق ، وعددها تسع وأربعون . ووصلنا الى منى حيث كان المطوف قد أقام مخيمنا الى جوار مسجد الخيف ، فقصدنا على الفور جمرة العقبة الكبرى ، فرجمناها بما جمعنا من جمرات فيمن رجم . وعملية الرجم هذه من العمليات التى يقف أمامها الحاج المستنير المتعلم وفى نفسه منها أشياء : أنه يفعلها طائعا راضيا بوجدانه وعاطفته كمسلم صادق ، ولكن عقله يسائله ، وعبثا يحاول أن يسكت صوت عقله ، ما هذا الرجم ؟ وماهذه العقبة ؟ وماهذه الجمرات ؟ فلا يستطيع عقله أن يجد الجواب الشافى لهـذا السؤال ، فلا يلبث الحاج أن يتبلبل خاطره ، ويعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته ، ويلجأ الى اغراق هواجسه فى الدعاء والصلاة ، محاولا اسكات هذا الصوت الداخلى فى أعماق نفسه ، والذى يريد أن يفهم تعليلا لهذا القسم من مناسك الحج . ونحن ممن يقولون ان من العبث أن يحاول مسلم أن يسكت صوت عقله ، فان ذلك من أعظم الشرور التى يمكن أن تصاب بها العقيدة . فلابد أن يكون العقل هو عماد الحقيقة وشعارها ، والويل للعقيدة اذا تخلى عنها العقل ، ولم يخف لدعمها وتأييدها .

جمرة العقبة

فلنصغ دائما لصوت العقل فى نفوسنا ، ولنحاول أن نكون فى حالة صلح وسلام دائم مع هذا العقل ، فان هذا هو السبيل الذى لاسبيل غيره كى تصان العقيدة وتنمو وتزكو .

الاسلام دين العقل

ليس من ذنوب المسلم أن يكون الاسلام قد أعلى من قدر العقل ، وجعله الحكم فى كل ماكبر وصغر من شئون العقيدة . لاينبغى للمسلم المؤمن أن يشعر بخجل أو تردد اذا ما وجد عقله يطالبه بالدليل والبرهان على كل قضية ، ويطالبه بمعرفة المغزى والجوهر خلف كل عبادة ، فما من سورة من سور القرآن قد خلت من مطالبة المؤمن أن يعمل فكره وعقله فى كل ما يحيط به . لقد ساق القرآن الأدلة العقلية على وجود الله ووحدانيته ، بل ان القرآن كله ليس سوى معجزة عقلية ، فلا لوم ولاتثريب اذا اندفع عقل المؤمن يفكر متسائلا بل ومتشككا فى بعض الأحيـان اذا كان هذا الشك هو طريقه لبلوغ اليقين .

لقد جاء الاسلام حربا على الوثنية بكل صنوفها وأشكالها ، فاقتلعها من جذورها ، وعفى على رسومها فما هذا الرجم بالأحجار لقطعة من الحجر ، أليس هو بقية آثار هذه الوثنية القديمة ؟ والجواب نعم ، ولا ، حسب عقيدة الحاج •

هو بقية من بقايا الوثنية من غير شك ، لو تصور متصور أن هذه القطعة من الحجر التى يرجمها هى الشيطان بعينه ، أو أن الشيطان قد حل فيها ، فمثل هذا الظن والتفكير هو للوثنية أقرب ، وأصحابه لم يستنيروا بنور الاسلام الذى لم يجعل للأحجار أسرارا ، ولم يجعلها منازل لسكنى الأرواح الخيرة والشريرة • فهؤلاء الذين يطلقون « طبنجاتهم » على هذا الحجر بزعم أنهم يقتلون الشيطان يفكرون تفكيرا خاطئا ، وهؤلاء الذين يضربون الحجر بأحذيتهم ونعالهم يسيرون فى ذات الطريق الخاطىء •

التباس الرجم بالوثنية

ولن تستطيع أن تفهم السر فى هذا التصور الخاطىء الا اذا استحضرنا فى أذهاننا أنه كان دائما أبدا من تقاليد العرب منذ أقدم العصور أن يرجموا بالأحجار أشخاصا أحياء ارتكبوا جرائم معينة أو قبور أشخاص مسيئين يمثلون الخيانة أو الشر • فمن ذلك أنهم اعتادوا أن يرجموا قبر أبى رغال فى المغمس بين مكة والطائف ، لأنه عربى خائن ، كان يقود جيش أبرهة الى مكة فمات فى هـذا المكان قبـل وصوله اليها • قال جرير يهجو الفرزدق :

رجم أبى رغال

اذا مات الفـرزدق فارجمـوه   كما يرمـون قبـر أبى رغـال

فالرجم بالأحجار اذن تقليد قديم للعرب ، يعامل به الأحياء اذا ارتكبوا جرائم معينة ، كما هو الشأن فى الاسـلام بالنسبة للزانى المحصن ، وهو اجراء متبع كذلك لرجم قبور الأموات ، أو ما يرمز لهم •

ومن هذا القبيل كان العرب منذ عرفوا منسك الحج يرجمون هذه الشواخص الحجرية الثلاثة فى منى ، مطلقين عليها اسم الشيطان الكبير ، والشيطان الأوسط ، والشيطان الصغير ، على التوالى • مشيرين بذلك الى ماقيل فى قصة الفداء ، عندما حلم ابراهيم الخليل أنه يذبح ابنه اسماعيل

فأدرك أن ذلك أمر من الله سبحانه وتعالى ، فعرض ذلك الأمر على اسماعيل فأجابه هذه الاجابة الخالدة التى سجلها القرآن « يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » فاصطحب ابنه وسار به فى وادى منى ملتمسا مكانا ليذبحه فيه ، فعرض الشيطان لابراهيم موسوسا له كيف يذبح ابنه فلذة كبده ، وحرضه على العصيان ، فما كان من ابراهيم عليه السلام الا أن أخذ حفنة من الحصا وحصب بها الشيطان ففر مذعورا ، فهذا هو محل الجمرة الأولى . ولكن الشيطان لم يلبث أن جدد غارته لا على ابراهيم بل على هاجر أم اسماعيل هذه المرة ، فراح يوسوس لها كيف تسكت عن ابراهيم وقد أخذ ولدها الوحيد ليذبحه ، وحرضها على أن تحول دون ذلك ، ولكن هاجر المؤمنة أخذت بدورها حفنة من الحصى فحصبت بها الشيطان ففر مذعورا ، فهذه هى الجمرة الوسطى . ولم يبق الا اسماعيل ، فوسوس له الشيطان أن يثور على أبيه ، ويتمرد على المصير الذى ينتظره ، ولكن اسماعيل كأبويه من قبل حصب الشيطان ففر مخذولا . وهذه هى قصة الشخوص الحجرية الثلاثة ، يراها العرب رمزا لهذا الحادث التاريخى الخالد ، فهم يخلدونه فى كل عام خلال العصور والأجيال ، بأن يرجموا الشيطان ممثلا فى هذه الأحجار الثلاثة . فالذين يتصورون هذه الأحجار هى الشيطان نفسه هم جد مخطئين وهو تفكير وثنى ، أما هؤلاء الذين يعتبرون رجم هذه الأحجار بمثابة تخليد لهذا الحادث فهم يقومون بعمل حميد ، اذ يذكرون أنفسهم ويذكرون البشر بقصة من أروع قصص الفداء والايمان العميق بالله والتسليم بكل أوامره . ونحن فى حياتنا اليومية نخلد دائما الأعمال الطيبة ، لنحتذى بها ونتواصى بها ، فلتكن عملية رمى الجمار ضربا من هذه الضروب .

قصة الفداء

أما بالنسبة لى شخصيا فقد ارتضيت رمى الجمار على أساس يريح نفسى ، ويجعلها ذات خير وبركة على حياتى ، فأنا أفعلها أولا لأن رسول الله فعلها ، وما ارتضاه الرسول لنفسه فقد ارتضيناه جميعا ، وفى

فكرتى عن رمى الجمار

العمل بما عمل به راحة للنفس والوجدان ، وفوق ذلك فانني أتخذ من رمى الجمار ما يشبه العهد والميثاق بين الانسان ونفسه أمام خالقه ، أن ينزع عن نفسه كل سوء وشر ، وغل وحقد ، فأنا ما رميت حصاة الا وسألت الله أن يطهر قلبى من الدنس ، واتخذت من هذه العملية المادية ، عملية قذف غرض من الأغراض بحصاة صغيرة ، كعهد من جانبى أن أعمل ما استطعت لتطهير نفسى من الدنس فاذا رميت الحصاة الثانية سألت الله أن ينزع من قلبى الأنانية ، وفى الثالثة أن ينزع منها الشهوة والقسوة ، وهكذا مع كل حصاة دعوة ، ومع كل حصاة عزم ينعقد فى النفس ان تباعد بينها وبين الشر والسوء . ونحن نرى العهود والمواثيق دائما تصحب بعمل مادى لاظهار العزم ، فمن الناس من يقسمون على المصحف ، ومن البشر من يقسمون على السيف ، ومن الناس من يتعاهدون على جدث ولى من أولياء الله وهكذا . فمن طبيعة النفس البشرية أن تؤكد المعانى بالأعمال المادية ، وعندى أن رمى الجمار وما يستند اليه من معنى متسلسل من ألوف السنين هو خير اشعار مادى بما انعقد عليه عزم الحاج من استقبال حياة أكثر خيرا واحسانا .

هذا هو منسك رمى الجمار ، وفى هذا الضوء فليتدبره الحاج المفكر الذى يلتمس شرحا وتعليلا لكل شىء . ولا يخلطن رمى الجمار بمعتقدات العوام من أنهم يرجمون الشيطان فى مادته ومعناه .

التحلل الأصغر

واذا انتهى الحاج من رمى العقبة الكبرى بالحصيات السبع ، فقد أصبح بقدرته أن يتحلل التحلل الأصغر ، فلا يبقى محرما عليه سوى الطيب والنساء ، وكثرة الحجاج الساحقة تفعل ذلك ، وتمضى بقية يومها فى منى بعد أن تنحر أضحية العيد ، وتظل فى منى بعد ذلك يومى التشريق ، ثم ترحل بعد ذلك الى مكة فتطوف طواف الافاضة ، ولكننا قصدنا مكة عقب رمى الجمار مباشرة اتباعا لسنة النبى ، فطفنا طواف الافاضة ، وسعيت مرة أخرى بين الصفا والمروة ، وقد نعمت بهذه الفرصة الذهبية . فقد كان جل الحجاج كما قدمت لايزالون فى منى ، وقليل منهم من فكر

فى النزول إلى مكة ، فطفت فى عدد قليل من الناس فنعمت بالهدوء الذى لم أتمتع به فى الطواف حول الكعبة منذ وفدت الى مكة . فلما جاء دور السعى كان المسعى خاليا تماما من الناس ولم يكن هناك سواى . ولقد تملكنى شعور عجيب أن أرى نفسى وحيدا مرة فوق الصفا ، وثانية فوق المروة ، وكان السكون يسيطر على المكان . فغلب علىّ احساس عميق ، وغرقت مرة أخرى فى تأملاتى ، وأحسست بقلبى هو الذى يخفق بمناجاة ربى ، وأحسست بنفسى تود لو انفصلت عن جسدى فى تطلعها وتشوقها للاتصال بهذا السر العلوى .

أيام التشريق

المؤتمر الجامع فى منى

وبانتهاء السعى بعد طواف الافاضة يتحلل الانسان التحلل الكامل ، ولا يبقى عليه الا أن يعود الى منى ، ليمكث بها بقية اليوم ويومين آخرين أو ثلاثة لاعمل له فيها الا أن يرمى الجمرات الثلاث فى كل يوم بسبع حصيات ، ولكن وراء الاقامة فى منى هذه الأيام يتجلى أحد أحكام الحج الكبرى وأسراره ، وتتجلى فائدته الاجتماعية والسياسية الكبرى ، حيث يقيم المسلمون فى شبه مؤتمر كبير جامع ، لاعمل لهم الا التزاور والتعارف والتشاور ، ومن هذا الاحتكاك وتبادل المعلومات لايمكن الا أن يبرز الجهد المشترك للمسلمين فى أروع صوره وأشكاله.

ولقد ارتديت ملابسى وعدت الى منى لأستمتع بأجمل أيام الحج ، فالكل فرح ومسرور لأنه أدى فريضة الحج ، والكل بعد هذه المزاملة الطويلة فى رحلة الحج قد غلبت عليه روح الخير والأخوة ، فالناس كلهم لا تراهم الا معانقا بعضهم بعضا والبشر باد على وجوههم ، ان موجة من الرضا تغمر الجميع ، وموجة الخير قد وصلت عندهم الى ذروتها . وزالت الألقاب والفوراق ، ولم يبق هناك سوى لقب واحد ، ودرجة واحدة لجميع الناس : يا حاج يا حاج كيف حالك يا حاج ؟ اتفضل يا حاج ، حج مبرور يا حاج ، من العائدين ان شاء الله يا حاج .

انها صورة كريمة من الأخوة البشرية وساعات صفاء ونقاء بصفة عامة .

وفى وسط هذا الجو لم يكن باستطاعتى أن أظل فى عزلتى واعتكافى ، فأنا رجل يتجاوب مع روح العبادة ، وروح العبادة فى هذه المرحلة من الحج ليست فى الاعتزال والاعتكاف ، ولكنها فى الاختلاط بالناس ، والتعرف اليهم ، واظهار الهشاشة والبشاشة والأنس بهم ، لقد جمعنا الله فى هذا الحشد ، وربطنا الى هذا المكان ثلاثة أيام ، لا لينطوى كل منا على نفسه والا لما تحقق غرض الحج الاجتماعى والانسانى ، لقد دعانا لنرى قوة المسلمين فى تعاونهم وتعاضدهم ، لقد دعانا الى المرابطة فى منى ، لنرى مافى المسلمين من حيوية كافية ، ما أروع المنظر وما أرهبه عندما تقف على مرتفع من الأرض لتشرف على المسلمين فى منى ، وهم أشبه الأشياء بجحافل الجيوش فى العصور القديمة ، وهـذه هى مضاربهم وخيامهم . انه جيش لجب مسلح بالقوى الروحية ، فلو سلح من جديد بالقوى المادية ، ولو اعتنق هذه الوحدة التى حاول الاسلام أن يغرسها فى قلبه ، فاجتمعت كلمته فى شئون دنياه ، كما اجتمعت فى شئون آخرته ، ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل ، هل يمكن الا أن يعيدوا سيرة أسلافهم الأولين ، هؤلاء الذين ساحوا فى الدنيا شرقا وغربا فملأوها نورا وعلما وهداية وحضارة .

حكمة المرابطة فى منى

هذه هى الخواطر التى طالما تملكتنى المرة بعد المرة وأنا جالس فى خيمة شيخنا السياسى الجليل السيد صادق المجددى سفير الأفغان فى مصر ، حيث يأبى الا أن يحج فى كل عام ، وأن يضرب مخيمه فوق مرتفع من الأرض الى جوار صخرات من بقايا غار يسمى غار المرسلات حيث نزلت على النبى فيه سورة المرسلات ، طالما جلست فى هذه البقعة الطاهرة الكريمة ، أرقب الى جوار هذا الرجل الكريم هذه الجموع التى تربو على مئات الألوف ، وقد انتشرت فى طول الوادى وعرضه الى آخر ما يدرك البصر ، ولست ترى فى موقفك المرتفع الا خياما ذات ألوان زاهية وخياما مزركشة ، ولكنك لو نزلت من هذا المرتفع ورحت تجوس خلال هذه الخيام لوجدت الحياة فى صورتها الكاملة ، فكل خيمة تغص

غار المرسلات

بالعشرات ، بل والمئات يتناقشون ويتدارسون ويتمازحون أو يطالعون القرآن أو يدرسون الحديث ، تظلهم جميعا روح واحدة وفكرة واحدة أنهم مسلمون ، جاءوا من أقاصى الأرض بفكرة واحـدة ، يسمعون ويطيعون لرب العالمين .

في حضرة الملك عبد العزيز آل سعود :

يدرك الملك عبد العزيز آل سعود من روح الاسلام أعظم خصائصها ، فالحج عنده مؤتمر اسلامى بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، ولذلك فهو لا يضيع هـذه الفرصة الثمينة ، لكى يُسمع المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها رسالته فى التوحيـد ، ولكى يَسمع ما لديهم من آراء ومقترحات فى اجتماع حر بعيد عن كل شكليات أو رسميات .

ولقد أصبح ذلك تقليدا من أروع تقاليد الحج ، وأصبح هؤلاء الذين يحجون يتشوقون الى استكمال هذا التقليد ، والا عادوا الى بلادهم بذكريات ناقصة ، فاذا كان اليوم الثانى من أيام العيد أو بالأحرى اليوم الأول من أيام التشريق ، جلس الملك عبد العزيز فى قصره بمنى ، وفتح أبوابه لمقابلة من شاء من حجاج بيت الله واذا كانت العادة قد جرت على أن لا يتألف هؤلاء الذين يغشون قصر الملك فى هذا اليوم الا من كبار الحجاج وأصحاب الرأى فيهم ، فليس هناك تقليد أو اجراء يحول دون أى حاج من أى درجة أن يغشى المجلس ، فهو مفتوح على مصراعيه ، لا رسوم له ولا طقوس ، وباستطاعة الجميع أن يدخلوا وأن يصافحوا الملك ، اذا شـاءوا ، وأن يجلسوا اذا كان فى المكان متسع لراغب فى الجلوس .

ابن السعود يستقبل الحجاج

حتى اذا استقر المجلس بالملك والجالسين ، شرع يتحدث ، وليس باستطاعة الذين لم يألفوا حديث الملك ابن السعود أن يتتبعوه ، فهو يتكلم باللهجة النجدية البدوية علاوة على أنه يتكلم بسرعة ، ولست أستطيع أن أدعى أو أزعم أننى أحيط بكل كلمـة تخرج من فمـه ، ولكننى طالما تتبعت الأفكار الأساسية فى أحاديثه ، فأشهد لقد كانت

النظرة الصائبة الى علل المسلمين يلخصها فى حقيقة واحدة ، وهى تفرقهم وتشتت كلمتهم ، وعلاج ذلك كله ، ويلخصه فى كلمة واحـدة وهى التوحيد ، توحيد رب العالمين ، وتوحيد الجهود ، وتوحيد السياسة ، وتوحيد النظم والتعاون الكامل الشامل على النهوض بالعالم الاسلامى ، لافرق بين مسلم ومسلم ، أو بين جنس وجنس ، أو بين قطر وقطر

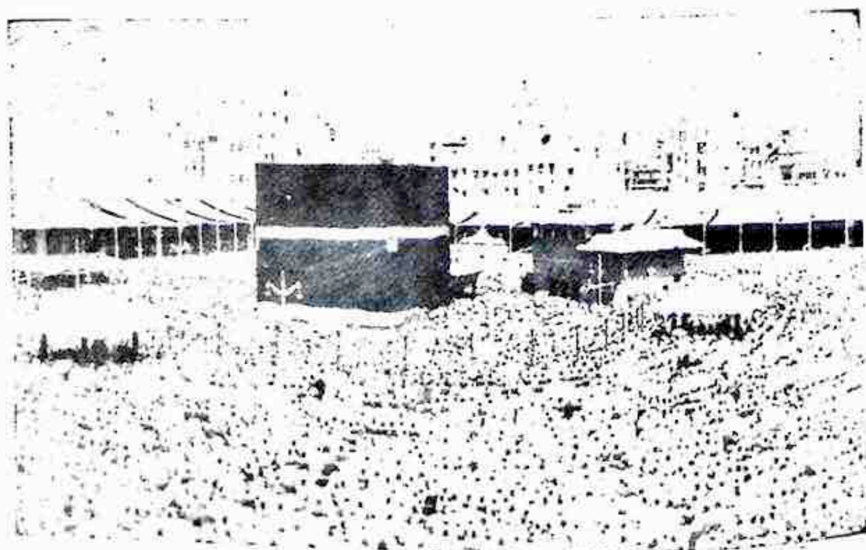
ابن السعود كداعية من دعاة النهضة

ويدعو ابن السعود فى كل أحاديثه الى الأخذ بالعلوم الحديثة ، والأسلحة الحديثة ، والصناعة الحديثة ، باعتبارها الأسلحة التى مكنت الأوربيين من استعباد المسلمين والشرقيين ، وعلى قدر مايعادى أفكار الأوربيين ومدنيتهم وحضارتهم ، وينفر منها ، ويحذر من عواقب الأخذ بهـا ، وعلى قدر تعصبه للاسلام ، وكل مايمت الى الاسلام بصلة عن قرب أو بعد ، فهو يدعو ويرغب فى نقل آلات الأوربيين وصناعاتهم وأسلحتهم وأساليبهم فى العمل والانتاج .

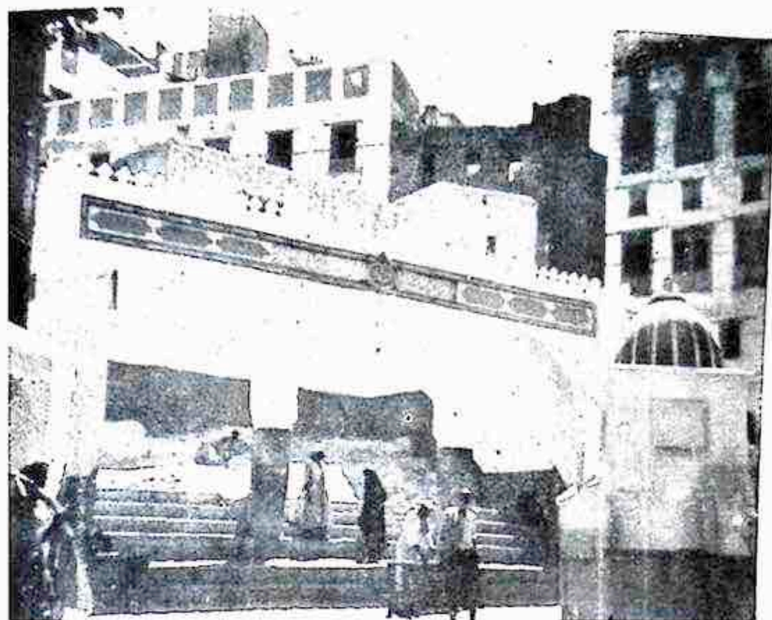
ذلك هو محـور من المحاور الرئيسية لسياســة ابن السـعود وعظمته فى نفس الوقت . فما أعجب أن يدرك هذا الرجل الذى ولد فى البادية ونشأ وترعرع فيها وقام بيته على أساس العودة بالاسلام الى طهارته الأولى وبساطته الأولى ! ما أعجب أن يجمع هـذا الرجل بين الشعور العميق بالاسلام وتقديسه ، وبين الأخذ بوسائل النهوض العلمية الحديثة ! لو طبقنا قوانين الوراثة والبيئة لوجب أن يكون ابن السعود أعدى أعداء الآلات والميكانيكيات والعلم الحديث ، ولكن ابن السعود ككل الأفذاذ ، خرج على هذه القوانين ، فجمع فى شخصه ما بدا فى بعض الأوقات لفريق من الناس تناقضا ، فهو المحافظ أشد المحافظة على تقاليد الاسلام القديمة ؛ حتى ليعتبر الكثير مما عليه سائر المسلمين اليوم بدعا ومحدثات وضلالة ، مآلها ومصيرها النار ، وهو فى ذات الوقت الرجل الذين يزور الأوربيين والأمريكان ويزورونه ، ويأمر بادخال التليفون السلكى واللاسلكى ، ويركب السيارة والطيارة ، ويمنح الامتيازات للشركات الأمريكية للبحث عن البترول والذهب فى أطراف الجزيرة .



اركعوا واسجدوا
واذا كبر الامام ساجدا سجدت الألوف للواحد القهار



من أعجب مشاهد الدنيا
نصف مليون يصلون معا فى نظام رائع



الصفــــا



والمروة



فى القصر الملكى بمنى المؤلف وصاحبه وبينهما الأخ اليمنى الحاج ناصر المحويتى • والى يمين المؤلف الأخ الشاعر الأديب فؤاد شاكر



مسجد الخيف بمنى ومن حوله مضارب خيام الحجاج

ولكن السنين والأيام قد أظهرت للكافة أن لاتناقض فى سياسة ابن السعود ومعتقداته ، بل ان كلا منها يكمل الآخر ، فان شدة ايمان الرجل بالاسلام ، ورغبته فى النهوض بالمسلمين ودفع عادية الاستعمار عنهم ، قد جعله ينفذ ببصره الى سر تفوق الغرب على الشرق ، فلم يجده فى معتقدات الغرب أو فى طريقة حياتهم أو مطامعهم أو مآكلهم ، ولكن فى هـذا المدفع وهذه الطائرة ، وهذه الدبابة ، وفى هذا العلم الذى قامت عليه هذه المهمات والوسائط كلها ، فلو استطعنا معاشر المسلمين أن نأخذ هـذا العلم ، ونستحوذ على هذه الآلات والمهمات ، اذن لأفقدنا الغرب عنصر تفوقه علينا ، ولارتفعنا فوقه درجات ، بما لدينـا من ايمان وعقيدة راسخة رسوخ الجبال •

ابن السعود ورسالة العلم

هذا هو ابن السعود ، وهذه آراؤه ، بل وهذه أعماله . ولقد استطعت أن أستشف ذلك كله منذ اليوم الأول الذى رأيته فيه لأول مرة ، وسمعت منه هذه الأحاديث التى يفيض بها على جلسائه ، وخاصة فى هذا اليوم الحافل ثانى أيام العيد وأول أيام التشريق •

ولقد كنا نطلب الاذن فى الكلام فيؤذن لنا ، ولقد تكلمت دائما بكل ما يجيش فى نفسى من آمال بالنسبة للعالم الاسلامى ، ولطالما شرحت العلل كما أفهمها ، ورسمت الدواء الناجع كما اقترحته ، فلا أكاد أتم خطابى حتى أرى بسمة الرضا وقـد شاعت فى وجه الرجل العظيم ، ثم غمرنى بفضله وتشجيعه وحنوه ، ولقد كنت أعجب لذلك أشد العجب ، ولا أجد له تفسيرا الا فى عظمة الرجل التى لاحد لها ، والتى تجعله يدرك جوهر الاخلاص فى الحديث فيقبل عليه ، ولو خالف رأيه وخطته • فى كل مرة تكلمت أمامه تهيبت أن لايقع كلامى منه موقع الرضا ، فقد يتضمن نقدات وتوجيهات ، ولكنه فى كل مرة كان يحدث فى نفسه ذات الأثر ، وهو الترحيب والاغتباط ، ولم يكن يخفى ارتياحه وعطفه علىّ ، فيروح دائما يشملنى بالعناية ، فيوجه الى الحديث فى أكثر من مناسبة ، ويردد ذكر اسمى ، فيكون لذلك أثر عميق فى نفسى •

عطف ابن السعود على المؤلف

الاصلاح الأساسى :

وقياسا على ذلك ، رأيت أن أغامر فى هـذه السنة لو دعيت الى الكلام ، فأقول كل مافى نفسى بدون تهيب أو تردد ، ومافى نفسى من نقد مرير لنظام الحكم فى المملكة العربية السعودية فالى كم من الزمن نرجع اليه الأمور كلها ، صغيرها وكبيرها ، لقد كان هذا جائزا ومفهوما عندما كان ابن السعود سيد عشيرة ، أما اليوم والحجاز ونجد يتطلعان الى التطور ، والى أن يصبحا دولة عتيدة ذات أركان موطدة ، اليوم والعالم كله قد رفض نهائيا فكرة حكم الفرد مهما سما هذا الفرد وعظم شأنه ، فالمملكة العربية السعودية لايمكن أن تواصل السير بدون دستور ، وبدون قوانين أساسية لتنظيم أساس المجتمع ، بحيث يعرف كل انسان عمله وواجبه ، لا من خلال شخص الملك ولكن من خلال القوانين القائمة السائدة ، كنت أريد أن أقول للملك لقد حان الوقت ليكون للبلاد وزراء ومجلس وزراء هو المسئول عن السياسة ، حان الوقت أن يكون للبلاد ميزانية تحدد الايرادات والمصروفات ، حان الوقت ليتسع التعليم على أوسع نطاق ، حان الوقت لتنطلق روح الاصلاح فى أرجاء الجزيرة للقضاء على الخمول والجهل والفقر الذى كان يسيطر عليها ، حان الوقت لاحلال سلطة الجماعة محل سلطة الفرد .

ضرورة وضع دستور للجزيرة

قد يكون الملك ابن السعود اليوم أعـدل المالكين وأحكمهم ، قد يكون له من الصفات النادرة بل وفى نفسه من حب الشورى مايجعل حكمه اليوم ديمقراطيـا فى حقيقته ، وان كان مطلقـا فى مظهـره ، فالرجل ينزل عند حكم الدين من ناحية ، والرجـل بطبيعته وسجاياه العربية لايمكن أن يبرم أمرا الا اذا استشار الشيوخ والمجربين من حوله ، ولكن ابن السـعود ليس خالدا ، والمشرع الحكيم يجب أن يضـع القواعد للأجيال القادمة كلها ، فالواجب هو اعادة تنظيم المملكة العربية السعودية تنظيما حديثا وفق قواعد عصرية ، وهو الأمر الذى يقدره ابن السعود حق التقدير .

كل هذه المعانى جاشت فى نفسى ، وجاش فى نفسى أن أنطق بها فى صراحة اذا دعيت للكلام ، لأنى كنت قد قررت أن لا أبدأ الكلام ، فبدأت أشفق من عواقب التحدث بمثل هذا الأسلوب فى هذه الجلسة العلنية ، وانني لابد أن أسخطه علىّ ، ولما كنت أعز الملك الكريم وأحبه ، فقد تهيبت أن يكون هذا هو مظهر عرفانى بجميله ، فخير لى أن أصمت ولكننى أعود فأذكر السوابق الماضية والتى أشرت اليها ، لقد تكلمت دائما بما يجيش فى نفسى ، فكان محل رضاه ، فلماذا تشذ القاعدة هذه المرة ، ومن أدرانى أنه لن يرتاح دائما لسماع مثل هذا القول ، ومن أدرانى أنه لايفكر مثل هذا الفكر ، وأخيرا رأيت أن أدع الأمر للظروف، واكتفيت بأن قررت بينى وبين نفسى أن لا أبدى الرغبة فى التحدث كما كنت أفعل من قبل ، بل وأن أعلن رغبتى عن الكلام ، فاذا دعيت الى القول ، كان هذا مقالى ، تاركا اللوم فى هذه الحالة علىّ الذين دعونى للكلام .

ولذلك فقد تنفست الصعداء عندما وصلت هذه المرة الى مكان الاستقبال ، فوجدت أن هذا التقليد القديم قد ألغى ، فالملك من ناحية قد أصبحت صحته لاتمكنه من التحدث طويلا كما كان يفعل ، وصحته لم تعد تسمح له بالجلوس الساعات الطوال لاستماع الخطب والقصائد التى كان أغلبها فى مدحه والثناء عليه ، ومركز الدولة السعودية قد تطور الى حد من الدقة والأهمية فى العالم الاسلامى وغير الاسلامى ، بحيث لم يعد من الممكن السماح بارسال الكلام على عواهنه فى حضرة الملك ، مما قد يسبب مشاكل وأزمات ، ولذلك رؤى أن يقتصر الأمر على مصافحة جلالته . فحمدت الله أن خلصت من هذا الحرج الذى أشعر به ، وان كنت فى سريرة نفسى أسفت لالغاء هذا التقليد العربى الاسلامى الذى هو آية الديمقراطية العميقة ولكننى عولت على أن أنتهز فرصة اجتماعى بجلالته فى مقابلة خاصة ، لكى أفضى له بما فى نفسى من آراء وملاحظات ، وبدأت أسائل نفسى ترى هل لايزال الملك يذكر صورتى ؟ أم أن انقضاء ثمانى سنوات على آخر حجة لى قد غير من شكلى ،

لا خطب فى حضرة الملك

وأضـعف الزمن من ذاكرة الملك العربى ، فلن يعرفنى وسـط هـذا الجمع ، الذى أقبـل على مصافحته ؟ ورحت أتقدم خطوة خطوة وسط هذا الصف الذى يصافح الملك ، وقد بدأ قلبى يخفق من خوف الصدمة ، اذا لم يعرفنى الملك بصورتى ، واقتربت منـه ولم يبق بينى وبينـه الا شخصان اثنان ، وارتفع نظرى الى وجهه فى اشـفاق وتردد فاذا به يقابل نظرتى بالابتسام ، ابتسامة العارف ، وأشرق وجهه كما اعتاد أن يشرق كلما رآنى ، الله أكبر انه مازال يذكرنى ، ومازال يعرفنى ، ومازالت ذاكرته ، قوية حادة كأحد مايكون للانسان من ذاكرة ، حتى اذا وصلت اليه لم نزد على تبادل النظرات ولكن يده كانت تشـد على يدى ، ويدى تشد على يده .

مع الشيخ عبد الله السليمان

واتنهى الاستقبال ، وخرجنا من لدنه ، وانطلق فكرى على الفور الى الرجل الثانى الذى يجب أن أراه ، وأن أشكره وأعنى به الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ورجل هذه الدولة العتيدة ، والذى بدأ صغيرا مع الدولة الصغيرة ، وأصبح الآن كبيرا مع الدولة الكبيرة .

لقـد تبرع للبيت الأخضر فى مصر بمبلغ كبير من المال أرسله بناء على اقتراح الأخ الأستاذ ابراهيم الشورى فما البيت الأخضر الا بيت كل عربى وما حركة مصر الفتاة حركة مصر الاشتراكية سـوى صيحة البعث والنهوض للأمة العربية كلها . وكانت دعوتى للحج صادرة منه كذلك ، وكنت أشـعر بدين الرجل العظيم علىّ ، وسألنا عن مقره فى منى فدلونا عليه ، ولم نكد نجتاز عتبة الباب الخارجى حتى وجدناه جالسا . لم يكن عنده أو حوله أحد سوى هذا الخادم أو الياور ولم أكد أراه حتى قصدت اليه على الفور دون أن أخطر أحـدا عمن أكون ، ودون أن يحول بينى وبين الوصول اليه أحد ، واقتربنا منه أنا وأخى الغندور ،فوقف الرجل وصافحنا ،ولقد كنت مقبلاعليه بكل نفسى وحواسى ، وأحسست منه تحفظا ، رحت أشكره على مافعله من أجلنـا وتفضله

بدعوتنا ، فاذا به يرد عليّ بأنه لم يقم الا بأقل من الواجب ، وانهم يعتبرون أنفسهم خداما لاخوانهم المسلمين •

قلت له : ولقد سرنى أن أرى طلائع الاصلاح تأخذ طريقها ، وهممت أن أفضى قائلا : ولكنا نريد المزيد ، وأن أشرع فى تعداد ما أصبو اليه ، فاذا به يقطع عليّ الطريق قائلا : نحن لم نفعل شيئا بعد ، ونحن أكثر الناس شعورا بما لدينا من نقص ولكننا نبذل آخر جهدنا فى حدود امكانياتنا لقد أنشأنا فى جدة ميناء لأول مرة فى التاريخ فأصبحت مراكب الحجاج ترسو على الأرصفة ولقد جلبنا المياه الى جدة حيث كانت تعانى أزمة مستمرة فى المياه منذ أجيال وعصور ، وقد انتهينا من انشاء أكبر محطة لاسلكية فى الشرق للاتصال بأمريكا وبقية العالم مباشرة ، وسيتم انشاء محطة الاذاعة اللاسلكية ، لتذيع مناسك الحج ان شاء الله ، لنجعل المسلمين فى مشارق الدنيا ومغاربها يشاطرون حجاج بيت الله الحرام فى تكبيرهم وتلبيتهم ،وقطع علينا الحديث واحدمن الألوف الذين يمثلون أمامه من حين لآخر يلتمسون عونا من نوع ما ، فأعطى التعليمات اللازمة باعانته ، وفى هذه الأثناء وزعت علينا القهوة العربية فشربناها ، ثم أحسسنا بأن الوقت قد حان للانصراف ، فاستأذنا ثم انصرفنا ، وفى نفسى الكثير من خيبة الأمل ، لقد كان الرجل لطيفا معنا ، لقد استقبلنا أحسن استقبال ، لقد استمع لنا وتحدث الينا ، ماذا كنت أتوقع منه ؟ وماذا أنتظر أكثر من ذلك وعلام خيبة الأمل ؟ ولم يلبث الشك أن دب الى نفسى ، ان الرجل لم يعرفنى • وراجعت الموقف فوجدت أننى لم أذكر اسمى أو لعلى ذكرته فى سرعة وعجلة فى لحظة شرد فيها ذهن الرجل ، فلم يتتبعه على أية حال ، لقد بدا لى أن الرجل لم يعرفنى ، والا لوجب أن تكون المقابلة أكثر حرارة ، مبعثها ما أسدى الينا من يد كريمة ، ومانشعر به من شكر وعرفان للجميل • وبانتهاء هذه الزيارة شعرت أننى قد قمت بواجبى ، وانتهيت من هذه الرسميات ، ولم يبق أمامى الا أن أتابع يومى فى الزيارات •

ولقد طفت بكثير من المعارف والاخوان ، نحييهم ونحدثهم ، وكنت حتى ذلك الوقت قد قابلت كل هؤلاء الذين تعرفت اليهم فى الحجاز من قبل الا رجلا واحدا مازالت تعاودنى صورته ، نسيت اسمه ولكننى لم أنس حبه وتعلقه بى ، ولم أنس اعجابى بذكائه وخفة روحه ، واخلاصه الشديد للعروبة والاسلام ، ورغبته القوية فى أن يرى بلاده اليمنية ، وقد نهضت وارتفعت الى مصاف أرقى الدول والجماعات • وبينما أنا فى تجوالى فى منى ، واذا بيد توضع على كتفى ، واذا بى أرى الشيخ اليمنى أمامى ، فحمدت الله سبحانه وتعالى أن وفقنى الى رؤيته وكأننا كنا على موعد ، والحق انه لموعد قدره الله علينا ، فقد اشتدت صداقتى بالحاج ناصر المحويتى ، وهو ذلك الشيخ اليمنى ، الى درجة لاتفوقها صداقة أخرى ، وقد تلازمنا طوال مدة اقامتى بعد ذلك فى مكة ، وكان من حظى أن دعوته لزيارة مصر فلبى الدعوة ، فنعمنا بمصاحبته وملازمته فى مصر فترة سعيدة من الزمن •

الحاج ناصر المحويتى

واذا كانت هذه الزيارات والمقابلات الخاصة قد شغلتنى طوال اقامتى فى منى ، فانى لم أساهم فيما أقيم من اجتماعات عامة فى مسجد الخيف للخطابة فى شتى المواضيع العامة ، لأنهاض المسلمين وخاصة اثارة الاهتمام بقضية فلسطين ، وقد كنت أسمع المذياع ينقل الىّ أصوات الخطباء ، فهذا الشيخ حسن البنا رئيس الاخوان المسلمين ، وهذا عالم فلسطينى يفتت أكباد السامعين بسرد ماحدث من الفظائع والنكبات بفلسطين ، وهذا الشيخ عبد المعبود رئيس بعثة الأزهر يجلجل صوته فى المذياع وقد كان البعض ممن يعرفوننى يتلفتون باحثين عنى ، ويدهشون أن لايجدونى بين المتكلمين ، بل ان البعض الآخر جاء يستحثنى على التكلم فى اليوم التالى ، فجموع المسلمين فى حاجة الى أن تسمع صوتى (كذا) ، ولكننى شعرت بعزوف شديد عن الكلام ، لأننى مللت الكلام من ناحية ، فقد انقضى لى سنوات وسنوات ، وأنا أتكلم وأتكلم ، ولقد اقتنعت أن الاسراف فى الكلام يقلل دائما من العمل ، ولقد تكلمنا كثيرا فى قضية

حاربنا فى فلسطين بالكلام

فلسطين حتى ملأنا الدنيا كلاما وشعرا وخطبا نارية،تكلمنا حتى ضجت منا السموات والأرض،فلما جاء أوان العمل اذا بالمتكلمين لا يزيدون عن مواصلة الكلام ، فكانت الضربة الساحقة التى حلت بالعرب والمسلمين ، وكانت الهزيمة التى لامثيل لها من قبل للدول العربية مجتمعة ، وكنت أرى أنه يجدر بخطباء العرب أن يتواروا خجلا وحياء ، وأن يكفروا عن خطاياهم اذا كانت قابلة للتكفير بالصمت بعض الوقت ، ولذلك فقد التزمت هذه الخطة ، ورأيت أن لا أجعل من نكبة فلسطين الدامية سبيلا للتشدق ببعض الألفاظ والعبارات ، فيقول بعض الناس ما أخطبه ! وما أروع بيانه ! فأكون كمن يشترى الحمد بهلاك قومه ... لا اننى أبرأ الى الله من أن أجعل آلام الناس موضعا لاظهار فصاحتى ، اننى أبرأ الى الله أن ألتمس الدعاية الكاذبة على حساب الآخرين .

حاجة المسلمين الى الاقلال من الكلام

ولذلك فقد امتنعت عن الاشتراك فى هـذه المأدبة ، مأدبة الكلام الشهى وصمت عنها . وان كان هناك ما أعجب به ، فهو هـذا المذياع الذى كان قد وصل الى درجة من الجودة والاتقان والصفاء ، بحيث كان صوته يدوى فى طول منى وعرضها ، وحيثما ذهبت وأنى توجهت،كان صوت المذياع يلاحقنى صافيا رائقا يحمل أقوال الخطباء والوعاظ وأئمة البيان فى روعة ودقة ، وكان هـذا هو الذى يهمنى ، لأننى أنظر الى المستقبل عندما تنظم الاستفادة بهذا المذياع لقيادة الحجاج جميعهم ، وتنظيمهم فى صورة جليلة تليق بروح العصر وما وصل اليه من تنظيم الجموع وحشودهم عن طريق المذياع .

* * *

وانتهت أيام منى ، وعدنا الى مكة وبذلك انتهت مناسك الحج ، وبدأ الناس يستعدون لزيارة الرسول ، ومن سبقت له الزيارة يستعد للعودة الى مصر ، أما أنا فقد شاءت الظروف أن لا أكون من هؤلاء أو هؤلاء ، فقد كان مقدرا على أن أولى وجهى شطر الشرق ، فى رحلة ندر من قام بها من الحجاج نحو الرياض حيث الأمير سعود ولى العهد ،

ومن ثم الى الظهران حيث منابع البترول الكبرى التى بدأت أبصار أمريكا كلها تتجه صوبها فى قوة واهتمام بالغين ، وصوب الصحراء حيث ينقطع الانسان عن كل شيء الا عن الله سبحانه وتعالى ، فقد كانت نكبة فلسطين تهز نفسى هزا وكانت نكبتى الشخصية ، كلتاهما حافزتين لى على أن أبتعد عن العالم قدر استطاعتى وأن أنسى ... أنسى الا أننى أعيش وأحيا ، لأنه مقدر علىّ أن أعيش وأحيا .

وقبل أن أبدأ فى سرد هذا الجزء من رحلتى أرى أن أثبت ماجاء فى القرآن الشريف من آيات بصدد الحج ومناسكه وكذلك ماورد من الأحاديث الصحيحة خاصة بالموضوع ، ليكون لدى كل حاج الأصول الرئيسية التى اعتمد عليها أئمة المذاهب والفقهاء فى تحديد أركان الحج وشروطه ومستحباته .

الباب الأول

فى فضائل الحج والعمرة وفرضيتهما

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه • وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة (رواهما الخمسة الا أبو داود)

الحج

قال الله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين •

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق •

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله (ص) فقال : أيها الناس • قد فرض الله عليكم الحج فحجوا • فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثا • فقال رسول الله (ص) لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال : ذرونى ماتركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم • فاذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فدعوه • (رواه مسلم والنسائى والترمذى) •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الأقرع بن حابس رضى الله عنه قال : يا رسول الله الحج فى كل سنة أو مرة واحدة ؟ قال : بل مرة واحدة فمن زاد فهو تطوع (رواه أبو داود والنسائى وأحمد والحاكم وصححه) •

القضاء عن الميت

عن ابن عباس رضى الله عنه أن امرأة من جهينة جاءت الى النبى (ص) فقالت يارسول الله ان أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : نعم . حجى عنها أرأيت لو كان عليها دين أكنت قضيته ؟ اقضوا الله ، فالله حق بالوفاء (رواه البخارى والنسائى) .

وعن بريدة رضى الله عنه قال : جاءت امرأة الى النبى (ص) فقالت : ان أمى ماتت ولم تحج أفأحج عنها ؟ قال : نعم . حجى عنها (رواه الترمذى ومسلم) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أتى النبى (ص) فقال : ان أبى مات وعليه حجة الاسلام ، أفأحج عنه ؟ قال : أرأيت لو أن أباك ترك دينا عليه أتقضيه عنه ؟ قال : نعم . قال : فاحجج عن أبيك . (رواه النسائى والشافعى) .

حج الصبى

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : رفعت امرأة صبيا لها فقالت : يارسول الله ، ألهذا حج ؟ قال : نعم . ولك أجر . (رواه مسلم والترمذى) .

وقال السائب بن يزيد : حج بى مع رسول الله (ص) فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين . (رواه الترمذى) .

العمرة

قال الله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : ليس أحد الا وعليه حجة وعمرة (رواه البخارى) وعن ابن رزين العقيلى رضى الله عنه . قلت : يارسول الله ان أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج أو العمرة ولا الظعن . قال : حج عن أبيك واعتمر . (رواه أصحاب السنة) .

وعن جابر رضى الله عنه أن النبى (ص) سئل عن العمرة . أواجبة هى ؟ قال : لا وأن تعتمروا هو أفضل . (رواه الترمذى وأحمد والبيهقى) .

مواقيت الحج والعمرة

قال الله تعالى « الحج أشـهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

قال ابن عمر رضى الله عنه : أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة (رواه البخارى) .

مواقيت الاحرام

عن ابن عباس رضى الله عنه . أن النبى (ص) وقت لأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنـازل ، ولأهل اليمن يلملم ، وقال : هن لهن ولكل آت عليهن من غيرهن ممن أراد الحج والعمرة ، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ حتى أهل مكة من مكة . (رواه الخمسة) .

الباب الثانى

مايحـــرم على المحرم

قال الله تعالى : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

عن ابن عمر رضى الله عنـه أن رجلا قال : يارسول الله . مايلبس المحرم من الثياب ؟ قال : لايلبس القمص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفين الا أحد لايجد نعلين فليلبس خفين ، ويقطعهما أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا من الثياب شيئا مسه زعفران أو ورس . وفى رواية من لم يجد نعلين فليلبس خفين ، ومن لم يجد ازارا فليلبس سراويل .

وعن يعلى ابن أمية رضى الله عنه . أن رجلا أتى النبى (ص) وهو بالجعرانة قد أهل بالعمرة ، وهو مصفر لحيته ورأسه وعليه جبة . فقال : يارسول الله انى أحرمت بعمرة وأنا كما ترى ، فقال : انزع عنك الجبة ، واغسل عنك الصفرة ، وماكنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك . (رواهما الخمسة) .

احرام النساء :

عن ابن عمر رضى الله عنه . قال : سمعت النبى (ص) نهى النساء فى احرامهن عن القفازين والنقاب ومامس الورس أو الزعفران من الثياب ، ولتلبس بعد ذلك ما أحبت من ألوان الثياب معصفرا أو خزا أو حليا أو سراويل أو قميصا أو خفا . (رواه أصحاب السنن وأحمد) .

تحريم الصيد

« يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم » ... الخ الآية . وفى آية أخرى . « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون » . وفى آية أخرى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الأنعام الا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، ان الله يحكم مايريد » .

عن ابن عباس قال : أهدى للنبى (ص) عضو من لحم صيد فرده وقال : انا لا نأكله انا حرم (رواه الخمسة) .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى (ص) قال : صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيدوه أو يصد لكم . (رواه أصحاب السنن) .

وعن حفصة رضى الله عنها عن النبى (ص) قال : خمس من الدواب لاحرج على من قتلهن : الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور. وفى رواية : خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم ، الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا . (رواه الخمسة) .

تحريم النكاح

عن أبان بن عثمان رضى الله عنه قال سمعت أبى يقول قال رسول الله (ص) لاينكح المحرم ولاينكح ولا يخطب. رواه الخمسة الا البخارى.

مايجوز للمحرم

عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : رأيت النبى (ص) يغتسل وهو محرم ، وحرك رأسه بيديه ، فأقبل بهما وأدبر ، وقال : هكذا رأيته (ص) يفعل (رواه الثلاثة) .

عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : احتجم النبى (ص) وهو محرم بلحى جمل فى وسط رأسه . (رواه الخمسة) وزاد أبو داود « من داء كان به » .

وعن عثمان رضى الله عنه عن النبى (ص) فى الرجل اذا اشتكى عينيه وهو محرم ضمدهما بالصبر . (رواه الخمسة الا البخارى) .

الاهلال من الميقات

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : رأيت النبى (ص) تجرد لاهلاله واغتسل . (رواه الترمذى) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أطيب رسول الله (ص) لاحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت .

التلبية

عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله (ص) كان اذا استوت به راحلته قائمة عن مسجد ذى الحليفة أهل ، فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . (رواه الخمسة) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه . أن النبى (ص) أردف الفضل من

جمع الى منى • وأخبرني الفضل أن النبي (ص) لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة • (رواه الأربعة) •

وعنه عن النبي (ص) قال : يلبي المعتمر حتى يستلم الحجر • (رواه أبو داود والترمذي وصححه) •

الباب الثالث

أنواع النسك وأعماله

قال الله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه • فلا ينازعنك في الأمر ، وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم » وفي آية أخرى « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام » •

الافراد

عن عائشة رضي الله عنها • أن رسول الله (ص) أفرد الحج • (رواه الخمسة الا البخاري) • ولفظ مسلم • أهل بالحج مفردا • وعنها قالت : خرجنا مع النبي (ص) عام حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة وعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله (ص) بالحج فأما من أهل بالحج أو جمع الحج بعمرة فلم يحل حتى كان يوم النحر (رواه الخمسة الا الترمذي) •

التمتع

قال الله تعالى : فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب — ١٩٦ سورة البقرة •

وفي الحديث • عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه سئل عن متعة الحج فقال : أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبي (ص) في حجة الوداع

وأهللنا ، فلما قدمنا مكة قال رسول الله (ص) اجعلوا اهلالكم بالحج عمرة الا من قلد الهدى • فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة ، وأتينا النساء ولبسنا الثياب ، وقال : من قلد الهدى فانه لايحل له حتى يبلغ الهدى محله ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج، فاذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقد تم حجنا وعلينا الهدى ، قال الله تعالى : فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم — الى أمصاركم الشاة تجزى فجمعوا نسكين فى عام بين الحج والعمرة فان الله أنزله فى كتابه وسنة نبيه (ص) وأباحه لغير أهل مكة • قال الله : ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام • (رواه الثلاثة) •

القِران :

عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله (ص) يلبى بالحج والعمرة جميعا • يقول : لبيك عمرة وحجا • (رواه الأربعة) •

وعن عمر رضى الله عنه • قال : سمعت رسول الله (ص) بوادى العقيق يقول : أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك ، وقل عمرة فى حجة (رواه البخارى وأبو داود وأحمد) •

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى (ص) قال : من كان معه هدى فليهل بالحج والعمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعا (رواه الثلاثة) •

وعن جابر رضى الله عنه • أن رسول الله (ص) قرن الحج والعمرة فطاف لهما طوافا واحدا • • (رواه الترمذى وحسنه) •

الطواف بالبيت

قال الله تعالى : ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق • (الحج ٢٩)

وفى آية أخرى : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود • (الحج ٢٦)

وفى آية أخرى : واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهـدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول شىء بدأ به النبى (ص) حين قدم مكة أن توضأ ثم طاف بالبيت . (رواه البخارى) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله (ص) اذا طاف فى الحج والعمرة أول مايقدم ، فانه يسعى ثلاثة أطواف بالبيت ثم يمشى أربعة ثم يصلى سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة . (رواه الخمسة) ولفظ الترمذى : لما قدم النبى (ص) مكة دخل المسجد فاستلم الحجر ثم مضى عن يمينه فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم أتى المقام فقال : واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، فصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، ثم آتى الحجر فاستلمه ثم خرج الى الصفا ، أظنه قال : « ان الصفا والمروة من شـعائر الله » وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا طاف طوافه الأول خب ثلاثا ومشى أربعا .

استلام الحجر والركنين والملتزم

عن عمر رضى اللهعنه أنه جاء الى الحجر الأسود فقبله وقال : انى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ، ولولا أنى رأيت النبى (ص) يقبلك ماقبلتك (رواه الخمسة) .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : لم أر النبى يستلم من البيت الا الركنين اليمانيين . وفى رواية : طاف النبى (ص) فى حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن . (رواه الخمسة) وفى رواية : كلما أتى على الركن أشار اليه بشىء فى يده وكبر .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قرأ النبى (ص) فى ركعتى الطواف بسورتى الاخلاص وقل يا أيهـا الكافرون ، (رواه الترمذى وأحمد ومسلم) .

شرط الطواف

عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى (ص) قال : الطواف حول البيت مثل الصلاة الا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فلا يتكلمن الا بخير • (رواه الترمذى والحاكم) •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قدمت مكة وأنا حائض ، ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك الى النبى (ص) فقال : افعلى كما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت حتى تطهرى • (رواه الأربعة) •

السعى بين الصفا والمروة

قال الله تعالى : ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما •

وفى الحديث الشريف • عن عاصم رضى الله عنه قلت لأنس أكنتم تكرهون السعى بين الصفا والمروة ؟ قال : نعم • لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله : ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما • (رواه الشيخان) •

وقال عروة رضى الله عنه : قلت لعائشة رضى الله عنها : انى لأظن رجلا لو لم يطف بين الصفا والمروة ماضره • قالت : لم ؟ قلت : لأن الله تعالى يقول : ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، فقالت : ما أتم الله حج امرىء ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ، ولو كان كما تقول لكان ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ، وهل تدرى فيما كان ذاك ، ان الأنصار كانوا فى الجاهلية يهلون لصنمين على شط البحر يقال لهما ، اساف ونائلة ، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون فلما جاء الاسلام كرهوا الطواف بينهما كما كانوا فى الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : ان الصفا والمروة من شعائر الله — الآية،فطافوا ، وفى رواية قالت له:بئسما قلت يا ابن أخى،طاف

رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون فكانت سنة • (رواه الخمسة) •

الذكر والدعاء فى الطواف والسعى :

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى (ص) قال انما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لاقامة ذكر الله تعالى • رواه أبو داود وأحمد والترمذى وصححه •

عن عبد الله بن السائب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله (ص) يقول بين الركن اليمانى والحجر : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار • رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه •

وللشافعى قيل يارسول الله كيف نقول اذا استلمنا البيت قال : قولوا بسم الله والله أكبر ، ايمانا بالله وتصديقا لما جاء به محمد •

وللبزار كان النبى (ص) يقول : اللهم انى أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق •

ولابن ماجة : من طاف بالبيت سبعا ولا يتكلم الا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله ، محيت عنه عشر سيئات وكتب له عشر حسنات ورفع له به عشر درجات •

للقارن طواف وسعى واحد :

قال جابر رضى الله عنه : لم يطف النبى (ص) ولا أصحابه بين الصفا والمروة الا طوافا واحدا ، طوافه الأول • رواه الخمسة الا البخارى •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت وبين الصفا والمروة ثم حلوا ثم طافوا طوافا آخر بعد أن رجعوا من منى • وأما الذين جمعوا الحج والعمرة فانما طافوا طوافا واحدا • رواه البخارى • وعنها رضى الله عنها أن النبى (ص) قال لها : طوافك بالبيت وبين الصفا والمروة يكفيك لحجتك وعمرتك • رواه أبو داود ومسلم •

السير إلى عرفة

عن أنس رضى الله عنه أنه سئل وهو يسير من منى الى عرفة ، كيف كنتم تصنعون فى هذا اليوم مع النبى (ص) ؟ فقال : كان يهل منا المهل فلا ينكر عليه ، ويكبر منا المكبر فلا ينكر عليه . (رواه البخارى ومسلم والنسائى) .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى (ص) قال : نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا فى رحالكم ، ووقفت ههنا وعرفة كلهـا موقف ، ووقفت ههنا وجمع[1] كلها موقف . (رواه الخمسة الا البخارى) .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحُمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفة ، فلما جاء الاسلام ، أمر الله عز وجل نبيه (ص) أن يأتى عرفات فيقف بها ثم يفيض منهـا ، فذلك قوله سـبحانه — ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . (رواه الخمسة) .

وعن عروة بن مضرس الطائى رضى الله عنه قال : أتيت النبى (ص) بالمزدلفة ، قلت : يارسـول الله جئت من جبلى طيىء ، أكللت مطيتى ، وأتعبت نفسى ، والله ماتركت من جبل الا وقفت عليه ، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله (ص) من أدرك معنا هذه الصلاة وأتى عرفات قبل ذلك ليلا أو نهارا فقد تم حجه ، وقضى تفثه . (رواه أصحاب السنن وصححه الترمذى) .

الدفع من عرفة والمبيت بالمزدلفة :

قال الله تعـالى : فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشـعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه دفع مع النبى (ص) يوم عرفة ،

(١) المزدلفة .

فسمع النبى (ص) زجرا شديدا ، وضربا وصوتا للابل ، فأشار بسوطه اليهم ، وقال : أيها الناس عليكم بالسكينة ، فان البر ليس بالايضاع [1] . (رواه البخارى وأبو داود) .

وقال أسامة بن زيد رضى الله عنه : دفع رسول الله (ص) من عرفة حتى اذا كان بالشِعب نزل ... ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء ، فقلت له : الصلاة ، قال : الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ، ثم أناخ كل انسان بعيره فى منزله ، ثم أقيمت العشاء فصلاها ولم يصل بينهما شيئا . (رواه الخمسة الا الترمذى) . وقال عمرو بن ميمون : شهدت عمر رضى الله عنه صلى الصبح بجمع (المزدلفة) ثم قال ان المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون : أشرق ثبير وأن النبى (ص) خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس (رواه البخارى وأبو داود) .

المبيت بمنى

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلنا يارسول الله ألا نبنى لك بيتا يظلك بمنى ؟ قال : لا ، منى مناخ من سبق . (رواه أبو داود والترمذى وصححه) .

وعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه عن النبى (ص) قال : ان أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر . (رواه أبو داود) .

رمى جمرة العقبة

عن عبد الرحمن بن يزيد رضى الله عنه أنه حج مع ابن مسعود فرآه يرمى الجمرة الكبرى بسبع حصيات ، وجعل البيت عن يساره ، ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة . (رواه الخمسة الا مسلم) .

وقال جابر رضى الله عنه : رأيت النبى (ص) يرمى على راحلته يوم

(١) أى الاسراع .

النحر ويقول : لتأخذوا مناسككم ، فانى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه . (رواه مسلم وأبو داود وأحمد) .

وعنـه قال : رمى رسول الله (ص) الجمرة يوم النحر ضـحى ، وأما بعد فاذا زالت الشمس . (رواه الخمسة ولكن البخارى تعليقا) .

الحل الأول

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى (ص) قال : اذا رمى أحدكم جمرة العقبة فقد حل له كل شيء الا النساء . (رواه أبو داود والنسائى) .

وعن أنس رضى الله عنـه : أن النبى (ص) أتى منى فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق : خذ وأشار الى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس . (رواه الخمسة) .

النحر والتصدق بلحم الأضاحى

قال الله تعالى : انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر .

وقال أيضا : ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع الى أجل مسمى ، ثم محلها الى البيت العتيق .

وقال أيضا : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومهـا ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم ، وبشر المحسنين .

وعن على رضى الله عنه قال : أمرنى رسول الله (ص) أن أقوم على بدنه ، وأن أتصدق بلحمها وجلودها وأجلتها وألا أعطى الجزار منها قال : نحن نعطيه من عندنا (رواه الخمسة الا الترمذى) .

وقال جابر رضى الله عنه : كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث منى ، فرخص لنا النبى (ص) فقال : كلوا وتزودوا ، فأكلنا وتزودنا .

الحلق والتقصير

قال الله تعالى : لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون ، فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا .

عن ابن عمر رضى الله عنهما . أن رسول الله (ص) قال : اللهم ارحم المحلقين ، قالوا : والمقصرين يارسول الله ، قال : اللهم ارحم المحلقين ، قالوا : والمقصرين يارسول الله ، قال : والمقصرين . (رواه الثلاثة) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى (ص) قال : ليس على النساء الحلق ، انما على النساء التقصير . (رواه أبو داود والترمذى والدار قطنى) .

افعل ولا حرج

وعنه قال : قال رجل للنبى (ص) زرت قبل أن أرمى ، قال : لاحرج ، قال : حلقت قبل أن أذبح ، قال : لاحرج ، قال ذبحت قبل أن أرمى ، قال : لاحرج .

وفى رواية ، وقف رسول الله (ص) فى حجة الوداع بمنى للناس يسألونه ، فقال رجل : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ، قال : اذبح ولاحرج ، فجاء آخر فقال : لم أشعر فنحرت قبل أن أرمى ، قال : ارم ولاحرج ، فما سئل يومئذ عن شيء قدم ولا أخر الا قال : افعل ولاحرج . (رواه الخمسة) .

طواف الإفاضة

قال الله تعالى : ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق .

وقالت عائشة رضى الله عنها : حججنا مع النبى (ص) فأفضنا يوم النحر . (رواه البخارى) .

وعن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله (ص) أفاض يوم النحر ثم رجع وصلى الظهر بمنى ، وكان ابن عمر يفعل ذلك اقتداء بالنبى (ص) . (رواه الثلاثة) .

وللبخارى : كان النبى (ص) يزور البيت أيام منى .

رمى الجمار أيام التشريق

قال الله تعالى : واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون .

عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله (ص) كان اذا رمى الجمرة التى تلى مسجد منى يرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم تقدم أمامها فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو ، وكان يطيل الوقوف ، ثم يأتى الجمرة الثانية فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم ينحدر ذات اليسار مما يلى الوادى ، فيقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو ، ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة ، فيرميها بسبع حصيات ، يكبر عند كل حصاة ثم ينصرف ولا يقف عندها . (رواه البخارى وأبو داود) .

وعنه أنه كان يأتى الجمار فى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر ماشيا ذاهبا وراجعا ، ويخبر أن النبى كان يفعل ذلك . (رواه أبو داود والترمذى) .

الإقامة بمكة بعد النسك وطواف الوداع

قال عمر بن عبد العزيز للسائب بن يزيد رضى الله عنه : هل سمعت فى الاقامة بمكة شيئا ؟ قال : سمعت العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه يقول : قال رسول الله (ص) يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا . (رواه الخمسة) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان الناس ينصرفون فى كل

وجه ، فقال رسول الله (ص) : لاينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت • (رواه الخمسة الا البخارى) ولفظ الترمذى • من حج هذا البيت أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت ، فقال له عمر : خررت[1] من يديك • سمعت هذا من النبى (ص) ولم تخبرنا به •

وعنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت ، الا أنه خفف عن المرأة الحائض • (رواه الشيخان والنسائى) •

كيف حج النبى حجة الوداع

عن جعفر بن محمد عن أبيه رضى الله عنهما قال : دخلنا على جابر ابن عبد الله فسأل عن القوم حتى انتهى الىّ ، فقلت : أنا محمد بن على ابن حسين ، فأهوى بيده الى رأسى فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يا ابن أخى سل عما شئت ، فسألته وهو أعمى وحضر وقت الصلاة فقام فى نساجة ملتحفا بها ، كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها اليه من صغرها ، ورداؤه الى جنبه على المشجب ، فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله (ص) فقال بيده ، فعقد تسعا ، فقال : ان رسول الله (ص) مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله (ص) حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله (ص) ويعمل مثل عمله ، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت الى رسول الله (ص) كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى ، فصلى رسول الله (ص) فى المسجد ثم ركب القصواء ، حتى اذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت الى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله (ص) بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ،

---

(١) أى سقطت كناية عن الخجل .

وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهل بالتوحيد ؛ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك . وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله (ص) عليهم شيئا منه ، ولزم رسول (ص) تلبيته ، قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى الا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى اذا أتينا البيت معـه ، استلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ، ثم نفذ الى مقام ابراهيم عليه السلام فقرأ : واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، فجعل المقام بينه وبين البيت وكان يقرأ فى الركعتين : قل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ، ثم رجع الى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب الى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ : ان الصفا والمروة من شعائر الله ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره وقال : لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل الى المروة حتى اذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى اذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتى اذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال : لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ؛ فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله : ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله (ص) أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج مرتين لا بل لأبد أبد . وقدم على من اليمن ببدن النبى (ص) فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : ان أبى أمرنى بهذا قال : فكان على يقول بالعراق فذهبت الى رسول الله (ص) محرشا على فاطمة للذى صنعت ، مستفتيا لرسول الله (ص) فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها فقال : صدقت صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ، قال : قلت اللهم انى أهل بما أهل به رسولك ؛ قال : فان معى الهدى فلا تحل ، قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على

من اليمن ، والذى أتى به النبى (ص) مائة ، قال : فحل النـــاس كلهم وقصروا الا النبى (ص) ومن كان معه هدى ، فلما كان يوم التروية توجهوا الى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله (ص) فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله (ص) ولا تشك قريش الا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، فأجاز رسول الله (ص) حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى اذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى ، فخطب الناس وقال : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فانه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء ، فانكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم آحدا تكرهونه ، فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده ، ان اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس : اللهم اشـــهد ، اللهم اشهد ، ثلاث مرات ، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله (ص) حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء الى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وزالت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله (ص) وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى أى يشير بها : أيها الناس ، السكينة السكينة كلما أتى

حبلا[1] من الحبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول الله (ص) حتى طلع الفجر وصلاه حين تبين له الصبح بأذان واقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله (ص) مرت به ظعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر اليهن ، فوضع النبى (ص) يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه الى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله (ص) يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف ، رمى من بطن الوادى ثم انصرف الى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر مانحر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله (ص) فأفاض الى البيت ، وصلى بمكة الظهر ، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا فشرب منه . (رواه مسلم وأبو داود) .

اعتمد فى جمع هذه الأحاديث وترتيبها على كتب الحديث وبصفة خاصة على كتاب الجامع للأصول تاليف الشيخ منصور على ناصف فله الأجر والثواب .

(1) الحبل هو التل الخفيف من الرمل .

جـــدول بمناسك الحج

على المذاهب الأربعـــة

العمـل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الحج	فرض فورا	فرض تراخيا	فرض فورا	فرض فورا
العمرة	سنة مؤكدة (١)	فرض تراخيا	سنة مؤكدة	فرض فورا
الاحرام بالحج أى نيته . . .	شرط وركن(٢)	ركن	ركن	ركن
الاحرام بالعمرة أى نيتهـا . .	شرط (وقيل ركن)	ركن	ركن	ركن
قرن الاحــرام بالتلبية . . .	سنة	سنة	سنة وقيل واجب	سنة
الاحرام من الميقات	واجب (٣)	واجب	واجب	واجب
طواف القدوم	سنة	سنة	واجب	سنة
بدء الطواف من الحجـر الأسود	واجب	شرط	واجب	شرط
ستر العورة فى الطواف . . .	واجب	شرط	شرط	شرط
الطهارة فى الطواف من الحدثين	واجب	شرط	شرط	شرط
كون الطواف سـبعة أشواط .	واجب (٤)	شرط	شرط	شرط
الموالاة بين أشــواط الطواف .	سنة	سنة	واجب	شرط
ركعتـا الطواف	واجب	سنة وقيل واجب	واجب	سنة
الطـواف للعمرة	ركن	ركن	ركن	ركن
وقوع السعى بعد الطواف . .	واجب	شرط	واجب	شرط
السعى بين الصفا والمروة . .	واجب	ركن	ركن	ركن
نيــة السعى فى الحج أو العمرة	واجب	شرط	شرط	شرط

(١) السنة المؤكدة لا يلزم بتركها شىء ولكن يفوت الثواب .
(٢) الفرق بين الشرط والركن أن الشرط خارج عن الشىء والركن جزء منه وكل منهما لابد منه لصحة الشىء فاذا فات الحاج شىء من أركان الحج أو العمرة أو شروطها سهوا أو عمدا بطل حجه وعمرته .
(٣) الواجب يلزم بتركه دم أى فدية .
(٤) الركن عنده أربعة أشواط فقط .

العمل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
بدء السعى بالصفا وختمه بالمروة	واجب	سنة	واجب	شرط وقبل سنة
المشى بالطواف والسعى مع القدرة	واجب	شرط	شرط	شرط
كون السعى سبعة أشواط . .	واجب	سنة	واجب	سنة
موالاة الأشــــواط فى الطواف والسعى	سنة	سنة	واجب	شرط
الحلق أو التقصـير فى العمرة	واجب	واجب	واجب	واجب
الوقوف بعــرفة	ركن	ركن	ركن	ركن
الدفع من عرفة مع الامام . .	واجب	سنة	واجب	سنة
الوقوف بمزدلفة	واجب	واجب	واجب	واجب
الجمع بمزدلفة بين صلاة المغرب والعشاء	واجب	سنة	سنة	سنة
المبيت بمنى ليالى أيام التشريق	سنة	واجب	واجب	واجب
رمى جمرة العقبة يوم النحر .	واجب	واجب	واجب	واجب
الحلق أو التقصير فى الحج .	واجب	ركن	واجب	واجب
الترتيب بــين الرمى والذبح والحلق	واجب	سنة	سنة	سنة
كون الحلق فى الحـرم وأيام النحر	واجب	سنة	سنة	سنة
طواف الافاضــة	ركن	ركن	ركن	ركن
الطواف من وراء الحجـر والشذروان وكونه فى المسجد	واجب	واجب	شرط	شرط
كونه فى أيام النحر	واجب	واجب	واجب فى ذى الحجة	سنة
تأخير طواف الافاضة عن الرمى	سنة	واجب	سنة	سنة
رمى الجمار فى أيام التشريق .	واجب	سنة	واجب	واجب
عدم تأخير الرمى الى الليل . .	سنة	واجب	سنة	سنة
طواف الوداع	واجب	سنة	مستحب	واجب

الآثار النبوية فى مكة

— ١٢ —

لا يكاد الحاج من عوام الناس يشعر بخيبة أمل لقلة الآثار النبوية فى مكة ، ففى بيت الله الحرام وفى مناسك الحج ذاتها مايشفى غليله ، ونزعته الصوفية ، فهذا الطواف حول البيت ، وتقبيل الحجر الأسود ، والتعلق بأستار الكعبة ، ومقام ابراهيم وعين زمزم ، والسعى بين الصفا والمروة ، وغير ذلك من مناسك الحج ، كل ذلك يتيح الفرصة للحجاج أن يتمتعوا بالدعاء والعبـادة ، وأن يشعروا بالرضا والقناعـة التى لامزيد عليها ، ولما كانوا كمسلمين يحنون الى شخص النبى وذكرياته وما يتصل به ، فهم يعرفون أن ذلك كله مستقر فى المدينة ، فلا يكادون يفرغون من الحج حتى يهرعون الى المدينة ، يروون ظمأهم بزيارة الرسول والتبرك بآثار الرسول . ولكن الحاج المثقف المطلع يدرك أن مكة كانت مكان مولد الرسول ومستقر حياته ، نيفا وخمسين سنة طويلة عريضة ، حافلة بالذكريات ، ويتشوقون وهم فى كعبة الاسلام أن يتلمسوا هذه الآثار ، وأن يستروحوا ذكرياتها ، فلا يلبثوا أن يشعروا بخيبة الأمل من هذه الناحية . ما من حاج على شىء من حب المعرفة الا ويتساءل ترى أين ولد الرسول ، وفى أى جزء من أجزاء مكة ؟ وأين بيت خديجة حيث عاش الرسول سنين طويلة قبل بعثته ، وثلاثة عشر عاما بعد بعثته ؟ أين كان بيت أبى بكر وبيت عمر وبيت عثمان ؟ أين هذه الذكريات النبوية التى تغص بها كتب السيرة فلا يكاد يذكر اسم من أسمائها أو اشارة لها عن قرب أو بعد حتى يخفق قلب الانسان لجلال الذكرى وعمقها ! .

فأما بعض الحجازيين كبار السن فسيقولون لك ردا على أسئلتك ان هـذه الأشياء كلها كانت موجودة ، وان مكة كانت مليئة بالمزارات والأماكن المقدسة التى شيدت فوقها القباب تخليدا لذكرها . فكان هناك البيت الذى ولد فيه الرسول ، وكان هناك بيت السيدة خديجة

حيث ولدت السيدة فاطمة ، وكانت هناك فى مقبرة المعلاة القباب المقامة فوق قبر السيدة خديجة والسيدة آمنة ، وكان هناك وكان هناك ... فلما جاء الوهابيون الى مكة هدموا هذه المزارات كلها وعفوا على آثارها ، ثم يقودونك الى أمكنة فى وسط الأسواق أناخت فيها الجمال ، ورابطت فيها الدواب ، وهى غاصة بحركة الناس ويقولون لك : هاهنا كان بيت السيدة خديجة ، وهنا كان بيت آمنة حيث ولد الرسول[1] ، وفى كتاب الرحلة الحجازية للعالم والمؤرخ الكبير محمد لبيب البتانونى وصف دقيق لهذين الأثرين ، مصحوب برسم نظرى هندسى ، وتتبع تاريخهما بما يحمل على الاطمئنان الى صحة الوقائع المذكورة ، فالدار قد أقام فيها الرسول بصحبة السيدة خديجة سنوات طويلة ، حتى اذا هاجر الرسول الى المدينة استولى على الدار عقيل بن أبى طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجدا ، وعمرت فى زمن الناصر العباسى ، وقد شاهد لبيب البتانونى بنفسه اللوحة الرخامية المعلقة على الدار والتى كتب عليها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ، وجعل منافعه ومستغلاته وأجره عائدا على مصالحه ، ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى ، على مايرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر ، والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الآخرة ، تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين ، وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على ابن أبى البركات الذورانى الأنبارى فى سنة أربع وستمائة ، ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين » .

بيت خديجة

(١) يسمى الشعب الذى يوجد به هذا الأثر اليوم : شعب بنى هاشم أو شعب على والسوق سوق الليل .

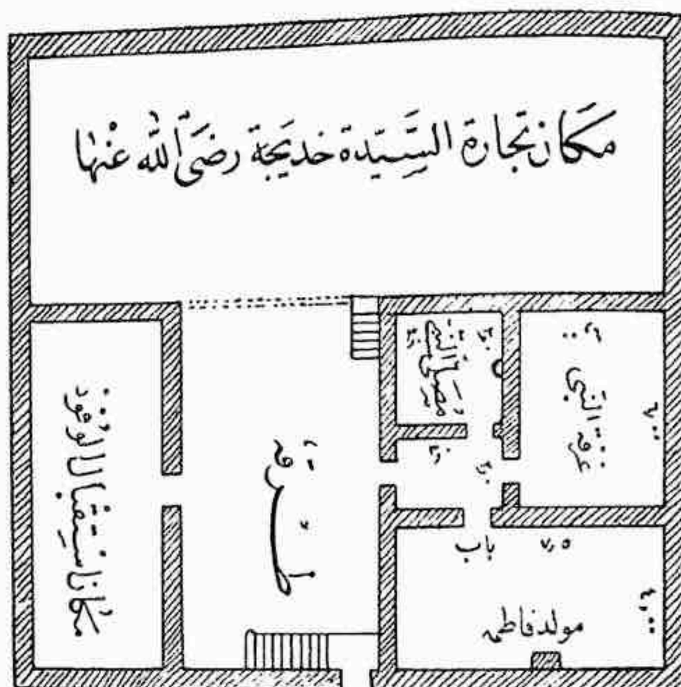
كما يشاهد فى كتاب الرحلة الحجازية سالفة الذكر صورة فوتوغرافية لما كانت عليه مقبرة المعلاة ، ويرى ظاهرا بها بعض القباب على قبور السيدة خديجة والسيدة آمنة أم رسول الله ، وقباب عبد المطلب وأبى طالب وغيرهما من بنى هاشم • كما ترى هذه الصور كلها بتفصيل أوفى فى كتاب مرآة الحرمين الذى أشرنا اليه فيما سبق •

وكل هذه الآثار وأمثالها لا أثر لها اليوم بعد أن أزالها غلاة الوهابيين عند دخولهم الى مكة ، وفرضوا العقوبة على كل من يدل الناس على هذه الأمكنة باعتبارها أماكن غير عادية •

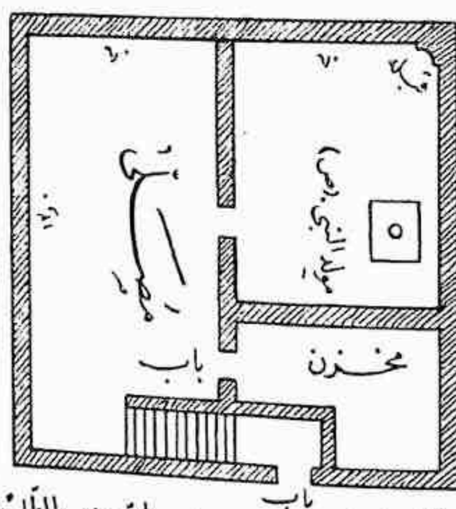
هدم القباب والآثار

وللوهابيين فى ذلك حجة واضحة لا نستطيع أن ننكرها عليهم ، فرأيهم فى القباب معروف ، فقد وردت الأحاديث تحذر من اتخاذ القبور مساجد ، ومن اقامة أى بنيان على القبر ، فلو لم يكن هناك سوى هذا النص لجاز لكل متمسك بقواعد الحديث والسنة أن ينكر اقامة هذه القباب ، فما بالك وقد اتخذها العامة مزارات للتبرك والتوسل والدعاء عندها ، حتى ليلتبس أمرها بصور الوثنية فى كثير من الأحيان ، فما أقدم عليه الوهابيون من هدم بعض هذه القباب أمر تنفق معهم فى الغاية منه •

أما بالنسبة للمآثر الأخرى كهذين اللذين أشرنا اليهما ، ونعنى بهما بيت خديجة والبيت الذى ولد فيه الرسول ، فالأمر هنا جد مختلف ، فهى ليست قبورا لتزال ، وما كان يجرى فيها من المنكرات ، كتقبيل الناس للجدران والأعتاب وغير ذلك ، فهذه مسألة من الممكن معالجتها بالنصح والارشاد من ناحية ، وبوضع رجال البوليس كما هو الشأن فى الروضة الشريفة للحيلولة بين الناس وبين التمسح بجدران القبر أو أستاره ، ولكنا لاندرك أى حكمة لهدم بيت يوصف بأنه بيت السيدة خديجة ؟ ! يقولون ان كثيرا من هذه الأماكن للرسول ليست ثابتة بنصوص صحيحة ، وانها اتخذت وسيلة للدجل والنصب والشعوذة ، ولا جدال أن فى ذلك بعض الحق ، وأن مهمة الحكومة الصالحة هى أن تمنع وقوع هذه الأشياء ، وتمنع التغرير بعقول السذج والبسطاء ، من

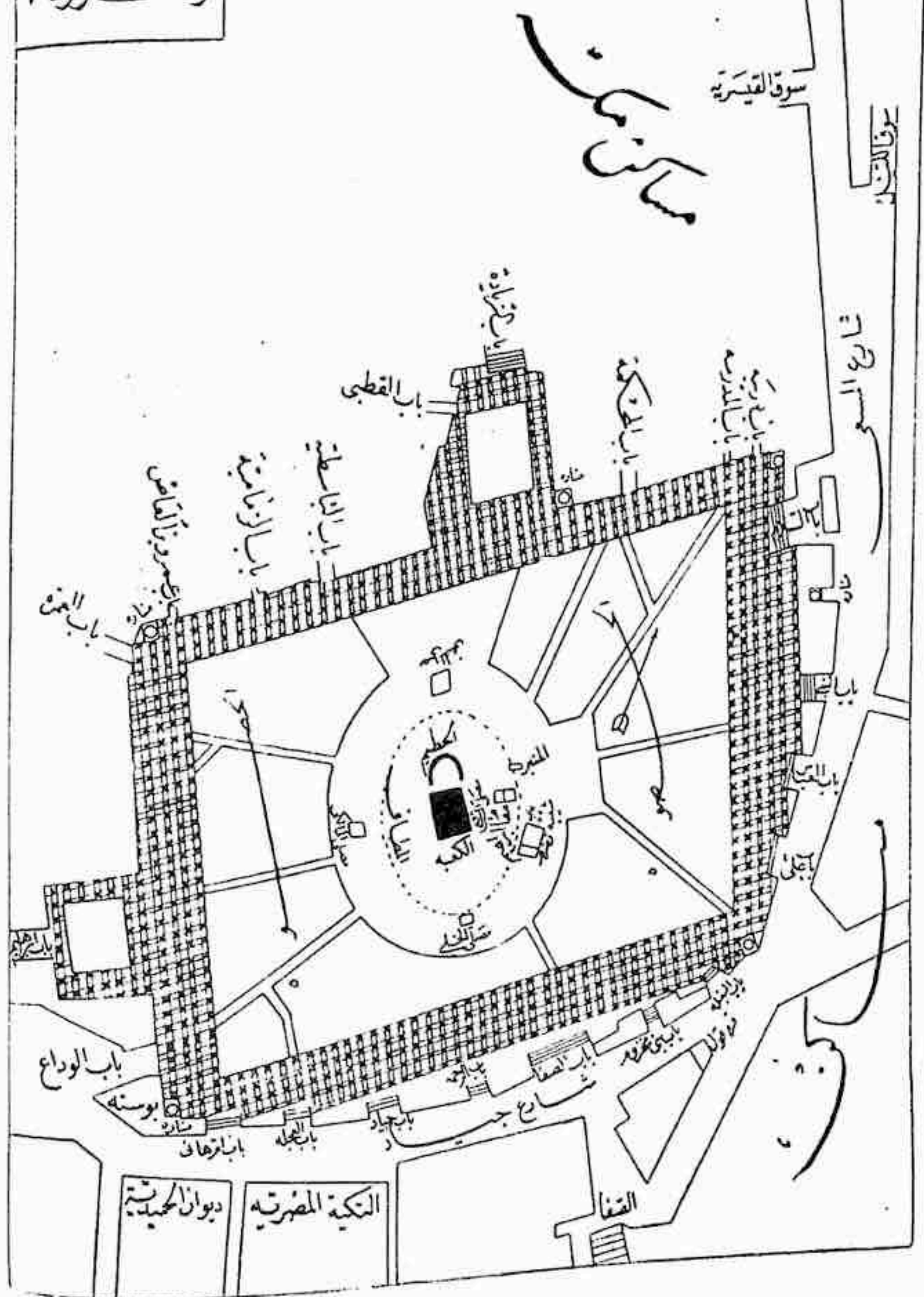


رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

نقلا عن كتاب الرحلة الحجازية للعلامة لبيب البتانوني



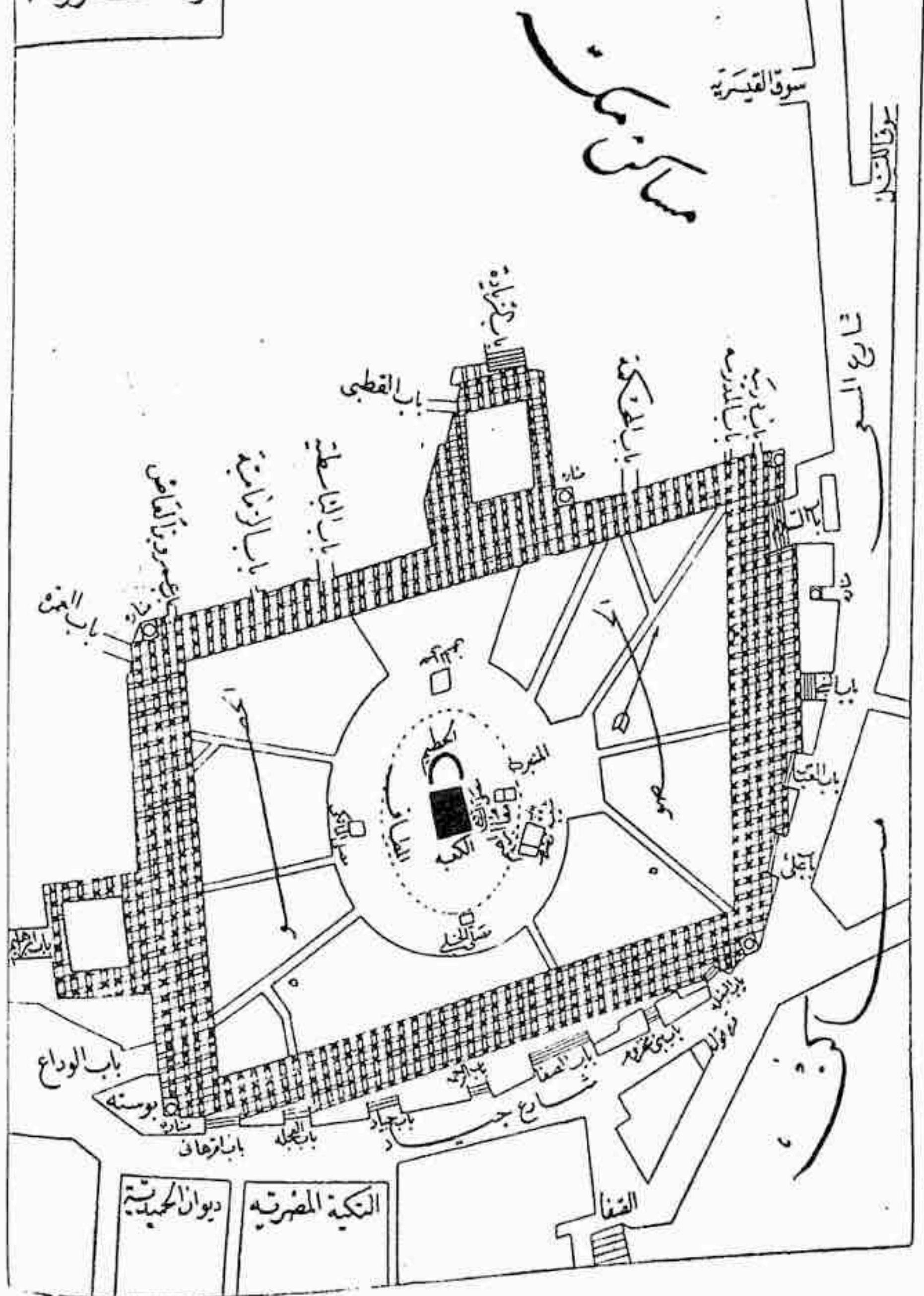
نقلا عن كتاب الرحلة الحجازية للعلامة لبيب البتانونى

أن يستغل أقوام حبها للرسول وذويه ، فتضللها وتبتز أموالها بدعوى أنها تريها آثارا شريفة •

ولكن بيت السيدة خديجة بصفة خاصة ، لايمكن الا أن يكون أثرا تاريخيا له كل القيمة التاريخية ، ولايمكن الطعن فى صحة أثريته ، فهذا المبنى الذى أزيل هو من عمل أحد الخلفاء العباسيين سنة ٦٠٤ هجرية ، وغنى عن البيان أن ماقام به هذا الخليفة هو عملية ترميم وتجديد للمبنى القديم ، ولا جدال فى أن أهمية هذا البيت واضحة منذ أقدم العصور ، ومنذ صدر الاسلام الأول ، فقد عاشت فيه السيدة خديجة طوال حياتها ، وهى سيدة كانت شهيرة فى الجاهلية وشهيرة وعظيمة بعد الاسلام ، وقد مكث به الرسول سنوات وسنوات ، فلا يمكن أن يكون فى أهل مكة كلها من لا يعرف البيت ، ولا يمكن الا أن يكون سكان مكة قد شبوا جميعا وترعرعوا يعرفون هذا البيت ويعرفون حرمته ، وعلى هذا شب أبناؤهم وأبناء أبنائهم ، ولم يذكر التاريخ أن مكة احترقت كلها فى يوم من الأيام بحيث ضاعت معالمها وعفى على آثارها ، فلست أتصور كيف يمكن أن تضيع معالم هذا البيت ، أو على الأقل كيف يمكن أن يجهل أحد فى مكة بالتواتر المستمر أين مكانه وحدوده ؟ فليس هناك محل للتشكك بأية صورة من الصور ، فى أن هذا المبنى الذى كان قائما باعتباره بيت السيدة خديجة يقوم على ذات المكان الذى كان فيه البيت القديم • وما يقال عن بيت خديجة يقال عن البيت الذى وصف بأنه دار مولد الرسول أو بالأحرى دار آمنة بنت وهب •

شهرة بيت الرسول بالتواتر

ولذلك فاننى أطالب وألح فى أن يعاد بناء هذين البيتين على صورة بسيطة ، وأن يعاد بناؤهما بطريقة فنية أقرب ما تكون الى الصورة التى كان يمكن أن يكونا عليها ، ومن المواد التى كانا مبنيين بها • ولكى يحال بين الناس وبين التبرك بهما أو تقديسهما يمكن أن يجعل من أحدهما أو كليهما مكتبة للمطالعة • والمهم أن لاتخلو مكة من هذا الأثر التاريخى



نقلا عن كتاب الرحلة الحجازية للعلامة لبيب البتانوني

أن يستغل أقوام حبها للرسول وذويه ، فتضللها وتبتز أموالها بدعوى أنها تريها آثارا شريفة .

ولكن بيت السيدة خديجة بصفة خاصة ، لايمكن الا أن يكون أثرا تاريخيا له كل القيمة التاريخية ، ولايمكن الطعن فى صحة أثريته ، فهذا المبنى الذى أزيل هو من عمل أحد الخلفاء العباسيين سنة ٦٠٤ هجرية ، وغنى عن البيان أن ماقام به هذا الخليفة هو عملية ترميم وتجديد للمبنى القديم ، ولا جدال فى أن أهمية هذا البيت واضحة منذ أقدم العصور ، ومنذ صدر الاسلام الأول ، فقد عاشت فيه السيدة خديجة طوال حياتها ، وهى سيدة كانت شهيرة فى الجاهلية وشهيرة وعظيمة بعد الاسلام ، وقد مكث به الرسول سنوات وسنوات ، فلا يمكن أن يكون فى أهل مكة كلها من لا يعرف البيت ، ولا يمكن الا أن يكون سكان مكة قد شبوا جميعا وترعرعوا يعرفون هذا البيت ويعرفون حرمته ، وعلى هذا شب أبناؤهم وأبناء أبنائهم ، ولم يذكر التاريخ أن مكة احترقت كلها فى يوم من الأيام بحيث ضاعت معالمها وعفى على آثارها ، فلست أتصور كيف يمكن أن تضيع معالم هذا البيت ، أو على الأقل كيف يمكن أن يجهل أحد فى مكة بالتواتر المستمر أين مكانه وحدوده ؟ فليس هناك محل للتشكك بأية صورة من الصور ، فى أن هذا المبنى الذى كان قائما باعتباره بيت السيدة خديجة يقوم على ذات المكان الذى كان فيه البيت القديم . وما يقال عن بيت خديجة يقال عن البيت الذى وصف بأنه دار مولد الرسول أو بالأحرى دار آمنة بنت وهب .

شهرة بيت الرسول بالتواتر

ولذلك فانني أطالب وألح فى أن يعاد بناء هذين البيتين على صورة بسيطة ، وأن يعاد بناؤهما بطريقة فنية أقرب ما تكون الى الصورة التى كان يمكن أن يكونا عليها ، ومن المواد التى كانا مبنيين بها . ولكى يحال بين الناس وبين التبرك بهما أو تقديسهما يمكن أن يجعل من أحدهما أو كليهما مكتبة للمطالعة . والمهم أن لاتخلو مكة من هذا الأثر التاريخى

الفذ . لقد زرت الرياض فوجدت بها آثار اقتحام جلالة الملك ابن السعود للمدينة لا تزال محفوظة ومسجلة ، وجدت بها آثار الدماء لا تزال عالقة بالجدران ، وذؤابة السيف التى انكسرت فى داخل الباب لا تزال موجودة كذكرى لهذه المغامرة الكبرى ، مما سأشرحه فيما بعد بالتفصيل ، ولقد شعر الانسان بجمال التاريخ وجلاله ازاء هذه الآثار ، فكيف تخلو مكة من أروع الآثار التاريخية كلها ، وهو البيت الذى كان لرسول الله فى مكة ؛ والذى غمره الوحى وانبثقت منه أنوار الرسالة .

دار المولد

وبعد أن كتبت الفقرة السابقة ، كنت أطالع فى كتاب الأزرقى فى أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، والأزرقى هو أقدم مؤرخ حدثنا عن مكة وتاريخها وخططها ، وقد عاش فى القرن الثانى للهجرة ومات فى القرن الثالث ، فهو أقدم مصدر يمكن أن يصلنا عن تاريخ مكة ، فتراه يتحدث عن بيتى الرسول المعروفين والمشهورين وأنهما على حالهما منـذ عهد الرسول ، وخاصة بيت السيدة خديجة ، أما البيت الذى ولد فيه الرسول فقد حصل فيه تبديل وتعديل الى أن أعادت بناءه على صورته القديمة الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون ، وجعلته مسجدا ، واليك ما قاله الأزرقى بصدد هذين الأثرين بالحرف الواحد .

قال أبو الوليد :

مولد النبى — أى البيت الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى دار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ، كان عقيل ابن أبى طالب أخذه حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه وفى غيره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع — حين قيل له : أين تنزل يا رسول الله ؟ — : وهل ترك لنا عقيل من ظل ، فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء ، وتعرف اليوم بابن يوسف ، فلم يزل ذلك البيت فى الدار حتى حجت الخـيزران أم الخليفتين موسى وهارون ، فجعلته مسجدا

يصلى فيه ، وأخرجته من الدار وأشرعته فى الزقاق الذى فى أصل تلك الدار يقال له.« زقاق المولد » .

حدثنا أبو الوليد قال : سمعت جدى ويوسف بن محمد يثبتان أمر المولد وأنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة .

منزل خديجة

ومنزل خديجة ابنة خويلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو البيت الذى كان يسكنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديجة وفيه ابتنى بخديجة ، وولدت فيه خديجة أولادها جميعا ، وفيه توفيت خديجة ، فلم يزل النبى ساكنا فيه حتى خرج الى المدينة مهاجرا فأخذه عقيل ابن أبى طالب ثم اشتراه منه معاوية وهو خليفة ، فجعله مسجدا يصلى فيه وبناه بناءه هذا ، وحدد الحدود التى كانت لبيت خديجة لم تغير فيما ذكر عمن يوثق به من المكيين، وفتح معاوية فيه بابا من دار أبى سفيان ابن حرب وهو قائم الى اليوم ، وهى الدار التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن : وهى الدار التى يقال لها اليوم دار ريطة بنت أبى العباس أمير المؤمنين ، وفى بيت خديجة هذا صفيحة من حجارة مبنى عليها فى الجدر جدر البيت الذى كان يسكنه النبى صلى الله عليه وسلم ، قد اتخذ قدام الصفيحة مسجدا ، وهذه الصفيحة مستقبلة فى الجدر من الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل ، وذرعها ذراع فى ذراع وشبر .

قال أبو الوليد : سألت جدى أحمد بن محمد ويوسف بن محمد ابن ابراهيم وغيرهما من أهل العلم من أهل مكة عن هذه الصفيحة ولم جعلت هناك ؟ وقلت لهم أو لبعضهم انى أسمع الناس يقولون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس تحت تلك الصفيحة فيستدرى بها من الرمى بالحجارة اذا جاءته من دار أبى لهب ؛ ودار عدى بن أبى الحمراء الثقفى ، فأنكروا ذلك وقالوا لم نسمع بهذا من ثبت ، ولقد سمعنا من يذكرها من أهل العلم ، فصح ما انتهى الينا من

خبر ذلك أن أهل مكة كانوا يتخذون فى بيوتهم صفايح من حجارة تكون شبه الرفاف يوضع عليها المتاع والشىء من الصينى والداجن يكون فى البيت ، فقل بيت يخلو من تلك الرفاف ، قال جدى : وأنا أدركت بعض بيوت المكيين القديمة فيها رفاف من حجارة يكون عليها بعض متاع البيت ، قال فيقولون • ان تلك الصفيحة التى ببيت خديجة من ذلك • انتهى [1] •

فأنت ترى من ذلك أن بيت السيدة خديجة لم يكن فيه محل خلاف بين مكى ومكى ، وأنه انتقل فى عصر مبكر جدا الى ملكية معاوية الذى حوله الى مسجد ، فالمسألة اذن لا تحتمل شكا ولا تأويلا •

دار الأرقم

ومن الأسماء التى تقال فتبعث فى النفس ذكريات وتملأ القلب خشوعا وجلالا ، هذا البيت القائم عند الصفا ، وهو ما كان يسمى على زمن الرسول صلوات الله عليه بدار الأرقم ويطلقون عليه دار الخيزران ، حيث كان الرسول يجتمع خفية بأصحابه المسلمين الأول ، خوفا من بطش قريش به ، حتى كان هذا الحادث المشهور الذى أدى الى اسلام سيدنا عمر بن الخطاب ، فذهب الى الرسول وأصحابه فى هذا البيت حيث تم اسلامه فيه ، ثم دعا الرسول أن يخرج معه هو وبقية المسلمين ليطوفوا بالبيت مكبرين مهللين ، لتعلم قريش أن عمر بن الخطاب أعدى أعداء رسول الله قد أسلم ، وبهذا انتقلت الدعوة من مرحلة الخفاء الى مرحلة الجهر على يد عمر ، وهذا هو ما جعل الرسول الأمين يطلق على عمر بن الخطاب لقب الفاروق لأن اسلامه كان حدا فاصلا بين عهد وعهد •

ولا يزال هذا البيت قائما ومسكونا فى مكة حتى الآن ولكن

---

(١) الجزء الثانى من كتاب الأزرقى صفحة ١٦٢ طبعة جديدة صححها وعلق عليها رشدى الصالح ملحس .

سكانه يمنعون الناس من الدخول فيه ، وهو بدوره من الأماكن التى يجب أن تحول الى المنفعة العامة فيكون معهدا أو مكتبة .

موضع دار أبى سفيان

ومن المواضع التى يمر عليها الانسان فى مكة الآن ، مستشفى القبان الواقعة فى المدعى ، والتى أقيمت فى ذات الموضع الذى كانت تقوم عليها دار أبى سفيان ، ويقول السيد رشدى ملحس فى حاشيته على كتاب الأزرقى ، ان دار أبى سفيان الأصلية قد عدت عليها العوادى ، وكان المجاورون من أصحاب الدكاكين يلقون فيها القمامة ، حتى كانت سنة ١٢٨٢ هجرية فجعلتها « بزم عالم » والدة السلطان عبد المجيد العثمانى مستشفى للمرضى ، وخصصت لها أوقافا للانفاق عليها ، وهى لا تزال مستشفى الى هذا اليوم ، وتعرف بمستشفى القبان . انتهى .

وغنى عن البيان أن هذه السيدة قد أحسنت الصنيع بتخليد هذه الدار الشهيرة باقامة المستشفى عليها ، فلا يكاد الانسان يتمثل أن بيت أبى سفيان كان يقوم فى هذا الموضع ، حتى تنبثق ذكريات هذه الخصومة الشديدة التى كانت بين بنى أمية وبين بنى هاشم ، وكيف أخذت فى الاسلام صورة الحرب بين أبى سفيان الذى كان يعتبر نفسه سيد قريش وبين رسول الله ... يتذكر الانسان هذه الحرب الضروس التى استمرت قرابة عشرين عاما من مبعث الرسول الى فتح مكة ، حيث اضطر أبو سفيان وأنفه راغم أن يدخل فى حظيرة الاسلام ، ورأى الرسول وهو القائل : اكرموا عزيز قوم ذل . أن يرفع من كرامة الرجل ، ليحبب اليه الاسلام ، فأمر المنادى أن يصيح : من دخل الحرم فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ويقف الانسان متأملا بوابة المستشفى الضخمة مرددا بينه وبين نفسه : هنا اذن كانت تقوم هذه الدار .

من دخل دار أبى سفيان فهو آمن

وياله من قدر عجيب ! ذلك الذى يبقى على ذكرى دار أبى سفيان بهذا المستشفى يقام على موضعه ، ويعفى على آثار بيت رسول الله

فى مكة فيكون مناخة للجمال ، اننا نرجو ونلح فى وجوب اعادة بيت الرسول وجعله مكتبة عامة ، أو معهدا كما قدمنا .

مساجد — وفى مكة عـديد من المسـاجد الصغيرة التى أقيمت فى مواضع وقف فيها النبى صلوات الله عليه وسلامه ، وهى تحمل أسماء تذكر أحيانا بهذه المواقف وأحيانا لاتنبىء الأسماء عن الحادثة التاريخية ، فمن ذلك مسجد الراية بأعلى مكة حيث ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية فى موضعه يوم الفتح ، ومسجد الجن حيث نزلت سورة الجن ، ومسجد البيعة بالجوار من جمرة العقبة حيث بايع الرسول الأنصار بيعة العقبة التى هاجر على أثرها الى المدينة . وقد سرنى أن لاحظت فى حجتى هذه المرة أن هذه المساجد وأمثالها قد عمرت عمارة حديثة ، وسجل عليها أن ذلك قد تم بأمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وهو ما يجعلنى أؤمل أن سيتم فى عهده وعلى يديه عمارة بيت رسول الله مرة أخرى .

جبل قبيس

على أن الآثار المصنوعة اذا كانت قد عدت عليها عوادى الأيام أحيانا ، وعمرت حينا آخر ، فان الآثار الطبيعية قد ظلت على حالها تملأ النفس خشوعا وجلالا ، فهذا جبل أبى قبيس يرتفع فى شموخ ومهـابة ، هذا هو الجبل الذى أظل مكة منذ عرفت مكة نفسها وسكنها من يعرف نفسه ، هذا هو الجبل الذى لاتخلو صفحة من صفحات سيرة الرسول الا ويذكر فيها اسمه ، فتارة يعرض عليه أبو قبيس أن يتحول له الى ذهب فيؤثر عليه الايمان والقناعة ، وطورا يعرض عليه أن يطبق على الكافرين ، وأن يخمد أنفاسهم لكثرة ما اضطهدوا الرسول وعذبوه ، فيأبى الرسول الا أن يدعو لقومه بالمغفرة والهداية ملتمسا لهم العذر : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » — هذا هو أبو قبيس وهذه شعابه التى حوصر فيها بنو هاشم السنين الطوال ليتخلوا عن رسول الله ، هذا هو أبو قبيس الذى وقف عليه المشركون يوم تركوا مكة عام عمرة القضاء كراهة أن يختلطوا

بمحمد والمسلمين الذين سمحوا لهم بناء على صلح الحديبية أن يدخلوا مكة معتمرين .

هذا هو أبو قبيس ، لا يرى الانسان اذا جلس فى الحرم شيئا سواه ، وقد تدرجت بيوت مكة ذات الطابع الجميل الخاص بها على سفحه ، حتى تنتهى فتظهر كتلة الجبل بوقارها وجلالها ، حتى اذا كانت قمة أبى قبيس أشرق عليها هذا المسجد الأبيض الرائع ، والذى يسمونه الآن مسجد بلال ، ويسمى أحيانا كما كان يسمى فيما مضى مسجد ابراهيم ، ويقول العوام أنه مسجد ابراهيم الخليل ، ففى هذا الموضع وقف ابراهيم الخليل ، ينادى الناس فى مشارق الدنيا ومغاربها أن يلبوا دعوة ربهم بحج بيت الله الحرام ، ولكن الأزرقى العالم المدقق يأبى أن ينساق مع أقوال العوام ، فيقول لنا فى كتابه عن هذا المسجد مايأتى :—

مسجد بلال

« ومسجد على جبل أبى قبيس — يقال له مسجد ابراهيم ، سمعت يوسف بن محمد بن ابراهيم يسأل عنه ، هل هو مسجد ابراهيم خليل الرحمن ؟ فرأيته ينكر ذلك ويقول انما قيل هذا حديثا من الدهر ولم أسمع أحدا من أهل العلم يثبته ، قال أبو الوليد : وسألت أنا جدى عنه فقال لى انما بنى هذا المسجد حديثا من الدهر ، ولقد سمعت بعض أهل العلم من أهل مكة يسأل عنه ، أهذا المسجد مسجد ابراهيم خليل الرحمن ؟ فينكر ذلك ويقول بل هو مسجد ابراهيم القبيس لانسان كان فى جبل أبى قبيس يسأل عنده » . انتهى .

وانني أنصح كل حاج أن لايفوته آبدا الصعود على جبل أبى قبيس والصلاة فوقه ، فان مكة ببيوتها القديمة وشوارعها الضيقة غير النظيفة فى أكثر الأحيان قد تخرج الانسان من الجو الروحى الذى يعيش فيه ، أما عندما يصعد الانسان الى قمة أبى قبيس حيث تختفى هذه الشوارع والبيوت ولايعود الانسان يرى سوى السماء الصافية تظله ، والنسيم العليل يلفح وجهه ، والحرم المكى فى أسفل الجبل بمنظره الرهيب ، وهذه الساحة الضخمة وفى وسطها الكعبة المشرفة ، والناس تطوف حولها ، وقد انمحت أشكالهم ولم يعودوا سوى نقط سوداء

جلال منظر الحرم وروعته

وبيضاء تتحرك حول محورها ، فلو رأيت هذا المنظر بالليل فى أشعة القمر لرأيت عجبا من العجب وأنوار الكعبة وثرياتها تضىء كاللآلىء والدرر ، ولو رأيتها بالنهار لرأيت صورة من أبدع ما صنع الفنـانون جمالا وبهاء •

ان الوقوف فوق أبى قبيس والصلاة عليه ، والتأمل فى كل مايحيط به ، هو فى نظرى كمنسك من المناسك التى لا يجب أن يتخلى عنها الحاج الذى قصد مكة ، لا لمجرد القيام بأعمال آلية ، ولكن للتطهر والتفكر والتأمل والتمتع الروحى •

جبل النور أو غار حراء

على أن الأثر الذى لا أثر قبله ولا أثر بعده فى الدنيا كلها ، وهو كجبل أبى قبيس ليس من صنع الانسان بل من صنع الله ، هو جبل النور حيث يقوم غار حراء فى قمته • لا يكاد الانسان يخرج من مكة فى طريقه الى منى حتى يراه فذا بقمته المخروطية وسط سلسلة الجبال التى تحيط به ، هناك ترى الانسان يقف مشدوها أمام هذا الجبل الذى لايشبه مايحيط به من الجبال ؛ انه يوشك أن يتكلم وينطق هاتفا بالمارين عليه : قفوا خاشعين واخلعوا النعل كما خلع موسى من قبل اذ كان بالوادى المقدس طوى ، فهاهنا كان يعتزل محمد بن عبد الله آل مكة وأصنامهم ، هنا فوق هذه القمة الملساء • وان الانسان ليدهش فى بادىء الأمر وهو عن بعد كيف يستطيع الانسان أن يصعد الى هذه القمة ؟ ولكنه عندما يعتزم الصعود ويقترب من ساحة الجبل يرى الطريق معبـدا للوصول اليها • ولكن أى جهد ذلك الذى يبذله الصاعد ، وأى وقت وأى مخاطرة فى كثير من الأحيان ، لقد يستغرق المرتقى ساعة وأحيانا أكثر من ذلك ، ولابد للانسان من أن يرتاح قبل أن يشرع فى صعود الجزء المخروط من القمة ، حيث يرى الانسان حوضا كبيرا ، وقد تجمعت فيه ميـاه الأمطار • حتى اذا شرع الانسان فى تسلق الجزء الباقى ، ووصل الى نهاية القمة وقيل له : اقترب ؛ فهذا هو الغار الخالد الذى هبط فيه الوحى أول

اخلع نعليك ..

ما هبط ، وفى هذا الغار قرر مصير العالم الانسانى ، وعلم التاريخ انه وشيك الخروج من طور الى طور ، ومن حضارة الى أخرى ؛ ومن دور الطفولة فى الدين والعبادات ، الى دور النضج والرشد الكامل ....

عندما يقال لك هذا هو غار حراء ، لا يسعك الا أن ترتجف وأنت لا تكاد تصدق ، انك قد أصبحت فعلا فى قدس الأقداس ، ولكنك مضطر فى النهاية الى أن تتمالك نفسك ، وأن تقترب من هذه الصخرات التى تضم بين جوانحها قبوا طبيعيا اتخذه الرسول معبدا ومعتكفا ومصلى ، قبل أن يعلمه الله كيف يصلى ؛ ويدلف الانسان الى داخل الغار الذى ينفذ اليه النور من مدخله ، فاذا هو لا يتجاوز مترين فى ثلاثة أما الارتفاع فيوشك أن يزيد عن قامة الانسان ، ولكن هل كان الرسول فى خلوته يحتاج الى أكثر من ذلك ، وهو فى الحقيقة انما كان يعيش فى الكون كله ، انظر حولك يا من أسعدك الله بالوقوف فى هذا الموقف فهل ترى نفسك الا هائما وسط هذا الكون كأنك حبة من حبات الأثير السابحة فى الفضاء ... ها هى ذى السموات اللانهائية تحيط بك من كل مكان ، وليس سوى هذا الجبل تحت قدميك .

لا أظننى أستطيع الوقوف هنا طويلا لكى أصف فليس لى قلم فنان ولا شاعر ، وان أخشى ما أخشاه أن أظل أردد كلمات الروعة والجلال والجمال ، حتى تفقد قيمتها وسحرها ، فلا تعود تصور للقارىء شيئا مما أريد أن أصوره له . لقد أوشك أن يخيل الى أنه لاعجب أن أصبح سيدنا محمد رسولا مادام قد هدى الى تسلق قمة هذا الجبل والاعتكاف فيه ، لقد كاد يخيل الى أن أى انسان يعتكف فى هذا المكان ويعتزل العالمين ويعيش مع هذه السماء وهذه الكواكب وسط هذا السكون العميق اللانهائى ، لايمكن الا أن ينفجر الوحى والالهام فى نفسه . أى شىء هنا لا يصيح ولا يهتف بوحدانية الله وعلوه علوا كبيرا عن كل ما زعمه الزاعمون فى عصر محمد ، الحق أن سيدنا محمدا الذى أعده الله منذ مولده للقيام بهذا الدور العظيم الذى قام به ، لايمكن بعد أن اهتدى الى

هذا الغار فوق هذه القمة ، وبعد أن حبب اليه الخلاء وحببت اليه الوحدة والتأمل ، الا أن يكون قد أدرك كل هذه المعانى التى أوحيت اليه فيما بعد قرآنا ، لا بد أن يكون قد اتصل بالله اتصالا هيأه للخطوة الأخيرة.

هل فوجىء محمد بالوحى ؟

عندما فاجأه الوحى لأول مرة داعيا اياه للقراءة ، حقا لقد فوجىء محمد فى آخر الأمر بهذا الصوت يناديه ويخاطبه ، وكان لابد أن يفاجأ وهو يتصل لأول مرة بعالم الخلود ، ولكن الذى لاشك فيه أن مفاجأة محمد لم تكن مفاجأة من كل الوجوه ، فلا بد أنه كان يتوقع من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى شيئا غير عادى يقع له ، لابد أنه كان يحس احساسا غامضا ورهيبا أنه يقترب من شىء جلل ، لابد أن محمدا كان يشعر من نفسه باضطراب عميق يهز كل كيانه وروحه ، وأنه يوشك أن يتصل بسر الكون الرهيب ، أو أن تكون هذه الأعاصير التى بدأت تثور بنفسه وروحه وعقله هى علامة جنون أصابه من الشيطان والجن ، لابد أن محمدا قبل أن يفاجئه الوحى كان يدعوه من حيث لا يدرى ، بعد أن تهيأ كل التهيؤ لاستقباله ، لابد أن روح محمد كانت تهتف ضارعة الى الله أن يأذن بكشف الحجب عنها ، فلما جاءه الوحى ففزع وعاد الى زوجته مضطربا خائفا مذعورا يهتف بها زملونى زملونى ، لم يكن هذا الذى قاله يعبر فى الحقيقة عما يعرف من أمر نفسه ، ولكنه قال لها ما قال كالانسان عندما يدرك بغيته فلا يكاد من فرط سعادته يصدق أنه قد حصل عليها ، ويحاول أن يغالط نفسه ليزداد تثبتا وتأكدا .

عندما قال الرسول لخديجة يصف لها وقع له : انى أرى ضوءا وأسمع صوتا ، وانى أخشى أن يكون قد أصابنى مس . لم يكن الرسول يجهل حقيقة ماحدث له ، فهو يعرف من أمر نفسه ما لا يعرف الا الله ،

انك تصل الرحم

وعندما ردت عليه خديجة زوجته بما ردت : من أنه يصل الرحم ويصدق الحديث ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الزمان ، وأن الله لا يخزيه أبدا ، لم تكن خديجة فى ذلك ، وهى ظله ، الا مرددة حقيقة ما فى نفسه ، واذا كان قد استسلم الى النوم عقب هذا الحديث ، فهو استسلام المجاهد الذى شقى وكدح وسهر وأرق للحصول على بغيته ،

فاذا حصل عليها واطمأنت نفسه أسلم نفسه للنوم سعادة وهنـاء وراحة من الاجهاد • وعندما رجعت خديجة من لدن ابن عمها ورقة بن نوفل الذى قصت عليه ماحدث لزوجها فبشرها بأن ذلك هو الناموس الذى كان ينزل على موسى وعيسى والأنبيـاء من قبـله ، عنـدما عادت اليه تزف هذه البشرى لم تكن فى الحقيقة تنهى اليه خبرا جديدا • فان محمدا كان يعرف أن الأمر قد قضى ، وأنه قد صار على اتصـال بربه وخالقه ، وخالق هذا الكون الذى طالما صافحه وعانقه بروحه وفكره ونفذ الى أعواره ابان اعتكافه وعزلته ، وهو قائم فى هذا المحراب بعيدا عن العالمين ، وقريبا من رب العالمين •

هذا هو غار حراء وما يبعثه فى النفس من تأملات ، ولم يكن بوسعى الا أن أصلى ركعتين فى هذا المكان ، وأن أتلو فيهما اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم • وامحمداه ، وارسول الله ، منذ ألف وثلثمائة وثمان وستين سنة فجأك الوحى فى هذا المكان ، بهذه الآيات لتبلغها للعالمين ، وها نحن أولاء قد جئنا من بلاد بعيدة لنعبد الله فى ذات المكان مرددين ما علمتنا اياه مؤمنين بما آمنت معظمين ما عظمت ، مصدقين ما صدقت فأى رجل أنت الا أن تكون نبيا كريما ؟ وأى رسول أنت الا أن تكون رسول رب العالمين ؟ •

اقرأ باسم ربك

غار ثور :

ومن المآثر الطبيعية المحيطة بمكة غار آخر لايقل جلاله أو خطره عن غار حراء وهو غار ثور حيث اختفى النبى أثناء هجرته عن أعين مطارديه الذين خرجوا يقتفون أثره ليفتكوا به ويقضوا عليه القضاء الأخير ولم يكن مع محمد الا صديقه الصدوق أبو بكر ، الذى كان فى أشد الغم والكرب خوفا من أن يصاب الرسول بمكروه • وعندما وصل المطاردون الى أبواب الغار ووقفوا على بابه يتجادلون فيما اذا كان الرسول وصاحبه فى داخل الغار أم لم يدخل اليه ••• ويا لها من لحظات حبس التاريخ

فيها أنفاسه وكاد قلب الزمن أن يقف خوفا ورعبا من أن تقع الواقعة ويدخل القوم الى الغار فيجدوا فريستين فينكبوا الانسانية أعظم نكبة كان يمكن أن تعرض لها • ولكن خالق محمد الذى قضى كل شيء فى هذه الحياة الدنيا وقدر ، طمس على قلوب القوم فأعمى أبصارهم وقلوبهم فارتدوا على آثارهم خائبين ونجا محمد وصاحبه لتتم كلمة الله ولتشرق الأرض بنور ربها هداية وعدلا ومحبة •

وفى هذا الحادث الجلل يقول القرآن مسجلا هذه الذكرى الخالدة واللحظة الحاسمة •

إذ يقول لصاحبه لا تحزن

« الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » •

ويقول العلامة لبيب البتانونى : ان هذا الغار الى الجنوب من مكة من جهة المسفلة وعلى بعد ساعتين منها وأن مساحته تبلغ مترين • ويؤسفنى أنه لم تتح لى زيارة هذا الغار وما ذلك الا لتقصير الحكومة السعودية نحو هذا الأثر الجليل فلم تعبد له الطرقات التى تصلح لسير السيارة وكلما طلبنا الذهاب اليه قيل ان ذلك متعذر لمشقة الطريق فعسى أن تراجع الحكومة نفسها وأن تهيىء السبيل أمام الحجاج المستنيرين للاستمتاع الروحى فى تتبع خطوات الرسول فى هذه الآثار الخالدة •

القسم الثـانى

نحو الطائف ونجد

أو لم يسيروا فى الأرض ...

الطائف

- ١ -

فى كل مرة زرت فيها البلاد المقدسة تشوقت لزيارة الطائف ، لما تثيره فى النفس من ذكريات عزيزة غالية ؛ فالمطالع للسيرة يرى ذكر الطائف مقترنا بموقف من المواقف التى لا تنسى فى حياة الرسول ؛ موقف بلغ فيه ذروة الانسانية وذروة الكمال ، ما أكثر ما عانى الرسول فى كفاحه الطويل الشاق من أزمات ، وما احتمل من آلام ، ما أشد المحن والمصائب والنكبات التى أصيب بها ، ولكن موقفا من المواقف فى مبتدأ السيرة حتى نهايتها لا يمكن أن يقارن بهذا الموقف الخالد .

كان ذلك فى العام العاشر أو الحادى عشر من بعثة الرسول ، وهو العام الذى يطلق عليه عام الأحزان حيث مات عمه أبو طالب عميد بنى هاشم ، الذى حماه ورعاه ، وكانت شخصيته ومكانته ومهابته هى السياج الذى قدره الله لاحاطة الدعوة المحمدية بالحماية فى سنواتها الأولى ، وها هو ذا أبو طالب قد مات وانكشف موقف محمد فلم يعد له من حام ولا راع من كبار القوم ، وماتت السيدة خديجة وما أدراك ما السيدة خديجة ! كنز الرحمة ومستودع الايمان ، السيدة خديجة زوجته وشريكته ووزيره ومعاونته التى وقفت الى جواره بمالها وقلبها وروحها وايمانها ، وكانت له أما وزوجة وشقيقة وتابعة ، لقد ماتت خديجة ، ومات أبو طالب وكان ذلك كله فى عام واحد ، واكفهر الجو لرسول الله ، وبدأ كل شىء كما لو كان أوشك على نهايته .

عام الاحزان

لقد كان العدد القليل من المسلمين الذين آمنوا قد هاجروا الى الحبشة ، نجاة بأنفسهم من الأذى والاضطهاد ، فلم يبق الى جوار رسول الله أحد غير أبى بكر وعمر ، وكانا بدورهما عرضة للاضطهاد لولا عراقة أسرهما وكبير شأنهما فى قومهما ، لقد ضاقت الأرض بسيدنا محمد فخرج من مكة سيرا على الأقدام قاصدا الطائف ، والطائف هى احدى القريتين اللتين يشار اليهما بالبنان فى جزيرة العرب ، أما أولى القريتين فهى مكة والطائف ثانيتهما ، والى ذلك يلمع القرآن فى قوله حكاية عن

ذهاب الرسول الى الطائف

المشركين : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » الطائف حيث تقيم ثقيف قريعة قريش ومنافستها فى الشرف ، ولولا أن قريشا كانت سادنة الكعبة لما قورنت بثقيف من حيث العزة والمنعة ، والى هؤلاء قصد الرسول عله يجد عندهم المنعة والنصرة ، ولكنه لم يكد يصل الى الطائف ويعرض نفسه على وجوه القوم طالبا منهم الدخول فى دينه ، أو على الأقل حمايته من اضطهاد قريش ، حتى رآهم يسخرون منه ويطردونه شر طردة، بل ويسلطون غلمانهم وعبيدهم كى يحصبوه بالحصى والقاذورات ، وبرح الرسول الطائف على عجل حتى خرج من أسوارها حتى اذا ابتعد عن المدينة جلس على الأرض مكدودا متعبا مقهورا ، على أن تعبه الجسمانى ما كان ليقاس بآلامه النفسية والروحية ، فها هو ذا بعد هذا العمر الطويل يرى نفسه فى هذا الموقف ، ولم يكن محمد ابن عبد الله يعنيه من ذلك كله الا أن يكون قد أغضب ربه ، حتى استحق هذا الذل والهوان ، فرفع باصرتيه الى السماء وهتف بهذه الكلمات التى لا يكاد الانسان يتلوها الا ويقشعر بدنه ، فهى كلمات يحس الانسان فيها كبد الرسول التى تحترق ، ويحس فيها آلام الشدة القاتلة الى جوار الايمان العميق ، ويتجلى فيها محمد الانسان بكل خصائص الانسان ، وهو يتضرع الى ربه ومولاه « اللهم أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس • يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى • الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى أو الى عدو ملكته أمرى » الخ

استغاثة الرسول

واذا كان هذا الموقف يحرك الجماد فقد تحرك قلبا ابنى ربيعة وهما من مشركى ثقيف وكانا يعملان فى بستان لهما خارج المدينة ، فكلفا عبدهما أن يحمل له قطفا من العنب وجرعة من الماء فهرع عبدهما عداس الى تنفيذ الأمر ، وحنا على الرسول مقدما له قطف العنب وليس الانسان فى حاجة الى كبير خيال ليدرك مقدار سعادة الرسول لهذه الحركة الصغيرة ، والتى رأى فيها ردا على تضرعه واستجابة لندائه ، فها هو ذا منذ لحظات قليلة كان طريدا منبوذا مبهور الأنفاس فلا يكاد يتضرع الى الله حتى يظهر له

عداس وكأنما انشقت عنه الأرض وهو يحمل فى يمينه هذا القطف من العنب ، وكأنه رسالة من الجنة لتقر بها عين الرسول .

فرح محمد بما أعطاه الله ، والنفوس العظيمة ترى فى أصغر الأشياء رحمة الله تسرى عنها ، وأقبل على عداس يحدثه ويسأله عن شخصيته ، فاذا بعداس يجيبه ، انه من نينوى . فقال الرسول : هذه بلد النبى الصالح متى بن يونس ، فدهش عداس أن وجده يعرف هذا الاسم الذى لا يعرفه فى هذه البلاد أحد .

عداس

ولم يلبث عداس أن انكب على يد رسول الله يقبلها ، وهو يتمتم : أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك رسول الله .

وصعق سيداه وهما يريان هذا المنظر عن بعد ، فهذا عبدهما وقد ذهب منذ قليل محتقرا لشأن الرجل يبره شفقة واحسانا ببعض ما جاد به عليه سيداه ، فلا يلبث أن يحيطه باحترام لم يظهره لأحد من قبل ، وكانت مفاجأتهما أشد عندما عاد اليهما عداس بوجه غير الوجه الذى ذهب به ، وكأنما خلق خلقا جديدا ، ولما سألاه عما جرى ، أجابهما بأن الرجل نبى مرسل ، وأنه قد اتبعه ودخل فى دينه ، وعبثا حاول الرجلان أن يثنيا عبدهما عن ايمانه الجديد ، بقولهما أن دينه خير من دين محمد ، لقد قضى الأمر ، وأصبح عداس مؤمنا عريقا فى الايمان ، وبات مستعدا لكل صنوف الاضطهاد ، واحتمال كل الويلات والعذاب ، فى سبيل عقيدته الجديدة .

هذا هو الموقف الذى لا يكاد اسم الطائف يذكر أمامى حتى تقفز منه هذه الصورة الى خاطرى ، وتقفز الى جوارها صورة ثانية عندما جاء سيدنا محمد بعد فتح مكة لافتتاح الطائف فامتنعت عليه ، واستعصت ، على الرغم من أنه استخدم فى حصارها المنجنيق الذى بعث البعوث الى الشام خصيصا لاستيراده وتعلم طريقة استعماله .

حصار الطائف

وخشى محمد أن يطول الحصار على رجاله ، ولأنه أدرك أن لا ضرورة لهذا العناء ، فلن يكون باستطاعة ثقيف بعد أن دانت العرب كلها بطاعته ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، الا أن يأتوا له طائعين مختارين : أصدر

أمره بالانسحاب ؛ فلم يكد يصل الى مكة حتى صح ما توقعه ، وجاءت ثقيف على أثره تعرض عليه الدخول فى دين الجماعة •

والى جوار هذه الذكريات الغالية فى سيرة الرسول والتاريخ القديم، فهناك ما يدعو الانسان لزيارة الطائف ، كل هذه الدعاية التى يقوم بها أهل الحجاز لجمال الطائف ، وغزارة مياه الطائف وحلاوة فواكه الطائف، وسحر هواء الطائف ، هذه الفواكه التى ترى فى مكة خلال فترة الحج مجلوبة من الطائف وعندما يشتد الهجير بأهل مكة يهرعون الى الطائف فهى المصيف ذات الهواء العليل ، ولو سمعت وهم يتحدثون عن ليالى الطائف وأمسياته ، لما تخيلت الطائف بصورة أقل من الجنة ، وعلى أية حال فان هناك حقيقة ثابتة فيما يتعلق بالطائف ، وهى أنها على ارتفاع ستة آلاف قدم عن سطح البحر ، وهذا من شأنه أن يجعلها مصيفا بالفعل، فلا عجب ان اشتاقت نفسى لرؤيتها •

الرياض والظهران :

ومن ناحية أخرى كانت زيارة الرياض احدى الأمانى التى تتردد فى نفسى • فتاريخ ابن السعود ومغامرته الكبرى لافتتاح هذه المدينة واتخاذها مبدأ لملكه العريض ، كانت تهز نفسى هزا وتثير خيالى ، وكنت فى شوق للاجتماع بولى العهـد الأمير سعود وزيارته فى عرين الأسد •

وكان موضـوع البترول وقصته فى الظهران تثـير بدورها غريزة حب الاستطلاع فى نفسى • ما أكثر الحكايات التى نسمعها عما يجرى فى الظهران وعن مدى ما وصل اليه الأمريكان من نتائج ، حتى اختلطت الحقائق بالأوهام ؛ فكان حتما على أن أقف على الحقائق بنفسى فأنا رجل ممن يؤمنون بفائدة المشاهدة وأنها السبيل الى المعرفة الحقيقية •

وعلى ذلك فقد انتهزت فرصة تشرفى بمقابلة جلالة الملك فى مقابلة خاصة والتمست منه أن يسمح لى بزيارة الرياض فالظهران ، فأصـدر أمره الكريم باجابتى الى ملتمسى وترك لى الخيار فى أن يكون سفرى

بالطائرة أو السيارة • وكنت قد اعتزمت أن يكون سفرى بالسيارة لتتاح لى فرصة قضاء أطول مدة ممكنة فى عرض الصحراء ، ولأزداد تعرفا بها وقربا منها •

ولم يدر بخلدى لحظة واحدة أن السفر بالسيارة الى الرياض قد انقرض تقريبا بعد أن أصبحت كل الانتقالات بالطائرة ، واننى اذ أطلب أن يكون سفرى بالسيارة قد كلفت القوم شططا اذ كانوا مضطرين لاعداد ما يشبه القافلة الصغيرة ليكفلوا راحتى وراحة زميلى الغندور • ولم أتنبه لهذا الخطأ بطبيعة الحال الا بعد فوات الوقت والشروع فى الرحلة •

مع الوزير ثانية :

وقد دعانى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ليدرس معى تفاصيل رحلتى • وسرعان ما اكتشفت أنه لم يعرفنى فى مقابلتى الأولى له ، فقد كان وجهه يطفح هذه المرة بالبشر وأجل عواطف الاخوة والصداقة•

أظهر اغتباطه بتفكيرى فى هذه الرحلة ، وأوصانى أن لا تفوتنى زيارة « الخرج » وهى المنطقة الزراعية التى استحدثوها بالقرب من الرياض لمدها بما تحتاجه من حبوب وبقول وخضروات وفواكه • وعندما علم اننى قاصد الظهران لمشاهدة منشئات البترول ، طلب منى أن لا تفوتنى زيارة منطقة الاحساء لأرى أغنى مناطق الجزيرة العربية بالزراعة وما يعده لها الوزير من مشروعات ضخمة •

نشرميزانية الدولة

وحدثنى الوزير فى استفاضة عما يرجوه للبلاد بعد أن توافرت فيها الثروة ، باكتشاف منابع البترول ، فان أحوالها يجب أن تتبدل رأسا على عقب • ولقد كنت فى هذه الأثناء قد اطلعت على أول ميزانية للدولة السعودية مطبوعة ومنشورة فى جريدة أم القرى ، وفى تقويم الحجاز ، فهنأت الوزير على هذه الخطوة أو بالأحرى هذه الوثبة ، فان نشر أرقام الميزانية هى الخطوة الأولى لخلق الدولة بنظمها الحديثة ، وهى الخطوة

لايجاد مجلس وزراء مسئول . ولقد كان أخشى ما أخشاه أن يكون مثل هذا التفكير بعيدا عن أذهان القائمين بالأمر فى المملكة السعودية ، ولذلك فقد كان ابتهاجى عظيما وعميقا عندما وجدت أنهم يدركون الأمور كما يجب أن تدرك ، ويشعرون بأن الحال لايمكن أن تستمر فى المملكة العربية السعودية على هذا المنوال ، وانصرفت من لدن الوزير وأنا راض ومغتبط وقد أزيح عن كاهلى عبء ثقيل[1] .

نحو الطائف :

وأخيرا جاءت الساعة التى أذن لنا جلالة الملك فيها بالبدء فى رحلتنا . وكانت وزارة المالية قد انتدبت لمرافقتى أحد رجالها الممتازين ويطلقون عليه لقب «الخوى» أى الأخ المرافق ووضعت تحت تصرفنا سيارة صغيرة، أثبتت الرحلة أنها كانت من أجود سيارات وزارة المالية . وكان يصاحبنا فى الرحلة سيارة أخرى كبيرة (لورى) وهى محملة بالأطعمة والخيام والبنزين والتابعين الذين كان يناهز عددهم الثمانية ما بين طاه ، وقهوجى ، وفراش وميكانيكى .

طواف الوداع

ولما تجهزنا للسفر قصدنا الى الحرم فطفنا طواف الوداع فلم نكن تتصور أننا سنعود الى مكة ثانية ، وعلى أية حال فان السنة تقتضى أن يكون الطواف حول الحرم هو آخر عهد الانسان بمغادرة مكة .

وانطلقت بنا السيارة أخيرا باسم الله مجريها ومرسيها ، ولم يكن فى وداعنا سوى الشيخ محمد الراضى مطوفنا ، والذى أبى حتى فى هذه اللحظة الأخيرة الا أن يزودنى بكتاب عن الطائف من تأليف الأمير شكيب ارسلان واسمه : « الارتسامات اللطاف » وقد أفادنى هذا الكتاب فائدة عظمى فى اعطائى صورة عما كان عليه الطائف فى الماضى ، وما هو عليه فى الحاضر ، وما ورد عنه فى كتب الأدب العربى وتاريخه من آثار .

(١) قيل لى ان نشر الميزانية لم يتكرر بعد هذه المرة بحجة أنه لم يطرأ عليها تعديل أو تبديل ولكننا نرجو ونلح فى أن يستمر النشر عاما بعد عام : فان هذا التطور لن يحقق نتائجه المرجوة من الرقابة العامة على الأموال العامة الا بعد تكرار النشر ومقارنة الأرقام عاما بعد آخر .

على أن الكتاب الذى كان بمثابة دليل لرحلتنا الى الرياض ، والذى لازمنا طوال المدة مذ خرجنا من مكة حتى دخلنا الرياض ؛ هو كتاب صديقى الشاعر والأديب الأستاذ فؤاد شاكر « رحلة الربيع » وهو وصف لزيارة الأستاذ فؤاد شاكر مع وفد من كبار الحجازيين دعاهم جلالة الملك لزيارته فى الرياض •

كتاب رحلة الربيع

سارت بنا السيارة متجهة صوب مستودع البنزين ، وورشة اصلاح السيارات الميكانيكية الحديثة ، وهى من المؤسسات الحديثة فى مكة ، والتى تدل على أن فكرة الانشاء والتعمير تأخذ طريقها فى سائر الاتجاهات ، ورحم الله أيام السيارة الأولى فى الحجاز ، عندما كانت تتعطل بنا فيمسك السائق قطعة حجر ويروح يدق على الآلات واحدة بعد أخرى ، رحم الله هذه الأيام عندما كان السائق يسأل الحجاج عما اذا كان لديهم (سمن) ليستعمله بدل الشحم ، وعندما كان يسأل عن حبل ليربط (الموتور) الذى يوشك أن يقفز من السيارة •

ولقد مكثنا فى بعض المرات يومين متواليين فى احدى المحطات فى طريق المدينة ، ريثما تصلح السيارة ، وكان الميكانيكى يتعطل كل نصف ساعة عن العمل ، فاذا سألناه عن سر توقفه أجابنا بأنه فى حاجة الى مسمار لا يجده ، ولولا أن أسعفنا بعد ذلك بسيارة اسعاف نقلتنا الى جدة ، لظللنا أياما وليالى حتى يؤتى لهذا المكان بالمسمار المفقود •

كانت كل هذه الذكريات فى رأسى وأنا أرى هذه المبانى الحديثة لورش الاصلاح التى أستجلبت لها أحدث الآلات من أمريكا ؛ وقد ذهبنا اليها لنأخذ عربة النقل التى ستصحبنا ، والتى كانت لا تزال هناك تتجهز بما تحتاج اليه من بنزين ، وما أدراك ما تحتاج اليه لقطع هذه الرحلة الطويلة التى أمامنا ، لقد رأيت صفائح البنزين تنقل واحدة بعد أخرى الى عربة النقل ، فجعلنى ذلك أقدر مرة أخرى ضخامة هذه التكاليف ، التى كبدتها للقوم فى اختيارى طريق السيارة •

ورشة عصرية

وفيما كانت هذه العملية فى طريقها الى النهاية ، كنت أسرح الطرف

حولى فى هذا السهل المترامى الأطراف خارج مكة ، والذى تدل كل الظواهر على أنه سيكون هو مكة الجديدة الحديثة ، وهاهى ذى الورش الفنية تقوم فيه ، وهو ما أعجبنى وأرضانى • وهناك فى طرف آخر من هذا المنبسط يقوم بناء ضخم ، يخالف كل ما فى الحجاز من أبنية ، فهو قصر مشيد على أحدث طراز بأحدث مواد البناء ، ولم تكن هذه أول مرة أرى فيها هذا البناء وأسأل عن كنهه ، فقد عرفت أنه قصر الزعفران والذى بنى خصيصا لزيارة جلالة الملك فاروق ، هذه الزيارة التى لم تتم حتى الآن • لو أننا قلنا أن تكاليف هذا القصر بلغت نصف مليون من الجنيهات لما كنا مبالغين ، بل لو أنا زدناها على ذلك لما جانبنا الحقيقة كذلك ، لقد أصدر جلالة الملك ابن السعود أمره أن يصرف على هذا القصر بسخاء حتى يكون لائقا بجلالة ملك مصر ، ولاشك أن مصر كلها تشكر للملك ابن السعود حسن اكرامه لها ، فجلالة ملك مصر هو رمز لمصر كلها ، ولكننى لا أستطيع أن أوافق على هذه السياسة ، سياسة بناء القصور بهذا البذخ الذى لا مثيل له الا فى خرافات ألف ليلة وليلة ، فى الوقت الذى تحتاج فيه البلد ، أو بالأحرى يحتاج فيه الشعب الى كل مليم ينفق على اصلاح أحواله •

قصر الزعفران

ان من أخص خصائص الملك فاروق أنه ملك ديمقراطى ، وقد اشتهر بميله للبساطة ، فلو أنه نزل فى أحد القصور الملكية القائمة الآن فعلا لكان فى منتهى الرضا والابتهاج ، وهو يرى جوا يخالف الجو الذى ألفه ، ومن المتفق عليه أن النفس ترتاح للتجديد والتغيير ، أما أن يبنى له قصر ليكون كبعض قصوره فى مصر ، فهو مظهر من مظاهر رغبة الملك ابن السعود فى اكرام أخيه ملك مصر ، كرما يبقى على مر الأيام كما بقيت نوادر الكرماء على مر العصور •

بساطة الملك فاروق

وهكذا يقف قصر الزعفران كالطود الشامخ وسط هذا السهل ، يتحدث عن هذه الزيارة التى لم تتم ، ويحدثك الناس كبارا وصغارا عما فى داخله من أمتعة وأثاثات ، استجلبت كلها من أربعة أقطار المعمورة ،

لتكون جديرة بالضيف العظيم ، وساءلت نفسى أى الأمرين أجدر بنا وأليق نحن معاشر المسلمين ، أنأخذ بهذه الزخارف والزينات والبهارج التى تنفق فيها الأموال بغير حساب ، أم نقتبس من جلال نبينا وخلفائه الراشدين البساطة والقصد والاعتدال ؟. ان معاشر الأوربيين والأمريكيين الذين يحلو لنا الآن أن نقلدهم فى مدنيتهم وحضارتهم ، قد آمنوا بهذه البساطة التى كان عليها أمراؤنا الأوائل ، فحكامهم الآن يعيشون كما يعيش أبسط الناس ، فلا تراهم فى ملابسهم أو طعامهم أو مساكنهم الا آخذين بأسباب البساطة والتواضع ، ولعل أجمل مايروع الانسان فى جلالة الملك ابن السعود ، أنه يمثل الروح العربية الاسلامية أصدق تمثيل ، من حيث بساطته فى ملبسه ومأكله ومسكنه ، فهو يفضل كثيرا الاقامة فى الخيام ، وهو يرتدى الغطرة النجدية الحمراء التى يلبسها أبسط رعاياه ، ولكن سجية الملك ابن السعود الأخرى — وهى سجية الكرم — تجعله يوزع على ضيوفه العقال المقصب والمذهب والأكسية الغالية الثمن ، وبهذه الروح نفسها ابتنى هذا القصر لا ايمانا منه بلزومه ، ولكن اظهارا للحفاوة بضيفه[1] .

التحلى بالبساطة أولى

وقطع على (الخوى) هذه التأملات بقوله : ان كل شىء على استعداد للبدء فى الرحلة . فهل نبدأ ؟ فقلت على بركة الله .

نحو الشرائع

كانت المرحلة الأولى من الرحلة تنتهى عند الشرائع أول محطات الطريق ، والتى تقع على مسافة ٢٧ كيلو مترا من مكة ، وقد سارت قافلتنا الصغيرة فى أعالى مكة من ذات الطريق الذاهب الى منى وعرفات دون أن نمر خلالها ، واستوقفنا فى أعالى مكة هذا السد الضخم الذى أقيم فى عرض الوادى ، ولما سألنا عنه قيل لنا انه سد أمر بانشائه جلالة الملك ابن السعود ليقى مكة من مخاطر السيول ، التى طالما دهمتها ، وقد أمر

(١) قص على الراوى أنه قد أنشىء فى هذا السهل عشرون قصرا من طراز قصر الزعفران لسكنى الأمراء والأغنياء فى العامين المنصرمين .

بانشائه على أثر السيل الذى دهم مكة أخيرا فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ ، حيث انهال مطر السماء كأنه أفواه القرب دام تسع ساعات متواصلة ، وهو فى منتهى القوة والعنف ، واستمر بعد ذلك مدة أطول وان كان أقل عنفا ، وقد كان ذلك كافيا لكى تتجمع السيول فى خارج مكة ، ثم تنقض عليها كالطوفان ، فتكتسح فى طريقها كل شىء ، حتى أن الأستاذ فؤاد شاكر ليصفها بقوله : انها دخلت البيوت فانتزعت أمتعتها ، فخرجت من النوافذ طافية فوق المياه ، وبلغ من عنف اندفاع السيول أنها نقلت خزانة حديدية كبيرة من بيوت أحد الصيارفة ، وحطمتها على بعد عشرات من الكيلو مترات ، ولما كان الحرم المكى هو أعمق بقعة فى وادى مكة انخفاضا ، فسرعان ما تحول الحرم المكى الى بحيرة كبيرة هدارة بالمياه ، وكانت أبواب الحرم التى تطيف بها كأنها فتحات الأنهار تصب فى البحر المحيط ، وارتفعت المياه فى داخل الحرم مترين ، فكان بعض الأهالى يطوفون حول الكعبة فوق الأخشاب العائمة ، ثم يخرجون من فتحات الأبواب العليا .

السيول تهدد مكة

وليس ذلك السيل بالأمر الحدث فى تاريخ مكة الحديث أو القديم ، ولعل أهم ما وقع من السيول فى العصور المتأخرة ، هذا السيل الذى دهم الكعبة فى عام ١٠٣٩ هجرية ، فصدع بنيانها وانهار الجدار الشامخ برمته ، مما ترتب عليه اعادة بنيان الكعبة فى عهد السلطان مراد خان .

وفى ملحق لكتاب أخبار مكة للعالم الأزرقى أورد السيد رشدى صالح ملحس قائمة بتواريخ السيول الشهيرة ، التى أصابت مكة فذكر منها ٨٥ سيلا حفظ التاريخ ذكراها ، ولعل هذا يظهر مدى تعرض مكة الدائم المستمر لهذه السيول ، ومع ذلك فلم يفكر خليفة ولا حاكم فى اجراء يقى مكة من هذه المخاطر ، فهذا السد الجديد الذى شرع فى انشائه لو أنه تم وكمل لكان ذلك أثرا خالدا فى تاريخ مكة لم يسبق اليه انسان .

ولكن الذى لاحظناه أن ما بنى من السد يقرب أن يكون ربعه أو خمسه ، ولم نر ما يدل على استمرار العمل أو مواصلته ، فعسى أن

يكون الانقطاع لفترة مؤقتة ، وأن يستأنف العمل حتى يتم • ولا بد أن الفنيين متنبهون الى أن المهم ليس هو اقامة هذا السد فحسب ، بل وتحويل مجرى السيول الى أودية أخرى ، حتى لا يتعرض هذا السد لخطر الاجتياح •

في الشرائع

ووصلنا الى الشرائع أول مراحل الطريق ، ولم تكن الشرائع سوى مكان خامل الى عهد قريب ، بعد أن عدت عليها عوادي الزمن ، كما عدت على كل شيء في جزيرة العرب ، فقد غارت عيونها ، وذوت بساتينها ولم تعد سوى اسم بدأت أهميته تزداد ، باعتباره أحد محطات الطريق الى الطائف ، ولكن اسمها بدأ يدوي أخيرا ، عندما استطاع الشيخ حمد السليمان شقيق وزير المالية أن يجري فيها عينا جديدة ، وأن يزرع فيها ما يربو على سبعمائة فدان تمد مكة بما تحتاج اليه من فواكه وخضروات •

ولقد نزلنا الى العين ببعض درجات لنلقي نظرة عليها ، فاذا بنا نفاجأ بأن حريقا أصابها منذ يومين ، فأتلف آلتها الرافعة وجعلها غير صالحة للاستعمال ، ووجدنا على سطح الأرض آلة رافعة جديدة ، وقد جاءت لتحل محل تلك التي احترقت ، ريثما يتم اصلاحها ، وكانت هذه الحركة الصغيرة بمثابة حديث مستفيض عن المجهود الضخم ، الذي يبذل في هذا المكان ، فأن تحترق آلة كبيرة ثمينة فلا تمضي ثمان وأربعون ساعة حتى تستبدل بآلة تحل محلها ، هذا هو الكمال في الاستعداد وفي الاهتمام ،

اكتشاف عين سمحة

وقصة هذه العين ، هي قصة الشرائع الجديدة ، فالمقول أن الشيخ حمد السليمان كان أول من تنبه لأهمية الشرائع ، وامكان استصلاح أرضها ، واعدادها للزراعة ، وقد كان بها عين لاتدر كثيرا من الماء ، ولكنه بدأ بها وأنشأ حولها بستانا ، فلما وجد صلاحية التربة واستعدادها للزراعة الناجحة — اذ أخرجت من الثمرات أجودها — قرر أن يتطور بالمشروع ، فذهب في أحد الأيام ، وجاس خلال الأرض ، ثم قال لبعض أتباعه : احفروا هنا • فلم يكادوا يبلغون في الحفر بضعة أمتار حتى انبثقت لهم

عين ماء فوارة ، كلما أمعنوا فى تغويرها كلما زادتهم ماء ، فلما ركبوا الآلات الرافعة عليها اذ بمائها لا ينضب ، فأدركوا أنهم وضعوا أيديهم على كنز ثمين ، وأطلق على العين اسم سمحة ، ومن ثم أخذ مشروع المزرعة النموذجية طريقه الى التنفيذ •

والیوم ترى فى الشرائع مصنعا صغيرا لمنتجات الألبان ، ومعملا آخر للتفريخ ، وترى حظائر لتربية المواشى والأغنام على أحدث الطرق الفنية • ومن المؤسسات فى الشرائع قصر صغير ، أقيم لجلالة الملك لينزل فيه عند مروره بهذا المكان ، ولم نمكث فى الشرائع الا ريثما قيلت لنا هذه المعلومات ، ثم مضينا لطيتنا دون أن نعلق على الشرائع كثيرا •

مصانع المنتجات الحيوانية

ولكنى وأنا أكتب هذه السطور ، يوجد أمامى كتاب الخرج والشرائع للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، وقد ذكر فيه أن الشرائع هى ذات الموضع الذى جرت فيه غزوة حنين المشهورة فى التاريخ الاسلامى ، وهو قول لم أسمعه من أحد قبله ، على كثرة سؤالى عن حنين وموضعها ، فقد ذكرت أن رحلتى الى الطائف كانت بقصد الاسترواح بهذه الذكريات العزيزة ، وغزوة حنين من الذكريات التى تهز نفسى كغيرها من الذكريات : فلأول مرة فى هذا اليوم شعر المسلمون بالزهو والخيلاء لكثرة عددهم ، وقوة سلاحهم ، وأيقنوا بالغلبة والنصر ، لا لأن الله ناصرهم ، بل لأنه لا توجد قوة فى جزيرة العرب تستطيع أن تثبت لهذا الجيش ، الذى سار تحت لواء محمد فى هذا اليوم ، وما أدراك ما أثنا عشر ألف مقاتل كامل العدد والعدة ، فاذا بهم لا يكادون يدخلون الى وادى حنين ، حتى تفاجئهم قبيلة هوازن فى عماية الصبح ، وعددها لا يبلغ بعض جيش المسلمين ، فلم يكن يزيد على أربعة آلاف ، ولكن عامل المفاجأة كان له أشد الأثر فى جيش المسلمين الذى كان يسير غير متأهب للقتال ، معجبا بكثرته الساحقة ، فاذا بموجة من الذعر والفزع تسرى فى صفوف المسلمين ، فيولون الأدبار لا يلوون على شىء ، واذا

غزوة حنين

بكبار قريش الذين كانوا قريبى عهد بالشرك ولم يدخلوا فى الاسلام الا مرغمين ، تعاودهم جاهليتهم ، ويثور فى نفوسهم حقدهم القديم على محمد بن عبد الله ، فيقولون معلقين على هزيمة القوم ، انه لن يوقف فرارهم الا البحر ، أى على بعد مائة كيلو من هذا الموقع • ولكن محمدا كان هناك ، ومحمد رسول الله لم يكن كذابا ولا مخادعا ، بل كان رسولا أمينا ، ولذلك فقد وقف وسط هـذه السيول المتدفقـة من الهاربين المذعورين ، وهو راكب فوق فرسه كالطود الراسخ ، لا يعرف الهزيمة ، ولا تمر له فى بال ، ويؤثر الموت على الفرار من ميدان الجهاد ، وبدأ بعض خاصته يلتفون حوله كدأبهم ، ليفدوه بأرواحهم وسط هذا الهول والفزع ، وراح الرسول يرد الناس هاتفا فى وجوههم ، أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، ثم أمر عمه العباس الذى كان آخذا بلجام فرسه ، وكان جهورى الصوت ، أن يصيح بالناس : يا عباد الله ، يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة •

أنا النبى لا كذب

وهكذا لم تلبث الغمة أن انقشعت ، وأدرك الناس أن الخطر أهون مما يتصورون ، وزالت عنهم الدهشة ، وذهب عنهم الروع مع شروق الشمس وسطوع النهار ، وأدرك المنهزمون أن لن يلحقهم من هزيمتهم سوى العار ، وأن محمدا ماض فى القتال ، فارتدوا على أعقابهم من الهزيمة ، فعادوا مرة أخرى مجاهدين صابرين ، وأنزل الله سكينته على رسوله وعليهم ، بعد أن أعطاهم هـذا الدرس فى أن كثرتهم لم تغن عنهم من الله شيئا ، ثم كروا على هوازن وثقيف فهزمهم هزيمة منكرة ، وكان المشركون قد استاقوا معهم كل نسـائهم وأولادهم وأمـوالهم من النياق والجمال والماشية ، ليزيدهم ذلك استماتة فى القتال واستبسالا ، فلم يغن عنهم ذلك شيئا ، وحاقت بهم الهزيمة ، فوقع ذلك كله غنيمة للمسلمين •

ولقد صور القرآن هذه الموقعة وما جرى فيها من تقلبات ، تصويره البليغ المعجز فى ايجازه بقوله :

« ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » .

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم

هذه غزوة حنين ، وحديث حنين ، طالما حن قلبي واشتاق الى الوقوف فى ساحتها ، ولذلك فقد كنت دائم السؤال عنها ، وخاصة بعد أن تجهزت للسفر الى الطائف ، فلم يقل لى أحد فى أى مرة من المرات أن الشرائع هى ذات المكان ، بل كانوا يشيرون الى أن مكان حنين يتطلب منا أن نخرج عن الطريق العام فى اتجاه خاص .

ولم يذكرلى كتاب من المؤلفات الحديثة ما يدل على أن الشرائع هى ذات حنين ، بل ان الدكتور حسين هيكل وقد سافر خصيصا الى الحجاز ليرتاد منازل الوحى ، لم يزد فى قوله عن الشرائع عما يأتى :

«ووصلت السيارة محلة الشرائع فىمضيق بين جبلين، وتابعت سيرها حتى بلغت الزيمة ، ووقفت السيارة عند مستوقف النظر فى تهامة كلها، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر ، لقد رأينا بالشرائع أغراسا دعوها بستانا فلم نحفل به ، أما هنا فقد رأينا المـاء ينهمر منحدرا من الجبال يسقى بساتين عدة ، ورأينا أشجار الموز تكظ بعض هذه البساتين ، والنفس مبتهجة ما رأت الماء والخضرة » .

فأنت ترى ان الشرائع لم تستحق منه أى لفتة ، ولو كانت موضع حنين لوقف عندها طويلا .

نحو الزيمة :

واستأنفت قافلتنا الصغيرة سيرها، فوصلنا الزيمة ، ولقد سميت كذلك لكثرة مياهها المتدفقة ، ولقد صدق الدكتور حسين هيكل ، وأحسن التعبير عند ما قال : لقـد رأينا بالشرائع أغراسا دعوها بستانا فلم نحفل به ،

أما هنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدرا من الجبال يسقى بساتين عدة . لقد قال الدكتور هيكل ذلك عند الشرائع قبل أن يبدأ فيهـا بهذه المشروعات الجديدة ، ومع ذلك فلا زال هذا التأثير هو الذى ينطبع فى النفس عند الاقتراب من الشرائع ، ورؤية الزيمـة ، ففى الشرائع سبعمائة فدان تزرع ، وهو قدر كبير بالنسبة لصحراء العرب ، ولكنا لانرى سبعمائة فدان فى منظر واحد ، أما فى الزيمة فهذه البساتين الصغيرة والتى لا تبلغ فى المساحة بعض ما فى الشرائع فى الوقت الحاضر ، ومع ذلك فان تجاورها وانبثاق أشـجار الموز من خلف حوائطها بأوراقها الخضراء البهيجة ، ينعش النفس ويقوى فيها الشعور بالحياة . ووقفنا تحت خميلة نشاهد المياه المتدفقة من الصخور بدون انقطاع ، وقد أبيت الا أن أشرب من هذه الميـاه المتدفقة بيـدى ، وغسلنا وجوهنا وأيدينـا وأرجلنـا على ما أذكر ، وكان هناك من يبيع رمانا فاشترينا منه ، أو بالأحرى اشترى منه مرافقنا كمية ضخمة ، ظلت تقدم لنا على طول الطريق ، وأشهد أنى لم أذق طول حياتى رمانا أجمل أو أحلى من هذا الرمان الذى ابتعناه من الزيمة ، والذى كان بهجة رحلتنا من مبدئها حتى منتهاها .

فى السيل :

وتابعنا السير لنجعل السيل هى محط راحتنا ، ومكان غدائنا فوصلناها بعد ما يقرب من ساعتين ونصف من خروجنا من مكة ، وليس ذلك لبعدها ، فالمسافة ما بين مكة والسيل لا تزيد على ٧٧ كيلو متر ، ولكن الوقوف فى الموقفين السابقين ، ولأننا لم نكن متعجلين ، وانما كنا نقصد المشاهدة والالمام بكل ما يحيط بنا كل هذا جعلنا لا نمضى مسرعين ، فاستغرقنا هذا الوقت فى قطع هذه المسافة القصيرة .

وقد سمى موقع السيل بهذا الاسم ، لأنه مهبط السيول من الجبال المحيطة به فى شبه دائرة ، والتى تصب فيه باستمرار أكثر أيام السنة .

ولم نكد نصل اليه حتى وجدنا أنفسنا فى منفسح مديد من الأرض ، واتجهت بنا السيارات نحو بعض المقاهى المقامة فى ناحية منه ، وهى مقاه

مبنية بالأحجار ، وملحق ببعضها حجرات لمن يريد من المسافرين أن ينام فيها ، وقد أعجبنى من هذا المقهى الذى ذهبنا اليه نظافة مقاعده المصنوعة من سعف النخل ، ولم يكد يستقر بنا المقام بعض الوقت ، حتى شعرنا بالجو الجميل الذى أصبح يغمرنا ، فقد تركنا مكة خلفنا والحر بها قد بلغ أشده ، أما هنا فقد بدأت النسمات الجميلة المنعشة تصافح وجوهنا ، وترطب أجسادنا ، ولا عجب فى ذلك اذا أدركت أن المكان مرتفع ، عن مكة بنحو ثلاث آلاف قدم •

وكان مقررا أن نأخذ فى هذه المحطة راحتنا الكاملة ، ولذلك صلينا بها الظهر والعصر قصرا وجمعا ، ثم تناولنا غداءنا ، واستلقيت بعد ذلك التماسا لبعض الراحة ، ولأفكر قليلا فى هذا الذى قيل لى وطالعته فى أكثر من كتاب ، من أن هذا المكان هو موضع سوق عكاظ سوق عكاظ الشهيرة • ان كلمة عكاظ من الكلمات المدوية فى تاريخ العرب ، والتى اتصلت بتاريخ الاسلام ، فهو ذلك المجمع الضخم الذى كان يجتمع اليه العرب من كل فج عميق كاجتماع المسلمين اليوم فى فريضة الحج ولكن اجتماع الحج منسك دينى فى جوهره ، أما الاجتماع فى سوق عكاظ فقد كان بقصد التجارة والتبادل فى حقيقته ، على أن شهرته الكبرى التى خلدته لم تكن هى التجارة بل الأدب ، حتى أصبحت سوق عكاظ مرادفا للمجامع الأدبية فى عصرنا الحديث ، ولطالما سألت فيما سألت عنه ، عن موضع سوق عكاظ ، فكنت أتلقى دائما جوابا واحدا : وهو أنه على طريق الطائف ، ولو سألت بعض الناس عما ستقابله فى طريقك الى الطائف من مواقع ذات شهرة تاريخية ، لأجابك على الفور سوق عكاظ ، ولا جدال أن الأمور عندما تبلغ هذا الحد من التواتر ، فلا يمكن ألا أن تنطوى على الحقيقة ، ولذلك فقد كنت مرتاحا كل الراحة للجزم بأن هذا المكان وأعنى به « السيل » هو ذات الموضع الذى كان يقوم فيه سوق عكاظ • فهو ملتقى الطرق ، وهو ملتقى السيول كما قدمنا ، أى أن الماء يوجد به كثيرا ، وهو معتدل المناخ ، فلو أن العرب القدامى أرادوا أن يختاروا

لسوقهم مكانا لما وجدوا أنسب من هذا المكان ، ومادام أن كل ما نقل لنا من أوصاف سوق عكاظ وموقعها بالنسبة لمكة والطائف ينطبق كل الانطباق على هذا المكان ، ، فلست أعرف فيم الشك الذى يخالج البعض من أن يكون هذا الموقع بالذات هو سوق عكاظ القديمة ، وعلى أية حال فسواء أكانت السيل هى سوق عكاظ أم كانت السوق بعيدا عنها قليلا الى الشمال أو الى الجنوب أو الى الغرب فيما يسمونه القانس أحيانا والقهاوى أحيانا أخرى فالخطب هين لأن الأراضى كلها متشابهة فهى وديان منفسحة الأرجاء تحيط بها الجبال ، ولذلك فاننى أميل الى أن يعرف هذا المكان بأنه سوق عكاظ ، بل ليتهم يغيرون اسمه من السيل الى سوق عكاظ تخليدا لهذا الاسم الكبير فى حياة العرب .

وادى الجن :

والمرحلة التالية للسيل للذاهب الى نجد ، هى العشيرة التى تبعد مسافة ٢٥ كيلو مترا عن السيل ، ولكن لما كان الطائف مقصدنا ، فقد انحرفنا الى طريقه ، وبدأنا نشعر بتغير طبيعة الأرض تغيرا ظاهرا ، فقد أصبح طريقنا حجريا ، وشعرنا أننا دخلنا فى منطقة جبلية ، وبدأنا نرى منظرا عجيبا ، قد يرى السائر فى الطريق الى المدينة لونا منه ، ولكنه لن يرى بكل روعته وخصائصه الا فى هذا الجزء من الطريق بين السيل والطائف ، وليس هذا المنظر سوى منظر الصخور والتلال والهضاب والأكمات ، وقد عبثت بها الرياح والأمطار والسيول ، فصيرتها الى أشكال عجيبة يقف الانسان أمامها مذهولا فى أكثر الأحيان ، ليكاد يخيل اليك ان هناك بعض الناس وقد جلسوا على جانب الطريق ، فاذا اقتربت منهم لم تر الا صخورا ، وقد شكلتها الرياح على صورة مجمع من الناس ، وقد تهتف لزميلك انظر الى هذا الفيل ، ثم تتبين أنه ليس الا صخرة أخذت عن بعد شكل الفيل ، وقل مثل ذلك عن سائر الكائنات التى يمكن أن تطوف بذهنك . لقد وجدت صخورا وكأنها أبو الهول فى أدق صورة ، وصخور كأنها المسلات وصخور كأنها النسور والطيور أو الثعابين

الصخور المنحوتة

والسلاحف ، وصخور كالبالونات والمناطيد ، وبالجملة فكل ما طاف بذهنك من صور وأشكال ، فانك واجدها من حين لآخر أو بالأحرى تتوهم انك تراها ، وأنت تسرح الطرف فيما حولك ، والسيارة تنطلق بك نحو الأمام . وأكثر مايراه الانسان هذه الكهوف الطبيعية التى صنعتها الرياح والأمطار ، فترى الصخور الضخمة وقد جوفت فأصبحت كهفا ، كما ترى صخورا معلقة يخيل اليك انها توشك أن تقع ، ولكنها قد تكون على هذه الحالة ألوف السنين، لقد كنا فى حالة ذهول ودهشة أنا والغندور من هذه المناظر . وسرعان ما وضح فى ذهنى، لماذا امتلأ الأدب العربى بالحديث عن الجن والغيلان والمردة والمساخيط ، فمن منا لا يتملكه الخوف والرهبة اذا اجتاز هذه الأماكن بالليل ولم يجتزها فوق سيارة ؟ كما نفعل الآن ، بل اجتازها كما يفعل العربى فوق بعيره أو ناقته ، فيظل يرى بعين الخيال حيوانا من الحيوانات ، أو شبحا من الأشباح ، فاذا اقترب منه لم يجد سوى صخرة من الصخور ، وناهيك بما تحدثه الريح بالليل وسط هذه الصخور المشكلة والمجوفة . اننى أستطيع أن أتخيل أنه لا يوجد صوت من الأصوات لا يمكن أن يسمع بالليل من تأثير تغلغل الريح وسط هذه الصخور ، ان عواء الذئاب ، وخرير المياه ، وصرخات المفزوع ، وأنين المجروح ، وأصوات الاستغاثة هى بعض ما يتصور الانسان سماعه ، اذا سار خلال هذه الأودية بالليل ، فهناك صخور من كل حجم ، ومن كل طراز ، وبها ثقوب وانحناءات وانحرافات وتقعرات ، كفيلة بأن تحدث أى صوت من الأصوات المألوفة ، كما أحدثت كل الصور المألوفة للعين ، والحق انه من المحال أن تتذوق الأدب العربى القديم ، أو بالأحرى تتذوق الشعر العربى القديم ،لأنه هو جماع الأدب العربى ، الا اذا جست خلال الجزيرة العربية ، لترى البيئة والعوامل الطبيعية التى كيفت هذا المزاج العربى ، والتى أنطقته بما نطق من شعر ، وحملته على الاعتقاد بما أعتقد من أفكار وآراء ، فها أنذا لو لم أسمع ذكرا للجن أو اشارة لهم عن قرب أو بعد ، وسرت فى هذا الوادى الذى اجتزناه فى طريقنا الى

حديث الجن والغيلان

الطائف ، لاخترعت كلمة الجن ، ولما سميت هـذا الوادى الا باسم وادى الجن[1] .

في الطائف :

واقتربنا من الطائف أخيرا ، ها هى ذى طلائعها تظهر فى صورة قصر قيل لنا أنه من قصور شرفاء مكة ، واسمه قصر شبرا ، اشارة الى شبرا مصر ، وهو الآن مكان تابع لوزارة الدفاع التى تجعل منه ثكنة عسكرية ، وقد اعتاد جلالة الملك عبد العزيز أن ينزل فيه قبل ذلك . لم يبد للطائف منظر عام كمنظر مكة ، أو منظر جدة ، فهى على خلاف مكة ، تقع على منبسط كبير من الأرض لا يكاد الطرف يحد آخره ، وكان أول ما تجلى لنا منها سورها الخارجى الذى يطوف بالمدينة ، والذى ذكرنا على الفور بسورها القديم الذى امتنع على رسول الله ، فلم تقتحمه جيوشه وارتد عنها .

هذه هى الطائف اذن التى تأبى فى كل دور من أدوار الجزيرة الا أن تكون لها قصة ، وأن تنفرد بتاريخ خاص ، فقد دخلت جيوش الملك ابن السعود الى الحجاز ، فحملت معها الأمن والسلام حيث ذهبت الا فى مدينة الطائف ، ولم تستطع هـذه الأسوار أن ترد عنها ما أصابها على يد الأخوان .

كان ذلك فى عام ١٣٤٣ هجرية عندما قرر الملك ابن السعود نهائيا أن يضم الحجاز الى نجد ، فأرسل جيوشه لتكون هادية ومرشدة وناشرة للسلام ، تحارب من حاربها ، وتحمى من صالحها ، وكان الملك حسين قد أمر جيوشه وعلى رأسها ابنه الملك عبد الله ، أن تدافع عن الطائف ، ولكنها بدلا من أن تدافع عنها انسحبت منها لتنجو بنفسها ، فدخلت جيوش الأخوان الطائف ، وعلى رأسها من يسمى سلطان بن بجاد أمير

نكبة الطائف

(١) تحدث الأمير شكيب أرسلان طويلا عن هـذه الظاهرة فى كتابه الارتسامات اللطاف ودخل فى شرح علمى طويل عن الصخور وكيفية تكونها خلال العصور الجيولوجية المختلفة .

لـواء الغطغط المؤلف من القبيـلة المسماة بهـذا الاسم ، فكان دخوله المدينـة نكبة من النكبات التى تذكـر فى تاريخ المدينـة الحـديث ، والتى لا يسـتطيع معها الانسـان الذى يزور الطائف الا أن يستذكر هذا الحـادث • لقـد أعطى هـذا الرجل الجاهـل المتعصب الاذن لرجال قبيلته ولمن كان معه من البدو أن ينهبوا ويسلبوا وان يقتلوا ويذبحوا ، على زعم أن سكان المدينة من الكفار والمشركين ، وان مالهم ودمهم حلال للفاتحين • فكانت مأساة الطائف التى تألم لها الملك ابن السعود كأشد انسان تألم ، فتاريخه الطويل شاهد عدل على أنه رجل لا مثيل له فى حقن دماء أعدائه ، والصفح عنهم ، بعد أن يظفره الله عليهم ، فما بالك بمن سالمه كأهل الطائف ، ولذلك فقد أسرع لوضع حد لاستمرار هذا العدوان بأن هدد بالقتل كل من يعتدى على حرمات سكان الحجاز وأصـدر أوامره المشددة أن لا يخطو الجيش خطوة واحـدة نحو الأمام الا بعد وصوله بنفسه ، وجعل الاعدام عقوبة كل من يخالف أوامره الصارمة فيعتدى على الآمنين •

وقد ضبط ابن السعود جيوشه بعـد ذلك كأروع ما يستطيع قائد أن يفرض نظاما على جيوشه ، فاحتل باقى الحجاز بعد ذلك مدينة مدينة دون أن يعتدى على حجازى واحد ، أو يؤذى فى ماله أو عرضه أو نفسه• وشكل ابن السعود لجنة لتعويض المنكوبين فى حوادث الطائف ، فكان هذا تقليدا لم يسبق له مثيل بالنسبة لفاتح ، ولكن ابن السعود لم ينظر لنفسه وهو يدخل الحجاز على أنه فاتح ، لقد جاء لاقرار السلام فى ربوع الجزيرة وتوحيدها فى ظل حكومة واحدة قادرة على نشر الأمن والنهوض بالعرب فى ظل عقيدة خالصة صادقة ، هى عقيدة التوحيد وشريعته •

فى داخل المدينة :

ودخلنا الطائف لايصال أحد رفقائنا الى بيته ، ولا أستطيع أن أكتم خيبة الأمل التى شعرت بها وأنا أجوس خلال المدينة ، فهى مدينة قد خلت حتى من الطابع الخاص الذى يصادفه الانسان فى جدة أو مكة • ففى هاتين البلدتين قد ترى بيوتا قديمة وشوارع ضيقة ، ولكنك تشعر أنك وسط

جو عبق بالذكريات ، وأن للبيئة التى تحيط بك شخصيتها الخاصة ، أما فى الطائف فلم يحس الانسان للمدنية بأى شخصية أو أى طابع من أى لون كان ، لقد كانت شوارعها الواسعة خالية من الحركة تقريبا ، وذلك لأن الطائف لاتعمر الا فى فترة الموسم ، وقد انتهى موسمها ، ويلحظ الانسان للوهلة الأولى بيوتا صغيرة ، قد أنشئت حديثا على الطراز العصرى ، ولونت بألوان مبهجة ما بين أحمر وأصفر .

ان المدينة مصيف ، فاذا شئت أن تقول أن لها طابع المصيف فى أى مجتمع من المجتمعات ، من حيث غلبة الخفة والتفاهة والبساطة عليها لم تعد الصواب . وخرجنا من المدينة قاصدين جبرة ، حيث قصر معالى الوزير وحيث سنقيم أيامنا التى سنقضيها بالطائف ، ولم نكد نخرج من سور المدينة حتى وجدنا سيارة تقترب منا ، ونزل منها شخصان ، أحدهما مدير المالية بالطائف ، والثانى رئيس الشرطة بها ، وكانا يتجولان فى انتظارنا على الطريق الى الطائف ، وتقدما بسيارتهم قافلتنا الصغيرة فى الطريق الى جبرة .

فى جبرة :

وجبرة هى اسم لبئر فوار أعاد تعميرها وتغويرها معالى وزير المالية ، وأقام عليها قصرا لم نكد نصل اليه ، وارتقى درجاته ، وأدخل الى فنائه ، حتى وقفت مشدوها هاتفا « الله أكبر » الله أكبر الذى أودع الكون سر جماله ، وسلط الانسان على الكون ، يجتلى أسراره ، ويستمتع بجماله من خلال الفنون والعمل! لو سألتنى الآن وقد طوفت بالجزيرة من مغربها لمشرقها ، وقد دخلت قصورها قصرا قصرا ، ما هو أجمل هذه القصور على الاطلاق وأخفها ظلا ، وأرقها حاشية ، وأمتعها جوا ، لقلت لك على الفور : « جبرة » لو سألتنى أى مكان تحن لرؤيته كلما ذكرت رحلتك فى الجزيرة ؟ لأجبتك على الفور «جبرة» ... لو سألتنى أنت يا من طوفت كثيرا من بلاد العالم ، ورأيت المناظر المختلفة جميلها وغريبها ، وقويها وعنيفها ، ما هو المنظر الذى نقش على صفحة نفسك من حيث جماله ؟

لأجبتك فى غير تردد « جبرة » وليس جبرة بعد ذلك كله ، أو قبل ذلك كله ، الا بركة كبيرة من الماء فى فناء مكشوف الى السماء ، يتصل به ايوان مسقوف متسع الأرجاء ، وقد غطى كله بالسجاد العجمى الفاخر ، وصفت الأرائك على جانبيه ، وفوق هذا الايوان بعض حجرات للنوم والاقامة ، ولكنها ليست بذات بال أو أهمية ، وانما المهم كل المهم هو هذا الايوان الفسيح الأرجاء ، تهب فيه النسمات العليلة ، ولا يكاد الانسان يجلس فى صدره ، حتى يرى هذا المنظر العجيب ، فالايوان يبدأ بعقد كبير يرفع السقف فوقه فى شموخ وتعال ، وتتجلى السماء بزرقتها الصافية من خلال هذه الفتحة الضخمة ، ولا يحجب هذه الزرقة الا نافورة تقذف بالماء فى وسط الحوض الى عل ، ثم يتساقط ثانيا كأنه حبات الماس والبللور ، وهناك فى ختام الصورة على الأفق يصعد جبل مخروط الى السماء ، وهذا هو المنظر فى جبرة ، فهل رأيت من هذا الوصف شيئا كثيرا ، هل رأيت شيئا يتناسب مع هذا التهويل والاغراق ، وأنا أصف لك أثر جبرة فى نفسى ، ومع ذلك فلو سألتنى الأسئلة السابقة كلها لأجبتك نفس الجواب . وهذا هو سحر الفن والطبيعة فى جبرة .

روعة الفن وسره

انها بضع خطوط قليلة ، ولكنها تؤلف صورة ساحرة عميقة التأثير فى نفس الانسان ، أو لم تشعر بقلبك منجذبا فى يوم من الأيام نحو شخص أو مكان ، فتراجع نفسك ، وتحاول أن تبحث عن السر الذى يجذبك الى هذا المكان ، فلا تهتدى فتنتهى بالتسليم والاستسلام ، انها أسرار هذا الكون ، والتى لم نستطع لها حتى الآن حلا .

هذا السكون العميق الذى يسود المكان ، هذا البحر العجاج من السجاجيد العجمية التى تغطى أرض الايوان ، هـذه الصور الزيتية الرائعة التى تتجلى من خلال فتحة الايوان ، والتى تتألف من حوض الماء ونافورته ، ومن زرقة السماء وصفائها ، ومن امتشاق الجبل وجلاله ، هذا المزيج من هذه العناصر ، كان عميق الأثر فى نفسى الى حد لم يسبقه مثيل الا أن يكون أثر الأماكن الروحية ، كغار حراء ، أما بالنسبة للأماكن

التى صنعها الانسان ، فسيظل قصر جبرة من الأماكن التى تخلب لبى ، كلما ذكرت مقامى بها .

نرى هل يعرف معالى عبد الله السليمان جمال أيوان قصره فى جبرة ، وجلال المنظر الذى يراه الجالس فى صدره ؟ لقد كدت أجيب على هذا السؤال بالنفى ، فالرجل مشغول وغارق فى الأعمال بالليل والنهار ، وهو لا يبنى هذه القصور لكى يستمتع بها ، ويقضى أوقات اللهو والفراغ فيها ، ولكنه يبنيها كلون من ألوان التعمير والانشاء ، يبنيها للملك ، يبنيها للأمراء ، يبنيها لمجرد البناية ، فهو محب للبناء ، والا فقد وجدته فى جدة يقيم فى بيت صغير كأصغر بيوت الناس البسطاء .

استغراق عبدالله السليمان فى العمل

أجل آن عبد الله السليمان لا وقت عنده للاستمتاع بجمال ما يبنى ، ولكن لو لم تكن روحه تفيض بكل هذا الجمال ، لما استطاع المهندس الذى صمم ، والبناء الذى بنى ، أن يخرج هذه التحفة من حيث الذوق ، لقد كنت أجلس فى صدر الايوان ، وانظر الى الأمام ، فأرى النافورة منحرفة بعض الشىء عن وسط فتحة الايوان ، فأتزحزح فى جلستى حتى تصبح فى النصف تماما ، ومن خلفها الجبل بلونه الداكن وتتخللها وتسربلها السماء بزرقتها الشفافة ، وهذا الصوت المنبعث من سقوط مياه النافورة فى الحوض ، وحفيف الهواء الذى يلفح الوجه ، كل ذلك لا يزيد الانسان الا شعورا بالسكون العميق الذى يلف المكان . لقد تمنيت أن يتركنى الجميع فلا يخاطبوننى ، ولا أرى نفسى فى حاجة للرد عليهم ، فقد كانت كل حركة تعكر من جمال هذا المنظر علىّ . انه لم يفتنى بعد انصراف الرفقاء أن أعود الى مجلسى ، وأن أعود وحيدا فاتكىء على هذه المساند ، وأسرح نظرى الى الأمام ، وأشرب من هذا الجمال الصافى الذى هو جمال الطبيعة .

ومما يعجبك بالأكثر فى قصر جبرة أن يكون تصميمه وانشاؤه وزخرفته هو من صنع المهندسين والبنائين المحليين ، وكذلك زينته وزخرفته كلها عربية حجازية ، وهو مما يكسبها هذا السحر ، فهو

بمثابة جمال البدوية، التى تروعك لا بأناقة ملابسها أو زينتها ؛ ولا بما وضعته على وجهها من مساحيق أو ألوان ، ولكن بهاتين العينين النجلاوين ، وبهذه الخصلة من الشعر على جبهتها ، وقد قصت على خط مستقيم ، وماء الصحة يترقرق فى وجهها •

بساطة القصر من الداخل

وقدمت لك أن قصر جبرة ليس فيه بعد هذا الايوان والفناء ذى الحوض والنافورة كبير شىء ، فالحجرات المعدة للسكنى ، هى حجرات بسيطة ، لا زخارف فيها ولا نقوش ولا أثاث ، أو رياش ثمين ، ولا جدال أن مرجع ذلك أن القصر فى هذه الفترة غير مسكون واما فى الموسم فلابد أن حجراته تغمر بالسجاجيد كهذا الايوان ، وعلى أية حال ، فليس فى قصر جبرة ما يستحق الذكر ، الى جوار هذا المنظر الذى وصفته لك •

ويحيط بهذا القصر مزارع جبرة التى يقول عنها الأستاذ أحمد عبد الغفور : أن مساحتها تبلغ ألف فدان ، ولكن الانسان لا يرى من هذه المساحة الضخمة الا الجزء الملاصق للقصر ، والذى يؤلف حديقته وبستانه ، ورؤية هذه الأشجار بالنسبة للحجازى بصفة عامة ، والبدوى بصفة خاصة ، هى بمثابة رؤية الجنة ، وهذا ما يجعلك تشعر دائما بخيبة الأمل عندما تسمعهم يتغنون بعظمة مكان من حيث زروعه ، وبساتينه ومياهه ، فاذا اقتربت منه وأنت المصرى الذى تعيش فى بلد زراعية ، لم يحدث المنظر فى نفسك شيئا من هذه الناحية ، ولذلك فقد بدأت أهيىء نفسى دائما لهذه الحالة ، حتى آمن شر المفاجآت وخيبة الأمل ، فلولا هذا القصر — قصر جبرة — لما وجدت فى الطائف شيئا أحدثك عنه ، من حيث الجمال أو الروعة والفتنة وجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، فليست الطائف الا كغيرها من مدن الحجاز ، صحراء بقلع فى مجموعها الا من رقع مزروعة هنا وهناك ، كهذه الرقعة حول جبرة ، واذا سرت فيها بالسيارة نحو المدينة نفسها ، ربما صادفك فى الطريق قطعة أرض مزروعة ، لا تتجاوز بضع أفدنه ، فقلنا لأصحابنا :

وأين البساتين الناضرة ؟ وأين جنان الطائف الساحرة التى سمعنا عنها ؟ حيث الخوخ والعنب والرمان • فأجابونا على الفور : هذه عند المثناة ، وهى تبعد عن الطائف بعض الوقت فاتفقنا أن يكون ذهابنا اليها فى صباح اليوم التالى ، ورأينا أن نخصص باقى اليوم — وكان قد أشرف على نهايته — لزيارة ما بداخل الطائف من آثار ومزارات ، فلم يدلونا الا على مزار واحد ، وهو مسجد عبد الله بن عباس ومقبرته •

فى مسجد عبد الله بن عباس :

واذا لم يكن بالطائف سوى مسجد عبد الله بن عباس ، فهو شىء ليس بالقليل ، سواء من حيث مبنى المسجد نفسه ، فهو بالنسبة لمبانى الحجاز شىء جميل ، يفوق ما يتوقع الانسان رؤيته ، سواء من حيث الاتساع أو جمال التصميم ويبلغ عدد من يتسع لهم فى الصلاة خمسة عشر ألفا أو يزيد ، وشخصية عبد الله بن عباس شخصية تستحق الوقوف أمامها طويلا • لقد اتفق الجميع على تسميته بحبر هذه الأمة ، ولكن هل كان علمه ياترى هو الذى أعطاه كل هذه المكانة الكبرى فى العالم الاسلامى القديم ، أم كونه الأصل القريب الذى نشأت منه الأسرة التى حكمت العالم الاسلامى عدة قرون باسم العباسيين ، هو هذا الذى أعطاه هذه المكانة الضخمة ، التى تجعل حجاج الهنود لايعتبرون حجهم تاما الا اذا ذهبوا للطائف، وزاروا قبر عبد الله بن عباس؟ ترى هل يزورون رأس الدولة العباسية أم يزورون حبر هذه الأمة ؟ كيفما كان الأمر، فعبد الله بن عباس شىء ضخم فى تاريخ الاسلام ؛ وفقه الاسلام وهو شىء ضخم حتى اليوم ، فمدينة الطائف لا تعتز بشىء الا بمسجده ، وبعد أن تزور هذا المسجد ، تشعر فعلا أنك قضيت حقا وجب •

حبر هذه الأمة

وقد كان لقبر ابن عباس قبة هدمت عند دخول الاخوان للطائف ، ولا تزال آثار التهديم باقية ، ويمنع الانسان من الاقتراب من بقايا هذه القبة أو الجدار التى كانت تقوم عليها ، ومن داخل المسجد اقتربنا من الحجرة المؤدية الى القبر ، وقد وضع على بابها سياج من الحديد ،

ليحول دون الدخول اليها ، فاقتربنا من السياج ، ولما كانت الدنيا ظلاما فقد رحنا نحدق داخل الحجرة ، فاذا بعسكرى البوليس الواقف هناك يأتى ليقول لنا بغلظة : أن هذا ممنوع . وقد كان هذا جهلا وحمقا من الجندى وتسرعا ، فقد طلبوا منه أن يمنع الناس من التمسح بالأعتاب ، أو تقبيل الجدران ، ونحن ما تمسحنا ولا قبلنا جدرانا ، وانما كنا وقوفا ننظر من خلال الحجرة ، وكنا نسلم على القبر السلام الشرعى قائلين : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، ونحن اللاحقون ، غفر الله لنا ولكم . اعترض علينا الجندى ، ونحن نقوم بهذه السنة المؤكدة ، جهلا منه وسفها ، ورغبة فى اظهار اليقظة التى جاءت بغير المقصود منها ، فقد دلت على غفلته ، وقد انتهره مرافقنا ، وحاول أن يشتد معه ، وأن يطلب معاقبته ، ولكنى لم أكن فى حالة تسمح لى بالكبرياء ، فقد كنت فى نعمة عظمى من الله ، لا تجعل مجالا للغضب أن يتسرب الى نفسى ، حتى ولو اوذيت ايذاء ، ولم يصل اعتراض الجندى الى مرتبة الايذاء . حادثة

وخرجنا من زيارة ابن عباس والصلاة فى مسجده مغتبطين راضين ، وعدنا الى جبرة لتناول العشاء ، وقد حاولت أن أسأل عن هذا الموقع الخالد الذى أشرت اليه فى حديث السيرة ، حيث جلس النبى ، وجاءه عداس بقطف العنب ، فلم أر أحدا يعرف شيئا عن الواقعة كلها من أساسها ، فوفرت على نفسى تكرار السؤال لكى لا أحرج المسئولين ، ولكى لا أظهر بصورة السائل عن خرافات وأوهام .

والاسم الوحيد الذى يتردد فى الطائف الى جوار ابن عباس ، هو اسم عمرو بن العاص ، حيث كان له بستان ضخم بالطائف ، لا تزال ذكراه باقية ، يذكر اذا ذكر الطائف .

فى بساتين المثناه :

كان برنامجنا فى صباح اليوم التالى يتلخص فى الذهاب الى المنطقة المسماة المثناه . والمثناه اسم العين الكبرى والتى قيل لنا انها السبب الأول

فى شهرة الطائف كبستان الجزيرة • وأول ما فاجأنا فى طريقنا للمثناة ، أنه لم يكن لها طريق للسيارة معروف ومشهور ، فكنا كأننا نكتشف ، ثم رحنا نضرب فى بيداء أرض جبلية ، لم نلبث بعد قليل أن خشينا على أنفسنا من الضياع ، بل ولم نلبث أن شعرنا بالضياع فعلا • ولكن السائق ومرافقينا ، ظلوا يضربون فى الأرض على أمل الوصول الى المثناة ، وكنا كلما أمعنا فى السير ، ازددنا اقتناعا بأننا انحرفنا عن الطريق ، فقد تحولت الأرض التى نجتازها الى أرض موحشة قاسية على عجلات السيارات ، وأصبحنا نتوقع أن تنفجر عجلات السيارة فى أى لحظة من اللحظات ، وفى أى بلد من بلاد العالم ، لايمكن الا أن تنفجر عجلات السيارة فعلا الا فى الحجاز ، فكأن السيارة تحس وتشعر بطبيعة البلاد ، فتلائم بين نفسها وبين هذه البيئة الجديدة ، فتحتمل اطارات العجلات مالا تحتمله فى أى مكان ، وما لم يتخيل صانعها أن بقدرتها أن تحتمله•••

وكاد اليأس من الوصول الى المكان يتملكنا ، بل وبدأ السخط يستولى على أنفسنا لتفكيرنا فى هذا (المشوار) ولكننا صادفنا أخيرا أعرابيا يسير ممتطيا ناقته ، فسألناه عن المثناة ، فأجابنا أنها لا تزال أمامنا ، فشجعنا ذلك على مواصلة السير ، ولكن الطريق ازداد وعورة ، الى درجة جعلت السيارة تزحف ببطء وكأنها تحولت الى دبابة ، حتى اذا بلغت الروح الحناجر ، صاح مرافقنا أخيرا • هذه هى لقد وصلنا ، فنظرنا الى حيث يشير ، فوجدنا بضعة أحجار مصفوفة فوق بعضها على صورة كوخ ، فقلت له ماذا تعنى بهذه هى ؟ فأجابنا • لقد وصلنا ، وسوف نبدأ نرى بساتين المثناة ، وللبساتين كلمة أخرى فى اللغة العربية ، لم أفهم لها معنى الا بعد أن رأيت ما رأيت فى الطائف ، وفى المثناة ، بصفة خاصة ، فللبستان مرادف آخر هو كلمة « الحائط » وحسنا فعلوا ، فقد صدقوا الوصف وأبدعوه ، فعندما يقال لك هذا هو بستان ، فأنت لا ترى فى الحقيقة سوى حائط ، وهو هذا السور الذى يحيط بالأشجار فى داخله ، والتى قد لا يرى الانسان منها الا ذؤابتها •

ومرت السيارة الى جوار حائط من هذه الحوائط ، لاتتجاوز مساحته نصف فدان أو أكثر قليـلا ، ثم حائط ثان أكبر حجما ، وحائط ثالث ورابع ، وعلى مرمى النظر ، توجد بعض أشجار متكاثفة ، هي حائط من هذه الحوائط ، وهناك على الأفق ما يبدو أنه حائط آخر،وقال مرافقنا : وهكذا على امتداد هذا الوادى الى ما شاء الله توجد هذه البساتين ، وهى غاصة بكل صنوف الفاكهة الجميلة . ما شاء الله ! هذه هى المثناة اذن ! وهذا هو أروع ما فى الطائف ! ما أضأل الحقيقة أحيانا اذا قورنت الى الخيال ! وما أغربها حينا بالقياس الى الخيال ! لو طالعت ما قيل من أشعار فى هذه البساتين ، لو تصفحت محيطات الأدب العربى بما فيـه من نثر ونظم ؟ لرأيت المعجب والمطرب فى وصف جنان الطائف وغياضه وعيونه ومياهه وأزهاره ، وها نحن أولاء فى الطائف وفى منطقته الشهيرة، فلا نرى أنفسنا الا وسـط طبقة جدباء مقفـرة ، وسـط صخور ووهاد وجبال محترقة ، تتخللها من حين لآخر عيون تخرج المياه ، فيتمكن الزارعون من غرس بعض الأشجار المثمرة حولها ، ثم أحيطت هـذه الأشجار بحائط فسميت بستانا وقيلت فيها الأشعار .

خيبة أمل

نسبية المسائل

حقا ان المسائل كلها نسبية ، ففى صحراء قاحلة مجدبة ، قد يسير السائر فيها أياما وأسابيع لا يجد جرعة من الماء ، ولا مكانا يستظل فيه ، تكون عين الماء هى جنة من الجنات والأشجار النابتة حولها محملة بالأثمار الشهية ، هى شىء تتيه له العقول ، هذا هو التفسير والتعليل لكل ما قيل فى وصف الطائف ورياضها وجناتها ، فالمتحدثون عنها ، والواصفون لها ، هم من أبناء البادية الذين لم يروا شيئا أغرب منها أو أعجب ، والا فان أى مصرى أو سورى أو سودانى وكل ساكن بلد تجرى فيه مياه الأنهار، لا يمكن أن يقف فى قليل أو كثير أمام هذه البساتين ، فضلا عن أن يقول فيها شعرا ، ويترنم ويتغزل بمحاسنها وجمالها .

ومع ذلك كله ، فلابد أن يكون للطائف فى تاريخه القديم ، شأن غير شـأنه الحاضر ، فمهما كانت الأمـور نسبية فان حالة هـذه البساتين

والمناطق حالة يرثى لها ، وقد رأيت بعد ذلك فى جزيرة العرب نفسها ما يفوق الطائف بمراحل ، بل أن الرياض عاصمة نجد لها من اسمها معنى ، فهى رياض حقا لا يقارن بها شيء رأيته فى الطائف ، وفى شرق الجزيرة فى الاحساء ، وجدت زراعة حقيقية ، وبساتين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، ووجدت عيونا تنحدر كأنها نهير صغير جار بما لا يقارن به أى شيء رأيت فى الطائف ، فلابد أن يكون للطائف صورة غير هذه الصورة الحاضرة من غير شك .

ماضى الطائف وحاضره

ولقد نقل الأمير شكيب أرسلان فى كتابه الارتسامات اللطاف كثيرا مما قيل فى كتب العرب عن الطائف ، مما يدل دلالة واضحة على أن الصورة المحزنة الحاضرة هى آية على التدهور الذى كان الحجاز قد آل اليه ، وأن جزيرة العرب كلها بعيدة عن أن تمثل جزيرة العرب فى الماضى من حيث الزراعة ، وأن النهضة الزراعية الحديثة التى بدأها الملك ابن السعود بعد اكتشاف منابع البترول الفوارة لا تعدو أن تكون محاولة زراعة واستصلاح بعض لما كان يزرع فى القديم .

ينقل الأمير شكيب ارسلان فى كتابه أن سليمان بن عبد الملك أشرف على الطائف فرأى بستان عمرو بن العاص وقد سمى « الوهط » فأعجبه ازدهاره ، واتساع أرجائه ، فقال ما أروع هذا البستان وأجمله ! لولا هذه الحرة التى تقوم فى وسطه (والحرة هى تل من الصخور السوداء) فقيل له يا أمير المؤمنين ليست هذه الحرة سوى أكداس الزبيب الناتج من البستان . وقد جمع فى وسطه . فتأمل يا رعاك الله ! ما تنطوى عليه هذه الحكاية من معنى ، والتى سواء صحت أو لم تصح فهى اشارة الى ما كانت عليه بساتين الطائف من ازدهار وغنى ، وكيف أن عمرو بن العاص وحده كان بستانه يخرج من الزبيب ما يخيل للناظر عن بعد أنه جبل ، وقيل انه كان يحوى من أشجار العنب مليون شجرة قد ركبت كل منها على خشبة خاصة بها .

والطائف اليوم لا يزال يقدم لمكة الرمان والعنب ، ولكن فى صورة أبعد ما تكون من هذه الصورة القديمة .

ورأينا أن نميل الى أحد هذه البساتين لنأكل بعض ثماره ، فقد كان من العبث أن نصل الى هذا المكان ثم نعود منه ، لا نأكل شيئا نذكره به على الأقل ، فسألنا صاحب البستان عما يوجد لديه من فواكه ، فأجابنا أنه لا يوجد لديه شيء سوى الليمون الحلو ، والليمون الحامض ، فرحبنا بالاثنين ، ورحنا نقطف الثمار بأيدينا من الأشجار ، ثم أخذنا بعضها معنا، وأعطينا البستانى ما أرضاه .

وقفلنا راجعين بعد أن عرفنا (البير وغطاه) وأن الحجاز فقير الى أبعد درجات الفقر ، اذا كان هذا الذى رأيناه هو أغنى ما فيه من الناحية الزراعية .

فى حضرة الأمير فهد :

لم نكد نرجع الى المدينة ، حتى وجدنا من يخبرنا أن الأمير فهد ابن عبد العزيز نجل جلالة الملك قد زارنا فى غيابنا ، وسأل عنا ، فتوجهنا على الفور صوب البيت الذى كان نازلا فيه ، فوجدناه جالسا وسط حاشيته، فرحب بنا أجمل ترحيب ، ودار الحديث حول معركة فلسطين، والتطورات السيئة التى طرأت عليها ، فأبدى الأمير من الحماسة ما جعله يكشف لى عن سريرة نفسه ، وأن أقصى آماله هو أن يذهب الى فلسطين مجاهدا مع المجاهدين ، بل لقد عاهدنى على الذهاب سويا اذا فكرت فى العودة ثانية الى فلسطين، وكان من بين الجالسين أصهاره الجدد من آل السديرى، فأدهشنى مدى اطلاعهم على نشاطى ، حتى لقد ذكروا لى وقائع وأحوالا لم يكن يدور لى على بال أن فى مصر كثيرا يعرفونها ، فضلا عن أن يكون كبيرا من الكبراء فى المملكة السعودية .

وانتهت جلستنا ، وقد انتعشت نفسى بما رأيت من روح وثابة ، ومن ادراك عميق للمشكلات التى تواجهنا كعرب ومسلمين ورأيت من ثقافة الأمير فهد العصرية وتطلعه للنهوض ما جعلنى أطمئن الى مستقبل البلاد بعد أن أصبح أمراؤها بهذه الثقافة وهذا النضج ، وهذا الادراك لوجوب التضحية بكل شيء ، من أجل فلسطين التى هى قضية كل عربى .

وعدنا الى جبرة لنجد هدية الأمير قد سبقتنا اليها عباءات عربية موشاة بالذهب ، وقد كنا فى أشد الحاجة اليها ، فقد كنت أرتدى عباءة قديمة اقترضتها من الشيخ الراضى ؛ وكذلك الاستاذ الغندور ، فكأن الأمير أحس بما ينقصنا ، أو كأنه طالع ما يدور فى أنفسنا لتشوقنا لعباءة عربية جديدة ، وأغلب الظن أن الأمير لم يتصرف بوحى من هذه الفكرة أو تلك، وانما تصرف بوحى سجيته وغريزته التى ورثها عن أبيه ، وفطر عليها ، وأعنى بها الكرم ، ولقد كان الأمير فى الطائف مصادفة بمناسبة عقد قرانه ، ولا بد أنه وزع بهذه المناسبة عشرات من هذه الكسى والخلع ، فشاءت الظروف أن نكون فيمن يقابل الأمير صباح زفافه ، فكنا من بين مهنئيه من حيث لانشعر ، ونالنا كرمه ، حيث لم نكن نتوقع •

قصر الأمير فيصل :

لم يكن لدينا بعد ذلك ما نزوره أو نراه فى الطائف سوى قصر الأمير فيصل الذى لم يتم انشاؤه بعد بصفة نهائية ، والذى كنا نراه فى روحتنا وجيئتنا من المدينة واليها •

فذهبنا اليه فى أمسية هذا اليوم ، فرأينا عجبا ، رأينا قصرا كأضخم قصر يمكن أن يدور فى خيالك من حيث الضخامة ، يبنى وفق رسومات وتصميمات صنعها مهندسون مصريون ، ويقوم على تنفيذها مقاول مصرى ، استجلب العمال من مصر بأبهظ الأجور ، ليتمكنوا من تشييد قصر بالأدوات والمهمات المصرية ، ومواد البناء العصرية ، كالأسمنت المسلح وغيره ، ومرة أخرى لو قلت لك : أن هذا القصر سيتكلف اذا تم انشاؤه مليونا من الجنيهات لما كنت مبالغا ، ولو قلت لك : انه سيتكلف أكثر من ذلك ، لما كنت مبالغا كذلك ، على أن ذلك لم يكن هو الذى أحزننى ، فان قصور الأمراء والملوك أحيانا قد تكون شيئا أكثر من سكن لهم ، فهى مؤسسات عمومية تبرز مقدار ما وصلت اليه الدولة من غنى ورقى واقتدار ، قد يتلمس العذر لانشاء مثل هذه المبانى متى كان ذلك هو

قصر أمريكى فى الطائف

الدافع اليها ، ولكن الذى لا عذر فيه ، والذى أحزننى الحزن كله ، أن أرى الطراز الذى بنى عليه القصر يوشك أن يكون طرازا أوربيا ، أو امريكيا لحما ودما ، سواء فى هيكله أو فى زخرفته ونقوشه ، فاذا جاء دور ترتيبه من الداخل ، فقد رتب بعقلية أوربية لا شرقية ، أما عن فرشه وأثاثاته ، فهذه لم تظهر بعد، ولكن ما رأيته فى الحمامات وتوزيع الأضواء ، دلنى على أنها ستكون على آخر ما استحدث الأمريكان من مودات ، أى أنك لن تشعر فى داخل هذا القصر الا انك انتقلت فجأة من جزيرة العرب الى مكان آخر ، يغاير كل المغايرة كل ما فى الجزيرة ، من حيث الذوق والفن ومقاييس الحياة .

ويلوح لى أن الأمير فيصل لكثرة ما أقام فى أمريكا ، قد صمم أن ينقل الى الطائف قطعة أمريكية ، ولست أستطيع أن أوافق سموه على هذا المذهب ، وهذا الاتجاه .

ان أمريكا هى أمريكا ، والطائف هى الطائف ، وما يصلح لهذه لا يصلح لتلك ، اننى من الداعين والمنادين بوجوب الأخذ بمظاهر المدنية والحضارة ، فلنستعمل الكهرباء ، ولنستعمل المراوح الكهربائية ، ولنسخر الكهرباء فى كل شىء ، لتدق لنا الأجراس ، ولتطهى لنا الطعام ولتصلنا بمن نحب ونختار ، عن طريق التليفون ، ولتسمعنا ما نشاء من أخبار العالمين عن طريق الراديو . كل ذلك سائغ ومقبول بل ومندوب أما أن نختار الألوان الأمريكية ، والأطعمة الأمريكية ، والملابس الأمريكية ، والعادات الأمريكية ، فلا بأس بذلك أيضا اذا كان يلائم طبيعتنا ، أو مزاجنا وتقاليدنا السليمة ، أما اذا كانت طبائعنا تخالف ذلك كله ، وتنفر منه ولا تستسيغه ، فان الاتصاف بهذه الأشياء يضر كل الضرر ، ولا ينفع فى قليل أو كثير . أن الأمير فيصل يلمس أكثر من غيره كيف أن احتفاظه بملابسه العربية فى داخل هيئة الأمم يضفى عليه وقارا وامتيازا وسط الأمريكان ، فما باله فى عقر بلاده ، يأبى الا أن يعيش فى بيت أمريكى .

اننى أدرك تماما الدوافع التى حدت بالأمير فيصل لتأسيس هـذا القصر ، انه وزير الخارجية ، وسفير مملكته فوق العادة فى أنحاء العالم ، فأصبح بهاتين الصفتين على صلات بأكابر رجال السياسة فى العالم ، ولا بد أنه يدعوهم من حين لآخر ليزوروا المملكة السعودية فرأى أن ينشىء لهم هذا القصر كى يجدوا فيه ما اعتادوه من وسائل الراحة ، ولكنى أستطيع أن أؤكد له ، أن هؤلاء القوم لن يستمتعوا بهذا القصر كما لو كان مبنيا على طراز عربى ، ويسوده الجو الشرقى ، ان جلسة فى ايوان قصر جبرة على هذه الأرائك والطنافس الأعجمية ، وأمامهم هذه النافورة هى التى تملأ نفوسهم بسحر الشرق ، وتشعرهم بأن هنا شيئا لا يملكونه فى بلادهم ، أما أن نقدم لهم نسخة طبق الأصل مما فى بلادهم ، فليس فى هذا أى فتنة أو ما تنفتح له قلوبهم ، ولذلك فاننى أرجو الأمير أن يحرص فى أثاثات القصر فيجعلها كلها عربية وشرقية ، وأن يسعى جهد طاقته لجعل الجو الذى يسود القصر جوا عربيا سعوديا ، لا أمريكيا أوربيا .

ضرورة الاحتفاظ بشخصيتنا

ما أجمل أن نقتبس من الغرب كل ما هو نافع ومفيد لنهضتنا ! على أن نظل محتفظين بطابعنا وشرقيتنا ، لأن ذلك هو من مقومات شخصياتنا ولكى نظل قريبين من شعوبنا التى لن تستطيع اللحاق بنا فى هذا المضمار.

الرحيل من الطائف :

بتنا ليلتنا الثانية على اعتزام السفر فى صباح اليوم التالى من الطائف، لنستأنف رحلتنا الى الرياض ، فلم يبق هناك فى الطائف ما يستحق الرؤية أو الدراسة ، ولكنا لم نكد نتجهز للسفر حتى شعرت بأننا لم نقابل أمير المدينة أو بالأحرى حاكمها عبد العزيز بن معمر ، ولقد سألت عنه من قبل فقيل لى انه مريض بساقيه اللتين أصابهما شلل يعجزه عن الوقوف ، وقد امتد الشلل الى جهاز السمع والنطق عنده ، فلم يعد يسمع أو ينطق . فسألت ما اذا كان يقابل الناس أم لا ؟ فأجابونى بأنه يقابل ، فطلبت منهم أن أودعه قبل مبارحتى للمدينة مباشرة ، رغبة منى فى الأخذ بخاطر الرجل الذى قد يعتب علينا اننا لم نحاول رؤيتـه ، وهو فى نهاية الأمر أمـير

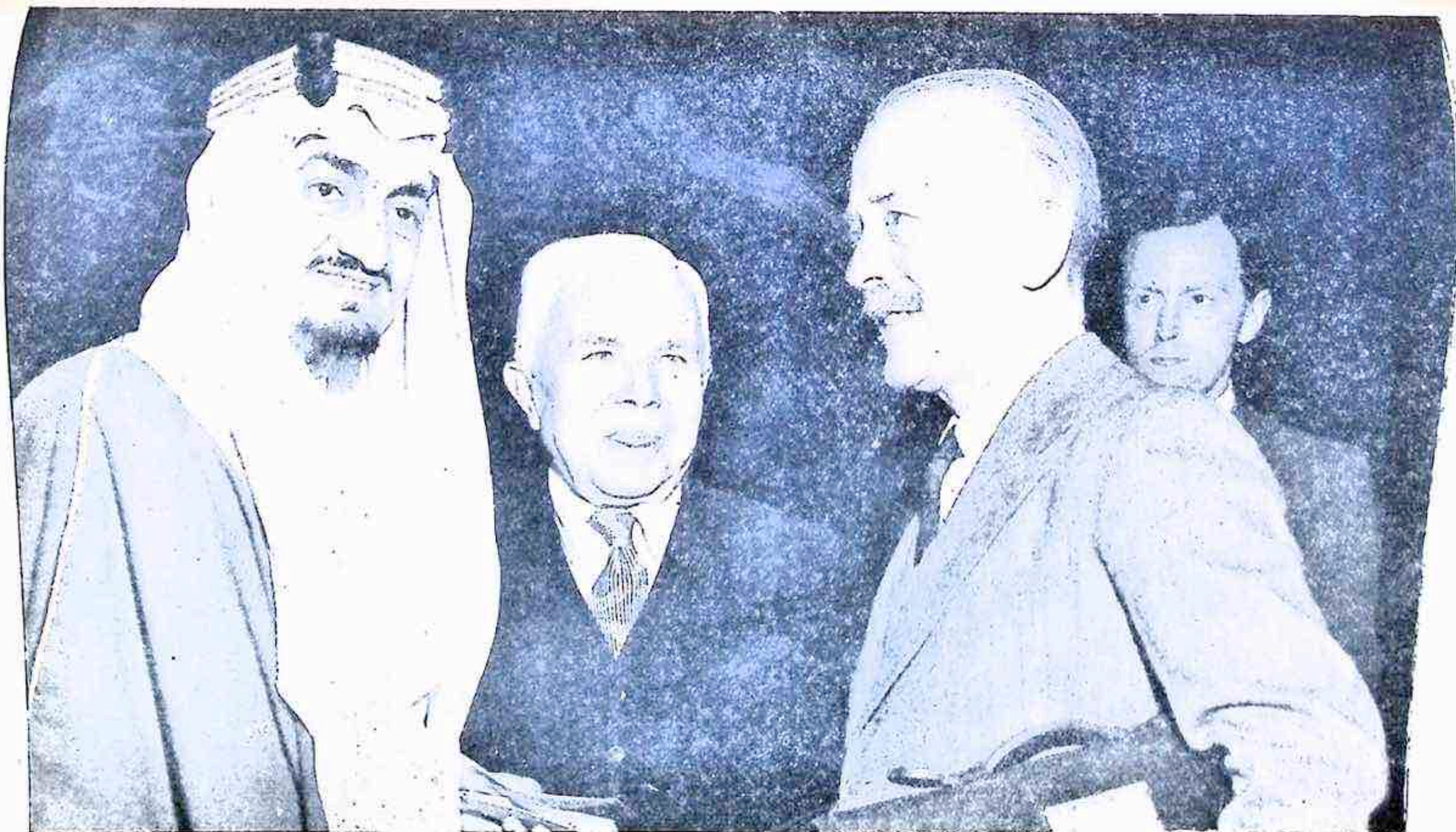
المدينة ، وقد أخذت فى نفسى على جلالة الملك ابن السعود أن يبقى أميرا فى هذه الحالة من المرض ، من الخير له أن يستريح ويريح •

وحملت الرغبة الى الأمير ، وجاءنا الاذن بالزيارة ، فأمرنا السيارة الكبيرة أن تسبقنا بالسفر ، على أن نلحقها بعد توديع الأمير •

الأمير المريض المجاهد

وقصدنا الى دار الأمير وأنا متهيب كل التهيب لهـذا المنظر الذى سأراه أمامى ، منظر الرجل العجوز المتهدم المقعد ، فكم كانت دهشتى عظيمة عندما دخلت حجرة الأمير ، فوجدت رجلا فارع القوام يفيض وجهه بالطلاقة والبشر والحيوية ، فلما اقتربنا منه ارتسمت على وجهه بسمة عريضة تفيض حبا وحنانا واخلاصا ، ومد لنا يده مصافحا فكادت الدموع تطفر من عينى ، فهذا الرجل الذى لا يقـوى على الوقوف ، قابلنا واقفا مستخدما آخر ما فى النفس البشرية ، ليقف ولو مستندا ومتكئا ، والرجل الذى لا ينطق ولا يسمع ، حاول أن يحدثنا بروحه ونفسه ، فكانت هذه البسمة ، وهذه النظرة التى لا أظن فى حياتى اننى رأيت شيئا يماثلها ، ولست أظن اننى سأرى فى المستقبل ، لقد كانت نظرة رجل كريم ، يريد أن يعبر بها عن أشياء عدة ، أنه يعتذر عن حالته الصحية ، انه يحاول أن يسد النقص الذى نحسه من فقدانه الكلام بهذه البسمة وهذه النظرة ، وهو فى النهاية ليس الرجل العاجز ، بل هو القوى القادر على مزاولة عمله ، والقيام بواجبه •

يالها من لحظات قاسيات ! تلك التى أمضيتها مع ذلك الرجـل ، نتبادل الحديث عن طريق سكرتيره الذى يكتب له ما أريد أن أقوله له ، وأتلقى الرد من يد الأمير كتابة ، لقد بدأت العملية فى أول الأمر عملية مزعجة ومرهقة ، ولكنا سرعان ما اعتدناها ، فبدأت تجرى فى سهولة وفى يسر • لقد تمنيت له الشفاء ، ونصحت له بالذهاب الى أمريكا فى التماس العلاج ، فأجابنى انه ذهب الى الهند ، وانه حصل على بعض الفائدة ، حيث أصبح يقوى على الوقوف كما رأيت وأن فكرة الذهاب الى أمريكا قد اقترحت عليه ، وانه ينوى فعلا القيام بهذه الرحلة ، وألح



يحتفظ الأمير فيصل فى هيئة الأمم بملابسه العربية ويرى الى جواره فارس الخورى الزعيم العربى
وفى مواجهتـه الكسندر كادوجان مندوب انجلترا فى هيئة الأمم

الرجل فى أن نمكث يومنا معــه ، ليتمكن من ضيافتنا ، فقلنا له • ان ضيافته قد لحقتنا طوال الأيام السالفة ، وكلما زدت مع الرجل جلوسا ، كلما أحسست بالحيوية المخزونة فى نفسه ،وبالعقل الصافى والارادة القوية التى لم تنهزم أمام هــذه النازلة بل تقاومها بصبر : لقد بدأت جلستى مع الرجل حزينا من أجله ، ثم انتهت بالاعجاب الشديد لهذه الشخصية ، التى تفتح لها قلبى كل التفتح ، على أن تأثرى كان يزداد ويقوى كلما أدركت اننى أمام شخص حساس ، مرهف الحس ، فهو يدرك مقدار ما يعانى ، ولكنه يتغلب على ذلك كله بالصبر ، ويخاطبــك طول الوقت بابتسامة تنحدر الى قلبك ، فلما جاء أوان توديعنا له ، لم أتمالك نفسى من أن أعانقه وأقبله فى خديه وفى جبهته ، قبلات أودعتها كل ما فى نفسى من حب ورجاء فى الله أن يأخذ بناصره ، ويشفيه من علته •

انسانية الملك ابن السعود

وعندما نجحنا فى اقناعه أن يســمح لنا بالانصراف ، وخرجنا من حضرته بالفعل ، كان الذى يشغلنى هو انسانية الملك ابن السعود ، وحبه لرجاله ، وادراكه لصفاتهم ، فهو يعلم من أمر هذا الأمير أنه لو عزله من عمله لكان هذا هو القضاء المبرم على شخصيته ونفسيته ، وهو من ألمع رجاله ، وأعلاهم نفسا ، فأبقاه فى عمله ليظل ذلك يمد الرجل بمدد من العزم والجلد على مقاومة علته ، فى الوقت الذى رفع عنه التكاليف ، وأحالها على غيره من الموظفين •

هذا هو الملك ابن السعود الذى يرينى فى كل خطوة ، وفى كل حركة من حركاته ، تصرفا انسانيا يزيد فى عظمته •

صوب نجد

— ٢ —

كانت زيارتنا لأمير الطائف هى آخر عهدنا بها ، وكانت سيارتنا الصغيرة تنتظرنا على باب قصره ، فامتطيناها على الفور وانطلقت بنا ... انطلقت بنا صوب نجد ... صوب الرياض عاصمة الملك .

كنت أشعر بسعادة لاتوصف بعد أن فرغنا من زيارة الطائف ، واستأنفنا رحلتنا نحو نجد ، فقد كانت الرحلة تبدو أمامى وكأنها الجبل ، وكانت مراحلها لاتزال متعددة متشعبة ، لانعرف كيف ننتهى من كل مرحلة ، وكيف نبدأ الثانية .

كان البرنامج المرسوم للرحلة فى ذهنى ، أن افرغ من زيارة الطائف، ثم نستأنف رحلتنا الى نجد ، وعاصمتها الرياض ، حيث نقيم أياما فى ضيافة الأمير سعود ، وننتقل بعد ذلك الى الخرج ، ومن الخرج الى الظهران ، ومن الظهران الى الحسا ، ثم نعود بعد ذلك الى جدة . كانت الرحلة بهذه الصورة تبدو وكأنها بعيدة النهاية ، وكانت النفس مهتاجة متشوقة لما ينتظرها من مجاهيل بالنسبة لها ، ستندرج بعد رؤيتها فى دائرة المعارف ، فلما أن فرغنا من زيارة الطائف ، وشرعنا فى رحلتنا صوب نجد ، كنت شديد الاغتباط لانتهاء مرحلة من مراحل الرحلة ، وابتداء المرحلة الثانية والرئيسية . ويهتاج الانسان عندما يقبل على شىء عزيز وكبير كان يصبو للحصول عليه منذ أمد بعيد ، فطالما كانت الرحلة الى نجد والرياض تخالج نفسى ، وتنتاب تفكيرى ، فمن العبث أن يظن الانسان أنه قد أدرك سر جزيرة العرب ، لمجرد أنه أدى فريضة الحج ، من العبث أن يتذوق الانسان جمال البيئة التى أنبتت الاسلام لمحض زيارة المدينة . فالمدينة ليست سوى ملتقى للطرق الضاربة فى كبد

الصحراء ، وما لم يرتد الانسان هذه الطرقات ويصل الى البدو فى احشاء مملكتهم ، فلن يستطيع أن يتفهم هـذه الروح العربية الصحيحة التى تفيض فى تعاليم الاسلام • أن مكة لم تكن فى يوم من الأيام ممثلة للعرب فى عنصرهم الصافى ، وهى بعد الاسلام قد فقدت كل صلة بينها وبين العرب فقد تبحث بين سكانها العديدين عن عربى واحد ، فيعييك ذلك ، الا أن يقولوا لك : ان السيد عبد الله الشيبى سادن الكعبة ، هو من سلالة قريش ، وان زيدا من الناس ينتمى الى قبيلة كذا وكيت ، أى أن العثور على عربى أصبح أمرا نادرا يحتاج اكتشافه الى مهارة والى احاطة وثقافة ، أما السواد الأعظم من سكان مكة فهم خليط من الأمم والشعوب ، هم سلالة الهنود والمصريين والجاويين والتكارنة والأتراك والمغاربة ، انهم شتيت من كل الأجناس ، أقلهـا الجنس العربى • وقد تبـدو هذه حقيقة غريبة ومدهشة ، ومع ذلك فانها حقيقة لاشك فيها •

سر الاسلام فى البادية

مكة مدينة وعاصمة ككل العواصم ، يتجمع فيها كل شىء من السلع ، وبالأخص من الأقمشة ، ما يوجد فى أى بلد كبير ، ولطالما ذهلت وأنا أرى صنوفا من الأقمشة لا مثيل لها فى القاهرة ، وأنا أرى صنوفا من الأطعمة المحفوظة التى يسيل عليها لعاب بعض أثرياء مصر ، فلا يجدونها فى كل آن لانقطاع ورودها من أمريكا بعض الوقت ؛ واستحضر بعض المكيين فى هذا الموسم أجهزة أمريكية أوتوماتيكية لبيع الجيلاتى ، فمكة مدينة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، بما فى ذلك آفات المدينة ، ولقد كانت كذلك على مر العصور ، وقبيل البعثة النبوية نرى مكة مدينـة مليئة بالخمارات ، مكتظة بالبغايا والعاهرات ، ونوادى القمار والميسر ، كما يحذر القرآن وينذر ويتوعد مرتكبى هذه الآفات ، وكل هـذه موبقات الترف التى لا ترى الا فى المدينة والتى برىء منها عرب البادية • وقد كان من دأب قريش وسادتها أن يبعثوا بأطفالهم وصبيانهم الى البادية ليحذقوا اللغة العربية ويتخلقوا بالشهامة والشجاعة ويحذقوا الفروسية ، فكل ذلك موفور فى البادية ولا أثر له فى مكة وفى غيرها من مدن الحجاز •

مكة مدينة غير عربية

وهذا التراث الغالى من الشعر العربى الجاهلى لم ينبعث من مكة أو الطائف ، ولكنه انبعث من أحشاء البادية ، فمن أراد أن يعيش فى جو من العروبة العبق فدونه البادية ، دونه نجد حيث النبع الفوار الذى أخرج للدنيا هذا العنصر السامى فى صفاته ونقائه • نجد مهبط الشعراء الفحول ومرتعهم ومسرح مآسيهم ومهازلهم لا يكاد الانسان يشرع فى اجتيازه حتى تتراقص فى خاطره هذه المعلقات وهذه الملاحم التى يغص بها الأدب العربى القديم •

البادية ينبوع الشعر العربى

وهأنذا أشرع فى رحلتى نحو نجد ، ولكن السيارة عندما انطلقت بنا فى بدء الرحلة لم تكن تسير بنا فى نجد ، بل كنا لا نزال فى الحجاز ، كنا لا نزال فى هـذه البيئة الجبلية التى هى أبعـد ما تكون عن البيئة الصحراوية ، كنا فى هذا المستوى العالى عن سطح البحر والبالغ بضعة ألوف من الأقدام ، وعدنا مرة أخرى الى ما سميته بوادى الجن ، حيث تتراءى الظلال والأشباح فى الليل والنهار من هذه الصخور التى عدت عليها عوامل التحا ت والتعرية ، فصورتها فى مختلف الصور والأشكال ، وجعلت منها كهوفا وتماثيل ومسلات وكائنات غريبة •

ووصلنا الى ما يسمى الحوية حيث ينزل الملك بركبه اذا قصـد الطائف ، وأخيرا وصلنا العشيرة أول محطات الطريق الى نجد ، والمحطة التى كان يجب علينا أن نقصدها مباشرة بعد محطة السيل لو لم تنحرف لنأخذ طريق الطائف • وتقع العشيرة على مسافة ٣٥ كيلو مترا من السيل ومجموع المسافة بين مكة وعشيرة ١١٢ كيلو مترا • فكأننا بعد ثلاثة أيام من مبارحتنا مكة لا نزال على مقربة منها ، ولا يزال الطريق أمامنا الى الرياض بكل طوله ، ولكنا هـذه المرة لن يكون لنا عمل الا قطع الطريق وكل متر نقطعه فى سيرنا يقربنا من الهدف المقصود : الرياض ، وولى العهد الأمير سعود •

فى العشيرة

الى المويه :

لم نمكث فى العشيرة الا ريثما استرحنا بعض الوقت وتناولنا طعام الغداء ، ثم انطلقنا لقطع أطول مرحـلة من مراحل الطـريق نحو المويه

وقدرها ١٦٠ كيلو مترا ، ولعلك قد رأيت أن مراحل الطريق الماضية كانت تتراوح بين عشرين كيلو مترا وثلاثين ، أما هذه المرحلة فهى مائة وستون كيلو مترا ،ولم تكن هذه الفكرة تفزعنا قدرما كانت تدخل السرور الى نفوسنا باعتبارنا سنقطع بالفعل مرحلة من مراحل الطريق الطويل . وكان هناك عامل خفى يحفزنى على الاسراع الى المويه وقطع الطريق اليها والمبيت بهـا — فقـد كنت أتتبـع رحلة الأسـتاذ فؤاد شاكر مـع وفد الحجاز فى كتابه المسمى « رحلة الربيع » — وقد كان هذا الكتاب هو دليلى ومرشـدى فى الطريق كما قدمت لك ، وبدأ فى نفسى حب المنافسة لهم ، وأن نقطع الرحلة فى أقل مما قطعوه أو على الأقل فى وقت لا يزيد عنهم ، ولما كنا قد انحرفنا عن الخط بسبب ذهابنا الى الطائف ومبيتنا بها ليلتين ، فان أيامنا قد طالت عن أيام القوم بهذا القدر ، فلو وصلنا الى المويه فى يومنا هذا وبتنا بها لكسبنا ليلة من هاتين الليلتين — ذلك أن أصحابنا باتوا ليلتهم الأولى فى العشيرة ، وليلتهم الثانية فى المويه ..

وكانت مرحلة الطريق الى المويه شيئا ممتعا وممتازا — شيئا لا يمحى أثره من الذهن أبدا — لقد كنا نخاف بعد الشقة وطولها ، فاذا بالمائة وستين كيلو هى أسهل مراحل الطريق على الاطلاق وأعجبه .

سهل ركبة العجيب

نحن الآن فى سهل ركبة ، وهو هذا السهل المنبسط المنفسح الذى لا يحد الطرف آخره مهما سار وأين اتجه ، والذى لا يتألف من رمال كما كان الانسان يتوقع باعتباره قد بدأ يضرب فى أحشاء الجزيرة ، بل يتألف من طبقات رسوبية صلصالية تعلوها من حين لآخر حصباء سوداء أو خلافها فهى أرض صلدة كأنها مهدت وطليت بالأسفلت ثم نثر على سطحها هذه الحصباء الصغيرة كما يحدث فى المدن الكبرى عندما تهطل الأمطار فيخشى على السيارات من الانزلاق فينثرون على الطـرقات حصباء رفيعة لتتمكن السيارات من السير فى اطمئنان ، ولقد رأيت ذلك مصنوعا فى لندن ولكنه من صنع الطبيعة فى سهل ركبة الذى يبدأ من العشيرة حتى المويه . كانت السيارة تنطلق ... ثم تنطلق ما وسـعها محركها من السرعة ، بسبعون كيلو ثم ثمانون ثم تسعون ومائة دون أن يخشى الانسان أى عقبة تعترض سير السيارة أو تهددها بأى لون من

ألوان الخطر ، فالطريق ممتد فسيح فى سائر الأرجاء كأنه البحر بالنسبة للسفينة أو كأنه الجو بالنسبة للطائرة ، فهل ركبت السفينة مرة ورأيت البحر من حولها فى كل اتجاه ؟ أو هل ركبت الطائرة يوما ورأيتها وهى تشق الفضاء بالليل أو بالنهار دون أن تخشى الاصطدام بشىء ؟ فالجو أمامها حر طليق ، كذلك كان حالنا فى السيارة ، فهى تجرى على أرض مهدتها الطبيعة بصورة تدعو الى التفكير العميق فهى ليست بالذى يمر الانسان فلا يقف أمامه طويلا . ما هذا الانبساط والاستواء العجيب فى الأرض ! وما الذى جعلها هكذا صلدة كما لو كانت مرصوفة ! وهى فى النهاية ليست أرضا صخرية أو جبلية . لقد ظلت هذه الظاهرة تناوشنى حتى سمعت فيما بعد ونحن نتحادث فى شئون البترول أن هذه المنطقة يظن أن بها بترولا — لأنها كانت قاع بحر أو بحيرة — لم أكد أسمع هذه الكلمة حتى قفزت طربا وسرورا ، فقد وجدت مفتاح ما أغلق علىَّ .

سهل ركبة وهل كان قاع بحر ؟

أجل .. لا يمكن أن يكون هذا السهل على هذه الطبيعة الا اذا سبق له أن كان مغمورا بالماء ، فالماء وحده هو الذى سواه هذه التسوية (بميزان المياه) والماء هو الذى جعل هذه الطبقات الرسوبية صلبة وهو الذى فتت الصخور فجعلها هذا الحصى المتناثر ، وهكذا لم يعد الأمر سرا مغلقا أو محيرا للألباب . ولكنى لم أعرف ذلك الا متأخرا كما قلت لك ، ولذلك فقد كان عجبى ونحن نجتاز هذا السهل يتزايد ويتفاقم كلما انطلقت السيارة ، وهو لا آخر له ولا نهاية ، وهو لا يفتأ يطالعنا بسهولته وصلابته وأرضه المعبدة لا فى شريط ضيق كما هو الشأن فى الطرقات ، ولكن حيثما شاءت السيارة أن تذهب وأنى أرادت أن تنطلق .

وغربت الشمس ووجبت صلاة العشاء وطلبت من السائق أن يقف بنا وسط هذا البحر كى نصلى المغرب ، فوقف ونزلت ولو كانت الأرض رملية لكان السجود عليها متعة من المتع ولكنها هنا صلدة يغطيها الحصى ، فاضطررت أن أفرش بعض المتاع ، وفى هذا الخلاء ووسط السكون الأبدى وقفت أصلى والروح فى نشوة حتى لتكاد تتشعع من الجسد أو تطير مع النسمات رقة وصفاء . هذه هى الصحراء التى أردت أن أتنسك فيها ، جوا وسكينة واتساع أفق ونقاء ، ولكن ما أبعدها

عما تتخيل من الصحراء ! فليست لها هذه الوحشة التى يتصورها الانسان ، ولا تتألف من كثبان الرمال الناعمة الصفراء كصحارينا الغربية فى مصر ! ما أعظم الفارق بين ما نرسمه فى الذهن لبعض المسميات وما هى عليه فى الواقع • اننا نتكلم عن جزيرة العرب كصحراء فيرتسم فى خيالنا على الفور أنها بحر لا أول له ولا آخر من الرمال ، ومع ذلك فها أنا أطوف ثلاث أيام بلياليها فى جزء كبير من الجزيرة فلا أرى أثرا للرمال فى قليل أو كثير بل جبال وصخور حتى اذا قيل لنا ابدأوا رحلتكم الى نجد اذا بنا فى هذا السهل العجيب • ان جزيرة العرب ليست بهذا الفقر الذى تصوره الناس دهورا وقرونا • ان اكتشاف البترول فى شرق الجزيرة ليس سوى الفصل الأول من رواية متعددة الفصول رواية الغنى الذى لا حد له من الثروة المعدنية فى هذه البلاد •

ثروة الجزيرة الطائلة

لم تكن هذه الأفكار هى التى تناوشنى ، وأنا أصلى فى سهل ركبة فى طريقنا الى المويه ، فعندما تكون مغمورا بجمال الطبيعة لا يكون باستطاعتك أن تفكر فى شىء الا أن تستنشق هذه الطبيعة بكل روحك ، وأن تحاول أن تفنى فى هذا الكون المحيط بك • هنالك تموت فى النفس كل نازعة ، لا أطماع ، لا أحقاد ، لا شهوات • وانما رغبة حادة قوية فى الاندماج بهذا الكون الذى يحيط بك ، وهذه هى الطهارة ، وهذه هى العبادة فى أرفع صورها ، وهذا ما جعلنى أفكر فى القيام بهذه الرحلة ، وأن أختار السيارة ، ولو استطعت لاخترت الجمل لأطيل فى الرحلة أكثر ما أستطيع ، ولأنفرد بنفسى وأخلص الى الله أكثر ما أستطيع •

طهارة وعبادة

واستأنفت السيارة سيرها ، وكان الظلام قد بدأ يخيم على الكون ، وأشرقت النجوم والكواكب تبدد الظلمات ، وأضاءت السيارة مصابيحها الكهربائية ، وظلت فى انطلاقها • وعندما يشعر الانسان أنه قد قرب من غايته يزداد شوقه وبالتالى قلقه ، ولذلك فقد بدا الطريق لنا وكأنه لا يريد أن ينتهى وهى ظاهرة ستظل تتجدد معنا طوال مراحل الطريق كلما تطلعنا الى المحطة التى سنبيت فيها ، وقد كان أول عهدنا بهذه الظاهرة

ونحن نتجه صوب المويه • لقد كان يدهشنى أن السيارة تعدو بكل هذه السرعة ، ومع ذلك لا تصل الى غايتنا التى لا تزيد كلها عن ١٦٠ كيلو مترا ، وقد فاتنى أن الانسان اذا راح يعد الكيلو متر مترا مترا وشبرا شبرا فان الحال ينتهى به الى تصور الكيلو متر شيئا لا نهاية له • وعندما يرقب انقضاء الساعة دقيقة دقيقة وثانية ثانية بل بما هو أقل من الثانية فانها تنتهى الى أن تصبح دهرا طويلا • وقد كان هذا شأننا من حيث لا نشعر ، فقد بدأنا نحدق الى الأفق فى انتظار ما يشعرنا بوصولنا الى المويه كأن نرى نور مصباح ، وكلما انقضت ثانية أو اثنتان دون أن نرى هذا النور ازداد توتر أعصابنا وازددنا تحديقا الى الأفق وازداد احساسنا ارهافا •

ولست أريد أن أثقل على القارىء فأطيل فى وصف هذه اللحظات ، فقد جاء الوقت الذى اكتشفنا فيه على الأفق بصيصا من النور فهتفنا جميعا : أخيرا • وزالت الوحشة التى كانت بدأت تنفذ الى نفوسنا خوفا من أن نكون قد ضللنا الطريق أو أن يتعطل أحد أجزاء السيارة فلا تكمل لنا الرحلة • ودخلنا المويه فى ظلام الليل ، وهى ليست سوى قرية صغيرة تتألف من بعض العشش وبيوت الشعر ، ولكن ظلام الليل لم يحجب عنا ضخامة سور شامخ كأنه سور قلعة أو حصن ، ولم يكن هذا السور الا قصر الملك الذى بناه فى هذه المحطة من الطريق بين الرياض ومكة ليكون مكان راحته ، والى جوار القصر استراحة أخرى حكومية لذات الغرض • ولقد كان أقصى ما نتمناه أن نجد حجرة صغيرة ننام فيها سواد الليل بدلا من أن ننصب ما لدينا من خيام ؛ ولكن المشرف على القصر عندما علم من مرافقنا بأننا ضيوف صاحب الجلالة الملك أبى الا أن ينزلنا فى أكرم مكان ، فاذا به يفتح لنا أكبر حجرات القصر لننام فيها • ولما كان القصر لا يفرش بطبيعة الحال الا عند نزول الملك ؛ فقد أسرع تابعونا فأحضروا من سيارتنا الكبرى السجاجيد والفرش والوسائد وأسرجت المصابيح الغازية (الكلوبات)

قصر الملك فى المويه

وما هو الا بعض وقت حتى رأينا أنفسنا فيما يشبه أن يكون جنة ونعيما . فقد جيء لنا بالعشاء مما حملناه معنا من أطعمة محفوظة والتى لم تكن تنقصها الفواكه الفاخرة . ثم قمنا الى صلاة العشاء وأسلمنا بعد ذلك جنوبنا الى الراحة وبدأت أتقلب على الفراش مفكرا فيما حولى ، فاذا بى شديد الرغبة فى البكاء من فرط سعادتى وما أشعر به من هناء . هذه هى أول ليلة نقضيها فى عرض الطريق ، وقد كنا نتصور أنها ستنطوى على بعض المتاعب ، فالأستاذ فؤاد شاكر يحدثنا فى كتابه « رحلة الربيع » عن البرد القارس والزمهرير الذى كان يعانيه ، وتراه يشكو ويتوجع بصورة عجيبة ، وخاصة عندما يتحدث عن الماء وضرورة استخدامه للوضوء بل ولمجرد الشرب وأنه كان يجمد الأطراف والأمعاء معا؛ وأسرف فى تصوير البرد والآلام التى كانو يعانونها من ذلك ، حتى آن الأمر وصل به الى حد انشاد أشعار السالفين من المشارقة والمغاربة فى البرد ، فسجل لنا فيما سجل قول ذلك العربى فى جيش طارق بن زياد الذى أضرَّ به البرد فى جبال الأندلس وبصفة خاصة فى جبل « شلير » فقال فى ذلك :

مبالغة شاعر

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم | وشرب الحميا وهو شىء محرم
فرارا الى نار السعير فانها | أخف علينا من شلير وأرحم

كل ذلك لم نر أنفسنا فى حاجة للاشارة اليه ، فعندما طلبنا الماء لنغسل أيدينا جىء لنا بماء دافىء قد سخن على النار ! فعجبت لصاحبى فؤاد شاكر ورفاقه الكبار .. ألم يمر بخاطرهم أن يفعلوا مثل ذلك ؛ وهو أن يسخنوا بعض الماء للوضوء بدلا من هذه الآلام التى يحدثنا عنها طوال الرحلة عما كانوا يقاسونه من برودة الماء ؟ .. كيفما كان الأمر فقد كانت كل أحوالنا رغدا ورخاء ، فالطعام كثير والدفء موفور ، وكرم المليك يظلنا . فلم يسعنى الا أن أصلى لله شكرا على ما أولانى من نعمة وكرامة وتوفيق .

وعند الفجر قمنا للصلاة ، وأسرع اخواننا لطى الأمتعة وحزمها فى الوقت الذى كنت أتأمل فيه فيما حولى ، وبخاصة بناء هذا القصر .

انه مبنى باللبن المصنوع من التربة المتوفرة فى هـذا المكان ، ومطلى بطلاء يؤلف الرمل جزءه الأكبر ، وهو مبنى بطبيعة الحال بالعمال المحليين ، ولذلك فتراه على ضخامته ، شيئا يتناسب كل التناسب مع البيئة التى تحيط به • فهو قصر صحراوى من طين الصحراء ورملها . وليس يروعك بزخرفته أو أناقته — فليس فيه شيء من ذلك كله — ولكنه يبهجك برحابة حجراته ،وارتفاع أسقفها وكثرة نوافذه ، فالنفس اذ تعيش فى الصحراء لا تعود تقوى على المبيت فى حجرة ضيقة. فن البناء الصحراوى

وهكذا بدأنا نرى لمحات من هذا الطابع البدوى فى البناء ، وبدأنا نرى آثار هذا الفن الصحراوى ، والذى سنرى منه شذى وعبيرا فى كل محطة من المحطات الكبرى ، حتى اذا وصلنا الى الرياض وجدناه — وقد اكتمل وبلغ ذروته العليا — ورأينا مدينة كاملة بقصورها وأبراجها وبيوتها وأسواقها ، وهى كلها نسيج وحدها انفردت بروح ، لا تدانيها فيه مدينة أخرى ، روح البادية والصحراء •

الى الدوادمى :

غادرنا المويه فى الصباح ، بعد أن تزودت سيارتنا بالبنزين والزيت من المحطة الحكومية التى أنشئت لهذا الغرض ، ثم انطلقت بنا السيارة على أرض صلدة تشبه تلك التى اجتزناها فى طريقنا الى المويه ، فلا يزال السهل هو السهل ، والطبيعة هى الطبيعة ، وكانت أول نقطة وصلنا اليها هى ما تسمى « بالدفينة » على بعد ٨١ كيلو مترا من المويه ، لا أهمية لها الا من حيث أن بها احدى آبار المياه • ولما كنا لا نزال بنشاط الصباح ، وفى مستهل المرحلة اليومية فلم نشأ أن نقف بالدفينة فى قليل أو كثير ، وواصلنا انطلاقنا الى « عفيف » التى تبعد عن الدفينة ١١٨ كيلو مترا • وكان الطريق اليها كسابقة سهلا ميسورا لا أثر للوعورة فيه • وقد كان ذلك يدهشنى كل الدهشة ، فطالما تخيلت الرحلة الى نجد ، وكأنها رحلة تكتنفها الأهوال والمصاعب ، فاذا بها رحلة هينة لينة تسير فيها السيارة فى أرض سهلة جيدة صالحة محطة الدفينة

لسير السيارات كأحسن ما تكون الأرض صلاحية • ولذلك فقد كانت الصعوبة الوحيدة ، التى تعترضنا فى يومنا هذا ، هى مجرد السأم من طول الرحلة ، فالسيارة تنطلق فى أرض تتشابه فى يسر وسهولة فأصبح الملل ينتابنا وتبدولنا الساعات القليلة وكأنها دهورطويلة•

وصلنا « عفيف » بعد الظهر بقليل ، فوجدناها محطة أخرى من هذه المحطات ، التى تمد السيارات الذاهبة والرائحة بالبنزين ، وتسعفها اذا احتاجت الى شىء من الاصلاح قليل • فدخلنا الى هذه المحطة — كما دخل أصحابنا رجال الوفد من قبلنا — وفى احدى غرف هذا المبنى ألقينا عصا الترحال وسرعان ما فرشت البسط ، وجلسنا نرتاح ريثما ينضج الطعام ، فقد أبى مرافقونا الا أن يقدموا لنا هذه المرة طعاما مطهيا ، وقد كان معهم اللحم والأرز والخضر • ولقد هممت أن أعترض عليهم ، مكتفيا كالعادة ببعض المحفوظات ، ولكنى تذكرت أن الأمر ليس لى وحدى • فاذا كنت أكتفى بأقل الطعام ، فبقية الجماعة لابد لها أن تأكل ، وأن تأكل جيدا • ونصب الطباخ مواقده فى مهب الرياح ، التى كانت تسفى الرمال فتنفذ الى كل جزئية من أجزاء الطعام ، حتى انه تخلل مسام اللحم فكانت تقرقع تحت أسناننا عندما جاء دور الأكل ، وان كنت لم أشر الى ذلك بطبيعة الحال بل ازدرته فى شهية تطييبا لخاطر القوم •

محطة عفيف

بئر :

وقد انتهزت فرصة استمتاع سائقنا بالراحة ، التى يحتاجها لمواصلة الطريق ، كى أقترب من منظر كنت أسترق النظر اليه مذ وصلنا الى هذا المكان ، وهو منظر البئر يستقى منها البدو والرعيان • ما من محطة من محطات الطريق الا وقامت ، بطبيعة الحال ، بالقرب من بئر ماء ، فالماء هو المبرر الوحيد لتجمع شىء من الحياة حول مصدره • والبئر فى الصحراء هى شىء خطير وحادث جلل • وقد تسمع عن ذلك

أو نطالعه الآن ، ويخيل اليك أنك استوعبت هـذه الحقيقة ، وأنها مفهومة لديك ولـكنك لن تستطيع أن تدركها حق الادراك ، وأن تتذوقها وتتفهمها ، الا اذا عاينتها وخبرتها بنفسك وعشت فى ظلها وجوها • فنحن الذين كنا نسير بالسيارة بسرعة خمسين كيلو مترا فى الساعة فى المتوسط ، ما كان يمكن أن ندركها لو لم أطلق لعنانى الخيال وأحاول أن أحس وأشعر كما لو كنت ممتطيا جملا يدب دبيب السلحفاة فى هذه الفيافى والسباسب ، وكل ما نحتكم عليه من الماء قربة أو قربتان : معلقتان على جانب الجمل ، نشرب منهما والخوف والحذر يملأ نفوسنا • يسير بنا الجمل وعيوننا لا تبرح النظر الى هذه القرب كما لو كانت تنظر الى ينبوع الحياة نفسها • والنفس مطمئنة بعض الاطمئنان مابقيت القافلة سائرة فى طريقها المرسوم أما اذا تعطلت لسبب من الأسباب ، كأن برك أحد الجمال أو نفق ، هنا ويشتد القلق مهما كان العارض بسيطا وتافها لأنه يعطل ويعرقل بعض الوقت ، والماء محسوب لفترة معينة • وبالرغم من أن هناك بعض الاحتياط فى مقدار الماء فان الهواجس تساور النفس خوفا من أن تطول مدة العطل فتقضى على الاحتياطى : ولا يعود للنفوس طمأنينتها وراحتها الا بعد أن تستأنف القافلة السير • والله ••• الله ، لو كان الحادث الذى وقع ، هو انفجار احدى قرب المياه ، أو انسياب الماء منها لسبب من الأسباب • هنا وترى كل من فى القافلة ينظر الى هذه المياه المسكوبة وكأنها قطرات من دمه ، هنا وتراه ينكب على الأرض متمنيا ، لو كان هو التراب الذى شرب ، أو لو استطاع أن يبتلع هذا التراب ، أو الرمل المبتل فى الماء • لهم الله أبناء الصحارى مهما قلنا أو أعدنا فى وصف حياتهم ، فلا قدرة لنا ، نحن الذين نعيش على ضفاف النيل الجارى ، أن نصور شيئا من حياتهم •

الحياة فى قربة ماء

وطوبى للقافلة الضاربة فى عرض الصحراء عندما تشرف فى الوقت أو بعد الوقت بقليل على بئر المياه ، أو بالأحرى بئر الحياة ، فالكل فى سرور وحبور والكل فى نشاط وهمة ، وقد حيزت له الدنيا بأسرها ،

وليست دنياه سوى بئر المياه • بئر المياه هى الهدف وهى الغاية وهى المبتدأ وهى النهاية هى الحياة كلها •

ولقد لمست ذلك وأحسسته وأنا أقترب من هذه البئر التى التفت حولها البدو تستسقى • وتوجد البئر عندنا فى مصر وقد كانت توجد فى كثير من البيوت فى الزمن القديم ولكنها ستبقى شيئا تافها لا قدر له ولا اعتبار ، تراه فى ناحية من نواحى الدار تمر به فلا تكاد تلحظ أن فى هذا المكان بئرا من الآبار ، أما البئر هنا فلن ترى غيرها من أى مكان جئت من الصحراء • لقد جعلت فوهتها فوق ربوة عالية ، ونصبت فوق الفوهة أعمدة الحديد ، لتوضع بها البكرة التى تساعد على ادلاء الدلو وجذبه فى سهولة ويسر • وليس على البئر حبل أو دلو دائمين لا لأن القوم أو الحكومة التى نظمت هذه المحطات أعجز من أن تضع حبلا أو سلسلة دائمة لجلب المياه من أعماق البئر ولكن خوفا من أن يغرى وجود هذا الحبل الدائم من اساءة استعمال المياه • ولذلك فليس يسقى من البئر الا من جاء بدلوه معه • وما من جمل يخترق الصحراء الا ومع صاحبه دلوه والحبل الصالح لجلب الماء من أى بئر يمر بها فى الطريق • وكأن الطبيعة التى جاءت بالماء فى عرض الصحراء ، تأبى الا أن تبقى ضنينة به فجعلته على غور سحيق يبلغ الثلاثين مترا آن لم يزد • بحيث يتعاون الخمسة فأكثر على سحب الحبل • وقد كان هذا هو المنظر الذى استرعى نظرى فقد رأيت الخمسة والستة من الناس يتعاونون على سحب الحبل من البئر ، فاقتربت منهم أبحث عن السبب فى هذا العدد الوفير يشترك فى سحب الحبل • حتى اذا كنت معهم أدركت الحقيقة • فان عمق البئر يجعل الرجل الواحد غير قادر على سحب الدلو ، فلا بد من عدد وفير • وآه لو رأيتهم وهم مجهدون يسحبون الدلو وبعد خمس دقائق أو أكثر يظهر الدلو المرتقب ، فاذا به ليس الا قطعة من الجلد زويت أطرافها لتجعلها قادرة على غرف الماء فتصل الى قمة البئر والماء يخر منها خرا سواء من بعض ثقوبها أو من فوهتها ؛ وهى تهتز وتتمايل

مشقة استخراج الماء

ابان رحلتها الطويلة ، حتى اذا أخذ ما فى الدلو لم تجده فى نهاية الأمر يزيد على صاعين أو ثلاث من الماء ، ومع ذلك فالقوم جد فرحين بهـذا القدر من الماء ، ثم يعاودون انزال الدلو من جديد ومرة أخرى يسحبونه فى خمس دقائق أو أقل أو أكثر ومرة أخرى لا يحصلون على غير هذا القدر الضئيل من الماء ومع ذلك فالقوم ليسوا فى عجلة ما داموا الى جوار بئر الماء وما هى حياتهم الا أن يبحثوا عن الماء ثم يشربوا الماء ويملأوا قربهم الى الوقت الذى يمكنهم من الوصـول الى بئر ثانيـة وهكذا دواليك .

هذا أنا وسط جزيرة العرب وهذه هى البئر . هذه هى البئر التى فى مثلها ألقى بيوسف وصورها القرآن الحكيم فصـدق الوصف ، وهو يسميها غيابة الجب ، فهل يمكن أن يكون هذا الذى أرى الا جبا ، وهذا العمق الا غيابة ، وهؤلاء هم بعض السيارة الذين التقـط مثلهم يوسف من غيابة الجب ، ولم يربهم ثقـله فى بادىء الأمر ، فان الدلو البسيط من الماء يحتاج لسحبه الى بضع رجال أشداء . وهذه هى البئر التى أشرف على مثلها موسى فوجد أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . ويقول مفسرو هذه الآية والمعلقون عليها أن موسى قد رفع غطاء البئر وقد كان حجرا لايقوى غير العصبة من الرجال على رفعه ، مع أن سياق الآية صريح فى أن الناس كانت تسقى بالفعل ، فليس ثمة حاجة لرفع الغطاء عنه ، ولكنهم يريدون أن يفسروا قوة موسى التى أشارت اليها الفتاة وهى تحدث أبيها بعد ذلك ، ولو رأوا هذا المنظر الذى رأيت فى شبه جزيرة العرب لما احتاجوا الى هذه التخريجات ، فأن يستطيع موسى بمفرده أن يسقى لهم وأن يسحب الدلو من البئر ؛ هو آية من آيات القـوة ، كيف لا وهو عمـل يحتـاج الى الخمسة والستة من الرجال الأشداء .

بئر يوسف وموسى

كان موقفى من البئر وتأملاتى فى هذا المنظر الفريد هو أظهر مافى يومنا

هذا ، فبعد أن استكمل الجميع راحتهم استأنفنا السير من عفيف قاصدين القاعية التى تبعد عنها بنحو ٧٨ كيلومترا ، وهى التى اتخذها أعضاء الوفد المكى الى الرياض مبيتا لهم ، فرأيت فى ذلك فرصتنا لكى تفوق عليهم مرة أخرى ، فلا نبيت فى القاعية ، كما لم نبت فى عشيرة ، ونجعل غايتنا هى المحطة الكبرى الدوادمى أول قرى نجد بمعناه الحقيقى ، وبذلك نعوض ليلتينا اللتين قضيناهما بالطائف وتتساوى والقوم فى مدة الرحلة من مكة الى الرياض .

محطة القاعية

ويقول الأستاذ فؤاد شاكر فى كتابه : ان أعضاء الوفد قد انقسموا على أنفسهم قسمين فمنهم من يرغب فى مواصلة السير الى الدوادمى ، ومنهم من آثر المبيت فى القاعية ، وأخيرا انتصر الرأى القائل بالمبيت فى القاعية مع أن دليلهم الذى كانوا يسترشدون به وصف لهم القاعية بأنها مهد الهوام والحشرات والزواحف كالعقارب والحيات وأشكالها ولكن يظهر أن حزب التلكؤ فى الطريق كان أقوى من حزب الحرص على الحياة فكان المبيت بالقاعية .

أما نحن فلم يكن ثمة خلاف بيننا على مواصلة السير ، فلم نكد نصل الى القاعية حتى انطلقنا دون انتظار أو تريث نحو الدوادمى التى كانت تبعد ٩٩ كيلو ، فكان مقدار ماقطعناه هو ١٧٧ كيلو وهى أطول مرحلة قطعناها فى الطريق ، لكننا كنا قد ألفنا السفر واعتادت أجسامنا على حركة السيارة ، واشتد شوقنا الى الفراغ من الرحلة والوصول الى غايتنا بعد أن أدركنا أننا قرب النهاية . وقد ساعدنا على مواصلة السير سهولة الطريق كما قدمنا ، فقد كان السهل لايزال ممتدا ، ولولا ظلام الليل لاستطعنا أن نجتاز هذا القدر فى وقت أقل ، وقد بدأت قصة اقترابنا من الدوادمى تصبح قصة معادة ، فقرب نهاية المرحلة يشرع القلق يساورنا لعدم وصولنا الى الدوادمى ، ويطول ترقبنا لها ، حتى اذا أوشك اليأس من الوصول اليها ليتسلط علينا اذ بواحد منا يصيح : هل ترون هذا النور ، فينظر الآخرون حيث نظر ثم يجيب البعض

نافيا أن يكون هذا النور هو الدوادمى ، لأنه يكون قد اختفى تحت ربوة حجبته عن السيارة ، ولكنا لا نلبث أن نرى النور واضحا فنشك مرة أخرى فى أن يكون النور هو نور سيارة قادمة أو ذاهبة ، ثم لا يلبث سير السيارة أن يقطع الشك باليقين وأن نرى أكثر من نور ثابت فندرك أنها الدوادمى فيغمرنا الشعور أن رحلتنا قد أوشكت على النهاية .

فى الدوادمى :

والدوادمى شىء على طراز المويه ولكنها أكبر حجما وأغزر سكانا وأكثر حركة ، ذلك أنها لم تعمر لأنها محطة ، بل ان المحطة وضعت فيها لأنها قرية عامرة من قرى نجد ، ولذلك فلا تكاد تقترب منها حتى ترى النخيل ، والنخيل فى نجد ، ولا يوجد الا الى جوار الماء ، هو الراية الخفاقة على ازدهار الحياة ، ولكنك عندما تقترب جدا من الدوادمى لا يروعك النخيل قدر ما يروعك البناء الضخم الذى يؤلف القصر الملكى الذى يستريح فيه صاحب الجلالة الملك . ويشتمل هذا البناء الضخم على أشياء غير القصر وان كان التعبير قد شمل المكان كله ، فالسور انما يحيط فى الواقع بعدة أبنية ليس القصر الملكى الا واحدا منها وثمة مبان أخرى أقيمت لنزول الحاشية والضيوف ، وفى جانب مستقل فى ذلك البناء أقيمت محطة البنزين المعهودة التى تتألف دائما من سقيفة كبيرة مليئة ببراميل البنزين الفارغة والممتلئة وحجرات للموظفين والعمال .

على أن ما يجعل الدوادمى تتيه على كل ما سبقها من محطات هو وجود محطة لاسلكية بها ، وهذه المحطة تصلها بجميع أطراف المملكة ، ويشعر الانسان أنه لم يضع فى هذه البرية وأنه لا زال على اتصال بالعالم .

ما أروع معجزة اللاسلكى الذى يمكن الانسان بجهاز صغير أن يتصل بأى مكان آخر فى العالم ، وما أعظم عبقرية ابن السعود التى جعلته يدرك منذ زمن مبكر جدا خطورة هذا الاختراع فأسرع بالانتفاع به فى حكم الجزيرة وضبطها ، وأن العقل ليحار كيف كان يمكن ضبط

معجزة اللاسلكى

هذه الجزيرة التى تشبه أن تكون قارة بدون هذا اللاسلكى الذى يربط أجزاءها ، وتكاد تكون المملكة العربية السعودية اليوم هى أكثر بلاد الشرق الأوسط ، ان لم يكن كثيرا من دول العالم ، اعتمادا على اللاسلكى فى مواصلاتها البرقية ، ذلك أنها خلت تماما من التلغراف العادى الذى نشأ فى المجتمعات الأخرى قبل نشوء اللاسلكى ، وكان من العبث بل من المستحيل التفكير فى مد أعمدة التلغراف هذه الألوف من الأميال ، بعد أن أصبح جهاز صغير يغنى عن كل ذلك ، فصارت المملكة العربية السعودية من أول دول العالم اعتمادا على اللاسـلكى فى اتصالاتهـا الداخلية والخارجية اعتمادا كليا .

وقد أسرعنا فى الانتفاع بنعمة اللاسلكى ، فأبرقنا الى جلالة الملك ابن السعود ننبئه بأننا أشرفنا على عاصمة ملكه مغمورين بكرم ضيافته ومتمتعين بنعمة الأمن الشامل بفضل عظيم هيبته وسلطانه فى كل خطوة خطوناها ، وأبرقنا فى الاتجاه الآخر الى الرياض الى الأمير الكبير الذى نقدم عليه ، أبرقنا الى الأمير سعود نرفع له التحيات ونعلمه مكاننا ونعبر عن شوقنا لرؤيته .

وكما بتنا فى المويه فى ذات القصر الملكى فكذلك بتنا هذه المرة ، وقدم لنا الطعام من رفقائنا كالعادة وانقضت ليلتنا الخامسة مذ فارقنا مكة فى هناء وسعادة .

الدهناء أو النفود :

لم نكد نصلى الفجر ونعزم أمرنا على الرحيل من الدوادمى حتى بدأنا نبتهل الى الله أن يأخذ بناصرنا فى يومنا هذا فقد كان الاجماع على أننا سنواجه بعد قليل أشق مراحل الطريق ، وكان كتاب فؤاد شاكر هو أول من حدثنا فى كتابه عن هذه المرحلة الصعبة المراس مرحلة النفود .

والنفود أو ما يسميه العرب الدهناء هى الصحراء بصورتهـا التى ترتسم فى مخيلاتنا ، الصحراء الرهيبة حيث الرمال الناعمة السافيـة الدقيقة ، وليتها كانت سهلا مبسطا من الأرض اذن لهان الخطب وخف ، ولكنها

سلسلة من الجبال الرملية الناعمة المتحركة فى أكثر الأحوال ، وأعنى بتحركها أن تنقلها الرياح من مكان الى مكان ، فهى كلها ليست الا رملا ناعما كأنه الكحل أو الدقيق . وقديما عندما كان الجمل هو سفينة الصحراء لم تكن هذه النفود والدهناء هى التى تخيف الجمل أو يعمل لها راكبه حسابا ، فالجمل قد خرج من تكوين الصانع الأعظم مجهزا بالعدد والآلات التى تمكنه من اجتياز هذه الدهناء فى يسر وسهولة ، وليس خف الجمل المفلطح المؤلف من الدهن والشحم فى غلاف من الجلد السميك الا الترياق لسم الدهناء ، فمحال أن يغوص هذا الخف فى هذه الرمال مهما دقت ونعمت ، لأنها اذا لانت لان معها واذا زاغت زاغ منها ، واذا حاولت أن تغوص به يكون قد انتقل عنها . هذا هو الجمل سيد الصحراء وملكها والذى أعد ليهزمها ، اذا لم يكن ثمة ماء فهو القادر على أن يعيش فى نعيم بما فى جوفه من الماء ، بل هو القادر بغريزته على أن يتجه صوب الماء ، وهو القادر بأقدامه أن لا يسيخ فى الرمل أبدا حيث يسيخ الانسان والحيوان ، وناهيك بالسيارة وكلما كانت من طراز ١٩٤٨ أو أحدث من ذلك كلما كان الخطر عليها أشد وأفتك .

الجمل سيد الصحراء

كان علينا أن نجتاز فى يومنا هذه المحنة ، فاستعنا بالله وانطلقنا ، ولم تكن مرحلة النفود هى أول مراحل الطريق ، بل تسبقها مرحلة أخرى تبعد عن الدوادمى بمسافة ٦١ كيلو مترا ، حيث تقوم محطة سميت بالخفيفة ، ثم تبدأ النفود بعد الخفيفة بسبعة كيلو مترات ، ومرحلة النفود نفسها لا تتجاوز خمسة وعشرين كيلو مترا ، كان يمكن للسيارة أن تقطعها فى خمس وعشرين دقيقة ، ولكنها قد تكون سببا فى تعطيل السيارة يوما بل يومين أو أكثر أو أقل حسب (التساهيل) ، ووصول النجدة بسرعة أو ببطء ومقدار العطب الذى أصاب السيارة أو درجة غوصها فى الرمال .

محطة الخفيفة

ولقد شاءت الظروف لأصحابنا الذين سبقونا بالرحلة وسجلوها لنا أن يكون مبيتهم فى الخفيفة ، وهى المحطة السابقة على النفود مباشرة ،

والتى لا تبعد عنها سوى سبعة كيلو مترات ، فجعلو اجتياز النفود بذلك أول عمل لهم بعد الفجر مباشرة حيث يكون الطـل لا يزال يخيم على الرمال فيجعلها برطوبته أكثر تماسكا مما لو طلعت عليها أشعة الشمس المحرقة فزادتها جفافا يجعلها أكثر تفككا وخطورة ، ويقول لنا فؤاد شاكر : ان الأمطار كانت قد هطلت قبل مرورهم ببضعة أيام ، كل ذلك بالاضـافة الى أنهـم كانوا يجتـازون المنطقـة ، ولا يزال للبرد أثر فيهـا كان عوامل جعلتهم يجتازون منطقـة النفود فى أحسن الظروف ولم تكن كذلك بالنسبة لنا .

تغير طبيعة الأرض :

كان علينا أن نقطع قبل النفود ٦٨ كيلو مترا ، وهى ليست بالمسافة الطويلة لو كنا نسير فى مصر أو الاسكندرية ، وهى ليست شيئا أبدا لو أنك كنت تنطلق بسيارتك فى أحد طرقات السيارات الكبرى فى أوربا أو أمريكا ، أما هنا فى نجد فالأمر ليس كذلك ، و ٦٨ كيـلو شىء قد يستغرق منك ساعة ونصفا فى أحسن الظروف ، ولقد حدثتك من قبل عن سهل المويه وكيف كانت أرضه مسفلتة ، ولكنا كنا قد تركنا هـذا الطراز من الأرض وحل محله لون آخر من أرض مع احتفاظها بسهولتها لم تعد صلبة ممهدة ، وغطت شجيرات الأعشاب سـطحها . وقد كانت شجيرات الأعشاب التى تغطى سطح الأرض الى ما لا نهاية هى محـل اهتمام الغندور الى أبعد حد ، لماذا ، وهذه الأرض تنتج هذه الأعشاب بهذه الكثرة التى لا حد لها ، لا ينتفع بها على وجه أحسن من ذلك ، فيبذر فى هذه الصحراء التى لا أول لها ولا آخر بذور لنبـاتات مفيدة ، فلا تلبث أن تنمو كما نبت هذه الحشائش ؟ ولقد كان يحادثنى فى حماسة لفكرته طوال الطريق من الدوادمى الى الخفيفة ، وكنت فى شغل شاغل عنه بما نحن مقبلون عليه ، وانى رجل كثير الهواجس والخيـالات ، أدرك مكان القدر حق الادراك وليس يخفف من حدة ذلك الا الايمان بالله والاعتماد عليه ، لانقاذ الانسان من فجاءات القدر .

في النفـود :

وصلنا الخفيفة ولم يبق بيننا وبين النفود سوى سبع كيلو مترات ، وقد بدأ التوتر يستولى على أعصابنا دون أن نعترف بذلك ، ولم يكن أدل على هذا التوتر من أننا عندما وصلنا الى الخفيفة لم يسأل بعضنا بعضا ، هل نمكث بها بعض الوقت أم لا ؟ بل لقد تبادلنا نظرات صامتة انطلق على أثرها سائقنا الجاوى فى عزم وتحد كمن يرغب فى امساك الثور الهائج من قرنيه. ولم أحدثك عن سائقنا الجاوى قبل الآن رغبة منى فى أن أفرد له فصلا خاصا به ، فهو شخصية ممتازة فيه هذه الرقة التى اشتهر بها مواطنوه ، وفيه ذكاؤهم ، وقد جعلنا هذا الاشتراك فى السفر أشبه بأسرة واحدة ، وكلما امتدت أيام السفر ازددنا تعلقا ببعضنا ، وأحب أفراد الأسرة دائما هو أنفعها لهم ، وصاحبنا السائق هو أشدنا نفعا فى الطريق ، ولذلك فقد كان أحب أفراد الأسرة اليها ، وقد كان ذا شخصية لطيفة محببة ، وكان صاحب مزاج ، لا نكاد نصل الى محطة لنبيت فيها ، حتى نراه قد استخرج جهازاً من أجهزة الراديو من السيارة الكبرى ونصب سارينه وراح يسمعنا الأغانى والأخبار ، وقد كان هذا الجهاز مملوكا له ، وقد اصطحبه معه للاستمتاع ، وكان لابد له من أن يقيل فى الظهر وقد استحضر معه فراشا طيبا نظيفا ، كلما نزلنا الى محطة أسرع اليه فأعده واستغرق فى نوم عميق غير مبال بالطعام والشراب ، حتى اذا استيقظ بدأ يفكر فى الطعـام بل وفى الشراب قبل الطعـام ؛ والشراب هو الشاى الجميل الذى لا يتذوقه الا اذا كان من لون معين وثقل معين وحلى معين ، ذلك هو سائقنا الكفء الممتاز الذى قطع بنا الرحلة حتى الآن وفقا للبرنامج الذى رسمناه له ، والذى لم يعطلنا ساعة أو يضيع ساعة فى الطريق ، وقد نظرنا اليه اليوم معلقين عليه أكبر الآمال فى أن يجتاز بنا ما نحن مقبلون عليه من محنة .

سائق سيارتنا الجاوى

وعندما نظر بعضنا الى بعض فى الخفيفة ، وانطلقنا عقب هذه النظرة لنقتحم النفود كما لو كنا سنقتحم النيران ، كان وجه سائقنا اللطيف قد ارتسم عليه لأول مرة خطوط العزم والتحدى .

ونظرت الى عداد السيارة ، لقد قطعنا ثلاثة كيلو مترات بعد الخفيفة ، لقد صاروا أربعة ... خمسة .... ستة .. ها هى ذى كثبان الرمل الصفراء الناعمة تبدو للعيان ، السيارة الآن تندفع اليها لتغوص فى أعماقها ، ليس هناك طريق معين لاجتياز السيارة ، فالرياح تعفى على آثار السيارات أولا فأولا ، والسائق يفضل المكان الذى لم تجتزه سيارة من قبله ليكون أكثر تماسكا وصلابة .

السيارة الجامحة

وضغط صاحبنا على دافع البنزين ، وأعطى للسيارة أقصى سرعتها ، وهؤلاء نحن فى بحر الرمال الطامى ، والسيارة تسير بنا نحو الأمام وقد ارتفع زئيرها ، ولم هذه السيارة الوادعة الصامتة ، التى لم نسمع لها أو لمحركها صوتا طوال المدة الماضية ، تصبح الآن شرسة جامحة ، فهى تنطلق على غير هدى صاعدة هابطة نحو اليمين ونحو اليسار ، وسائقها فى جهد ونصب . وهو يدير عجلة القيادة بعنف نحو اليمين ونحو اليسار ليوازن السيارة التى تجمح أحيانا وليتفادى بعض الصعاب أحيانا أخرى .

كنا نعد الطريق بالمتر والسنتى فى بعض أجزاء الطريق ، وتتمالك أنفاسنا فى بعض أجزاء أخرى عندما يستوى الطريق ، وكان من الواضح أن المشكلة الكبرى تتجلى عندما تجابه السيارة مرتفعا من الرمال ، ويتعين عليها أن تصعده وتجتازه ، أما أنا الذى لا عهد لى بمثل هذا المنظر والذى لم يدر بخلدى فى يوم من الأيام أن سيارة فورد قادرة على هذا الطراز من السير ، فقد كنت أغمض عينى أحيانا وأدير برأسى أحيانا أخرى وأجحظ بعينى تارة ثالثة ، وأنا أرى السيارة تنقض على المرتفع الرملى وتزمجر آلاتها ويتحشرج صوتها ، ولكنها لا تلبث أن تقتحم المرتفع ، واذا بنا فوقه لنعود للهبوط مرة ثانية وكل ذلك وسط رمال ناعمة سافية ... يا لله ! من يتصور أن السيارة قادرة على احتمال ذلك كله ومواجهته ، من يتصور فى أمريكا أن سياراتهم تلعب دور الجمل فى صحراء العرب أو بالأحرى دور سفينة صاعدة هابطة بين خضم من أمواج الرمال وكثبانها ، وكيفما كان الأمر فقد قطعنا اثنى عشر كيلومترا ،

ثم خمسة عشر ، ثم عشرين بعد أن كاد شعرنا يشيب لخوفنا من احتراق محرك السيارة فى بعض الأوقات ، لشدة الضغط الذى يعانيه وهو يجر السيارة فى صعودها ، وليس تحت قدميه ما يثبتهما عليه فى عزم ، ومن خشية الغوص أحيانا أخرى ، ومع ذلك فقد جاءت النهاية أو بالأحرى أوشكت ، فقد قطعنا أربعة وعشرين كيلو وبدت أمامنا الأرض العادية على مرمى النظر القريب ، واعتبر صاحبنا السائق أن كل خطر قد زال ، بل وأعلن ذلك بالفعل ، فقلت له : لا يزال من المسافة كيلو متر ، فأجاب فى انتصار : ولكن .. ولم يستطع أن يكمل ، لكن هذه ، فقد وقف المحرك ولم تكن هذه هى أول مرة وقف فيها المحرك أثناء المسافة الماضية ؛ فقد وقف أكثر من مرة نزل فيها من السيارة وراح يعالجه ، ثم لم يلبث أن عاد الى القيادة وانطلقت السيارة ، فلما وقف المحرك هذه المرة نزل كعادته وراح يعالج فيه ، فلما عاد لاستئناف السير اذا بالسيارة تتحرك فى بطء وفى جهد ، لقد غاصت عجلاتها فى الرمال ، ونزلنا لندفع السيارة ، وسرعان ما اكتشفنا أن الواقعة قد وقعت وأن سيارتنا قد ساخت فى الرمال . وقعت الواقعة

أما أنا فقد حمدت الله عز وجل وأدركت كرمه ولطفه بنا أن جعل ذلك يقع ونحن فى حافة النفود ، وها نحن أولاء نرى السيارات التى فازت بقطع النفود تقع على بعد مسافة قريبة منا ، وقد جلس ركابها تحتها يرتاحون من عناء الرحلة ، واذن فلسنا وحدنا ، واذا احتجنا لعون فها هو ذا قريب ، واذا تلفت السيارة فباستطاعتنا أن نركب احدى هذه السيارات الواقفة هناك فتحملنا الى مرات المحطة التالية ، أما سائق السيارة فلم يكن فى مثل حالتى وهو الذى يعتبر نفسه مسئولا عن نجاح العملية . لقد انهارت أعصابه التى كانت متوترة فاذا به يسب ويسخط وينهال باللعنات على السيارة التى خانته فى آخر لحظة . وقلت له ليس من حقك أن تسب السيارة فقد جاهدت معنا فى صدق واخلاص وأدت واجبها أحسن أداء .

فاذا به يقول على الفور « ولكنها تعرف أنه لا ينبغى لها أن تقف هنا أبدا لقد سارت بنا حتى الآن دون أن يتعطل محركها مرة واحدة ، فما بال محركها يتعطل هنا المرة بعد المرة ، انها خائنـة غادرة تريد أن تصمنى بالفشل » • كان يتحدث عن السيارة كما لو كان يتحدث عن كائن عاقل مدرك ولم يكن فى حديثه مجنونا أو معتوها ، فهو الاحساس الذى يسيطر علينا عندما نصاحب طويلا احدى الآلات والماكينات ؛ سرعان ما نألفها وتألفنا ، وسرعان ما نخاطبها ونحادثها ، وسرعان ما نتصور أن السيارة أو الآلة تجاوبنا وأنها تشاركنا الشعور والاحساس ، تلك مسألة لا يعرفها الا من ركب طائرة وتكون حياته معلقة ببقاء هذه الطائرة سليمة الآلات ، فهو لا يمكن الا أن يخاطب الطائرة وأن يرجوها أحيانا وأن يستعطفها بعض الأحيان وتجاوب استعطافه ورجاءه فى أكثر الأحيان •

علاقة الإنسان الروحية بالآلة

ان القارىء قد يسخر بهذا الذى أقول ، ولكن هذه الظاهرة هناك وسيثبت العلم فى مقبل الأيام مدى خضوع الآلة لاحساس الانسان وليس فقط لمجرد يديه والحركات المادية التى تقع عليها •

على أية حال فقد كان سائقنا مقتنعا بذلك كل الاقتناع ولذلك كان شديد الغضب على السيارة معاتبا لها •

ولست أريد أن أطيل على القارىء حتى يدركه الملال ، فقد استنجدنا كما قدمت بهؤلاء الرجال الذين سبقونا وقطعوا الرحلة فجاءونا على عجل ، وبدأت معركة انتشال السيارة من الرمال التى غاصت فيها ، وكانت المشكلة كل المشكلة هى نعومة الرمل ، فلا تجد عجلة السيارة جسما ثابتا تتحرك عليه ، فطلبت من القوم أن نجمع بعض الحصى والطوب لنضعه تحت عجلات السيارة ، فصاحوا على الفور ، استهزاء لتفكيرى فى الطوب والحصى ، ونحن فى منطقة النفود التى لا تتألف الا من رمال ناعمة جدا ، ومع ذلك فقد مضيت فى تنفيذ عزمى ؛ فرحت أنظر حوالى فأرى هناك حصاة وعلى بعد عشرة أمتار حصاة أخرى ، وبالرغم من عتم

العملية فقد قررت أن أمضى فيها ، واذا بى أجد طوبة كبيرة فثانية فثالثة ، واذا بى بعد قليل أملأ حجرى بالحصى والطوب ، وأعدو سريعا الى السيارة لأقذف بها تحت عجلاتها ، وعندما رأى القوم ما حملت لهم أسرعوا جميعا يجمعون الطوب والحصى ، فاذا بهم يعودون بكميات كبيرة ذلك أننا فى الواقع لم نكن فى صميم الدهناء بل كنا على حافتها ، فليس ثمة ما يمنع وجود الطوب والحصى .

النجاة

وتجمع بضعة عشر نفرا حول السيارة فرفعوها رفعا ومكنها الحصى تحت عجلاتها من أن تسير وتجتاز هـذه الشقة الصغـيرة التى كانت لا تزال أمامها لتصل الى الأرض الصلبة ، وسرنا نحن على أقدامنا فرحين مسرورين حتى وصلنا اليها فى منطقة الأمان ، فجلسنا كما يجلس كل من يجتاز هذا المضيق لننعم بشىء من راحة الأعصاب بعد الذى عانيناه ، وبقى أن أقول لك أن بعض البائسين قد يمضون فى هذه الدهناء يوما كاملا ان لم يكن أكثر وسط هذا القيظ الشديد الذى يجعل جو النفود كجو جهنم سواء بسواء اذا جاز لنا أن نشبه بشىء لم نره أو نجربه .

الى مرات :

وبعد قليل من الراحة عاودنا السير قاصدين مرات التى تبعد عن الخفيفة ٨٨ كيلو مترا وكنا قد قطعنا منها حوالى الثلاثين ، فكان لا يزال أمامنا بضع وخمسون كيلو قبل أن نصل الى مرات ، والتى قال لنا عنها فؤاد شاكر انها بلد امرىء القيس وخصص فى كتابه فصلا قصيرا لاثبات نظريته ، ثم لم يلبث أن عاد عن هذه النظرية لأن أحد سكان القرية نفى له هذه الحقيقة .

على أية حال لقد بدأنا نقترب من بلدة يظن أنها بلدة امرىء القيس ، وسواء أصح هذا أم لم يصح فان مجرد ذكر الاسم يجعل القلب يخفق لذكراها ويخفـق سعادة لاقترابه منهـا ، وانه سيكون لنفســه رأيا فى الموضوع سواء أقام عليه الدليل أم لا .

ان مجمل ما ساقه الأستاذ فؤاد شاكر على أن مرات هى بلدة امرىء القيس ، أن الكثيرين قالوا له هذا القول ، وأنه سيمر على بلدة امرىء القيس ، فلما اقترب منها راح يتذكر من معلقة امرىء القيس قوله :

بلدة امرىء القيس

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

وتوضح والمقراة هى أسماء أماكن يعينها امرؤ القيس فى قصيدته ، وهو يرى (أى فؤاد شاكر) أن المقراة هى نفس مرات وقد حرفت على ألسنة الرواة من ذلك الزمن الى اليوم ، وليس بكثير على أربعة عشر قرنا من الزمان أن تلحس « قافا » واحدة فتحرف الكلمة من مقراة الى مرات ،وقد لحست هذه الأربعة عشر قرنا ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات وغيرهم من كائنات وجمادات .

ثم راح بعد ذلك يعدد أوجه الشبه بين مرات وبين البيئة التى رسمها امرؤ القيس فى أشعار لبلدته ، وخرج من هذا بالاقتناع بأن بلدة مرات هى بلدة امرىء القيس ، فلما طاف بالبلدة ورأى من غدرانها ومناظرها استقر هذا الاقتناع وتأيد ، وفيما هو عائد من جولته فى المدينة قابل رجلا عابر سبيل فسأله أهذه بلدة امرىء القيس ، فاذا الرجل يقول له ما خلاصته : ان هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور ، وأن الأول تميمى والآخر كندى ، وأن امرأ القيس التميمى رجل ذميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله ، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين وشاع الخطأ على ألسنة الناس .

يقول الأستاذ فؤاد شاكر تعليقا على هذا القول « وبالطبع قد انهارت جميع التصورات الخيالية التى قامت فى ذهنى عن امرىء القيس وبلدته وخياله وشاعريته ومكانه وآثاره ، وذهبت تلك الأوهام سدى بعد التحقيقات التى أجريتها فى القرية » .

وليس هناك بحث علمى أعجب من هذا الذى قام به أخونا الأستاذ فؤاد شاكر ، فهو قد تلقى علما متواترا من الناس أن مرات هى بلدة امرىء القيس ، ثم راح يطبق أشعار امرىء القيس على البلدة ، فيجد التطابق بين الشعر وهذه البيئة بما يقرر وجوده فى هذه البلدة لا فى بلدة أخرى ، ولمجرد

أن رجلا عابر سبيل قال له ان هذه بلدة امرىء قيس آخر تنهار كل هذه التحقيقات فى نفسه ، ويصبح الحق ما قاله هذا الرجل ، ولعل الأستاذ فؤاد شاكر قال فى نفسه : ان صاحب الدار أعرف بما فيهـا ، وما دام هذا الرجل من سكان مرات فهو أدرى الناس بحقيقتها ... !

كل هذه الآراء كانت تتضارب فى رأسى ونحن نقترب من مرات ، وسرعان ما تجلت لنا فى الأفق ربوة عالية قال لنـا السائق والمرافق انه الكميت . ويقول أهل البادية « أرنى الكميت أريك بلدة مرات » كناية عن التجاور الشديد بين الشيئين ، لأن مرات تقع فى سـفح الكميت . وعندما اقتربنا من الكميت تجلى لنا بهاؤه ورواؤه ، فهو ذو لون أحمر قان وهو مخروط مستوى القمة .

أرنى الكميت أريك مرات

وازددنا قربا من البلدة وبدأ نخيلها يتماوج فى الأفق ، يا لله ! ما أبهج هذا النخيل الأخضر يتماوج فى سفح الجبل الأحمر ، وما أجمل هـذه البلدة التى تقترب وما أنقى شكلها ! ودخلت بنا السيارة الى ساحة البلدة الخارجية واتجهنا على الفور صوب صف من الحجرات المبنية من الحجارة فى طرف ناء من الساحة بعيدا عن القرية ، ونزلنا من السيارة فى منزلنـا الجديد ، الله أكبر ما هذه الروعة وهذا الجلال ! ما هذا الكميت ذو المنظر واللون العجيبين ! انه شىء لم نره فى كل الجزيرة حتى الآن ولم نره بعد ذلك فهذا جبل لا كالجبال كأنه شىء صنعته يد انسان فنان لا يد الطبيعة فجاء متسقا لا عوج فيه ولا نتوء من هنا أو هناك ، انه مخروط الشكل تماما وقمته مسطحة بطول الجبل مما جعلنى أفكر على الفور أن يكون الكميت ليس الا بركانا خامدا من قديم الزمان ، فهذه الجوانب لا يمكن أن تتكون بهذا الاستواء من كل ناحية الا اذا تصـورنا حمم البركان تنبعث من باطن الأرض ثم تسيل على جانب فوهته بنظام واتساق ، ثم تعاونت الرياح وبقية عوامل التحات والتعرية على سـد فوهة البركان وتسوية سطحه هذه التسوية العجيبة ، وبغير ذلك لا يمكن أن يتألف هذا المخروط .

وقد كان لهذا الشكل بالاضافة الى لون الجبل الأحمر القانى ، ما جعل كل ما يحيط به يتلون بهذا اللون ، فتراب البلده كله تأثر بهذا اللون والمبانى المقامة من هذا التراب تراها تجنح الى اللون الوردى ، وكثرة النخيل والأشجار الخضراء وسط هذا اللون الجميل أكسبت البلدة جوا سحريا عبقا لم نر له مثيلا فى كل ما مر بنا حتى الآن أو مر بعد ذلك • لقد ذهبت الى الطائف وفى نفسى أن أرى مناظر جميلة ، فلم أر شيئا جميلا أو غير جميل اذا استثنيت قصر جبرة الذى حدثتك عن جماله ، وطالما سمعت عن غياض ورياض فاذا قدمنا عليها لم نجد شيئا ، وهذه بلدة مرات عندما عرفت أنه يقال عنها انها بلدة امرىء القيس لم أتوقع أن أرى شيئا غير عادى الا ما رأيناه فى كل مكان من قماش وبيوت من الشعر وسط بيئةجرداء ماحلة من كلشىء الا الصحراء التى تحيط بها ، ولأول مرة أفاجأ بعكس ما سبق لى من مفاجآت ، لأول مرة فى رحلتى كلها أفاجأ بأن أرى شيئا جميلا حقا ، ورائعا حقا ، ومن المناظر التى لا تنسى ، ولقد ذكرت لك عند قصر جبرة أن منظره أو بالأحرى المنظر الذى يرى من ايوانه لا يزال منقوشا فى نفسى ، ومثل ذلك أقوله عن منظر الكميت الأحمر وبلدة مرات بنخيلها وبيوتها الحمراء فى سفحه •

وليست مرات الا قرية من قرى نجد وقال مرافقنا : ولكنك سترى نجدا كلها شيئا من هذا القبيل ، فمنذ الآن سترى الأشجار وترى الغياض وترى الرياض والبساتين ، وقد كان ذلك حقا وكان أبعد الأشياء عن خاطرى •

ذكرى غزوة الخندق

ولحقت بنا بعد قليل سيارتنا الكبيرة فقدم لنا الطعام واسترحنا بعض الوقت ، ثم قمت كصاحبى فؤاد شاكر ، أجوب فى القرية باحثا خلف ما فى البلدة من مشاهد ، فقادونا الى ما يسمى الغدير ، وقبل أن نصل اليه اجتزنا البلدة التى بنيت بحيث تجعل منها حصنا لا يمكن اقتحام سوره ، فاذا اقتحم سوره استمرت الحرب فى دروبه ، فالبيوت

كلها متشابكة كما لو كانت كلها بنيانا واحدا قد تألف من عجينة واحدة شكلت منها سائر البيوت ، وسرعان ما شعرت ، عندما احتوتنى دروب البلدة ، أننى الآن أعيش فى دنيا قديمة ، دنيا عصر النبى وما سبقه وما لحقه ، فلابد أن المدينة المنورة عندما حوصرت فى غزوة الخندق كانت شيئا مثل هذا فقد كانت بيوتها المتجاورات تؤلف من مجموعها حصنا لا يمكن اقتحامه ، وكانت الناحية الوحيدة التى يمكن اقتحام المدينة منها ، هى تلك التى أنشىء فيها الخندق ، وهؤلاء الذين نكصوا على أعقابهم فى هذه الغزوة ، فاستأذنوا النبى للدفاع عن بيوتهم التى وصفوها بأنها عورة كانوا كاذبين كما صدق فى وصفهم القرآن . « ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا » فالقرية تبنى على هذه الصورة لا يكون لها مأخذ فى الزمن القديم ، وبخاصة فى جزيرة العرب حيث لا سلاح لهم الا السيف والرمح ، ولا حرب الا بالمبارزة والمناجزة فى الميدان ، فلا يعرفون تسور البيوت ولا نقب الجدران فضلا عن هدم البيوت على أصحابها .

لم تستطع المدينة المنورة فى الوقت الحاضر أن تصور لى شكلها على أيام النبى ، وكيف أنقذها مجرد انشاء الخندق فى ناحية من نواحيها ، حيث لم يكن لها سور يحميها ، فقد تغيرت معالم المدينة بعد أن أصبحت مزار المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها ، أما المدينة القديمة فليس ما يجعلنا نراها رأى العين الا أن ندخل بلدة صغيرة مثل مرات ، ونرى البيوت تؤلف من نفسها سورا للبلدة ، ونرى الدروب الضيقة التى لا يتجاوز عرضها بضعة أشبار ، فنفهم قول أهل المدينة عندما قالوا لرسول الله على لسان عبد الله بن أبىّ بن سلول « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة ونشيد المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية فاذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، ان مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو الا أصبناه ،

مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط

وما خرجنا الى عدو قط منها الا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر فانى رزقت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » أجل ذلك كله حق فى عصر الرسول وها هى ذى بلدة مرات تصور لى ذلك أصدق تصوير •

ونفذنا الى هذا الذى أطلقوا عليه الغـدير من كوة تتسع لدخول الرجل بصعوبة بعد أن يحنى رأسه ويبدأ بادخال رجله ، وقد عجبت لذلك أشد العجب الى أن قيل لى ان ذلك الاجراء قد اتخذ لمنع الدواب والمواشى من أن ترتاد المكان ، ولقد كان الغدير شيئا طريفا من غير شك لو أنه كان مليئا بالماء ولكننا عندما رأيناه كان جافا ولا ماء فيه ، وهو أشبه ببحيرة صغيرة قام على حافتها شجر الأثل الذى تشابكت أغصانه وتعانقت ، وأحاطت بالبحيرة احاطة السوار بالمعصم ، وسرعان ما تخيلت الغدير عندما يكون ملآن بالماء وتنعكس صورة هذه الأشجار عليه ، بل وتتصافح هذه الأغصان المتدلية فوق صفحته ، أجل قد يكون ذلك كله لا شىء فى مصر أو فى أى بلد من البلاد التى حبتها الطبيعة الخضرة والماء والنماء أما هنا فى قلب جزيرة العرب فهذا شىء مثير بل هذا شىء فريد ، وليس أدل على انفراده من أننا رأينا غديرا ولا ماء ، وقيل لنا : ها هنا يوجد الماء فى بعض فصول السنة ، وعندما يوجد فانه يكون شيئا من العجب •

الغدير

وعدت من زيارة هذا الغدير وأنا مطمئن كل الاطمئنان الى أن هذه البلدة لا يمكن الا أن تكون هى بلدة امرىء القيس الا أن يكون هناك أدلة علمية تدحض هذا الظن المتواتر ، فلابد أن لامرىء القيس بلدة عاش فيها بعض أيامه ، فاذا لم تكن هذه البلدة فأين ؟ على الذين ينفون أن تكون هذه بلدته أن يدلونا على بلدته الأخرى على سبيل القطع ، حتى ينتفى لدينا الظن أن تكون هذه هى • أما أنا فلست أتخيل لامرىء القيس بيئة شاعرية فى هذا المحيط الصحراوى أجمل من هذه البلدة الخالدة بهذا الكميت الأحمر يظللها ، وبهذه المياه تتجمع فى غدرانها على بعض فصول السنة فتجعل منها غيضة وروضة تهز مكامن النفس وتحرك مشاعرها •

بئر خالد :

على أن حديث مرات لا يقترن بامرىء القيس فحسب ، بل ان فيها اسما آخر لا يكاد يقال لك حتى يدوى فى أرجاء نفسك فتعصف بها الذكريات ، ذلك أن بها بئر خالد بن الوليد ، الذى أقام عليه وشرب منه فى طريقه لمحاربة مسيلمة الكذاب ، فقد فاتنى أن أقول لك اننا قد دخلنا الآن حدود اليمامة ، بل ان المرحلة التالية لنا ستكون فى الجبيلة بلدة مسيلمة الكذاب بالذات •

ما أروع الذكرى ! هنا اذن أقام خالد بجيوش المسلمين قبل أن ينهض لقتال مسيلمة ، وهل كان يمكن أن يجد منزلا خيرا من هذا المنزل يشرب منه ويرتوى ، ويستعد لخوض المعركة الكبرى الفاصلة فى تاريخ الاسلام والعالم ، ولعلنا لا نجد لها معركة تشبهها فى صدر الاسلام الا معركة بدر ، حيث كانت فاصلا بين عهد وعهد ، وهذه المعركة الثانية والتى تعلق فيها مصير الاسلام مرة أخرى فى كفة المقادير ، فقد مات الرسول وانتفض العرب وارتدوا ، وهذا هو مسيلمة الكذاب قد اجتمعت به بنو حنيفة وأشد قبائل الجزيرة وأقواها عددا وعدة ، فلو قد هزم خالد بالحفنة القليلة من المسلمين معه فما الذى كان يحدث ؟ لم يكن هناك الا نتيجة واحدة وهى أن تجرف جموع مسيلمة التى أسكرها النصر طريقها حتى المدينة التى ما كان يمكنها أن تدافع عن نفسها بضع دقائق أمام هذا الجيش اللجب •

حروب الردة

لقد كانت لحظة حبس التاريخ فيها أنفاسه ، ودين الاسلام الكبير لخالد بن الوليد لا يعود لفتوحاته الكثيرة بقدر مايعود الى هذا الموقف ، فقد كان هنا يدافع عن الاسلام ولو خاب فى دفاعه لقضى على الاسلام ، أما معاركه بعد ذلك فقد كان فيها مهاجما فاتحا غازيا ، ولو قد فشل فيها لظل الاسلام مرفوع الولاء ، فليس الاسلام فى نهاية الأمر مبنيا على الغلبة والقوة العسكرية ، ولكنه دين مبادىء وتعاليم • وبعد هزيمة المرتدين ثبتت هذه التعاليم والمبادىء نهائيا ، واستقرت الى الأبد ،

وليس ينال منها بعد ذلك اندحار عسكرى قد يقع هنا أو هناك ، ورحت أعجب لهذا الصبر والجلد الذى امتاز به هؤلاء المجاهدون القدماء فى جزيرة العرب ، فكيف استطاعوا أن يصلوا الى هذا المكان ؟ بعد كم من الزمن ، وكم من المجهود ، وصلوا الى هنا من المدينة ، وها نحن أولاء تسير بنا السيارة بسرعة خمسين كيلو فى الساعة ، ومع ذلك قد احتجنا الى خمسة أيام ، فكم أسبوعا بل كم شهرا احتاجوه ليقطعوا المسافة حتى هنا ، ان المطالع لمعركة اليمامة يعرف أن الدائرة كادت تدور على المسلمين ، ولا عجب فى ذلك لو تم ؛ فمسيلمة ومن معه كانوا يحاربون فى بلادهم وفى عقر دارهم ، أما المسلمون فقد جاءوا من هذا الطرف البعيد ، ومهما يقل فى أنهم معتادون هذه الحياة وأن العربى يقضى حياته فوق فرسه أو فوق جمله مهما يقل ذلك كله فسيبقى هذا المحارب الذى قد قطع ألف كيلو متر فى الصحراء قبل أن يخوض المعركة أقل استعدادا وكفاءة من هذا المحارب الذى يحارب عن مدينته وعن بيته وعرضه وماله ، ولكنه الايمان وأفاعيل الايمان العجيبة ، والتى تظل تعلمنا أن قوة الروح شىء عميق لا تقارن به المادة مهما يعظم أمرها ويجل شأنها .

واذا كان هؤلاء المسلمون الأوائل قد استطاعوا أن يقوموا بهذه الرحلة الى هذا المكان ، وأن ينتصروا ، فهل كان يمكن لجيش بعد ذلك فى أنحاء العالم كله أن يقف أمام قوتهم ، ان أقواما يتصورون أن العرب ليسوا شيئا مذكورا ، ويحاولون أن يصوروا انتصاراتهم فى الحروب الاسلامية على أنها مجرد عمل الهى لا يقوم على الأسباب وغير قابل للتفسير ، مع أن انتصار العرب فى حروبهم مع الروم والفرس شىء طبيعى ومفهوم قام على أسباب مقدرة ، فالعربى بطبعه محارب ومناضل يجيد ركوب الخيل والحرب فوقها ، وقد كانت الخيل فى هذه العصور هى أقوى مراكب القتال ، وكأنها الدبابة فى عصرنا الحديث ؛ والعربى القادر على احتمال شظف الصحراء وقسوتها هو جندى لا يقارن به جندى آخر فى الميدان ، ولكن بأس العرب كان موجها الى أنفسهم يصرفونه

قوة العرب العسكرية

فى سفساف الأمور ، فما أن جاءهم الاسلام بالهدى والايمان الذى وحد صفوفهم وجعلهم على قلب رجل واحد ، وملأ قلوبهم بالعقيدة الصافية حتى تسامى بقوتهم فجعلهم هذا الجيش الذى لم يكن له ند فى العالم من حيث قوته المعنوية والمادية معا .

عند أمير المدينة :

وعدت من جولتى وتأملاتى لأرى قافلتنا الصغيرة وقد تجهزت للمسير ، واتجهنا صوب محطة البنزين نأخذ حاجتنا منه ، واذا برجل يسأل عنا ويقول : أين رئيس مصر الفتاة ؟ ولم يكن سوى عامل اللاسلكى جاء يحمل الى برقية من الأمير سعود ردا على برقيتى له ويرحب بمقدمنا فكان لها وقع عظيم فى نفوسنا ، وظننت فى بادىء الأمر أن خبر البرقية قد تسرب بطبيعة الحال الى أمير المدينة ، وأن ذلك هو السر فى مقدم هذا الشرطى الذى جاء يلهث وقال بمجرد أن رآنا : الحمد لله ، فقد كان يخشى أن نكون انصرفنا من البلدة ، فيؤذى أكبر ايذاء ، ورجانا بعد أن تمالك أنفاسه أن تتجه صوب أمير المدينة الذى ينتظرنا ليرحب بنا ، وبالرغم من أننا كنا على أهبة السير فقد كان من الواضح أننا لا نستطيع الاعتذار ، وانه لابد لنا من الذهاب للرجل للسلام عليه .

برقية من الأمير سعود

وتوجهنا صوب دار الامارة فوجدنا الحركة على ساق وقدم ، وقابلنا الجميع والبشر يطفح على وجوههم ، أما الأمير فقد بدا فى صوته اللهفة والعتاب كيف وصلنا الى البلدة وكدنا أن نخرج منها دون أن نعلمه بشأننا ، وكيف أنه لم يعلم بأمرنا الا من برقية تسلمها من سمو ولى العهد طلب منه فيها أن يرحب بنا نيابة عنه ، وأن يضيفنا ويكرم مثوانا ، وصاح الأمير : يا عيب الشوم وهل نحن فى حاجة الى برقية كى نكرم ضيوف الأمير ، وكم كان مركزى سيكون حرجا لو لم أركم الآن لأقوم نحوكم بواجبى ، والتفت الى مرافقنا وفى صوته عتاب ولوم : كيف تسمح لنفسك أن تحضر القوم الى هذه البلدة دون أن تقصدوا دارى ، فقال له صاحبنا : هون عليك . فان القوم يحبون

البساطة والبعد عن المظاهر ، وحيثما نزلنا لا يأكلون الا على الأرض ولا يأكلون الا معنا ، ولا يطيب لهم الجلوس الا فى أطراف المكان ، ونحن نعرف كرمك وأريحيتك ، وهذا هو الذى جعلنا نهرب من مقابلتك لأننا فى عجلة من أمرنا ، ولابد من الدخول الى الرياض هذه الليلة .

وهنـا صرخ الأمير هذه الليـلة هذا مستحيل وأين حصتنا وأين فرصتنا ؟ وماذا يقول عنا الناس وأين نذهب بوجوهنا وهؤلاء ضيوفنا يمرون علينا فلا نقوم لهم بواجب القرى .

وبدأت أعالج الموقف خوفا من أن يتشبث الرجل بدعوته فيعطل برنامجنا وقد أصبحنا فى لهفة على اتمامه فقلت له ولكننا أيها الأخ العزيز فى كرم جلالة الملك وولى عهده مذ بارحنا مكة ، ولك على عهد الله أننى اذا عدت من هذه الطريق ان شاء الله فلابد أن أنزل فى ضيافتك وأن أقيم عندك ما شئت من الوقت ، وقد سرى ذلك عن الرجل فبدأ يتمالك نفسه ، وبدأت تدور علينا أكواب الشاى والقهوة العربية وتتجاذب أطـراف الحديث ، واستأنفت ضغطى على الرجل كى يطلق سراحنا فقلت له : أليس من عادتكم أن تكرموا ضيوفكم بما يحبـون وتجيبوهم الى كل ما يطلبون ، فأجاب بلى قلت له اذن دعنا نسر الليلة وسأعتبر ذلك منك هو قمة الكرم ، فأسقط فى يد الرجل وقال سأسمح لكم بالسفر على شروط . أولها : أن تحقق هذا الوعد الذى وعدتنى اياه . من أن تقيم عندى فى عودتك ، والثانى : أن تعتذروا لى عند الأمير ، وأن تشرحوا له أننى لم أدعكم الا لأنه فى انتظاركم ، فقلت له لك ذلك ، وفى جلستنا القصيرة مع الأمير وحاشيته جرى لنا حديث وشهدنا تجربة قاسية ، أما الحديث فكان عن امرىء القيس بطبيعة الحال ، واذا بواحد من الجالسين يقول : ان هذه البلدة ليست بلدة امرىء القيس الحقيقى ، وانما هو امرؤ قيس آخر من تميم .. الى آخر هذه القصة التى سمعها فؤاد شاكر من رجل كهذا : فعجبت لهذا الاصرار من أبناء البلدة أو بالأحرى للمثقفين من أبناء البلدة على دفع هذه الحقيقة عن بلدتهم ، كما لو كانت فرية ، وسرعان ما أدركت أن

هذا وضع غير طبيعى ، وأنه دليل جديد على أن هذه بلدة امرىء القيس ، فقد جرت الناس فى كل زمان ومكان على أن يعتزوا بأن تكون بلدتهم ذات صلة بكبير أو عظيم ، فما لهؤلاء القوم يشذون عن بقية سائر العالمين ، وكأن امرأ القيس تهمة من التهم ، فلا تكاد تسأل أهذه بلدته حتى يتصدى لك من يحاول نفى هذه الفرية ، الحق أننى استربت فى شأن هذا النفى ، وجعلنى أشك فى الباعث عليه ، ولم أجد باعثا أكثر من الحذلقة أحيانا والرغبة فى اظهار التفاصح ومخالفة ما أجمع عليه الناس ، وقد وجدنا من المتعالمين الأوربيين من يحاول أن يشك فى وجود كبار الشخصيات التى تواضع الناس على وجودهم ، فهوميروس شخصية خيالية لا وجود لها ، ولما كان هوميروس قديم العهد فالخطب هين ، ولكن عندما يصل الانكار الى جان دارك التى لا تزال آثارها ومخلفاتها ووقائعها ماثلة مكتوبة منقوشة تستطيع أن تدرك أن بعض النفوس قد أولعت بانكار ما أجمع عليه الناس رغبة فى الشهرة أو كما يقولون فى الأمثال « خالف تعرف » •

لماذا يتبرؤون من امرىء القيس

هذا هو تفسيرى لتطوع بعض سكان مرات بنفى أن تكون بلدة امرىء القيس مع رغبة الناس أجمعين فى نسبة امرىء القيس الى هذه البلدة • وثمة تفسير آخر هو رغبة القوم ، الذين يدينون اليوم بدين الاسلام ، أن يبعدوا عن بلدتهم نسب هذا الشاعر الجاهلى ، الذى كان أول من حمل لواء الأدب المكشوف فى العالم على ما يظهر •

صقر :

أما التجربة التى شهدناها فى حضرة أمير مرات فخاصة بالصقر واستعماله فى الصيد والقنص ، ومن عجيب الموافقات أننى كنت قد حدثت الغندور فى اليوم السابق عن الصقر وكيف يستعمله العرب فى الصيد والقنص فيطلقونه خلف الفريسة فيعود بها ، وقد عجب الغندور لذلك أشد العجب • ولم نكد ندخل الى حضرة الأمير حتى هاله أن يرى من بين حاشية الأمير رجلا عملاقا يحمل على يديه صقرا ضخم الحجم مخيف

الشكل ، وقد كان الرجل يجلس قبالة الغندور فكان دائم القلق من هذا الصقر الذى يقف على بعد بضعة أشبار منه ، وكان طبيعيا أن نخوض فى حديث الصقر وخصائصه ، وكيفية تدريبه وتعليمه ، فكان مما قيل لنا أنه يطير ويتحرك على منظر الدم ، وبينما كان صاحب الصقر يقول لنا ذلك ، اذا به يبعد الصقر عنه ثم يخرج سكينا من جيبه وقبل أن نستطيع فهم ما سيعمله بهذا السكين اذا به يجرح يده فتنبثق منها نقطة من الدم ، لا يكاد يلوح بها الى الصقر حتى يثب ليعود اليه ويقف على يده الثانية التى ارتدى فيها قفازا من الجلد المقوى لتكون بمثابة محط للصقر حتى لا تؤذى مخالبه يد الرجل •

مرت هذه التجربة فى لحظات خاطفة ، فلم نتمكن من الاعتراض عليها ، فهذا هو الرجل يجرح نفسه ليدخل السرور الى أنفسنا برؤية الصقر وهو يثب ويقفز الى يده ، ولك أن تضحك علينا ما شئت وقد أصابنا من الفزع من رؤية جرح الرجل ما لم يشعر به وهو المجروح ، ولقد جعلنا ذلك المنظر ندرك مرة أخرى أننا فى جزيرة العرب بل وفى قلب الجزيرة ، وأننا يجب ألا ندهش لهذا الذى نراه •

نحو الجبيلة :

وجاءت اللحظة التى غادرنا فيها مرات ، وقد أضاعت علينا جلسة الأمير بقية ضوء النهار ، فلم نبارح مرات الا بعد غروب الشمس ، ولذلك كانت رحلتنا من أولها الى آخرها فى ظلام الليل ، والمسافة بين مرات وبين الرياض ١٦٠ كيلو مترا ، ولقد أفهمنا أمير مرات أننا سنقصد الرياض مباشرة كى يسمح لنا بالسير ، ولكننا آثرنا أن يكون مبيتنا فى الجبيلة والمسافة بينها وبين الرياض تجعلها على أعتابها ، وذلك رغبة منا أن لا ندخل الرياض الا فى وضح النهار •

ولست بقادر أن أقول هذه المرة أن سيارتنا قد انطلقت ، فقد تغيرت طبيعة الطريق تغيرا تاما فأصبح طريقا جبليا وعرا ، ولا جدال أن هذا القسم من مراحل الطريق هو أشقها على الاطلاق ، وقد زاد الليل فى

مشقته ، وضاعف شعورنا بأن هذه هى آخر مراحل الطـريق فى توتر أعصابنا ، فلا عجب أن قفز موضوع الجن على ألسنتنا ، وأصبح هو مدار الحديث ، وقد بدأه سائقنا عندما رأينا نارا عن بعد فى بعض جنبات الطريق ، فقال لنا ان هذه النار من عمل عفريت يريد أن يضلل السائقين ، وبدأ يقص تجاربه وما سمع من حوادث وقعت لبعض زملائه السائقين لقوا فيها حتفهم •

وقد جعلت همى أن أستمتع بهذا الحديث حتى نهايته ، فسـايرت صاحبنا فى تفكيره ورحت أستزيده من هذه الحوادث والقصص ، وبدأت أتظاهر بالتخوف من خديعة العفاريت لنا ، وكانت تلوح على جانـبى الطريق من حين لآخر بعض الأنوار والنيران ، ولا جدال فى أن هـذه النيران كان يشعلها بعض الأعراب المتنقلين فى البادية ، فنحن الآن فى قلب نجد والحركة على قدم وساق بين قراه ومختلف مناطقه ، ولا يزال البدوى يمتطى جمله للقيام بهذه الرحلات ، ولـكننى استغللت هذه النـيران لأداعب صديقنا السائق الذى بدأنا نحبه الحب كلهَ ويحبنا ، فكنت ألفت نظره اليها وأنها ليست سوى أمازيح الجن ومكايدهم ، ولم يلبث دبيب الخوف أن دب الى نفسى بالفعل لا من الجن ولكن من اللصوص وقطاع الطريق ، ترى لو اعتدى علينا الآن فمن يسمع أو من يغيث وكيف يمكن أن ندافع عن أنفسنا ، لقد كانت الظلال تحيط بنا وليس سوى طريق تزحف فيه السيارة ، ولكن الصخور والهضاب والأكمات تحيط بنـا ؛ ومن خلف أى صخرة من هذه الصخور قد تنطلق رصاصة ، وفى أى منحنى من هـذه المنحنيات قد يوجـد كمين ، ألحق أن الوحشة كانت تتملكنى ثم يخفف منها أننا فى عهد ابن السعود وأيامه ، حيث أمنت سبل الجزيرة وطرقها ، وأصبح حديث الأمن فيها أعجب العجب ، لقد أصبحت هـذه الجزيرة آمنـة كأعظم ما كانت فى أى يوم من الأيام ، وتمضى السنون تلو السنين منذ استتب الأمن لعبد العزيز آل سـعود من دون أن يقع حادث ذو بال ، يا لها من معجزة ! ويا له من شىء منقطع النظير !

معجزة الأمن الشامل

كانت هذه الفكرة وحدها هى التى تهدىء روعى ، والسيارة تصعد وتهبط وترتطم بالأرض الصخرية ، وظلال التلال والجبال تناوشنا وتحلولك حينا وتتضح حينا آخر ، ولم يكن هناك ما يريحنا فى كل ذلك الجو الا أن نرى السيارة تسير وبسيرها تقطع الطريق وتقترب من غايتنا .

عيينة :

وأخيرا تراءت لنا فى ظلمات الليل قرية لم نجد فيها ضوءا ولا حركة ، وقيل لنا انها العيينة ، ولم نقف عندها ولم يقل لى مرافقى عنها شيئا ، جاهلا انها الاسم المدوى فى تاريخ نجد لما اقترنت به من اسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ذلك المصلح الدينى الكبير الذى نسب اليه النجديون فسموهم بالوهابيين ، ان محمد بن عبد الوهاب لم يأت بمذهب جديد وهو فى حقيقته لم يكن الا مصلحا دينيا من هؤلاء الذين يبعث الله بهم من حين لآخر ليحاربوا الفساد الذى استشرى وليبددوا الظلمات والشكوك والأوهام ويردوا الناس الى الجادة ودين الحق دين الخير والاستقامة .

هذه هى العيينة حيث ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى كتب لجزيرة العرب تاريخها الحديث .

تاريخ الحركة الوهابية

- ٣ -

كان محمد بن عبد الله هو أول من أحدث ثورة فى جزيرة العرب لم تلبث أن انتشرت من الجزيرة حتى عمت الآفاق ، وما هو الا قرن من الزمان حتى عادت جزيرة العرب الى سابق عهدها فلم يعد لها شأن يذكر ، باستثناء منطقة الحرمين الشريفين حيث ظلا مقصد المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها لأداء فريضة الحج والزيارة ، أما باقى أجزاء الجزيرة فقد عادت بالتدريج الى سابق العهد لا أهمية لها ولا خطر ، تسكنها قبائل تتعادى حينا وتتصالح حينا آخر ، يعيش بعضها على الزراعة المحدودة والبعض الآخر — وهو الفريق الأكبر — على الرعى ، ويعيشون جميعا على النهب والسلب ، تارة يغير هذا الجانب فيسلب ما عند الآخرين ، وتارة يغير الطرف الآخر فيسترد ما سلب منه فى يوم من الأيام بالأرباح المركبة وهكذا دواليك .

وليس لما كان يجرى فى داخل جزيرة العرب تاريخ يتتبع ذو قيمة أو ذو غناء ، ولكننا اذا رجعنا الى القرن الثانى عشر الهجرى وجدنا بعض المؤرخين النجديين كابن بشر وابن غنام يحدثوننا عما وقع فى أيامهم وشاهدوه بأعينهم ، وما كتبوه يصور لنا أن قلب الجزيرة قد نكس على رأسه ، وعاد الى أيام الجاهلية الأولى ، وسادت الهمجية والبربرية ، فالعلماء يقتلون لا لذنب الا لأنهم علماء ، ثم لا يكتفى بقتلهم بل يعذبون أشد العذاب ، فأهل احدى القرى بعد أن فتكوا بمن عندهم من العلماء ؛ عمدوا الى عالم جليل مكفوف البصر وقتلوه ثم صلبوه منكسا ، ووضعوا الحبل فى رجليه وأدلوا رأسه الى الأرض وفيه رمق يتردد ، وليس لهذه القسوة من تعليل الا انتزاع كل أثر من آثار الايمان أو العلم من قلوبهم ؛ فالمرأة العقيم تطوف بحجر أو شجر أو قبر وتتقرب لها بالقرابين فتذبحها ثم تتمسح بدم الذبيح كى ترزق بالولد ، والتاجر يبخر دكانه بظفر حيوان ووبره استجلابا للرزق ودفعا للحسد ، وأصبح التداوى لا سبيل له الا ارضاء الجن بالذبح لهم ووضع الطعام لهم فى زوايا البيوت استجلاب رضاهم ، وليس مَن يجرؤ بتبصير الناس بما هم فيه من وهم وضلال ، فقد قتل أو ذبح كل من حدثته نفسه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

عود الى الجاهلية

فى وسط هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب ، وكانت ولادته فى عام ١١١٥ هـ الموافقة ١٧٠٢ م أى منذ قرنين ونصف قرن تقريبا ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضى بلدة العيينة ، وكان شيخا عالما جليل القدر ، فقرأ محمد بن عبد الوهاب على أبيه الفقه ، وسرعان ما ظهرت عليه علائم النجابة ، فكان دائم المطالعة فى كتب التفسير والحديث وكلام العلماء فى أصل الاسلام ، وبدأ يدرك على الفور ما تردت فيه البادية من همجية وردة عن دين الاسلام ، وبدأت تجيش نفسه بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هذه الحال ؛ فلما بلغ من العمر عشرين ربيعا بدأ يستخدم فصاحته وعلمه فى مناقشة أنداده وأضرابه ، بل ومن هم أكبر منه سنا فى فساد الحال ، فلم يجد

محمد بن عبد الوهاب المصلح

منهم أذنا صاغية خوف بطش العامة وطغيانهم ، بل على العكس لم يجد منهم الا الهزء والسخرية بمحاولاته الفاشلة والتى وصفوها بالطائشة ، فما هو الا أن ضاقت به العيينة فانتهز فرصة موسم الحج فشد الرحال الى مكة ، فلما قضى حجه سار منها الى المدينة ، وهناك قيض له أن يلتقى ببعض العلماء الأجلاء الذين وجد عندهم شفاء ما فى نفسه وموافقته لما فى فكره من وجوب انكار ما عليه مواطنوه فى البادية من بدع ومنكرات ، فعاد مرة ثانية الى نجد ، ولكن حظه هذه المرة لم يكن بأوفر من حظه قبل سفره منها ، فرأى أن يهاجر الى الشام ، فاستقر فى طريقه اليها باحدى قرى مدينة البصرة ، ولكن لم يكد يعرف عنه أفكاره عما تفشى بين المسلمين من تمسك بالبدع والضلالات وتوسل بالأولياء وتمسح بقبورهم ، حتى اجتمع عليه رؤساء البصرة وعامتهم فأخرجوه منها فى يوم شديد الحر وليس معه ما يمتطيه سوى قدميه ، ولا من غذاء ولا شراب ، وتوعدوه بالموت لو هو عاد الى المدينة ، فلم يسعه الا أن يرحل الى بلدة الزبير فكاد يهلك فى الطريق من شدة العطش لولا أن قيض الله له من أنقذه ، واذا كانت بلاد الأرض كلها قد تساوت فى اظهار العداوة والبغض للشيخ ، فقد اعتزم أن يعود الى نجد مرة أخرى ، وبعد صعوبات ومشقات جديدة استقرت به النوى مرة أخرى فى بلدة العيينة بعد أن تعاهد مع رئيسها عثمان بن حمد بن معمر على أن ينصره ويحميه ويساعده على محاربة الضلالات والأوهام ، وتعليم الناس التوحيد وتطهيرهم من أدران الشرك ، فتلقاه الرجل بقبول حسن ، وأصهر اليه فتزوج الجوهرة بنت عبد الله بن معمر ، وبدأت أحواله بذلك تستقيم ويشتد ساعده ، فانتقل من مرحلة الانكار بالقول واللسان الى الانكار باليد ، فكان فى العيينة أشجار تعظم ويعلق عليها العرب تقديسا لها وتكريما وتعبدا ، فبعث الشيخ الى هذه الأشجار من يقطعها سرا فقطعت.

مطاردة الشيخ واضطهاده

وكان فى البلدة شجرة كبيرة هى أعظمها قدرا ، خاف الجميع أن يقربوا منها ، فخرج لها بنفسه سرا ليقطعها ؛ فوجد عندها راعى غنم أهل

البلد ، فأراد أن يمنعها منه فأغراه الشيخ بأن أعطاه بعض ملابسه التى يرتديها ، فخلى الرجل بينه وبينها فقطعها ، فلما لم يصب بشىء ، بدأ أمره يشتد ويقوى ، فتجمع حوله على ما يقول ابن بشر مؤرخ نجد سبعون رجلا ، من بينهم بعض رؤساء المعامرة ، وعاهدوه على أن يكونوا معه يدا واحدة على محاربة المنكرات والبدع ، •

محمد بن عبد الوهاب يبدأ الجهاد

وانى أدع القول الآن لابن بشر ليحدثنا عن تاريخ تطور حركة محمد ابن عبد الوهاب بعد ذلك فى أوجز عبارة وأبلغها وأصدقها • قال :

« ثم ان الشيخ أراد أن يهدم قبة قبر زيد بن الخطاب رضى الله عنه التى هى عند (الجبيلة) فقال لعثمان بن معمر : دعنا نهدم هذه القبة التى وضعت على الباطل وضل بها الناس عن الهدى ، فقال دونك فاهدمها ؛ فقال الشيخ أخاف من أهل الجبيلة أن يوقعوا بنا ولا أستطيع هدمها الا وأنت معى ، فسار معه عثمان بنحو ستمائة رجل ، فلما قربوا منها ظهروا عليهم أهل الجبيلة يريدون أن يمنعوها ، فلما رآهم عثمان علم ما هموا به فتأهب لحربهم وأمر جموعه أن تنعزل للحرب ، فلما رأوا ذلك كفوا عن الحرب وخلوا بينهم وبينها ، ذكر لى أن عثمان لما أتاها قال للشيخ : نحن لا نتعرض لها ، فقال : اعطونى الفأس فهدمها الشيخ بيده ، حتى ساواها ثم رجعوا ، فانتظر تلك الليلة جهال البدو وسفهاؤهم ما يحدث للشيخ بسبب هدمها ، فأصبح فى أحسن حال » •

رجم الزانية :

وبعد ذلك أتت امرأة الى الشيخ واعترفت عنده بالزنى والاحصان ، وتكرر منها الاقرار ، فسأل عن عقلها فاذا هى صحيحة العقل ، فقال لها لعلك معطوبة فأقرت واعترفت بما يوجب الرجم فأمر عليها فرجمت ، فعظم أمره بعد ذلك وكبرت دولته ، وفشا التوحيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولما صدرت منه هذه ، أعنى رجم المرأة ، اشتهر أمره فى الآفاق ، فبلغ خبره سليمان بن محمد قائد الاحساء والقطيف وما حوله من العربان ، وقيل له : ان فى بلدة العيينة عالما فعل كذا وكذا ، فأرسل

الأمير يأمر بقتل الشيخ

سليمان الى عثمان كتاباوقال ان هذا المتطوع الذى عنـدك فعل كذا وكذا ، وتهدد عثمان وطلب منه أن يقتل محمد بن عبد الوهاب ، وقال له : فان لم تفعل قطعنا خراجك الذى عندنا فى الاحساء ، وخراجه عندهم كثير قيل لى انه اثنا عشر مائة أحمر وما يتبعها من طعام وكسوة ، فلما ورد كتابه على عثمان بن معمر لم يسعه أن يخالفه ، واستعظم أمره فى صدره ، فأرسل الى الشيخ وقال له : انه أتانا خـط من سليمان قائد الاحساء وليس لنا طاقة بحربه ولا اغضابه ، فقـال له الشيخ : ان هذا الذى قمت به ودعوت اليه كلمة لا اله الا الله وأركان الاسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فان أنت تمسكت به ونصرته فان الله سبحانه يظهرك على أعدائك ، فلا يزعجك سليمان ولا يفزعك ، فانى أرجو أن ترى من الظهور والتمكين والغلبة ما ستملك بلاده وما وراءها وما دونها ، فاستحيا عثمان وأعرض عنه ، ثم تعاظم فى صدره أمر صاحب الاحساء وباع الآجل بالعاجل ، وذلك لما فى علم الله سبحانه وتعالى الذى يعـلم السر وأخفى ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، ان نصر هذا الدين والظهور والغلبة والتمكين يكون لغيره وعلى يد غيره ، فأرسل الى الشيخ ثانيا وقال ان سليمان أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنـا بحربه ، وليس من الشـمم والمروءة أن نقتلك فى بلادنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا ، فأمر فارسا عنده يقال له الفريد مع خيالة معه منهم طوالة الحمرانى ، وقال : اركب جوادك وسر بهذا الرجل الى ما يريد ، فقال الشيخ : أريد الدرعيـة ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى راجلا أمامه ، وليس معه الا المروحة وذلك فى غاية الحر فى فصل الصيف ، فقال ابن معمر لفارسه اذا أنت وصلت الى أخيه يعقوب فاقتله عنده ، وكان يعقوب هذا رجلا صالحا قتل ظلما بين الدرعية والعيينة ، وجعل فى غار جبل هنـاك على قارعة الطريق ، فسار الفارس والشيخ أمامه وهو لا يلتفت ويلهج بقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، والفارس لم يكلمه ، فلما هم

طرد الشيخ من العيينة

بقتله كف الله عنه يده وأبطل كيده ، وقذف الله سبحانه فى قلبه الرعب حتى ما استطاع أن يمشى قدما ، فحرف جواده وانصرف الى العيينة ، وقال لعثمان انه أصابنى رعب عظيم حتى خفت على نفسى •

وأما الشيخ فانه سار الى الدرعية فوصل الى أعلاها وقت العصر ، فقصد الى بيت محمد بن سويلم العرينى ، فلما دخل عليه ضاقت عليه داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود ، فوعظه الشيخ وأسكن جأشه ،وقال سيجعل الله لنا فرجا ومخرجا • فعلم به خصائص من أهل الدرعية ، فزاروه خفية فقرر لهم التوحيد واستقر فى قلوبهم ، فأرادوا أن يخبروا محمد بن سعود ويشيروا عليه بنصرته فهابوه ، فأتوا الى زوجه معرض بنت أبى وهطان وكانت ذات عقل ومعرفة ، فأخبروها بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهى عنه ، فوقر فى قلبها معرفة التوحيد وقذف الله فى قلبها محبة الشيخ ، فلما دخل عليها زوجها محمد أخبرته بمكانه ، وقالت ان هذا الرجل أتى اليك وهو غنيمة ساقها الله لك فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها وألقى الله سبحانه فى قلبه للشيخ المحبة ، فأراد أن يرسل اليه ، فقالوا سر اليه برجلك فى مكانه ، وأظهر تعظيمه والاحتفال به ، لعل الناس أن يكرموه ويعظموه ، فسار اليه محمد فدخل عليه فى بيت ابن سويلم ورحب به وقال : أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة ، فقال الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة (لا اله الا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد وهى كلمةالتوحيد ، وأول ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم ، ثم أخبره الشيخ بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دعا اليه وما عليه أصحابه رضى الله عنهم من بعده ، وما أمروا به وما نهوا عنه ، وأن كل بدعة بعدهم ضلالة وما أعزهم الله به بالجهاد فى سبيل الله وأغناهم به وجعلهم اخوانا ، ثم أخبره بما عليه أهل نجد اليوم من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى والبدع والاختلاف والجور والظلم ، فلما تحقق محمد بن سعود معرفة التوحيد وعلم بما فيه من المصالح الدينية والدنيوية ، قال له : يا شيخ ان هذا دين الله ورسوله

التجاء الشيخ الى السعوديين

الذى لا شك فيه ، وابشر بالنصرة لك ولما أمرت به ، والجهاد لمن خالف التوحيد ، ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين ، نحن اذا أقمنا فى نصرتك والجهاد فى سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان ، أخاف أن ترتحل عنا وتستبدل بنا غيرنا ، والثانية أن لى على الدرعية قانونا آخذه منهم فى وقت الثمار ، وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئا ، فقال الشيخ أما الأولى فابسط يدك ، الدم بالدم والهدم بالهدم ، وأما الثانية فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير منها ، ثم ان محمدا بسط يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ، واقامة شرائع الاسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقام الشيخ ودخل معه البلد واستقر عنده فتسلل اليه شيعته الذين فى العيينة ومن ينتسب الى الدين ومعهم أناس من رؤساء المعامرة معاكسين لعثمان بن معمر وهاجروا الى الدرعية وأناس ممن حولهم من البلدان لما علموا أن الشيخ استقر ومنع ونصر .

محالفة وانتصار

ولما استوطن الشيخ الدرعية وكانوا فى غاية الجهالة وما وقعوا فيه من الشرك الأكبر والأصغر ، والتهاون بالصلاة والزكاة ورفض شعائر الاسلام فتخولهم الشيخ بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم أمرهم بتعلم معنى (لا اله الا الله) وانها نفى واثبات (فلا اله) تنفى جميع المعبودات (والا الله) تثبت العبادة لله وحده لا شريك له ، ثم أمرهم بتعلم ثلاثة الأصول : وهى معرفة الله تعالى بآياته ومخلوقاته الدالة على ربوبيته ، كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما عليها من الأدلة من القرآن ، ومعرفة الاسلام وأنه تسليم الأمر لله وهو الانقياد لأمر الله ، والانزجار عن مناهيه ، ومعرفة أركانه التى بنى عليها ، وما عليها من الأدلة من القرآن ومعرفة النبى صلى الله عليه وسلم واسمه ونسبه ومبعثه وهجرته ، ومعرفة أول ما دعا اليه وهى (لا اله الا الله) ، ثم معرفة البعث وأن من أنكره أو شك فيه فهو كافر ، وما على ذلك من الأدلة من القرآن ، ومعرفة دين محمد صلى

رسالة التوحيد

الله عليه وسلم وأصحابه وهو التوحيد ، ودين أبى جهل وأتباعه ، وهو الشرك بالله تعالى •

فلما استقر فى قلوبهم معرفة التوحيد بعد الجهالة أشرب فى قلوبهم محبة الشيخ ، وهاجر اليه الناس من كل فج عميق • انتهى •

تلك هى قصـة الشيخ محمد بن عبـد الوهاب كما بدأت والتى لم تكمل حتى الآن فلا يزال أحفاد سعود ومحمد ابنه يحملون لواء التوحيد وينافحون عنه ، واذا كان العالم الاسلامى كله اليوم تحت تأثير النور والعرفان قد بدأ يدرك بفطرته هذا الذى دعا اليه محمد بن عبد الوهاب ويميل اليه ويتعشقه ، فسيظل التاريخ يسجل الفضل لآل سعود الذين كانوا أول من نصره واستجاب له ، واحتملوا فى سبيل ذلك ما احتملوه من عنت ومن ارهاق ، مما سنعرض له فى الفصول المقبلة •

نحو الجبيـلة :

كانت سيارتنا لا تزال تسير متجهة صوب الجبيلة ، حيث قررنا أن نبيت الليل وأخيرا وبعد لأى وصلنا اليها ، وحدث عن سعادتنا بهذا الوصول ، فهى آخر مراحل الطريق ، ولن يكون أمامنا فى الصباح الا رحلة قصيرة جدا ، ندخل بعدها الرياض حيث الأمير الرابض فى وكر أبيه •

وليست الجبيلة سوى مدينة مسيلمة الكذاب ، ونحن هنا الآن فى وادى ضبعة حيث دارت معارك اليمامة الشهيرة ، التى كادت تدور الدائرة فيها على المسلمين ، ولو قد حدث ذلك لعفى على آثار الاسـلام ، ومع ذلك فقد مات من المسلمين فى هذه المعركة ما لم يمت منهم فى أى معركة أخرى من المعارك السابقة أو اللاحقة ، وكان جل الموتى من صـحابة رسول الله ومن بين القراء منهم ، ولذلك فقد كانت هذه الكارثة هى السبب المباشر لاشارة عمر بن الخطاب على أبى بكر أن يجمع القرآن وأن يجعله فى كتاب واحد خوفا عليه من الضياع والاندراس ، ولا تزال آثار قبور الصحابة قائمة فى الجبيلة شاهدة على ما لهذا الموقع من أثر عميق فى تاريخ الاسلام •

المتنبئون الكذبة :

ولست أحسبنى فى حاجة الى الاسهاب فى تعريف القارىء بتفاصيل قصة مسيلمة الكذاب وموقعة اليمامة ، فهو واحد من هؤلاء الذين تنبأوا بعد وفاة رسول الله ، وقد ظنت قبائل العرب المختلفة أن النبوة ليست سوى شىء يدعى ، فقام فى كل قبيلة من ادعى النبوة وظاهره قومه على دعواه ، حتى لا تنفرد قريش بهذا الشرف من دون العرب ، ولم يقف الأمر عند حد الرجال ، بل تعداهم الى النساء ، فتنبأت سجاح بنت الحارث من بنى تغلب بالجزيرة ، وقد انتصرت على عدة قبائل حتى اشتدت شوكتها ، وقيل ان الحرب أوشكت أن تقع بينها وبين مسيلمة لولا أن عقد الصلح بينهما على الزواج فى بعض الروايات ، وعلى أن يؤدى اليها خراجا فى روايات أخرى ، والمهم فى هذه القصة أنها تظهر الهوان الذى كان قد تردى فيه مركز النبوة ، حتى أصبح نهبا لكل كاذب ودجال ، والمطالع لكتب التاريخ المفصلة لما جرى فى هذه الأيام يرى المعجب والمطرب من سخافات هؤلاء المتنبئين بل ان من الروايات ما صور لنا التقاء سجاح بمسيلمة تصويرا مزريا ، بلغ من الاسفاف الى درجة يعف الانسان عن ذكرها ، ولا جدال أن هذه الروايات قد وضعها المسلمون الحانقون على هؤلاء الكاذبين المرتدين ، ولكنها تدل على مدى الفوضى التى انتابت الجزيرة بعد موت رسول الله ، والذى يعنينا الآن من شأن مسيلمة أن بنى ضبعة قد التفوا حوله وهم قوم شداد أصحاب قتال وطعان فاشتد أمره وغلظ ، الى أن جاءه خالد بن الوليد فيمن جاء به من جيوش المسلمين ، فدار قتال بين الفريقين فكان سجالا ، واستشهد من المسلمين ما يقرب من الألف جلهم من الصحابة والقراء ، وعلى رأسهم زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وسالم مولى أبى حذيفة وهو من قال عنه عمر بن الخطاب عند وفاته : انه لو كان حيا لعهد اليه بالخلافة ، ومات كثيرون غيرهم من الأعلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان يأذن للكذاب بالانتصار ، فسرعان ما دارت الدائرة على الكاذبين ، فمات منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومن الروايات ما يضاعف

قصة مسيلمة الكذاب

حديقة الموت

هذا العدد ، وكان الجزء الأكبر من موتاهم فى داخل حديقـة انحازوا اليها وأغلقوا الباب عليهم،ولكن البراء اقتحم عليهم سور الحديقة بمفرده واستطاع أن يفتح الباب للمسلمين ، فدخلوا عليهم الحديقة وأوقعوا بهم وقيعة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العرب ولم يلحقها شبيه ، فقـد قتلوا داخل هذه الحديقة سبعة آلاف قتيل ، حتى لقد أطلق التاريخ على هذه الحديقة بحق حديقة الموت •

وقد كان مسيلمة الكذاب أحد الذين انحازوا الى الحديقة فقتـله وحشى مولى جبـير بن مطعم فقذفه بحربتــه قذفته المشهورة ، فتردى مسيلمة مذموما مدحورا ، وانهو الا أن مات مسيلمة الكذاب حتى استسلم بقية قومه فوضعت الحرب أوزارها ، وهكذا ضرب وحشى ضربة فى سبيل الله تعوض ضربته فى سبيل الشيطان فقد كان وحشى هو الذى أصمى فى يوم أحد قلب المسلمين ، وفجع الرسول بمقتل حمزة سيد الشهداء ، ولقد تألم الرسول لمقتل حمزة أشد ما عانى من ألم ، وتوعد وأنذر : لو أمكنــه الله من المشركـين ومن قاتــل حمــزة بالذات ، ليوقعن بهم وقيعة وليمثلن بهم تمثيلا ، ولكن عندما أظفره الله وأصبح قادرا على آل مكة اذا به يعفو ويصفح ويشمل عفوه وحشيا نفسه ، فبالرغم من أن الرسول استثناه من العفو ، نرى أن الرجل لم يكد يجيئه مسلما حتى عصم منه ماله ونفسه ، ولا عجب فى ذلك فمحمد بن عبد الله لم يكن فى نهاية الأمر ملكا ولا مؤسس دولة ، ولم يكن زعيما ولا قائدا حربيا ، وانما كان نبيا هاديا فمن أسلم وآمن به عصم منه ماله ونفسه ، والاسلام يجب ما قبله ، وكان وحشى قد عاش بعد ذلك بقية عمره لا يعرف كيف يكفر عن فعلته فى مقتل حمزة ، ومن شاء أن يعرف عظمة الانقلاب الذى أحدثه الاسلام فى نفوس العرب فما عليه الا يذكر كيف عاش وحشى آمنا بمجرد أن أعلن اسلامه ، ولم يخرج من بنى هاشم أو من متحمسى المسلمين عامة من يقتله أخـذا بالثأر واشفاء للغليل ، وظهـرت معجزة سيدنا محمد فى حقنه دم وحشى بعد اسلامه ، عندما جاء يوم اليمـامة

وحشى يقتل مسيلمة

فكان وحشى بحربته هو الرجل الذى طهر الأرض من هذا الاثم الكذاب •

ليلتنا فى الجبيلة :

هذه الجبيلة وما تثيره فى النفس من قصة مسيلمة وتاريخه ، والعجيب أن ليلتنا فى هذه البلدة قد اختلفت عن ليالينا التى أمضيناها فى الطريق منذ خرجنا من مكة ، فقد بتنا جميع ليالينا فى قصور ودور مبنية ، وكان الجو جميلا وممتعا ، حتى اذا جئنا الجبيلة لم يكن هناك مكان لنبيت فيه، فرأينا أن ننصب ما معنا من خيام لأول مرة ، وكان الجو باردا شديد القر والرياح عاصفة تأبى الا أن تنفذ ببردها الى داخل العظام • ليلة باردة

وبعد جهد وعناء شديدين أمكن اقامة الخيام أو بالأحرى السرادقات ، ونصبت فى داخلها الأسرة ، ووضعت عليها الفرش الوثيرة ، وفرشت الأرض بالسجاجيد ، ولكن البرد بلغ من الشدة الى درجة لم تنفع فيها كل البطاطين التى أعطيت لنا ، فاستخدمت السجادة لتكون غطاء فوق الأغطية ، ومع ذلك فقد ظل نوم الانسان متقطعا لشدة البرد بسبب هذه الريح الباردة التى كانت تنفذ من كل شىء وتتسرب الى كل شىء •

على أن الفجر قد جاء فى النهاية يحمل معه الرحمة والنجاة ، فقد أذن مؤذننا لصلاة الفجر فقمنا للصلاة ، ثم شرع اخواننا على الفور فى هدم الخيام ، بل لم نكن فى حاجة لانتظارهم ريثما يفرغون من هذه العملية ، فباستطاعتهم أن يلحقوا بنا على مهلهم ، وان هو الا أن أشرقت الأرض بنور ربها ، وشربنا بعض الشاى الساخن ليحدث لنا بعض الدفء حتى انطلقنا فى سيارتنا بودنا لو تنهب الأرض نهبا ، لنجتاز ما بقى لدينا من الطريق ، ولم يكن قد بقى أمامنا الا ساعة من زمان أو ما هو أقل من الساعة •

خرائب الدرعية :

لم يكن هناك ما يشغلنى والسيارة تقترب من الرياض ، الا ما نحن

العهود والمواثيق أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله • وقد أعطى الشريف غالب العهد على نفسه حرصا على منصب الامارة ، ولكنه لم يف بما عاهد عليه ، بل راح يكاتب السلطان محمود ويستعديه على سعود ويخوفه على ملكه من أطماع سعود ، ويذكره بأن خطوته الثانية ستكون هى الانقضاض على الشام والعراق خاصة ، وقد غلب سعود على بادية الشام والعراق بالفعل ، ويأخذ الشيخ حافظ وهبة فى كتابه جزيرة العرب على سعود الكبير اشتطاطه الكبير فى معاملة المصريين والأتراك ، وكيف حال بينهم وبين أداء فريضة الحج فترة طويلة من الزمن بدعوى ما فى ركب المحمل المعتاد من بدع وضلالات •

تولية محمد على على الحجاز

وكيفما كان الأمر فقد اسرع السلطان محمود الخليفة العثمانى ، الذى كان يستمد سلطانه الروحى من كونه زعيم المسلمين وحامى الحرمين ، الى محمد على يستعين به على حرب سعود واعادة الحجاز الى سلطان الخليفة الروحى ، فأصدر الى محمد على فرمانا بتوليته الحجاز فى سنة ١٢٢٢ هـ • ولكن محمد على لم يتحرك الى غزو الحجاز الا بعد ذلك بأربع سنوات كاملة بعد أن فرغ من المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة ، وبعد أن أكمل استعدادات الحملة المصرية المسافرة الى الحجاز بما فى ذلك صنع المراكب والسفن اللازمة لنقلهم • وسارت الحملة فى عام ١٢٢٦ بقيادة طوسون بن محمد على فوصلت الى المدينة أول ما وصلت ، ولكنها لم تلبث أن أبيدت فلم ينج منها الا عدد قليل ، ولكن النجدات أسرعت من مصر لنجدة طوسون فعاد الى الانتصار على الوهابيين، ودخل الى مكة وتسلم مقاليد الأمور ومفاتيح الكعبة والحجرة الكريمة فأرسلها الى أبيه الذى أرسلها بدوره الى السلطان مع كتاب يبشره بدخول الحرمين من جديد تحت طاعته ، ولكن جيوش سعود لم تلبث أن ضربت الجيوش المصرية ضربة قاصمة عندما حاولت أن تتعقبها فى نجد ، فأسرع محمد على الى الحجاز بشخصه وحج بيت الله الحرام وأعد العدة لاستئناف الهجوم بعد أداء فريضة الحج • وأسرع

دخول طوسون إلى مكة وتسلم مفاتيحها

القدر لنجدته وقد كان نجم محمد على فى هذه الفترة فى صعود فتوفى سعود الكبير فلم يعد الأمر فى حاجة الى بقاء محمد على بنفسه .

موت سعود الكبير

تولى عبد الله بن سعود الكبير الامارة بعد أبيه ولكنه لم يكن فى قدرة أبيه أو قوة شكيمته ولذلك فقد آثر أن يعقد مع طوسون هدنة ، فى وقت كان الجيش المصرى فى أشد الحاجة الى الراحة ؛ فكانت هذه الهدنة على ما يقول بعض المؤرخين بمثابة نجدة الهية للجيش المصرى وتصرف غير حكيم لعبد الله .

ابراهيم يحاصر الدرعية

وعاد طوسون بعد هذه الهدنة الى مصر حيث مات بها ، وأرسل محمد على ابنه ابراهيم مع جيش جرار ، وهذا هو الجيش الذى سار واخترق جزيرة العرب كلها حتى وصل الى الدرعية فحاصرها حصارا مرا دام خمسة أشهر كاملة ؛ ثم لم يلبث أن أصلى الدرعية نارا حامية فهدمها وخربها ؛ فخرج منها عبد الله بن سعود وسلم نفسه لابراهيم حقنا لدماء الناس فبعث به معززا مكرما الى أبيه فى مصر فأرسله أبوه بدوره الى السلطان فى الآستانة . ولكن السلطان كان أقل كرما ونبلا من محمد على فأمر باعدام عبد الله بن سعود وبتخريب الدرعية . وباعدام عبد الله بن سعود طويت صفحة السعوديين الذهبية والتى ظلت مطوية حتى ابتعثها عبد العزيز آل سعود فأعادها أشد ما تكون روعة وبهاء .

قوة جلد الجيش المصري

تلك هى قصة الدرعية وأطلالها لا تزال الى الآن شاهدة على عدة معان وعبر ؛ أول ما يروع فيها هى قوة جلد الجيش المصرى الذى استطاع أن يجتاز هذه الصحارى ، ويعجب الانسان كيف استطاعوا أن يحلوا مشكلة المياه ومشكلة التموين ، وكيف كانت مصر هى قاعدتهم التى منها يتمونون بكل شىء ، فالحجاز ليس فيه شىء يمكن لجيش قوى أن يعتمد عليه .

ولقد حدثتك فيما سبق كيف أننى وقفت مدهوشا أمام جيش خالد ابن الوليد الذى قطع كل هذه المسافة من المدينة حتى الجبيلة ، وها هو ذا جيش مصرى قد استطاع فى العصور الحديثة أن يقطعها وهو يجر أثقالا من الحديد والمهمات الثقيلة ، وهكذا سيبقى القائد فى كل زمان ومكان

هو روح جنده ، فاذا وجد القائد الجبار سارت خلفه الجيوش لتقوم بأعمال الجبابرة •

على أن اعجاب المصرى بهذه القوة الجبارة التى استطاعت ان تذلل الصحراء لا يلبث أن يخالطه الأسف الشديد بل والحزن العميق لوقوع هذه النكبة التى أدت الى اصطراع أخوين وشقيقين فى الدين والله ، بل وفى النهضة • ما كان أحوج المسلمين لسلامة العقيدة الوهابية وسيف الجيوش المصرية لاعادة تجديد شباب الاسلام ، بدلا من هذا الصراع الذى قضى عليهما كليهما ، فخسرهما الاسلام معا • فمحمد على لم يستطع أن يفيد من كفاحه وانتصاراته الرائعة ، لأنه أسرف فيها من ناحية ، ولأنه لم يحاول أن يعتمد على قوة الشعب الروحية من ناحية أخرى ، فلو قد اتخذ تطهير الدين من البدع والخرافات ، وطهر العقيدة الاسلامية مما غشيها من الغواشى ، وتأنى ريثما ينشر العلم ويحارب الجهل ويرفع من كرامة الناس ، اذن لوصل الى نتائج أفضل مما وصل اليها بسياسته العسكرية البحتة ، والتى انتهت بعد ثلاثين سنة بدون أى نتيجة تذكر لمصر أو لمحمد على أو للمسلمين •

مافى اصطدام العسكرين من مأساة

ولذلك فان الانسان يشعر بالأسف والحسرة كما قدمنا أن صدع محمد على بأوامر سلطان تركيا ، واصطدم بالسعوديين ، فلم يكسب من وراء ذلك شيئا ، وحرم الجزيرة مصلحا كبيرا لو لم يبطش بقوته ؛ لواصلت جزيرة العرب نهضتها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم •

لماذا نجح عبد العزيز آل سعود؟

وثمة درس آخر يعجبنى من الشيخ حافظ وهبه أشار اليه فى كتابه ، وهو نعيه على سعود شدة سياسته وقسوتها وتعصبه ، لتنفيذ كل آرائه وأفكاره ، كأنه يعيش فى هذه الدنيا بمفرده ، متجاهلا ما فى هذا العالم من سياسات وتيارات وقوى خارجية ، وهو الدرس الذى وعاه عبد العزيز آل سعود ، فنجح فى تحقيق ما لم يسبقه اليه سابق من آل سعود ، حيث لم يجعل التهور أو التعصب أو تجاهل حرية الآخرين وحقوقهم أساسا لسياسته فى أى يوم من الأيام ، ومن هنا كان نجاحه •

فى رحاب الأمير

- ٤ -

الرياض :

مهما تكن الخواطر التى أثارتها فى نفسى رؤية خرائب الدرعية ، فلم تستطع أن تحجب عن نفسى شيئين : الأول أننى بدأت ألمح رقعا من الأشجار والمزروعات الخضراء واسعة النطاق لا عهد لى برؤيتها من قبل حول الدرعية وفى مسافات متقاربة ، أما الشيء الثانى فهى أننا بدأنا نقترب من مشارف الرياض ، وبدأنا ندرك أن تسمية الرياض بهذا الاسم لم يكن عبثا ، وانما هو اسم انتزع من حقيقة الواقع ، فالرياض ليست الا مجموعة رياض غناء بالفعل ، وأن وادى ضبعة الذى تقع الرياض وضواحيها عند قاعه وباطنه هو من أخصب وديان نجد وبالتالى وديان الجزيرة . الرياض اسم على مسمى

لقد كانت الصدمات التى لا قيناها فى الحجاز بصفة عامة وفى الطائف والطريق اليه بصفة خاصة ، جعلتنا نهيىء أنفسنا لنرى بعض أشجار هنا وهناك يطلق عليها اسم بساتين ، ولذلك فقد كانت مفاجأة جديدة لنا أن نرى ، وقد وصلنا الى نجد ، تغير المنظر وأن البساتين بساتين بالفعل وأن قلب جزيرة العرب فيه من الغياض والرياحين ما يمكن أن يطلق عليه هذا الوصف فى صدق واطمئنان .

فاذا هطلت الأمطار فى فصل الشتاء ، لم يأت الربيع الا وقد ازدهرت وديان نجد بالأعشاب الخضراء الصالحة للرعى ، كأحسن ما يكون المرعى ، ونمت بالتالى الغراس والمزروعات التى يكون أصحابها قد توفروا على زراعتها .

ويتضح من كتاب الأستاذ فؤاد شاكر أن بعثتهم لم تتجه لمقابلة جلالة الملك فى الرياض نفسها ، بل ذهبت اليه فى مكان آخر يسمى روضة الخفس ، يحب الملك أن ينزل فيه لجودة مراعيه . وحول الرياض فى سائر الاتجاهات رياض مختلفة كروضة الخفس ، ومن هنا سميت الرياض بهذا الاسم لأنها ليست الا مجموعة من هذه الرياض كما قدمنا ، وقد كان هذا الاكتشاف مفاجأة لطيفة ، فقد كان الأمر قد انتهى بنا الى تصور الرياض شيئا أقل بكثير جدا مما رأينا .

ووجدنا أنفسنا فجأة أمام مدينة الرياض ، ذلك أنها فى منخفض من الأرض فلا ترى الا بعد أن يقترب الانسان منها ، وأول ما يطالعك من الرياض هو مظهر الحضارة الكبرى التى تنعم بها وسط هذه الصحراء ، وتحدث فى نفسك من الأثر ما تحدثه عاصمة أى دولة من الدول ، حيث تظهر من التفوق والرقى على بقية أنحاء الدولة ما لا يتطاول اليه أى مكان من الأمكنة •

عاصمة الدولة

قال مرافقنا : هذه هى الرياض، ولم نكد نسمع هذه الكلمة حتى رأينا الطرقات المرصوفة الممتدة حول المدينة كالشرايين وسط الصحراء ، وفى نهاية كل طريق من هذه الطرق بستان أو قصر أو مؤسسة من المؤسسات: طرقات واسعة عريضة وسط الرمال ، وعلى جانبيها الأعمدة ، أعمدة المصابيح الكهربائية فى دور الانشاء ، وأعمدة تحمل أسلاك التليفون ، وعلى مرأى البصر أسوار شامخة مرتفعة تعلن عن قصور الملك والأمراء ، وأجمل ما فيها أنها تحمل طابعها الخاص طابع الفنان العربى البدوى ؛ ففيها لون الصحراء لأن ملاطها ودهانها من تربتها ، وفيها الطابع الحربى يتجلى فى هذه الأبراج ، وهذه الكوى المعدة لاطلاق النار منها وهذه الأسوار الشامخة التى تدفع هجمات الاعراب بالغة ما بلغت قوتهم •

ووقفت بنا السيارة وقال مرافقنا : فلنتهيأ هنا قبل الدخول ليغسل وجهه من يريد أن يغسله وينظم ملابسه من تحتاج الى تنظيم ، فسوف ندخل على الأمير بعد دقائق • وقد أحسست أن ذلك وضع غير طبيعى ينطوى على كثير من التكلف ، فطلبت منه الاستمرار فى السير فاستأنفناه فوق هذه الطرقات « الأسفلتية » الجميلة ، التى جعلتنا نشعر كما لو كنا قد انتقلنا الى باريس أو نيويورك أو لندن بعد هذا الذى عانيناه فى المرحلة الأخيرة من وعورة الطريق ، هذه نسمات المدينة والحضارة يصافحها الانسان فى الرياض بأكثر مما يصافحها فى أى مدينة أخرى من مدن الحجاز ، فقد عبد الطريق بين جدة ومكة ، ولكن أين هو من جمال هذه الطرقات حول الرياض ، ومكة مدينة جعلها اشتمالها على

الكعبة مقصد العالمين منذ أقدم العصور ، تكدس فيها الناس تكدسا ، واكتظت بالمبانى القديمة اكتظاظا ، فأصبح اصلاحها فى الوقت الحاضر عسيرا ان لم يكن مستحيلا بالنسبة لأية حكومة عربية ، نظرا لما تكلفه ذلك من أموال باهظة ، ولذلك فستبقى مكة سنوات أخرى طويلة ، هذه المدينة العتيقة البالية التى لا أمل فى اصلاحها بما يتفق وروح العصر

لؤلؤة الصحراء

أما الرياض فمدينة حرة طليقة وجديدة فهى لم تعمر عمارتها الحديثة الا بعد خراب الدرعية أى منذ مائة وثلاثين سنة ، وهى مدينة صحراوية لها جفاف الصحراء ونقاوتها ونظافتها ، وهى فى عهدها الجديد حيث يقيم فيها بطل الجزيرة عبد العزيز آل سعود فى غير موسم الحج ويقيم فيها ولى العهد الأمير سعود طول الوقت توشك أن تصبح لؤلؤة الصحراء كما وصفتها بحق فى برقية لى لجلالة الملك ، وحسبها أنها ستكون أولى مدائن جزيرة العرب استضاءة بالكهرباء والتى لن تكون وقفا على قصور الكبراء والأمراء بل ستكون حقا مشاعا لجميع ساكنى

اشتراكيون بطبعهم

الرياض ، ذلك أن سكان الرياض يؤلفون فى مجموعهم أسرة واحدة كلهم يتبعون القبيلة الكبرى التى يرأسها رئيس القبيلة الأكبر عبد العزيز ، ولذلك فستدخل الكهرباء الى بيوتهم على ما قيل لنا بدون ثمن أو مقابل، وقد لا يكون لذلك مثيل لا فى جزيرة العرب فحسب بل فى الدنيا كلها ؛ أن يكون النور الكهربائى حقا مشاعا بالمجان للجميع . وهكذا سيظل العرب فى البادية ينبوعا للاشتراكية بطبيعتهم وطبيعة حياتهم .

واقتربنا من هذا القصر الذى يبدو خارج أسوار المدينة ، باعتبارد قصر ولى العهد الذى جئنا للنزول فى ضيافته ، ونزل مرافقنا من السيارة، وخاطب أحد الضباط الواقفين على باب القصر ، وبعد مشاورات ومداولات قيل لنا : اننا يجب أن نتجه الى قصر الضيافة ، وركب معنا أحد الضباط ليدلنا على الطريق ، وأخذت السيارة سبيلها الى قصر الضيافة . ها نحن أولاء الآن فى دائرة الرياض نسير على هذه الطرقات الجميلة المعبدة ، ومن حين لآخر نرى جندى مرور يفتح لنا الطريق

كأنظم ما يرى فى أى بلد من البلاد • ان ذلك كله يجرى فى خارج المدينة التى تحيط بها الأسوار ، والتى لم ندخلها بعد وها نحن أولاء أخيرا أمام دار الضيافة ، وكانت الأخبار قد سبقتنا أننا فى الطريق اليها ، فوجدنا الجند متأهبين لاستقبالنا ، وعلى رأسهم أمير الضيافة ، وعندما دخلنا الدار وصعدنا الى طابقها الأعلى بدأت تتجلى لنا ضخامتها على صورة لم نكن نتوقعها ، فهى فى الحقيقة ليست دارا واحدة ، ولكنها عدة قصور متصل بعضها ببعض وكلما خيل الينا ونحن نسير فى هذا الدهليز الطويل اننا قد وصلنا الى النهاية ، اذا بفناء جديد ينفسح أمامنا تحيط به الحجرات • ولا يكاد هذا الفناء المربع ينتهى حتى نرى انفسنا قد دخلنا فى فناء جديد ، وهكذا حتى وصلنا الى النهاية ، فدخلنا فى قاعة كبيرة متسعة قد فرشت بالسجاجيد الفاخرة ، وصفت الأرائك حولها ، وألحق بها حجرة للنوم وجدنا بها فراشين وثيرين كأجمل ما يتمنى الانسان ، ودلونا على الحمام الملحق بهذا الجناح ، وقيل لنا فى نفس الوقت أن مائدة الطعام مبسوطة لنتناول منها وعليها ما نشاء ونختار •

دار الضيافة

وكان كل شيء يجعلنا مبهورى الأنفاس ، لا نكاد نتمالكها ، فها نحن أولاء بعد هذه الرحلة الطويلة وقد وصلنا الى الرياض ، وهانحن أولاء مرة أخرى غارقون للاذقان فى الحفاوة والضيافة • وكنا نحتاج الى فترة من الزمن نجلس فيها لنسترد أنفاسنا ونطمئن الى مقامنا ، ودخل علينا أحد الضباط فسلم علينا وأبلغنا تحيات ولى العهد ، وأنه يرحب بمقدمنا ويسره أن يرانا بعد ساعتين من الزمان •

يالله ! ما ألطف هذه اللفتة وأكرمها وأبرعها ! فولى العهد لم يشأ أن يقابلنا فور وصولنا ليوفر علينا هذا القلق الذى وصفته ، فأبى الا أن يهيىء لنا أولا فرصة الاطمئنان والراحة فنقابله بعد أن نكون قد نلنا حظنا من الاستجمام ، وبعد أن نكون غيرنا ملابسنا وتناولنا بعض الطعام اذا كنا جائعين •

كياسة ولى العهد

أدخل هذا الترتيب البهجة والانشراح الى قلبى • وسوف ترى أن

تصرفات الأمير سعود ستسير معنا على هذه الوتيرة ، لا يأخذنا على غرة ولا يقحم علينا أمرا من الأمـور ، وانما يترفق بنـا فى اظهار كرمه ولطفه حتى نأنس اليه وتزول وحشـتنا ، فلا تنتهى زيارتنا له الا ويكون قد رفع كل تكليف وامتزج بنا امتزاج الأشقاء وأخلص الأصدقاء •

فى حضرة الأمير :

حل الموعد الذى حدد لنا لمقابلة الأمير ، وكنا فى فترة الاستراحة قد استطعنا أن نصلح من شأن هاتين العباءتين اللتين أهداهما لنا الأمير فهد فتقمشنا بهما وذهبنا لمقابلة الأمير على خير ما نحب ونشاء ، واجتازت بنا السيارة أسوار الرياض ، وسرنا فى شوارعها التى بدأت تكتظ بأبناء المدينة وأعراب البادية • ودخلنا فى دائرة قصر الملك فاذا بنا كأننا نجتاز سوقا من الأسواق لشدة الزحام ، فساحة القصر وفناؤه الخارجى وكل ما يحيط به مكتظ بهؤلاء الأعراب الذين جاءوا الى قصر الملك يلتمسون رفده فى صورة أو أخرى ، واذا كان الملك غائبا عن عاصمة ملكه فانه يجلس فى مقامه ولى عهده الذى يعمل جاهدا على ترسم خطاه ، فلا يرد سائلا ، ولا يسكت عن ظلم ويؤدى الحقوق الى أصحابها •

والمورد العذب كثير الزحام

سرنا مع دليلنا فى دهاليز القصر الطويلة ، وهو قصر مبنى باللبن ، وفيه هذا الجو الذى طالما وصفته لك ، وكانت كل الدهاليز والحجرات التى وقع نظرنا عليها تغص بالناس ما بين أتباع وأصحاب حاجات ، حتى اذا صعدنا الى الدور الثانى بدأنا نشق طريقنا وسط حشد من الأتباع المسلحين ، فكانوا يفسحون الطريق لضيوف الأمير فى احترام وتوقير ، حتى اذا أقبلنا على القاعة الكبرى حيث يجلس الأمير ، لمحته عن بعد ، ولم يكد يلمحنى ويلتقى نظرانا حتى خف واقفا من مجلسه واستقبلنا بابتسامة عريضة وتعانقنا فى حرارة ثم أجلسنا الى جواره ، وراح يسألنا فى لهفة عن رحلتنا فى الطريق ، وعما اذا كنا لم نلق فيها شيئا من المتاعب أو المشاق ، فطمأناه من هذه الناحية وأثنينا على مرافقينا وسائقى سياراتنا ، وشكرنا على ما قوبلنا به من حفاوة فى كل مكان •

قلت للأمير : هل تذكر مقابلتنا فى نيويورك فى فندق والدروف استوريا ، فأجابنى والبشر يفيض فى وجهه : ذكرتها ساعة أن تلقيت برقيتك تبشرنى بمقدمك ، ولا تتصور مقدار سرورى بأن أراك هنا فى الرياض •

وزدته بعد ذلك تعريفا بأخى الأستاذ الغندور ، فأقبل عليه مرحبا وتبادلا عبارات الترحيب والمودة •

كان حديثنا مع الأمير يتطور فى سرعة ، وينتقل من موضوع الى موضوع دون أن نضغط أو نسهب فى تناول أى موضوع منها ، فلم يكن المجال أو الجلسة تسمح بذلك ، فقد كان الأمير يجلس فى مجلسه العام حيث ترفع له الظلامات ليقضى فيها ، وشئون الدولة التى تتصل به ليبرمها • وحانت منى التفاتة فى خلال الحديث الى هذه القاعة التى يجلس فيها الأمير ، فوجدتها شيئا جميلا لا عهد لى به من قبل ، فالأرض والجدران والسماء أو بالأحرى السقف والأعمدة التى ترفع هذا السقف كلها مكسوة بالأقمشة الحريرية ، والتى يصــدق عليها وصف الخز والديباج تشع بالألوان المبهجة ، والرسوم والنقوش الخلابة المؤثرة ، منظر بهيج لا مثيل له فى أى مكان آخر ، ولا تستطيع أن تقارن به أى مكان آخر ، لأنه شىء نسيج وحده ، فهذا البحر الزاخر من السجاجيد العجمية الفاخرة التى تكسو أرض القاعة لن تجد له مثيلا فى كل مكان ، وأما السقف فقد شدت اليه أثواب الحرير ليخفى ما تحته من أخشاب وصناعة خشنة بطبيعة الحال ، فجاء المنظر فذا عجيبا فى طرافته وجماله ؛ وكذلك الأعمــدة لفت حولها مقاطع الحرير المزركش ، وهكذا يرى الانسان نفسه وسط بستان من الألوان المبهجة للنظر والمريحة للفؤاد ، ويجلس الأمير فوق احدى الأرائك المبثوثة فى صدر المكان وحول الجدران ومن حوله الوسائد والحشيات ، مختلف ألوانها ناعم ملمسها جميل منظرها ، ووسط ذلك كله أو حول ذلك كله تتصاعد رائحة العود والطيب ما بين محترق ومستقطر ، وماء الورد تغسل به الأيدى من حين

مجلس الأمير العربي

لآخر ، وفناجين القهوة العربية تدور علينا بين لحظة وأخرى ، وهذا الساقى بملابسه المزركشة يحدث بالفناجين موسيقى تطرب لها الأذن ، ياله من جو عابق فاتن يشبه أن يكون ذلك الجو الذى تصوره لنا ألف ليلة وليلة ، وما أعظم المكافأة التى نلقاها برحلتنا ، فان هذا المنظر الذى نراه لا يتاح للكثيرين فى العالم الحديث أن يروه ، وقد تدهش اذا علمت أن الذين شاهدوه من أبناء الحجاز يعدون على الأصابع ، فليس يذهب الى الرياض الا كبار الموظفين وبعض الأعيان من حين لآخر اكتفاء بملاقاة الملك عند مقدمه الى الحجاز فى مناسبة الحج • ولست أغالى اذا قلت أنه لا يوجد فى جزيرة العرب من يتصور ما هى عليه الرياض من تقدم وتطور ، مع احتفاظ ببساطة تخلب الألباب ، وحسبك أن تنظر الى الأمير سعود فى جلسته العربية فوق الأريكة وقد ربع قدميه لترى كل مظاهر المدنية الحديثة ، وقد أحاطت به وسط اطاره العربى الشرقى فيصور لك الرياض ، فالتليفون الى جوار الأمير فيتصل بمن يشاء والجرس الكهربائى مدلى كذلك الى جواره ، وفوق رأسه مروحة ، كهربائية ، ومن حين لآخر يأتى له أحد الموظفين ليتلو عليه آخر ما حمل الراديو من أنباء العالم ، وبين يديه أتباع وحراس يحملون آخر طراز من الأسلحة •

وكعادتى لم أخف اعجابى وما دار فى نفسى من خواطر ، فأثنيت على المكان بما هو أهله وأكدت ابداء اعجابى بهذه الروح العربية التى تسود المكان ، وجمع العلم الغربى الى جوار الذوق والفن الشرقى، وقد ابتهج الأمير لهذا الثناء وان كان قد أسرع ليذكرنى بأنه يعرف أن الرياض بلد صغير لا يقاس بالقاهرة فضلا عن باقى عواصم الدنيا ، ولكنهم يحبونها ويعتزون بها ، ولا يؤثرون عليها ملك الدنيا وما فيها •

نؤمن بالروح إيماننا بالمادة

وقد جعلنا ذلك نعرض للجانب الروحى من الحياة ، وأنه الأقوى والأروع ، وأن الغربيين اذا كانوا قد كفروا بالجانب الروحى من الحياة فان ذلك لا يجب أن يزيدنا الا استمساكا بها ، ليكون ذلك هو سر تفوقنا وامتيازنا عليهم •

على أن جلستنا هذه لم تطل مع الأمير سعود ، فقد كان يسير معنا وفق برنامج دقيق ، ولذلك فقد قال لنا : أن أمير الرياض فى انتظارنا للسلام علينا ، وواعدنا أن نتقابل مرة ثانية بعد الفراغ من صلاة العصر فى بستان اعتاد أن يجلس فيه فى هذا الوقت كل يوم ، فشكرنا له حسن استقباله وجميل ترحيبه ، وانصرفنا لمقابلة أمير الرياض .

عند أمير الرياض :

لم أكن أعرف أن أمير الرياض هو أحد أبناء الملك عبد العزيز ، بل لم أكن أعرف أن للرياض أميرا حتى خرجت من مجلس ولى العهد ، فرأينا فى انتظارنا عربيا وسيم الطلعة أقبل علينا مصافحا فى حرارة واشتياق ، وقدم لنا نفسه كأمين لأمير الرياض الذى ينتظرنا ، وعلمنا منه أن أمير الرياض هو أحد أبناء الملك عبد العزيز واسمه سلطان ، وأنه شاب صغير ، فلم نفاجأ عندما قابلنا الأمير فرأيناه فى ميعة الصبا ، ولكننا لم نلبث أن فوجئنا مفاجأة شديدة عندما بدأ الأمير سلطان يتكلم ويسترسل فى الحديث ، لقد كتبت مقالا بعد عودتى من هذه الرحلة فوصفت صورة الأمير سلطان بأنها ذكرتنى بنفسى عندما كنت فى مستهل شبابى وقد بدأت حركة مصر الفتاة ، كيف كنت أتفجر حماسة وألتهب حرارة واعتز باخلاصى ولا أخفى اعتدادى بنفسى، فهذا هو الأمير سلطان كما رأيته جلس يحدثنا ورحنا نستمع ، تحدث عن فلسطين لا حديث السياسى أو حديث الأمير وانما حديث شباب من شباب المسلمين والعرب يحمل على الكبراء والأمراء وعلى سياسة الرياء والنفاق التى سار عليها رؤساء العرب ، يتمزق غيظا للتخبط الذى وقع فيه العرب ، ويتمنى لو أطلق أبوه سراحه فراح يجالد بسلاحه حتى ينتصر العرب أو أن يموت ، وانتقل الى العلم الحديث فاذا به مستهام بهذا العلم ينعى على نفسه تقصيره فى أيام صباه فى تحصيل العلم كما كان يليق به ، واذا به يقول فى صراحة « والله ما قصر أبى فى أن يهيىء لنا أسباب العلم وأن يستحثنا عليه ، ولكننا قصرنا نحو أنفسنا فأساءت الينا الأمارة وانتسابنا

الأمير سلطان الشاب المتطرف

الى بيت الملك ، اذ ظننا أن ذلك يكفينا لاجتياز مرحلة الحياة — أما اليوم فما أكثر ما أندب حظى وأنا أشعر بتقصيرى وتخلفى ، وانتقل بعد ذلك للتحدث عن مصر الفتاة ، فاذا به يعرف من أمرها كل شىء ، طالع برنامجها وتحمس له ويعرف تاريخها ويعرف من أمرها كل ما دق وخفى • ولا يكاد الأمير يسترسل فى أحاديثه منتقلا من فينة الى فينة حتى أرانى وقد فغرت فمى دهشة واستغرابا أن نجد بعد مسيرة خمسة أيام فى أحشاء الصحراء ، هذه المفاجأة العجيبة ؛ أميرا شابا من أمراء الصحراء يعرف من أمر الدنيا كل هـذا الذى يعرف ، ويتوق لمعرفة ما لا يخطر بخيال أكثر الناس علما أن يعرفوه وأن يحيطوا به •

ولقد أتيح لى بعد ذلك أن أجتمع بالأمير سلطان أكثر من مرة ، فاذا به ممن يصح وصفهم بنحلة الكتب أو نحلة العلم التى ترتشف كل ما تصادفه منه فى طريقها ، فقد وجـدت لديه كتبا فى كل شىء حتى القوانين المصرية ، وجدتها عنده يطالع فيها ، ووجدت كتابا فى القانون الدولى لعلى باشا ماهر لا أظن أن كثيرين من أبناء الجيل الجديد فى مصر يعرفون من أمره شيئا ، ووجدت كل ما أنتجته المطابع المصرية والسورية والعراقية ••• ووجدت فوق ذلك محاولات الأمير لتعلم اللغة الانجليزية يتلقى دروسها على يد أمينه السيد عبد الله أبو الخير ، ووجدت منه تحررا فى التفكير الى حد أدهشنى وأذهلنى ، فقد كنت أظن أن كتاب « هذه هى الأغلال » لا يكاد يذكر فى الرياض حتى يشنق القائل الا أن يكون قادحا وذاما ، فاذا بالكتاب يذكر واذا بالأمير ممن طالع الكتاب وسر به وابتهج ، واذا به ممن آلوا على أنفسهم أن يشنوا حربا شعواء على الجمود والتأخر •

نحلة كتب

ما أجمل أن يرى الانسان الشباب المتفتح عندما يكون تواقا للنهوض والمعرفة ، ولذلك فقد كان اجتماعى بالأمير سلطان دائما مصدر متعة لى وبهجة لا حد لهما ، وسرعان ما اكتشفت أن فضلا كبيرا فى تثقيف الأمير وبث هذه الآراء التقدمية فى نفسه ، انما يعود الى مرشده وأمينه السيد عبد الله أبو الخير •

فى بستان ولى العهد :

وفى الموعد المقرر بعد صلاة العصر سرنا من دار الضيافة الى بستان ولى العهد ، ومرة أخرى سرنا فوق هذه الطرقات الجميلة الممتدة حول الرياض ، حتى وصلنا الى البستان ، ولأول مرة ينطبق الاسم على المسمى ، فالبستان هنا هو بستان حقا ، وهو بستان فى مصر وبستان فى أى مكان ، فالأشجار الباسقة والأزهار الناضرة والأبسطة السندسية من الحشائش والجازون الأخضر وقنوات المياه وخريرها ، كل ذلك شىء لم نره قبل هذه المرة فى جزيرة العرب . ولما ذكرت هذا الخاطر للأمير سعود ضحك وقال : انك تذكرنى بالملك عبد الله عندما جاء لزيارة الرياض فأجلسته فى هذا البستان ، فكان مدهوشا مما يرى ، وراح يشد على يدى ويقول لى قل « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » .

وحقا انه لتحفة من التحف فى جزيرة العرب ، وللأمير فيه مجلس لا يحاط فيه بالحرير أو السجاجيد ، ولكن بالحشائش الخضراء ، وبالأزهار تظلله الأشجار التى تدلت منها المصابيح الكهربائية ، ولم يكن الأمير هذه المرة كما كان شأنه فى الصباح ، لم يكن فى مجلس رسمى ، فتبسط لنا فى الحديث وقدم لنا الجالسين معه ، وأنهم جميعا من أبناء عمومته ، ومن رؤساء القبائل المخلصة لبيتهم ، وأشار لى على بعض جلسائه وقال : أما الاخوان فمن آل الرشيد ، ولآل الرشيد الذين أصبحوا اليوم جلساء الملك وولى عهده قصة سنرويها عندما نصل الى قصة الملك عبد العزيز ، وكيفية استيلائه على الرياض .

آل الرشيد فى حاشية الأمير

وبينما كنا جلوسا مع الأمير سمعنا صوت كرة القدم تقذف من هنا وهناك ، فقال لى الأمير هؤلاء أولادى يلعبون الكرة ، ومرة أخرى أسمع لأول مرة فى جزيرة العرب شيئا عن كرة القدم ، وأبهجنى أن يلفت الأمير نظرى الى أن أبناءه هم الذين يلعبون رغبة منه فى اشعارى أنه ليس من الجامدين المتزمتين ، وراح يحدثنى كيف يشرف على تربية

كرة القدم فى الرياض

أبنائه ويهيىء لهم أسباب العلم الحديث الى جوار علمهم الدينى المكين ، وأنه أنشأ لهذا الغرض معهدا هو الأول من نوعه فى جزيرة العرب كلها ، أطلق عليه المعهد السعودى حيث يتعلم أولاده — وأولاد الناس معهم كل العلوم العصرية ، وهو أمر يعد بمثابة الحدث فى تاريخ الرياض ، التى رفض علماؤها دائما أبدا أن تدرس فيها العلوم العصرية ، التى ليست سوى نشر للكفر والالحاد كما يزعمون .

وطالت جلستنا الممتعة ، واقترب منا الأمير فيها أكثر وأكثر واقتربنا منه ، وذكر لى الأمير سعود برنامج اليوم التالى ، واننا سنصلى معه الجمعة ثم تتناول الغذاء سويا ، وبعد صلاة العصر نشهد معه حفلة سباق للخيل ، وفى اليوم التالى أى يوم السبت يخصص لى الأمير فى صباحه جلسة خاصة ليفضى الى ببعض المعلومات والحقائق الخفية عن موقفه فى قضية فلسطين ، وليستمع الى آرائى وملاحظاتى فيما رأيت وشاهدت ، وبعد ذلك نسافر حسب ارادتنا الى الخرج لنشهد أكبر المشروعات الزراعية الجبارة فى نجد ثم نبيت ليلتنا فى الخرج لنستقل فى الصباح التالى الطائرة الى الظهران ، فنمضى بها يومين حتى يحين موعد عودة الطائرة الى جدة ، فنستقلها على أن تقف بنا فى الرياض لنحظى بمقابلة الأمير ثانية ، ويزودنا ببعض الرسائل التى طلبتها منه ، والتى كان احداها رسالة خاصة بالاسراع فى اقامة المبنى الخاص بالمرصد الفلكى فوق جبل قبيس اكراما لخاطر صديقنا الشيخ محمد عبد الرزاق حمزه المشتغل بعلم الفلك وتحقيقا لخطوة علمية محققة النفع .

برنامج الاقامة فى الرياض

وهكذا رسم لى الأمير سعود برنامج اقامتى رسما دقيقا ، فحقق آخر ما كنت أصبو اليه من الرغبة فى الاحاطة بكل شىء مع الاسراع ، فقد كان أخشى ما أخشاه أن يتمسك الأمير باقامتى عنده أسبوعا أو أكثر ، وكنت لا أعرف كيف سيكون أمرى بعد الرياض ، وكيف سأنظم الرحلة فى هذا الجزء ؟ فاذا به يتولى عنى كل ذلك ويقدر لهفتى الى الرغبة فى العودة السريعة فيعد كل شىء أحسن اعداد ولا يدع صغيرة أو كبيرة من شئون الرياض أو الخرج أو الظهران الا ويتيح لى فرصة الالمام بها والاحاطة بموضوعها أحسن احاطة .

— ٥ —

وهكذا لم نبت ليلتنا الأولى فى الرياض الا وقد عرفنا برنامجنا وطريق عودتنا ، وقد رأينا وسمعنا وعاينا ما جعلنا فى حالة من السعادة لم يسبق أن شعرت بها فى يوم من الأيام فلم يكن أمامى الا الصلاة شكرا لله الذى أنعم على كل هـذه النعمة والذى يغمرنى بفضله وبره وكرمه •

لم يكن لى هم منذ صباح اليوم التالى الا أن أزور هذا الحصن القديم الذى جرت عنده ملحمة استرداد الرياض ، عندما جاء عبد العزيز آل سعود بأربعين رجلا من أتباعه ليستردوا عاصمة ملك آبائه وأجداده، وتبدأ هذه الصفحة الزاهرة فى تاريخ الجزيرة العربية • وانها لمغامرة تضع عبد العزيز آل سعود على رأس أبطـال التاريخ المغاوير الذى أسسوا ملكا عريضا بسواعدهم •

تركنا آل سعود وقد دالت دولتهم وانكسرت شوكتهم ، على أثر هـذه الحروب التى دارت بينهم وبين الجيوش المصرية تلبية لأوامر سلطان تركيا وقتل عبد الله بن السعود • ولكن الصحراء كالبحر لا يدوم فيها النصر ، وانما الحـرب فيها كر وفر ، ومد وجزر • ولذلك فقد استطاع أمير من آل سعود اسمه : تركى ، أن يحتل الرياض وأن يتخذها مقرا لآل سعود بدلا من الدرعية التى خربت ، وأن يحاول اعادة نفوذ آل سعود وسلطانهم • ولكن الضربة الشديدة التى أصابتهم لم تجعل ذلك بالمهمة السهلة أو الممكنة • فقد ضاعت هـذه الهيبة التى كانت القبائل والأعراب تعنو لها ، فقامت كل قبيلة تنازع وتعارض معتمدة على التأييد والنفوذ يأتيانها من مصر أو تركيا • على أن علاج ذلك كان ممكنا لو لم يكن الضعف والانحلال قد دب الى آل سعود أنفسهم ، سنة الله فى خلقه التى تجعل الجماعات تشقى وتسعد وتصح وتمرض وتقوى وتذبل ، فكان أن عدا مشارى بن سعود الكبير على تركى فاغتاله وهو قائم يصلى ليستولى على امارته ، فلم ينعم بهذه الامارة التى اشتراها بثمن فاحش الا بعض الوقت ، ريثما عاد فيصل بن تركى من احدى

تركى يحتل الرياض بدلا من الدرعية



هكذا يجلس الملك بن السعود داخل خيمـة فى الرياض فى انتظار أخيـه
ملك الأفغـــان



وجلست الى جوار الأمير سعود فى بستانه كهذه الجلسة



هكذا تبدو مبانى الرياض وقصورها ذات طابع خاص توحى به طبيعة الصــــحراء



ولقد حرص الأمير سعود على أن يلفت نظرى الى أن أبناءه يلعبون كرة القدم التى أصبحت تجرى لها مباريات عامة كهذه المباراة

غزواته فقتل مشارى وجلس على امارة أبيه • ولكن هـذه الجريمة الجديدة وهذا التصدع فى الأسرة الواحدة قد عجل بتدهورها وانحلالها فساعد على ظهور أسرة جديدة فى نجد هى أسرة آل الرشيد ، وقد كانوا عمالا لآل سعود فلم يلبثوا أن تغلبوا على نجد وملكوا الرياض ، فاضطر عبد الرحمن بن فيصل أن يرحل من الرياض وأن يلجأ الى الكويت ، وهى امارة صغيرة على الخليج الفارسى ولكن موقعها الجغرافى جعل لها خطرا كبيرا وزادها ما اكتشف فيها بعد ذلك من البترول خطرا على خطر حتى أصبحت الكويت أحد المراكز العالمية التى تصطرع حولها السياسة العالمية • وفى هذا الجو وهذه البيئة ترعرع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بطل الجزيرة اليوم •

آل سعود وظهور آل الرشيد

عبد العزيز آل سعود :

كتبت عن عبد العزيز آل سعود كتب كثيرة حديثة بمختلف اللغات كما كتب عن كل أعلام العصر الحاضر كمصطفى كمال وموسولينى وهتلر • وكل هذه الكتب تبدأ الحديث عن ابن سعود بمغامرته التى تشبه أن تكون خرافية ، عندما سار مع أربعين من أتباعه ليسترد ملكه وملك آبائه ، وحتى الشيخ حافظ وهبه ، وهو من هو مكانة وقربا من ابن السعود ، عندما تحدث عن تاريخ ابن السعود فى كتابه جزيرة العرب ، جعل هذه المغامرة مبدأ قصته • ولكن التاريخ المفصل كما رواه الأستاذ عبد الغفور فى كتابه « صقر الجزيرة » يحدثنا أن هذه لم تكن مغامرة عبد العزيز الأولى لاسترداد الرياض بل لقد سبقتها محاولة عسكرية ضخمة لاستردادها ففشلت ، الأمر الذى يضاعف فى أهمية محاولة عبد العزيز الثانية للنجاح بهذا القدر الضئيل من الأتباع حيث فشل الجيش الجرار • ونحن لا نظن أن الأستاذ عبد الغفور قد جاء بهذا التفصيل الطويل الذى خالف فيه من سبقوه فى الكتابة من عندياته ولذلك فنحن نطمئن الى صحته (١) •

(١) أتيح لنا سؤال الشيخ حافظ وهبه فى هذا الموضوع فأجابنا أن الحق هو ما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الغفور •

نضج مبكر

لابد أن يكون عبد العزيز كأى عبقرى موهوب قد أدرك درجة النضج فى سن مبكرة . ولابد أن تاريخ أجداده العظام كان هو طعامه وغذاءه فى طفولته وكلما شب وكبر كان هو الوقود لشحذ عزيمته . حتى اذا بلغ سن الشباب أصبحت صفحات أجداده نارا تحترق فى عروقه وفى صدره وتدفعه للعمل لاستخلاص الرياض مرة أخرى ممن غلب عليها وبعث هذا الملك الذى اندرس ، ملك آل سعود فى طول الجزيرة وعرضها.

مبارك الصباح وابن سعود

وكان عبد العزيز آل سعود قد بلغ العشرين عندما استطاع أن ينجح فى اقناع أبيه المجرب المحنك أن الوقت قد حان للجهاد فى سبيل استرداد الرياض بمعاونة الأمير مبارك الصباح أمير الكويت الغنى القوى . وللأمير مبارك مصلحة كبرى فى أن يعود آل سعود الى الرياض ليخلص بذلك من سلطان ابن الرشيد وشوكته التى بدأت تظل هذا الجزء من شرق الجزيرة ، فضلا عن أن عودة آل سعود الى الرياض بتأييده وتحت حمايته سيجعل منهم أمراء تابعين لسلطانه ، وكان خلف أمير الكويت السياسة الانجليزية التى بدأت توطد صلاتها معه والتى أصبح يهمها ويعنيها أن يقوى نفوذ حليفها وصديقها فى داخل هذه الجزيرة المغلقة عليها .

الخطة التى فشلت

لكل هذه الأسباب مجتمعة وجد عبد العزيز لدى مبارك الصباح أذنا صاغية عندما حدثه عن وجوب تجهيز حملة لفتح الرياض ، على أن تتألف هـذه الحملة من شعبتين احداهما جيش لجب كبير يقوم على رأسه مبارك الصباح نفسه ليصطدم بجيوش ابن الرشيد ، فى الوقت الذى يسير فيه ابن السعود على رأس جيش من ألف رجل ليستولى بهم على الرياض منتهزا تشاغل ابن الرشيد عنها .

وقد نفذ مبارك الصباح هذه الخطة كاملة فأعد جيشا كبيرا توجه به لحـرب ابن الرشيد ، وجهز ابن السعود بألف من الرجال الأشـداء المستعدين . وتمت الخطة فى بادىء الأمر بنجاح كبير فوصل ابن السعود الى مدينة الرياض ودخلها فاتحا غازيا مهللا مكبرا ، واستقبلته المدينة

بالبشر والترحاب ، كيف لا وهو سليل هذه الأسرة المباركة التى جعلت يوما ما من الرياض والدرعية عاصمة لكل الجزيرة العربية ، ونعمت فى ظلها نجد بالرفاهية والحضارة والأمن والنظام ؟ • ولذلك كان ترحيب الرياض بابن السعود عظيما فدخلها فى غير حرب وجلس على كرسى آبائه وأجداده ؛ فهل انتهت القصة بهذه السهولة والبساطة ؟ الجواب :

لا ، فقد كان القدر يخفى لابن السعود دخولا أروع للرياض لايكون فيه مدينا بالفضل لأحد الا ايمانه بالله وشجاعة قلبه وقوة ساعده • لقد حبطت خطة عبد العزيز الأولى ورأى نفسه مضطرا للانسحاب من المدينة التى دخلها بدون حرب والتى هللت وكبرت لمقدمه • لقد دخل المدينة ، ولكن حصن المدينة لم يسلم له واستعصى عليه ، وعبثا حاول ابن السعود أن ينال منالا من حاميته ، وكيف ينال من هذه الجدران الضخمة وكل سلاحه سيف وخنجر وبندقية ! ومع ذلك فقد كان يستطيع أن يحمل حامية الحصن على الاستسلام نتيجة الحصار الطويل ، ولكن ما أن شرع يهيىء نفسه لشىء من ذلك حتى جاءت الأخبار بأن ابن الرشيد قد هزم مبارك الصباح وجيشه الكبير هزيمة منكرة ، وأنه فى طريقه الآن الى الرياض ليسحق هذا المغامر الصغير • ولو وصل الى الرياض وابن السعود فيها ، لأصبح ابن السعود بين شقى الرحى : بين هذه الحامية فى داخل المدينة ، وهذه الجيوش الجرارة من حولها ، فلا يبقى أمامه الا أن يموت أو يستسلم ليعود مرة أخرى الى مهاوى العار والخزى اذا سمح له ابن الرشيد بالحياة •

انسحاب ابن السعود من الرياض

وابن السعود وان كان فى سن الشباب المبكر الذى يتسم بالطيش والاندفاع والرغبة فى الفدائية والتضحية ؛ وهو ما كان يمكن أن يحمله على التشبث بالرياض والاستماتة فيها وليكن ما يكون ، ليس مجرد شاب تسرى عليه قواعد الشباب العادية ، انه عبقرى فذ هيأته الطبيعة ليلعب دورا كبيرا فى حياة هذه الجزيرة ، ولذلك فقد آثر أن ينسحب فائزا من الغنيمة بالاياب • فعاد الى الكويت لا نقول يجر أذيال الخيبة

فهو لم يصب بهزيمة عسكرية وقد حقق هدفه بدخول الرياض ، فاذا كانت الخطة قد خابت فمن جراء هزيمة حليفه الكبير عسكريا . ولذلك فان اليأس لم يتطرق الى قلبه لتحقيق أمله فى استرداد الرياض ، بل على العكس لقد أكسبته هذه المحاولة الأولى تجربة واجتراء .

فلم يعد امتلاك الرياض حلما من الأحلام ولكنه كان حقيقة واقعة لعدة شهور فالأمر اذن لا يستدعى سوى تكرار المحاولة مع احكام الخطة هذه المرة ، ولقد وضع ابن السعود خطته الثانية وانها لتبدو للوهلة الأولى خطة جنونية ، وانها مغامرة شاب طائش أراد أن يموت فى سبيل استرداد ملك آبائه ، ولكنك لو أنعمت النظر فى هذه الخطة لوجدتها السبيل الوحيدة لنجاحه حيث فشل فى خطته الأولى .

حصان طرواده

أسمعت عن قصة حصان طروادة عندما عجزت جيوش أغا ممنون ومن معه عن فتح طروادة ، وطال عليهم الأمد والحرب سجال بينهم وبين حماتها المغاوير ، فلم يروا الا أن يستخدموا الحيلة لاقتناصها من الداخل بعد أن تحطمت قواهم على أسوارها ، فابتكروا هذه الخدعة المشهورة على ما تروى الأساطير ، وهى صنعهم هذا الحصان المعدنى الضخم الذى حشوه بالجند والفرسان ثم تظاهروا بالهزيمة والانسحاب مخلفين هذا الحصان خلفهم فخرج آل طروادة فرحين مبتهجين بانكسار خصومهم ، فوجدوا هذا الحصان الضخم فظنوه تمثالا أو دمية من الدمى فعادوا به الى داخل مدينتهم كسلب من الأسلاب وغنيمة من الغنائم ورمزا لانتصارهم العظيم على أعدائهم . فلما جن الليل وقد سكر فرسان طروادة من نشوة النصر فاستلقوا على أقفيتهم ، خرج الكمين من داخل الحصان فقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب ، وهكذا أسقطت طروادة من الداخل بخدعة وحيلة وهى التى لم تسقطها الجيوش الجرارة فى الحرب المستعرة خلال السنوات الطوال .

على بابا والأربعين حرامى

وهل أتاك حديث قصة على بابا والأربعين حرامى عندما أدخل أتباعه الأشداء فى قدور الزيت فاقتحم بهم المدينة الحصينة ؟ .

هذه الأساطير والخرافات التى نطالعها وتتقبلها على أنها لون من ألوان الخيال لامتاع الذهن المكدود بالحقائق والماديات ، لم يطالعها ابن السعود ولا يعرف من أمرها شيئا ولكنه بدأ صفحة جديدة فى حياة جزيرة العرب بمغامرة كهذه المغـامرات التى لولا أن بطلها لا يزال حيا يرزق ، ولولا أن كثيرين من الذين شاهدوها وعاصروها لا يزالون أحياء يرزقون ، بل لولا أن رأيت بعينى رأسى آثارها قائمة ناطقة حتى الآن ، لما اعتبرتها الا أسطورة من الأساطير التى تحاك حول الأبطال .

أربعون رجلا وثلاثون بندقية :

ماذا حدث فى خطة ابن سعود الأولى ، ولماذا فشلت ؟ لقد سار الى الرياض فدخلها فى غير عناء ، ولكن حصنها ذا الأبراج الأربعة استعصى عليه ، فلم يستطع أن يستقر فى المدينة . ليس المهم اذن أن يستولى ابن السعود على الرياض نفسها ، فهذه ليست هدفا عسكريا — والاستيلاء عليها لا يقدم ولا يؤخر اذا ظل حصنها قائما . فيجب أن تدور الخطة الجديدة حول كيفية الاستيلاء على الحصن . وقد أدرك ابن السعود من تجربته الأولى أن الاستيلاء على هذا الحصن عنوة أمر يكاد يكون فى حكم المستحيل بالنسبة لأسلحته البيضاء والخفيفة. وأدرك أن أخذه عن طريق الحصار الطويل غير ممكن كذلك ، لأن ابن الرشيد لن يلبث أن يسرع بجيوشه لانقاذ حامية الحصن والقضاء على المهاجم . لم يبق اذن الا أن يستولى على هذا الحصن بالخديعة والحيلة لا بالقهر والقوة؛ فاذا سقط الحصن كانت المدينة تحت امرة ابن السعود وهو محررها ومنقذها من طغيان حكم آل الرشيد ، وعاملهم على الرياض المسمى : عجلان ، ذلك الجبار المستبد الغشوم .

الحصن هو العقبة

وطبيعة الخدعة والحيلة أن تتم فى الخفاء لا فى العلن . فأصبح من طبيعة خطة ابن السعود الجديدة أن لا يسير بجيش لجب كما فعل فى الخطة الأولى ، وأن لا يستعين بابن الصباح فى تسيير جيش آخر كبير على خصمه ، بل عليه أن يسير هو فى خاصة من أصحابه لا يكاد يسمع

خطة جديدة للاستيلاء على الرياض

بخبرهم انسان ، فاذا سمع لم يتصور انهم يقصدون الرياض فالرياض لا تفتح بأربعين يمتطون الجمال بعد أن عجزت الجيوش الجرارة عن اقتحامها •

وكانت هذه هى خطة ابن السعود عندما عرضها على ابن الصباح أمير الكويت • لم يطلب منه سوى أقل العون فأمده بمائتى ريال وثلاثين بندقية وأربعين ذلولا وشيئا من الزاد ، وكانت هذه هى كل عدة ابن السعود فى محاولته الثانية •

سار بخاصة آل بيته وأصحابه وكانت عدتهم ستين ، لم يقل لهم بادىء الأمر أين يذهب بهم والا وهنت عزائمهم ، ولم يكن يعرف مقصده الا بعض أفراد قلائل ، وحتى هؤلاء لم يكونوا يعرفون ما هى خطته ، وماذا عساه يفعل ؟ وكل ما فى الأمر انهم بايعوه على السمع والطاعة فهم معه حيث كان وأنى سار •

لايعرفون مقصدهم ...

وبعد أن أوغل الجميع فى الصحراء ، أدركوا أنهم يتجهون صوب الرياض • ولكن ماذا عساهم فاعلين ؟ هاهو ذا عبد العزيز يسير على رأسهم فى ثقة وعزم واقدام ، فلم يبق الا أن يتابعوه والعربى بطبعه ليس جبانا ولا رعديدا •

وكان عبد العزيز هو وحده الذى يعرف الخطة التى رسمها لنفسه • ان هدفه أن يستولى على الحصن وأن يستولى عليه بالحيلة بعد أن يقتل أميره عجلان •

مهمته اذن ، تتلخص فى قتل عجلان ، وهى مهمة لا تحتاج الى جيش كبير ، فقد عجز الجيش عن تحقيق هذه الغاية ، ولكنها تحتاج الى قلب كبير وخطة خفية محكمة• وهذا ماكان ابن السعود ينسج شباكه ورجاله يستحثون مطاياهم للاقتراب من الرياض • وكانوا يسيرون بالليل ويستخفون بالنهار حتى لا يكشف أمرهم انسان ، حتى اذا كانت الليلة الرابعة من شهر شوال سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) اقترب ابن السعود والذين معه من الرياض ، ولم يبق بينهم وبينها الا مسيرة ساعتين فاختار

شوال سنة ١٣١٩

لرجاله منزلا أناخوا فيه مطاياهم . ثم تناولوا طعام العشاء فى هدأة الليل وشربوا قهوتهم العربية ، حتى اذا أوشك الليل أن ينتصف اختار ابن السعود أربعين من رجاله على رأسهم شقيقه محمد وابن عمه عبد الله ابن جلوى وهما من أشجع العرب وأقواهم شكيمة ، وترك عند متاعهم عشرين رجلا مدججين بالسلاح والعتاد استعدادا للطوارىء قائلا لهم : اذا وصلكم نبأ انتصارنا فأقدموا على بركة الله ؛ أما اذا كانت الأخرى فكونوا رسل نعيى الى أبوى وأهلى وعشيرتى ! .

ولسنا فى حاجة الى كبير خيال لنتصور ماذا كان يدور فى نفوس القوم فى هذه اللحظة وهم يفترقون ، ولسنا فى حاجة الى بيان لتصوير ما كانت عليه أعصابهم من توتر ، ولو قلنا ان قلوبهم كانت توشك أن تقف فى هذا الوقت من لحظة لأخرى لما كنا مبالغين .

اقترب ابن السعود من المدينة ... انها تغط فى سبات عميق ، كأى بلدة من بلاد الصحراء بعيدة عن مفاسد المدن ، ولم يكن يسمع فى هدأة الليل الا هذه النواعير (السواقى) التى لا تكف عن الغناء والتطريب بالليل والنهار . واقترب ابن السعود أكثر وأكثر حتى أصبح بالقرب من أسوار البلدة ، فهل كان يعرف الأربعون الذين اقتربوا من هذه الأسوار ما هو عملهم بالضبط ؟ لا ، ان الوقت لم يحن بعد . لقد عاد ابن السعود لقسمة رجاله فأبقى خارج الأسوار ثلاثة وثلاثين من رجاله ، واختار سبعة ليصحبوه فى المرحلة الأخيرة من مغامرته ، أو المرحلة الأولى اذا شئت ، وكان من بين هؤلاء السبعة شقيقه وابن عمه بطبيعة الحال . وتخطى هؤلاء السبعة الأسوار دون أن يثيروا شبهة أو ريبة ، واقتربوا من بيت فلاح من سكان الرياض اسمه جوير فطرقوا بابه ففتح لهم ، ولم يكد صاحب الدار يعرف من الطارق حتى كاد يجن من الفرح والدهشة فى ذات الوقت ، فهذا عبد العزيز آل سعود يطرق بيته فى منتصف الليل ، ولكن الوقت لم يكن وقت ضيافة أو دهشة أو فرح ؛ انها خطة محكمة يتوقف على نجاحها تبوؤ عبد العزيز ملك آبائه وأجداده؛

سبعة يتسلقون الأسوار

ويترتب على فشلها ضياع حياته • ولذلك فقد وضع رب البيت وكل من فى البيت فى احدى حجرات البيت وطلب منهم أن يصمتوا ولا يتحركوا أو يحدثوا حدثا ، وتوعدهم بالموت اذا خالفوا أوامره ، ولم يكونوا فى حاجة الى هذا التهديد فهم له سامعون ومطيعون •

الخطة :

عبد العزيز يبسط خطته

وبدأ ابن السعود يشرح خطته فى صوت خافت لهذه العصبة من الرجال معه : ان عجلان مولى آل الرشيد وأمير الرياض يقيم فى الحصن فى أغلب الأوقات ، ولكنه متزوج بامرأة من الرياض تقيم فى بيت يجاور هذا البيت الذى يكمن فيه الآن ابن السعود ومن معه ، فلو استطاعوا أن يتسللوا الى بيت زوجة عجلان فى هدأة الليل اذن لقتلوه على فراشه، وانتظروا حتى يصبح الصباح ويفتح الحصن أبوابه ، وهو فى مواجهة الدار التى يكمنون بها ، فيقتحمونه على غرة من الحرس الذين ستذهلهم المفاجأة فلا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا •

هذه هى الخطة كما رسمها ابن السعود فى رأسه قبل أن يغادروا الكويت • بسيطة كل البساطة ، وتؤدى فى حالة نجاحها الى امتلاك الرياض وحصنها ولكن لابد لنجاحها من شىء واحد وهو توفيق الله ، فاذا منحوا هذا التوفيق ، سقطت الرياض فى أيديهم ، واذا تخلى عنهم التوفيق سقطت رؤوسهم من فوق أكتافهم ، وهذه هى المغامرة • وهل تمت عظائم الأعمال الا من خلال المغامرة والمجازفة ؟ •

تسلل ابن السعود وعصبته من بيت جوير الى البيت المجاور فوجد به شخصين يغطان فى سبات عميق فلفهما فى فراشهما ، ووضع الى جوارهما من يضمن سكوتهما حتى الصباح ، ثم نفذ الى بيت امرأة عجلان بعد أن كان قد أرسل من يحضر بقية الرجال الأربعين ، فجاءوا خفافا لا يسمع لهم صوت ، وتكامل الأربعون رجلا وعلى رأسهم هذا المارد الجبار فى فناء بيت عجلان ، وقد كان السكون يسيطر على المكان فى عمق ، ولم يكن يفصلهم عن هدفهم الا هذا الباب المغلق ، والذى لابد أن يكون وراءه عجلان وامرأته يغطان فى سباتهما العميق ، والا لشعر

بصوت أربعين رجلا فى فناء بيته حتى ولو كانوا من الأشباح غير الآدمية. وفتح ابن السعود الباب فألفى على الفراش شخصين كما توقع ولكنهما لم يكونا عجلان وامرأته بل امرأة عجلان وأختها • واقترب منها ابن السعود فأيقظها برفق ولعلها هتفت به فى ذلك الوقت مذعورة : انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ؛ ولكن ابن السعود لم يلبث أن عاجلها بالسؤال عن زوجها ، وأدركت المرأة فى لمحة عين كل شيء • فهذا عبد العزيز آل سعود يبحث عن زوجها لقتله • ويروى الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار فى كتابه « صقر الجزيرة » والذى روى هذه القصة مفصلة نقلا عن الثقات بطبيعة الحال وأقرب المقربين من ابن السعود ؛ أن المرأة أسرعت الى الانضمام الى ابن السعود اخلاصا له • ونقول نحن ان ذلك موقف لا سبيل فيه لاظهار الاخلاص أو عدمه ؛ فلم يكن للمرأة خيار وقد كان السيف على رأسها •

هل انضمت زوجة عجلان للمؤامرة..؟

أعاد عليها ابن السعود السؤال وقد هدأ من روعها سائلا عن زوجها، فأجابته انه قد بات هذه الليلة فى الحصن • أيكون التوفيق قد أخطأهم وأفلت الطير من الفخ •• ؟ قالت له المرأة تحت ضغط أسئلته والحاحه : انه سيجيء اليها فى الصباح المبكر • ومن يضمن بقاء السر مكتوما حتى الصباح ؟ • ومن يضمن أن لاتبدو حركة هنا أو هناك فينفضح كل شيء؟ ومع ذلك فلم يكن هناك مجال للتردد أو التراجع ؛ ولم يبق أمام القوم الا أن ينتظروا وأن يصبروا حتى مطلع الفجر •

ويكتب لنا الأستاذ عبد الغفور صفحات شعرية طويلة واصفا حالة القوم فى هذه اللحظات الحرجة ، وبأى حديث كان يناجيهم ابن السعود ليثبت أقدامهم ، وكيف قام يصنع لهم القهوة بنفسه ويقدم لهم الطعام ، وكل ذلك جائز ومعقول ، ولكن الذى أحسب أن خيال أديب الحجاز قد شط فيه هو قوله أن ابن السعود قد نام هو ورجاله •

« تناول هؤلاء الأبطال طعامهم وشرابهم ، وأخذوا مضاجعهم يريحون جنوبهم وقلوبهم يستجمعون القوى والنشاط استعدادا للمجازفة

مناقشة كتاب صقر الجزيرة

بأثمن مالديهم — ولدى الناس — بأعمارهم ، بحياتهم ••• انها رهينة هذه المجازفة •

فلندعهم نائمين ريثما يوقظهم الفجر » •

ثم راح الأستاذ عبد الغفور يعلق على هذا الموقف ما شاء له الله أن يقول فى وصف البطولة التى لا مثيل لها ثم عاد ليقول :

« أعلن المؤذن لصلاة الفجر يقطع بصوته الجهورى صمت الليل يهيب بالناس أن الصلاة خير من النوم فاستيقظ عبد العزيز ونبه رجاله لأداء فرائض الله » •

ونحن نقول للأستاذ عبد الغفور أن لو كانت هذه ليلة ، وكان هذا موقفا ، مما ينام فيه ابن السعود فالأحرى به أن لا يعد فى زمرة أتفه الجنود شأنا فضلا عن أن يعد فى صفوف الأبطال •

أينام ابن السعود وهو فى بيت عدوه وفى ظلال حصنه ، وقد تؤدى غلطة واحدة بل قد يؤدى ارتفاع شخير رجاله الى كشف السر وضياع حياتهم بل وضياع آمالهم ؟ • وكيف ينام من يترصد خصمه ليقتله ؟ • وكيف ينام من يريد أن يبنى ملكا بضربة واحدة من ساعده ؟ وكيف ينام عبد العزيز فى هذه الليلة وقد أصبح بينه وبين المجد أو القبر سد أوهى من خيط العنكبوت ؟ لا يا سيد عبد الغفور لقد جمح بك الخيال فصورت شيئا مستحيلا على العلم والعقل فى مثل هذه الظروف • وحتى لو قيلت لك هذه الرواية لوجب أن تستبعدها ؛ ولو قالها عبد العزيز آل سعود نفسه لناقشته فيها ولما صدقته الا أن يقول لى : لقد أوقف على رأسه رجاله الأشداء ليحرسوه وليوقظوه لدى أول حركة ، أما أن يقال أن صوت المؤذن هو الذى أيقظه وأنه دار يوقظ رجاله ، فهذا عمل لو صح لما كان بطولة ولما استحق عبد العزيز أن يكون كما كان •

٤ شوال :

فتح حارس الحصن خوخة الباب الكبير فان سيده قد صلى الفجر وحان موعد ذهابه لزوجته لتناول طعام الافطار معها بعد أن يلقى نظرة

على خيوله الكريمة الأصيلة ، والتى يطرب كل فارس لمرآها وتعهدها .
وخرج عجلان من خوخة الباب وهى مرتفعة عن الأرض بمقدار متر فليس اجتيازها بالأمر السهل ، ونفذ عجلان الى هذه السـاحة أمام الحصن ، وراح يستنشق نسيم الصباح ويتلفت فيما حوله وسار بضع خطوات فى طريقه الى مربض الخيول وبيت زوجته . ولكن احساسا غريبا قد غمره فجعله يتوقف فى منتصف الطريق ثم يتلفت حوله فى استرابة ، ثم لا يلبث أن يعود منثنيا الى الحصن فى خطوات مسرعة بعض الشيء . هل رأى شيئا ؟ هل سمع شيئا ؟ هل لاحظ شيئا غير عادى ؟ ان عجلان لم يعش حتى يروى لنا ماذا حدث ، فان الذى قص القصة هم الذين قتلوه ، والذين شاهدوه يقوم بهذه الحركة فأسرعوا خلفه ليقتلوه قبل أن يدخل الحصن فيتقرر مصـيرهم . وقد يكون عجـلان قد لاحظ شيئا غير عادى ، ولـكن الذى لا شك فيـه أن الكائن الحى اذا اقترب من الخطر الداهم شعر باحساس غير عادى ، وقد يمر به فلا يفهمه فيتردى فى الخطر ، وقد يكون من توفيق الله له أن يثنيه عن الخطر .

الشعور الخفى باقتراب الخطر

لقد كان ابن السعود يقف خلف باب عجلان مسلطا سيفه ، وخلفه أربعون رجلا ليجهزوا على عجلان بمجرد أن يفتح الباب ، فاذا لم يكن كل ذلك بالذى يحمل الى عجلان شيئا من الاحساس والشعور بالخطر اذا اقترب من هذا الباب ، فلن يكون فى الحياة كلها شيء اسمه غريزة البقاء أو روح وقوى روحية وقوى مغناطيسية ، ولن يكون فى هذه الحياة شيء اسمه الهام ، بل لن يكون فيها سر غامض عميق لهذا الذى نحسه جميعا ونشعر به .

كيفما كان الأمر فقد أجمع كل من اشترك فى الحادث ، أن عجلان خرج من خوخة الحصن سادرا لاهيا لايبدو عليه أنه يحس بأى أمر غير عادى ، وأنه قصد بيت زوجته ، حتى اذا كان فى منتصف الطريق اذا به يتوقف ثم يتردد ، ثم يدير ظهره ويتجه صوب الحصن بخطى خفيفة .

وكان على ابن السعود أن يدرك خصمه قبل أن يدخل الحصن مرة أخرى ويضيع أمله الى الأبد • وقد كان ، فقد خرج ابن السعود شاهرا سيفه يعدو وراء عجلان ومن ورائه شقيقه وابن عمه • وسمع عجلان الصوت ورأى الموت ، وهكذا تجسد له ما كان يختلج فى نفسه من غموض وابهام • فأسرع يجرى وكل همه أن ينفذ مرة أخرى من خوخة الحصن ثم يبحث عن جلية الأمر • ولكن متعقبيه كانوا أكثر شعورا منه بالخطر فيما لو أفلت منهم فكان انقضاضهم عليه أسرع من فراره ، ومع ذلك فلولا هذه الخوخة اللعينة لما أمكنهم أن يدركوه بأى حال من الأحوال فلا سبيل لاجتيازها والانسان يعدو أبدا ، الا أن يحاول أن يدخل برأسه أولا ثم يفرد جسده ، ويحاول أن يقذف بنفسه قذفا الى الداخل • وهذا ما فعله عجلان فضاعت سرعته ووضع نفسه فى وضع جعله فريسة سهلة هينة ، فقد أدركه ابن السعود أو بالأحرى أدرك قدميه فأمسك بهما وراح يجذبه الى الخارج ليحول بينه وبين الدخول• وبينما هما فى هذا التجاذب ، كان عبد الله ابن جلوى ابن عم عبد العزيز قد لحق بهما فقذف بحربته ليطعن بها ظهر عجلان الممدود أمامه ، ولكن الضربة طاشت فانغرست الحربة فى خشب الباب السميك ، فلما حاول أن ينزع الحربة بغضب تكسر سنها وظل عالقا بالباب • ولكن ذلك كله كان قد أورث عجلان وقتا وقوة فاستطاع أن يخلص نفسه من ابن السعود وأن ينفذ الى داخل الحصن ، ولكن ابن السعود كان فى أعقابه وعبد الله بن جلوى فى أعقابهما ، وأصبحت المسألة الآن مسألة ثوان والويل لمن يخطئه التوفيق • لقد تنبه كل من فى الحصن لما حدث، وقد أسرع بقية رجال ابن السعود فى آثاره ، فشاهدهم جنود عجلان من أبراج الحصن ، فراحوا يطلقون عليهم الرصاص وهم محصنون فى ابراجهم والآخرون مكشوفون فى الساحة وعرضة للاجهاز عليهم ، فلم يكن أمامهم الا أن يسرعوا الى داخل الحصن من هذه الخوخة المفتوحة، والتى مرق منها عجلان وابن السعود فكان اندفاعهم اليها على أثرهم حائلا دون تمكن الحارس الذى أذهلته المباغتة من اغلاقها • أما ماذا

المطاردة القاتلة

الإجهاز على عجلان

حدث فى هذه اللحظات الرهيبة فى داخل الحصن فيتلخص فى اطلاق عبد الله بن جلوى (طبنجته) على عجلان بمجرد دخوله من الخوخة ، وفى هذه المرة لم يخطئه الطلق فسقط الرجل يتشحط فى دمه ، وهتف ابن السعود ومن معه : الله أكبر . الله أكبر ..

لم يكن التغلب بعد ذلك على حامية الحصن بالأمر الصعب ؛ فان هول المباغتة دائما يشل الأعصاب ويفقد الصواب ، وهاهم أولاء ولما يكد النهار يطلع يقتل أمامهم أميرهم ، ويندفع الى داخل الحصن أربعون رجلا جعلتهم المغامرة ، وما يحيط بهم من خطر داهم كأنهم نار جائحة أو اعصار مدمر . ولا شك أن عددهم تجلى فى نظر حامية الحصن أضعاف أضعاف حقيقتهم ، وقد وجدوهم يخرجون سراعا من هذا البيت فى مقابلة الحصن . ومن يدرى أنهم ليسوا طليعة الجيش الكبير الذى سيبدو على آثارهم ؟ كل ذلك جعل مهمة التغلب عليهم سهلة هينة ، ورفض عشرون منهم أن يستسلموا فتحصنوا فى أحد الأبراج ، ثم لم يلبث القوم أن تغلبوا عليهم فضربوا أعناقهم فى احدى القاعات فسال دمهم غزيرا من السقف وانحدر على الجدار . فتح الحصن

وراح الدليل يرينا آثار هذه المعركة ويصورها لنا . هذه هى دماء الحرس الذين أعدموا وقد تجمدت على الجدران ؛ ونظرنا الى حيث أشار الدليل الى السقف فوجدنا آثارا سوداء هى آثار الدماء عندما تمضى عليها الأيام والسنون . وهذه هى خوخة الباب التى دار حولها الصراع فى أول مراحله . وهذه هى بقية حربة ابن جلوى لا تزال غائصة فى خشب الباب ، لقد علاها الصدأ ولكنها ما تزال هناك شاهدة على هذه الملحمة وعلى هذه الضربة الطائشة ، والتى كان يمكن أن تؤدى الى هلاك ابن السعود ومن معه وحرمان الجزيرة من كل تاريخها الحديث . ولكن ضربة ابن جلوى الثانية قد أنقذت الموقف وحققت ارادة التاريخ . هاهى ذى آثار الأعيرة النارية التى أطلقها لاتزال على الجدران . ما أروع الآثار التاريخية الصادقة انها تبقى الحوادث حية لا مجال فيها لأعمال

الخيال ، فلو قيلت لى هذه القصة التى سردتها دون أن أرى ما رأيت لتصورتها خرافة من الخرافات ، ولكن ها هو ذا كل شيء يؤكد أنها حق وحقيقة . وسألت الدليل ونحن وقوف فى الساحة خارج الحصن : وأين بيت عجلان الذى اختفى فيه ابن السعود ؟ . فأجابنى : لابد أنه كان فى هذا المكان ، ثم هدم وأصبح جزءا من هذه الساحة . ما أعجب هؤلاء القوم ! انهم لايؤمنون بشيء اسمه آثار يحافظ عليها ، ولولا أن هذا الحصن لا يزال قائما ينتفع به كسجن لهدم منذ زمن بعيد ، ولما ظل محتفظا بهذه الآثار . كيف يهدم بيت عجلان وبيت الفلاح المجاور له ، وقد كان الواجب أن يبقيا ليرى كل انسان كافة أجزاء المسرح الذى تمت عليه هذه الرواية العجيبة .

لايحفلون بالآثار

ابن السعود يبدأ ملكه

– ٦ –

كان تعليق ابن الرشيد سيد نجد عندما سمع باحتلال ابن السعود للرياض بهذه المؤامرة التى وصفناها : انه لو نفض عباءته لفر ابن السعود مذعورا من الرياض ، وما هو الا أرنب فى جحر يستطيع أن يقبض عليه حيث شاء وأنى أراد . وقد كان ابن الرشيد محقا فى هذا التصور كل الحق . ألم ينسحب ابن السعود من الرياض ومعه جيش من ألف رجل عندما علم بمسير ابن الرشيد اليه ؟ فماذا عساه يفعل اليوم بدون جيش اطلاقا ؟ .

أرنب فى جحر

ومع ذلك فان ابن الرشيد لم يفكر فى الهجوم على ابن السعود احتقارا لشأنه من ناحية ، وخوفا من المباغتة من ناحية أخرى ، فقد كان يخشى أن يكون فى الأمر كمين فلم يدخل فى عقله أن ابن السعود يجازف هذه المجازفة ، وهو لا يملك من الأمر شيئا ، ولابد أن هذه مناورة يراد منها أن يتجه ابن الرشيد الى الرياض بجيشه ، فلا يلبث مبارك الصباح أن يباغت حائل بجيشه ، واذن فالقضية ليست قضية ابن السعود وانما هى قضية مبارك بن الصباح أمير الكويت والذى ما فتئت نفسه تحدثه بفرض سلطانه على شرق نجد . وراح ابن الرشيد يراسل الأتراك

ليساعدوه على غزو الكويت التى دخلت تحت حماية الانجليز ، وأضاع فى هذه المراسلات وقتا ثمينا استغله ابن السعود فى توطيد مركزه فى الرياض والقبائل المحيطة بها ، فلما أن جاء أوان اصطدام ابن الرشيد بابن السعود كانت الفرصة قد أفلتت منه ، وكان ابن السعود قد أصبح عصيا بل أصبح ندا لابن الرشيد ويمتاز عنه بخلائقه التى حببت اليه الناس وجمعت حوله القلوب . وكانت معارك بين الرجلين انتهت بهزيمة ابن الرشيد فى سلسلة من المعارك أطلق عليها معركة البكيرية ، وغنم ابن السعود أسلحة ابن الرشيد فزاد ذلك من قوته وفى روضة مهنا ظفر جيش ابن السعود بابن الرشيد فقتله ، ولم يسع آل الرشيد الا أن يعقدوا الصلح مع ابن السعود ثم شاءت السياسة أن تؤلبهم بعد ذلك عليه ، وظلت الحرب بينهم سجالا حتى انتهى الأمر بأن نزلوا عند حكمه ، فدخل ابن السعود مدينة حائل قاعدة امارة آل الرشيد سنة ١٣٣٨ هـ . ونزل أمراء آل الرشيد ضيوفا مكرمين عند ابن السعود يؤلفون بعض بطانته وحاشيته ولا يزالون عنده حتى الآن يعاملون كما يعامل بقية الأمراء من آل سعود .

ابن الرشيد يضيع فرصته

مقتل ابن الرشيد

انتصار ابن السعود

وفى سنة ١٣٣١ هـ فتح الأحساء وضمها الى نجد ثم كانت الحرب العالمية الأولى فوقف ابن السعود فى انتظار نتيجتها ، بعد أن عقد معاهدة مع الانجليز سنة ١٩١٦ م . فلما انتهت الحرب العالمية الأولى وخرج منها الشريف حسين يعتبر نفسه ملكا على العرب حدث الاصطدام بينه وبين ابن السعود الذى لم يعترف له بهذا الملك ، فكانت سلسلة أخرى من الوقائع التى بدأت فى سنة ١٣٣٧ هـ ١٩٢٠ م فى بلدة تربة التى تنازع عليها الرجلان ، وهل هى من الحجاز أو من أعمال نجد ؛ وقد هزم فيها جيش الحسين برياسة ابنه عبد الله (ملك شرق الأردن الحالى) هزيمة منكرة حيث مات فيها خمسة آلاف من خيرة جنود الجيش وخسر فيها كل أسلحته التى زوده بها الانجليز والتى حارب بها الأتراك أو غنمها منهم ، وفر الملك عبد الله ناجيا بجلده من هذه المعركة ، ولولا تدخل

معركة تربة

الانجليز لصالح الملك حسين لاستطاع ابن السعود أن يفتح الحجاز فى هذه السنة ، ولكن ابن السعود الداهية الأريب الذى يعرف كيف يصبر ومتى ينفذ خططه وكيف لا يبدأ أحدا بعدوان ولا يسمح للأجانب بالتدخل فى شئون العرب عاد بجيوشه فى هذه السنة تاركا الحجاز وشـأنه •

الملك حسين وابن السعود :

ولكن الملك حسين مضى فى خصومته لابن السعود ، لأن الجزيرة لم تكن تحتمل سيدين فى آن واحد ، فراح يمنع حجاج نجد من دخول بيت الله الحرام • وظلت الأمور تسـوء ، بين الملك حسين وبين ابن السعود أكثر وأكثر ، فى الوقت الذى كانت تسوء فيه مع الانجليز من ناحية أخرى ، حيث كان يطالبهم بتنفيذ عهودهم التى عاهـدوه عليها أثناء الحرب من توليته امبراطورا على بلاد العرب كلها بما فيها فلسطين وسـوريا • فكان أول النكث اعطـاءهم سوريا لفرنسا واستيلاءهم على فلسطين ومنحهم اياها لليهود فى صورة وطن قومى فى بادىء الأمر • ووجد الملك حسين نفسه مضطرا لمخاصمة الانجليز والتنديد بسياستهم • فعل ذلك ، فى نفس الوقت الذى كان يضايق النجديين ويحول بينهم وبين الحج ، ويؤلب على ابن السعود سائر قبائل الجزيرة كابن الرشيد قبل أن يستسلم • فلم يسع ابن السعود الا أن يهتبل هذه الفرصة ويبعث بجيوشه صوب الحجاز فاتحة غازية • فكان سقوط الطائف على ما وصفناه سابقا وتلاه احتـلال مكة وتنازل الحسين عن الملك لابنه على الذى ألف حكومة جديدة راحت تواصـل المقاومة فى مدينة جدة بصورة عقيمة حتى اذا كانت سنة ١٣٤٤ — ١٩٢٥ لم يسع على بن الحسين الا أن يتنازل عن الملك وأن يفسح الطريق لابن السعود الذى دخل جدة صباح الخميس ٨ جمادى الثانى سنة ١٣٤٤ هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٥ م) وبذلك أصبح سيد الحجاز كما هو سيد نجد ، وبذلك دانت له الجزيرة العربية

فتح الحجاز واندحار الأسرة الهاشمية

كلها باستثناء اليمن فى طرفها الجنوبى الغربى والمحميات السبع التى فرض الانجليز حمايتهم عليها من قبل ، وقد أتيحت الفرصة لابن السعود أن يضم اليمن الى سلطانه ، ولكنه أرجع جيوشه عنها بعد أن كادت أن تدهم عاصمتها ، وذلك نزولا عند وساطة المسلمين فى الظاهر وخوفا من التدخل الأجنبى فى الباطن ، وليس هناك ما يخشاه ابن السعود وما عمل طول عمره جاهدا لتفاديه ، أكثر من تدخل قوى الاستعمار الأجنبى فى جزيرة العرب .

ويتربع ابن السعود اليوم على ملك الجزيرة بأقوى مما أتيح لواحد من أسلافه أو غير أسلافه ، وقد مرق من حربين عالميتين مروق السهم ، فحافظ فيهما على حياده الدقيق فلم يزج بنفسه فى مغامرات طمعا فى توسيع رقعة ملكه هنا أو هناك . فالرجل الحصيف يدرك أنه ما بقى فى داخل جزيرة العرب فهو الحاكم المسيطر على كل الظروف والعناصر ، أما اذا امتد بها الطمع الى خارج حدود الجزيرة ، فهنا يكون الاصطدام بقوى الغرب المتألب ، هنا ويكون الفشل والخذلان الذى أصيب بها أجداده الأقدمون ، ولذلك فقد لاذ الرجل بالحكمة فأصبح شعاره جزيرة العرب لا شبر زيادة عليها ولا شبر ينقص منها . وليس هناك من يستطيع أن يدانى ابن السعود فى هذا النجاح الذى أحرزه ، ليس فقط فى الوصول الى ما وصل اليه ، بل فى المحافظة على ما وصل اليه وسط زعازع العالم وأعاصيره التى لم تنج من ويلاتها أمم عظيمة ضخمة كالألمان والطليان واليابان ، وكادت تفقد فيها استقلالها الى الأبد أمة مجاورة له كايران .

مقامنا فى الرياض :

كانت زيارتنا للحصن هى أول ما فعلنا فى الصباح ، ثم جلنا جولة فى أسواق الرياض ، وليست الرياض كلها فى حقيقتها الا سوقا لهؤلاء الأعراب الذين يجيئون من كل فج عميق من الصحراء ليشتروا ما يحتاجون اليه . ولهذه السوق تقلبات فهى تارة فى صعود وأخرى

فى هبوط • وصعودها عندما يكون الملك فى الرياض ، هنا وترتفع الأسعار لشدة الطلب فالملك وحاشيته ورجاله كل هؤلاء يقبلون على الشراء ، وهم ليسوا بالعدد القليل ، إنهم نصف الرياض ان لم يكن أكثر ، أو بالأحرى نصف المستهلكين لما فى الرياض من سلع • أما اذا بارح الملك الرياض الى مكة فالسوق راكدة لا بيع فيها ولا شراء الا النادر القليل •

سوق الرياض

رأينا الملابس البدوية المزركشة سواء للرجال أو النساء وهى معلقة على أبواب الحوانيت لكى تشترى جاهزة وتلبس على الفور • ورأينا النحاسين يصنعون الصنابير الكثيرة الاستعمال فى الرياض وما حولها ، ويصنعون أجهزة أخرى وأدوات نحاسية يحتاج اليها البدو لعمل القهوة أو للطهى وغيره من الشئون • ووجدنا لذلك كله حركة لم نلحظها فى غير نجد ، ووجدنا حوانيت البقالين مكتظة بمحفوظات العلب الأمريكية من كل لون ومن كل طراز ، وبالجملة فقد رأينا سوقا ضخمة غاصة بالحركة والنشاط • وقد كانت هذه مفاجأة لنا فلم نكن نظن أنا سنجد فى بطن الصحراء هذه الخلية العامرة • ثم تذكرنا أنها عاصمة البلاد فى نهاية الأمر ، وأنها مقصد عشرات بل ومئات الألوف فى كل عام من رجال البادية ليس لهم مركز يمتارون منه سوى هذا المركز •

جولة فى قصر الأمير

وقرب موعد صلاة الجمعة فذهبنا الى الأمير فى قصره فوجدناه فى انتظارنا وغمرنا بحفاوته التى بدأت تتزايد كلما طال بنا المقام عنده ، وأحسست هذه المرة أنه أنس الينا أكثر منه بالأمس فراح يقدم لى أولاده ويحدثنى عن دروسهم وأنهم يتعلمون الانجليزية • ثم طاف بنا فى أنحاء القصر لنشهد محتوياته • وكانت المفاجأة الكبرى فى حجرة المكتب ، فلأول مرة نرى مكتبا فى جزيرة العرب وياله من مكتب ! ويا لحجرة المكتب من شيء بديع ! • لقد صنع المكتب وكل أثاث الحجرة من الأخشاب المطعمة بالصدف فبدت الحجرة كقطعة فنية تليق بقصر أمير عربى • ولم يكن هذا هو كل ما يلفت النظر فى حجرة المكتب

بل أن محتوياتها هى التى تثير الاعجاب والتساؤل • فهذه كرة أرضية كبيرة يستخدمها الأمير لمعرفة موقع أى مكان فى أنحاء العالم ويعلم عليها أبناءه ، والى هنا قد يكون الأمر بسيطا وعاديا ، فاذا ذكرت أنك فى الرياض التى حرم فيها الى وقت قريب تدريس علم تقويم البلدان (الجغرافيا) لا لشىء الا لأنه يقال فيه ان الأرض كروية ، اذا تذكرت أنك فى البلدة التى يحكم علماؤها بالكفر على سائر المسلمين فى أنحاء الدنيا لأنهم ارتضوا هذه العلوم العصرية الحديثة ، استطعت أن تدرك دلالة هذه الكرة الأرضية ، وأن ولى عهد هذه المملكة الفتية يؤمن بنور العلم ، وقد قرر أن يفرضه على رعاياه فرضا مبتدئا بأولاده ايمانا منه أن لا نجاح لبلاده أو استقامة لأمورها الا فى ظل العلم •

كرة أرضية في الرياض

وفى الحجرة كل ما يحدثك عن رحلات الأمير سعود فى ربوع العالمين ، وآخرها هذه الرحلة الكبرى فى أنحاء الولايات المتحدة فهذا نموذج معدنى لهذه الطائرة الجبارة التى حملته وحاشيته الى العالم الجديد ، وهذه صور مع أقطاب السياسة العالميين وها هو ذا الى جوار ترومان فى صورة واحدة ، وها هى ذى صورة ترومان موقعا عليها بامضائه الى ولى عهد المملكة الصديقة •

وهذه كتب وهذه أجهزة علمية أخرى ، ولولا أن موعد الصلاة كان قد قرب لما استطعت أن أبارح هذه الحجرة التى استهوانى كل ما فيها •

وأدينا صلاة الجمعة فى مكان من القصر يطل على المسجد ويتصل به ، ولست أعرف هل هذا اجراء دائم أن لا يصلى الأمير وسط الناس أو أنه اجراء مؤقت يلجأ اليه الأمير والملك من حين لآخر عندما يكون فى عجلة من أمره لسبب من الأسباب ؟ •

وخطب خطيب المسجد احدى هذه الخطب المحفوظة ، ولم أكن أتوقع شيئا غير ذلك فما دام الجمود مسيطرا على رجال الدين فهم

لا يمكن الا أن يتدهوروا فلا يعودوا قادرين على الابتكار بل يقنعون بالحياة على قشور من سبقوهم ، فيرددون كلمات وأقوالا لا تخرج من قلوبهم بل من حافظتهم فلا يكون لها أدنى أثر فى الناس •

المأدبة الملكية :

وحان أوان المأدبة الملكية التى دعانا الأمير اليها عقب الصلاة ، ولم يكن هناك ما أخشاه أكثر مما سألقاه على هذه المائدة من أصناف طعام لا أستسيغها ، أو شراب تعافه نفسى كلبن النياق • وقد كان لبن النياق هذا هو الشبح المخيف الذي يجثم على نفسى منذ بدأنا رحلتنا الى الرياض ، فصديقنا فؤاد شاكر قد حدثنا عن لبن النياق الذى كان يقدم له فى كل مراحل الطريق وكيف عافته نفسه فى بادىء الأمر ، ثم لم يلبث أن أحبه حتى أصبح لا يستغنى عنه • والأستاذ فؤاد شاكر رجل رضى النفس على استعداد لأن يروض نفسه على شرب مالم يألفه ، أما أنا فليس هناك شىء تعصانى فيه نفسى أكثر من أن أضطرها على شرب مالم تألف أو أكل ما لم تعتد • فحملت (همّ) لبن النياق ولحمها ، ولكن الله سلم طوال الطريق فلم تتعرض لهذه المحنة، وفى دار الضيافة لم يقدم لنا لبن النياق وقدم لنا طعام طهى على الطريقة الحديثة المألوفة ، أما اليوم ونحن فى مأدبة رسمية فأى طعام سنطعم وأى شراب سنشرب ؟ • كان هذا يشغل بالى فلم نكد نصل الى المأدبة ونجلس عليها حتى تولانى عجب أشد العجب ، وما أكثر المفاجآت التى لقيتها فى هذه الرحلة • فنحن على مائدة ملكية مدت فى ذوق وأناقة ونظام يعتز به أمراء البيت المالك فى مصر أو فى انجلترا وكبار الارستقراطيين فى أى مكان من أمكنة العالم • ووجدت على المائدة كل صنوف المتبلات الأمريكية فهذه (مسطردة) وهذا خل وهذه (صلصة) حمراء بنية وكل ما يوضع على الموائد الأمريكية • وأنواع من الأشربة اللطيفة كعصير البرتقال وعصير الطماطم وشراب الأناناس • ولما جاء أوان الطعام تبينت أن الطعام طهاه مصريون خدموا فى أرقى القصور فى مصر أو فى أعظم الفنادق •

لبن النياق

ولم أتمالك نفسى من الضحك وسألنى الأمير علام أضحك ، فقلت

له : كنت أخشى أن يكون طعامنا من لحم النياق وشرابنا من لبنها ، وكنت فى حيرة من أمرى كيف آكل دون أن يظهر على اضطراب وأنا الآن أخشى أن يظهر على الاضطراب فعلا ، لحيرتى بين هذا العديد من الشوك والملاعق والسكاكين ، ولست أعرف بأيها أبدأ وأيها استعمل ؟ • وكان من بين الأصناف التى قدمت الينا خضار (الاسبرج) أو ما يسمونه فى مصر (كشك ألماظ) ، وهو نوع من الخضار الذى لا يأكله فى مصر الا الارستقراطيون ، وقد أكون رأيته مرة أو مرتين ، أكلته فى واحدة منهما فلم أحبه ، فلما أن عرض علينا لم أتناول منه شيئا ، فاذا بالأمير يقول لى : ألا تأخذ الاسبرج ؟ انه مفيد وجيد • فاكتفيت بأن اعتذرت وأنا أعجب فى داخل نفسى من تصاريف القدر • ولما حدثت الأمير عن رعبى من لبن النياق قال لى : هذا هو • واذا بالساقى يأتى بكأس جميل يصب فيه من وعاء بللورى يحمله لبنا جميلا سائغا ، أى أن ما كنت أتصوره غولا مخيفا لم يكن فى حقيقته الا حملا وديعا واننا لم تتناوله من ثدى الناقة بل سنشربه فى كأس جميلة كأى لبن آخر أو شراب • ولم يكن ينقص وسط هذا الجو الا أن أشرب لبن النياق ولكن نفسى العصية أبت على ذلك ، حتى أننى أستطيع أن أقول اننى اجتزت الجزيرة وعشت فى الرياض دون أن أرى نفسى مضطرا لشرب لبن النياق ، بل وجدتنى مضطرا لتعلم آداب المائدة كآخر ما وضع لها الانجليز والأمريكان من آداب •

مائدة أمريكية

حفلة السباق :

كان حديثنا على المائدة يدور حول السباق الذى نظمه الأمير بعد عصر هذا اليوم ، حيث تتسابق فيه أصايل الجياد وعلى رأسها جواد الأمير المفضل • وفى الوقت المحدد ذهبنا الى حلبة السباق فوجدنا الأمير قد سبقنا اليها ، ووجدنا هذه المرة روح الأمير الحقيقية ، روح آبائه وأجداده حيث لا يميزون أنفسهم عن رعاياهم الا فى ميدان التقوى أو الفروسية أو الكرم ، وفيما خلا هذه النواحى الثلاث فلست تستطيع أن تميز بينهم وبين بقية الرعايا •

وبدأ السباق وفاز جواد الأمير فوزا كبيرا لا ريب فيه ، وقد كنت أعلنت تشككى فيما لو فاز بمسافة قصيرة أن يكون ذلك لأنه جواد الأمير ، فلما فاز بتفوق كبير أدركت أنه فوز عن جدارة • وقد جعلتنا حرارة السباق نقترح ألوانا مختلفة من المسابقات ، وأقبل الجميع كبارا وصغارا يشتركون فيها وكلهم تواق للحصـــول على مكافآت الأمير السخية •

بنـــو مرة :

وجرت لنا تجربة جديرة بالاشارة اليها وتسجيلها ، وهى تختص بقدرة هؤلاء البدو الذين يقصون الأثر ويتعقبـــونه ، وأنت لا تكاد تطأ أرض الجزيرة حتى تسمع الأحاديث والأعاجيب والمبالغـــات عن قدرة بدو بنى مرة فى تعقب الآثار ، وأن سبب الأمن الشامل انما يرجع الى نجاحهم الذى لا مثيل له فى اقتفاء آثار المجرمين بحيث لا يفلت منهم مجرم رأوا آثاره يوما ما منقوشة على الرمال ، ولو صادفوه بعد عامين أو ثلاثة أمسكوا بتلابيبه وصاحوا قائلين : هذا هو صاحب الأثر الذى ارتكب كذا وكذا من الحوادث فى عام كذا وكذا •

فى السماء برقية وفى الأرض مرية

ولقد أصبح من الأقوال المرددة بين الأعراب أن الافلات من يد ابن السعود هو ضرب من ضروب المستحيلات بعد أن أصبح له : « فى السماء (برجية) وفى الأرض مرية » اشارة الى التلغراف اللاسلكى الذى ينقل الأخبار والى بنى مرة الذين يتتبعون الآثار •

طلبت من الأمير أن يجرى لنا تجربة لنقف على مدى مهارة واحد من القوم كان موجودا ، فجىء ببعض الرمل فرش على الأرض ثم طلبنا من بعض الموجودين أن يسيروا على الرمل ففعلوا ، وكان بعضهم منتعلا والآخر عارى القدم ، ثم نودى على المرى فراح يفحص آثار الأقدام ويدرسها ثم طلب من الحاضرين أن يمروا على الرمال فلما أن مروا أمامه أمسك بتلابيب البعض معلنا أنهم أصحاب الآثار ، وقد كان صائبا فى قوله وفى تقديره • وكان بعض الأمريكان الذين يعملون

فى انشاء مطار الرياض والمحطة الكهربائية شهودا لهذه التجربة فكان تأثرهم لمرآها شديدا ، وأدركوا أن فى الحياة من ألوان الكفاءات ما يستعصى على الأمريكى الذى يظن أنه ملك أسباب السماء .

المطـار :

وفى عودتنا مررنا بمطار الرياض الكبير الذى تعمل شركة أمريكية على انشائه ، ويوم أن تفرغ منه سيكون من أكبر مطارات جـزيرة العرب . ولانشاء هذا المطار قصة طريفة تدل على عقلية ابن السعود وبراعته فى ادارة شئون مملكته ، وكيف يأخذ رعاياه بالرفق ويتدرج بهم لقبول ألوان المدنية الحـديثة فقد أنشئت المطارات فى أطراف الجزيرة ولكن الرياض ظلت محرمة على الطائرات لا تقترب منها . ثم رأى الملك أنه لا يستغنى عن انشاء مطار فى الرياض فأنشأه على بعد ساعتين من الرياض بالسيارة . وساعتان بالسيارة هى مسافة كبيرة فلا يمكن لأهل الرياض أن يروا الطائرات تظهر فى سمائهم ، ولكنهم بدأوا يسمعون عن المطار الذى تهبط اليه الطائرة ، وأن السيارات تذهب اليه وتجىء منه . حتى اذا ألفوا ذلك الأمر اقترب الملك بالمطار مسافة أخرى فأصبح على بعد ساعة ، وأخيرا ينشأ هذا المطار بصفة دائمة على أحدث طراز وهو لا يبعد عن الرياض سوى بضع دقائق وتظهر الطائرات فى سماء الرياض دون أن يثير ذلك لغطا أو احتجاجا أو رعبا وفزعا ، بعد أن أصبح القول لا يستغربون شيئا ولا يستبعدون شيئا على قدرة شياطين الافرنج . وقد لا يعرف الكثيرون أن التليفون لم يسكت عنه فى بادىء الأمر الا بعد أن احتال ابن السعود على علمائه فجعل فى أحد طرفى التليفون من يتلو القـرآن ، ثم جعـل العلماء يستمعون فى الطرف الآخر تلاوة القرآن فآمنوا وصدقوا أن هـذا التليفون ليس من صنع الشيطان ، وانه اذا كان من صنع الجن ، فهم جن مؤمنون لا خطر منهم .

دهاء ابن السعود فى معالجة رعاياه

وتتغير هذه العقليـة الآن بسرعة شديدة مع دخول الطـائرات

واللاسلكى والسيارات والآلات التى جعلت آل نجد يرون من أمور الدنيا ما لم يكونوا يرون أو يسمعون. واذا أردت أن تدرك مدى التطور الذى بلغته الرياض فحسبك أن تعرف أن لم يكن هناك جريمة يكفرون بها الناس أفظع من شرب الدخان ، حتى لقد اصطدموا يوما من الأيام مع المصريين بسبب شرب الدخان ، واليوم ينتشر الدخان فى كل أرجاء الجزيرة دون أن يجد معارضة أو ممانعة ، وقد كانت مفاجأة لى أن يقدم لى الدخان لتناوله فى دار الضيافة بالرياض ، ورأيت الكثيرين يدخنون دون أن يلقوا حرجا أو عنتا ما داموا لا يفعلون ذلك فى الأسواق العامة . وقد كان رجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقتحمون بعض الأمكنة بحثا خلف المدخنين فمنعهم الملك ابن السعود من ذلك ، فأصبح العمال وسائقو السيارات يدخنون داخل (الجراجات) كما أن رجال الادارة والمثقفين يتناولون الدخان . وهكذا تسير موجة التطور بشكل لا يستطيع أن يقف فى سبيله انسان ، وقد يكون التدخين من الآفات التى لا فائدة ترجى من ورائها ، وأنا شخصيا لست من المدخنين ، ولكنى أيضا لست من المبالغين الذين يعتبرون التدخين كفرا . وهذه هى عاقبة التطرف دائما تؤدى الى نقيضها ، فالرياض اليوم التى كانت على استعداد ، يوما من الأيام ، أن تحارب الدنيا كلها وأن تستشهد فى سبيل منع التدخين ، قد أصبح التدخين فيها أمرا سائغا .

انتشار التدخين فى الرياض

هدايا :

وفى هذه الليلة زرنا سكرتير الأمير الخاص الذى كان من أبناء مصر الفتاة فى مدينة وادى حلفا فى السودان وهو الأستاذ محمد خالد ، وبعد أن عدنا من لدنه الى دار الضيافة وجدنا هدايا الأمير فى انتظارنا ، ويالها من هدايا أمير عربى كريم أراد أن يبهرنا فوق كل ما بهرنا فهذه ساعات ذهبية وعباءات فاخرة وسجاجيد عجمية لى ولأخى الغندور بالتساوى ، لى واحدة وله واحدة من كل ، وزادنى عقدا من اللؤلؤ هدية

كرم الحواديت

منه لزوجتى فكان لهذه اللفتة الكريمة أثر عميق أبعد العمق فى نفسى •

وهكذا أبى الأمير ألا أن يجعلنا نبيت ليلتنا الثانية عنـده ونحن فى ابتهاج وسرور شديدين •

موقف الأمير سعود من فلسطين :

وكان باقيا من البرنامج قبل سفرنا الى الخرج أن أقابل الأمير مقابلة خاصـة فى قصره ليفضى الى ببعض الأسرار السياسية الخاصة بموقفه فى قضية فلسطين ، ولأوجه اليه ما شئت من أسئلة أو ملاحظات بعيدا عن أعين الرقباء • وهكذا شاء كرم الأمير سعود أن يهيىء لى كل شىء بما فى ذلك الخلوة به ، وكأنه كان يدرك مافى نفسى فقد غمرنا بكل شىء ولم يبق الا هذه ، فجعلها آخر البرنامج بحيث أخرج من لدنه لنمتطى سياراتنا الى الخرج مباشرة •

وفى الموعد المحدد صباحا لهذه الزيارة ذهبنا أنا والأستاذ الغندور ثم دعيت لمقابلة الأمير فوجدته لأول مرة يجلس منفردا ، وعلى الرغم من قصر المدة التى قضيناها سويا أصبح واضحا أن نفسيتنا قد امتزجت امتزاجا قويا ، ولذلك فقد هب معانقا لى • ثم راح يبادلنى تقديرا بتقدير وتحية بتحية ، وان الله قد فتح قلبه لى فعلى أن أعتبره أخا لى على طول الزمن ، وأنه سينظر الى هذه النظرة ويعتمد على هذا الاعتماد وقد كان هذا أقصى ما أتمناه •

ودعا سكرتيره الخاص وطلب منه أن يتلو بعض الخطابات السرية الخاصة التى لم يطلع عليها انسان وأنا أول من تقع عينه عليها بخلاف من كتبت له ومن كتبها وأملاها • وكانت هذه الخطابات متبادلة بينه وبين معالى الشيخ يوسف ياسين ممثل المملكة العربية السـعودية فى الجامعة العربية ، وفى خطاباته لمعاليه يطلب منه أن يعرض باسمه على الجامعة العربية استعداده للسير على رأس خمسين ألفا من مجاهدى نجد الى فلسطين فلا يعود منها الا بعد أن يقضى الله أمرا كان مقضيا •

خمسون ألف مقاتل

فأجابه الشيخ يوسف ياسين : انه تحسس الجو قبل عرض اقتراحه

وحام حوله فلم يجد الا صدودا وازورارا ، وان شرق الأردن والعراق ستقوم فى وجه مثل هذا الاقتراح . وفى خطابات أخرى يظهر عـزم الأمير سعود وتصميمه على المضى فى مشروعه مهما كانت العقبات والاعتراضات ، وهنا تجلت حكمة والده الذى تداخل فى الأمر وهدأ من حماسة الأمير الشاب مفهما اياه أن هذا الأمر لا يمكن أن يتم على غير رغبة البلاد العربية ، ومادامت لا ترحب به فالواجب يقضى عليهم بعد المغامرة برجالهم الذين قد يطعنون من الخلف ، أو يتهمون بأنهم يعتدون على البلاد العربية لأطماع جغرافية . شرق الأردن دائما

هذا هو موقف الأمير سعود أطلعنى عليه لأعرف أن كل ما يقـال عنهم من الاتهامات ، وأنهم لم يهبوا لنصرة فلسطين غير صحيح ، وأن الأمير سعود كأبيه وأجداده أكثر العرب غيرة على الاسلام والعروبة ، وأن بقية الدول العربية هى التى حالت بينهم وبين ما يريدون .

وقد كان جلالة الملك ابن السعود فى حديث خاص معى قد أشار الى نفس هذا الموضوع ، وكيف أنه عرض على البلاد العربية أن يرسل الى فلسطين عشرات الألوف من مجاهدى الاخوان فرفضوا ، وطالبوا بارسال بعض العساكر النظامية التى لا يملك منها سوى عدد محدود موزع فى أنحاء المملكة لحماية الأمن الداخلى ولا يستطيع الاستغناء عنه ، ثم أرسل لهم مع ذلك من أرسل ووضعه تحت امرة القيادة المصرية تسير بسير الجيش المصرى وتأتمر بأوامره .

شركة البترول :

وقال لى الأمير سعود : ويتصايح الناس هنا وهناك بوجوب الغـاء امتياز شركة البترول ، كأنهم يريدون منا أن نفقد السلاح الوحيـد الذى تتقوى به سياستنا وماليتنا فما بقيت هذه الشركة قائمة استطعنا أن نضغط على الأمريكان ونفرض عليهم الاعتدال والتعقل فى معاملتنا ، أما اذا ألغيناها فماذا يبقى بيننا وبينهم الا الحرب التى لا قبل لنـا بها ، ونكون قد أسلمناهم نهائيا لليهود والتعامل مع اليهود .

وهذه الشركة الأمريكية تقدم لنا دولارات نستطيع بوساطتها أن نحصل على كل ما نشاء من أسلحة نحصن بها أنفسنا ونقوى بها بلادنا ، بل اننا نستطيع عن طريق هذه الشركة بالذات ، أن نجد لنا فى أمريكا أنصارا وأعوانا وأن نحصل على كل ما نشاء • فهؤلاء الذين يطالبون بالغاء امتياز البترول لا يدركون من الأمر شيئا وانما هم يهرفون بما لا يعرفون •

وقال الأمير : وكل ما أسعى الآن لتحقيقه هو أن نعلم من أبناء الجزيرة من يستطيع بالتدرج الاشراف على هذه الشركات التى لا ندرك من أعمالها شيئا فى الوقت الحاضر الا ما تقوله لنا • ولذلك فقد أوفدت البعوث الى أمريكا والى مصر والى أوربا والى كل مكان وعندما يعود الينا أبناء البلاد وقد حذقوا ما حذقوا من العلوم سيزداد سلطاننا على مواردنا ،وتزداد رقابتنا على أعمال‌هذه الشركة بأكثر مما هى‌الآن• ليس هناك ما يحز فى نفسى أكثر من أن أرى أبناء نجد وهم عازفون عن تحصيل العلوم بحيث تركوا المناصب لغيرهم من أبناء الجنسيات والقوميات الأخرى ، وحقا ان الاسلام لا يفرق بين جنس وجنس والعروبة وحدة لا تتجزأ ، ولكن أليس من المؤلم أن ترى أصحاب‌البيت أنفسهم لا يعرفون من أمر بيتهم شيئا ، وهذا ما أعمل الآن على تصحيحه بانشاء المعهد السعودى وبارسال النجديين فى البعثات ، ولن آلو جهدا حتى ينتشر التعليم فى نجد بما هو أهل له •

عزوف النجديين عن طلب العلم

وأطلعنى الأمير بعد ذلك على موقفه مما دار فى حادث اليمن من مصرع الامام الراحل ، وكيف انه وقف منذ اليوم الأول الى جوار الامام الناصر ولى العهد ، وكيف راسله وأيده وشجعه وأعلن استعداده لمؤازرته حتى انتصر على قتلة أبيه •

مصرع إمام اليمن

وبعد أن فرغ الأمير من حديثه سألنى عما اذا كانت لدى ملحوظة أو شىء أرغب فى قوله •

فقلت له : ان الأمير لم يدع لى شيئا لأقوله الا أن أرجوه أن يحول بين الأمراء السعوديين كبارهم وصغارهم وبين الاسراف والبذخ والأخذ بمظاهر الترف التى أهلكت الأمم من ناحية ، وبين ما يندفعون اليه من محاولة التفرنج فى بيوتهم وعاداتهم وتقاليدهم من ناحية أخرى قلت له : اننى مؤمن برسالة العلم والنهوض ولكنى كافر بمظاهر المدنية الغربية من حيث العادات والتقاليد ، ويجب أن تبقى لجزيرة العرب تقاليدها ومسحتها العربية فى بيوتها وفى عاداتها وفى تقاليدها .

ملاحظاتى للأمير

ويجب أن نعرف بالضبط ماذا نأخذ من المدنية الأوربية والأمريكية وماذا ندع ، يجب أن نأخذ منها علومها وصناعاتها وتنظيماتها ، ويجب أن ندع اغراقها فى الماديات وكفرها بالمعنويات والروحانيات التى هى تراثنا وعدتنا . ويجب أن يكون أمراء آل سعود كما كان آباؤهم وأجدادهم علما على التقوى والورع والبر والتقشف وآية على الديمقراطية والاشتراكية الاسلامية الصحيحة .

ولم أكن فى ذلك أقول للأمير شيئا لم يسبقنى اليه بالقول ولكننى كنت أوافقه وأحدد له رأيى وفكرى .

ودخل الأستاذ الغندور بعد ذلك ثم ودعنا الأمير على أن نعود لرؤيته بعد عودتنا من الظهران فى طريقنا الى جده .

الخـــرج

— ٧ —

عندما قلت لمعالى عبد الله السليمان : اننى راغب فى زيارة الرياض اذا به يسرع قائلا : هذا جميل ، واياك أن تنسى زيارة الخرج . وقد ظلت هذه الكلمة والطريقة التى نطقها بها ترن فى أذنى طوال الرحلة : « واياك أن تنسى زيارة الخرج » وكانت كلمة الخرج تنبعث من أعماق قلبه ، فاستوقفنى ذلك ولم أدرك له سببا فى وقتها ، لأنه لم يقل لى

لماذا يجب أن أزور الخرج حتى اذا رأيت ما رأيت وعلمت ما علمت أدركت لماذا يخفق قلب عبد الله السليمان اذا ذكر منطقـة الخرج ، فهو الهرم الذى حاول أن يبنيه عبد الله السليمان ، وهو الرمز لما عليه هذا الرجل من الجلد ومضاء العزيمة والمغامرة .

واذا كان الانسان فى الحجاز فهو لا يسمع عن الخرج كثيرا ، ولكنه لا يكاد يصل الى الرياض حتى تثب كلمة الخرج فتقرع أذنه فى كل وقت وآن . اذا ما رأى بعض الخضر أو الفواكه قيل له انها من الخرج ، أو انها لا تقارن بما أنتجه الخرج ، واذا تحدث عن الأراضى الصالحة للزراعة حول الرياض قيل له : وأين هذا من الخرج ؟ . واذا تحدث عن عيون الماء والآبار المبثوثة حول الرياض ورد على الفور ذكر عيون الخرج التى لا مثيل لها فى كل جزيرة العرب أو على الأقـل حجازها ونجـدها .

وقد جاء الوقت الذى انتهت فيه أيامنا فى الرياض ، وسارت قافلتنا مرة أخرى ميممة صوب الخرج ، وبعد ساعتين تقريبا وصلناها فوجدنا أكثر من سيارة ترتاد الطريق فى انتظارنا ، وقد اشتد بها القلق عندما تأخرنا بعض الوقت ، فقد كانت تعليمات ولى العهـد قد سبقتنا . وتستطيع أن تتصور مقدار الاهتمام والعناية التى ستكون محلا لها بعد هذه التعليمات ، فضلا عما جبل عليه العرب بطبيعتهم من اكرام وفادة الضيف . كان مدير المشروع فى استقبالنا ورئيس الشرطة وكل ذى حيثية فى الخـرج . واستقر بنا المقـام فى بيت مدير المشروع الذى طلبت منه أن يلقى على محاضرة صغيرة عن الخرج وما معنـاها ومبناها . واليك ملخص ما قيل لى وما طالعته بعد ذلك عن هـذه المنطقة التى تحولت الى أهم مشروعات الجزيرة الزراعية .

الخـرج :

الخرج احدى مقاطعات نجد المشهورة بخصب التربة ووفرة المياه ،

وقد سميت خرجا لأن محصولاتها وغلاتها وعلى رأسها القمح كانت هى التى تقيم أود الحرمين الشريفين • وتقع فى وادى حنيفة الشهير ، وهى تبعد عن الرياض مسافة ٥٧ كيلو مترا والطريق اليها غير ممهد • وقد جاء ذكر الخرج فى كل التواريخ العربية منذ أقدم العصور باعتبارها منطقة زراعية من الدرجة الأولى من ذلك ما جاء فى معجم البلدان لياقوت •

الخرج فى ماضيه وحاضره

« الخرج » بفتح أوله وتسكين ثانيه وآخره جيم : واد فيه قرى من أرض اليمامة ••• وهو من خير واد باليمامة أرضه أرض زرع ونخيل قليل » •

وذكر الخرج فى شعر كثير من فحول الشعراء أمثال جـرير ، وذلك كله دليل على ما لهذه المنطقة من شأن وخطر فى حياة جزيرة العرب ، ومع ذلك فمنذ بضعة عشر سنة ماضية لم يكن هـذا الخرج شيئا مذكورا ، ولو ارتدته لما وجدت به سوى بعض الفلاحين الفقراء يزرعون قطعا صغيرة من الأرض ليقتاتوا بها هم ومواشيهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة التوسع لاطعام أحد الى جوارهم ، وليس ذلك الا نموذجا لما كانت عليه جزيرة العرب فى القديم ، ولما صارت اليه فى العصـور الحديثة من اهمال وضعف وتخلف وتقهقر فى شتى النواحى • فهذا هو الطائف وصفنا لك حاله وشأنه وأين هو مما كان عليه الطائف فى قديم الزمان • وهاهى ذى عيون الماء ومجاريه المصنوعة فى كل مكان تشهد أن حال الجزيرة فى القديم كان حال استقرار وغنى ، وأن الزراعة كانت شيئا له قدر واعتبار فى حياة الناس • فلما كانت النهضة السعودية وكان اكتشاف منابع البترول التى أجرت المال فى يد ابن السعود بدأ يفكر فى اعادة هذه المشروعات الدارسة • ان ابائه وأجداده كانوا يعتمدون فى حياتهم فى الرياض وفى الدرعية على ما يجبئهم من الخرج من غلات ومحاصيل ، فما للرياض اليوم تستورد كل أقواتها ليس فقـط من خارج نجـد ، بل من عبر البحار ، ولماذا لا يعـود

الخرج الى ما كان عليه ، أهراء للغلال وبقية المحصولات لتستغنى به الرياض عما يأتيها من الخارج .

فصارح رجله الأول بمشروعه وطالبه بتحقيقه ، وابن سليمان ليس فى حاجة الا الى هذا التوجيه كى يندفع نحو تحقيق الغاية وكأنه (طوربيد) بشرى أو اعصار جائح .

استحضر ابن سليمان بعض آلات المياه الرافعة ، واستعان ببعض الفنيين من المصريين والهنود والأمريكان لاجراء تجارب مبدئية فى استصلاح أجزاء كبيرة من أرض الخرج وزراعتها أرزا وقمحا فنجحت التجربة الأولى ، وأنبتت الأرض فى مساحة قدرها حوالى ثمانين فدانا قمحا ممتازا وأرزا فاخرا ، وبذلك انتهت مرحلة التجربة الأولى ، وبدأت المرحلة الثانية حيث اعتزم ابن سليمان أن يجعل من الخرج مشروعا جبارا على أوسع نطاق يطوف بخيال العربى ، وقد صادف ذلك العزم
٢٥٠٠ فدان اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية ، وما أصبحت البلاد مهددة به من انقطاع مواردها الغذائية من الخارج فلا يكون سوى القحط والمجاعة . ولذلك فقد ألقى ابن سليمان بكل كلكله فى المشروع فأنفق مئات الألوف من الجنيهات ، واستحضر الخبراء الأمريكان الذين جاءوا بالآلات الأمريكية والفن الأمريكى ، وخططت الأرض على أوسع نطاق زراعى عرفته نجد فى الوقت الحاضر ، فأعد ٢٥٠٠ فدان للزراعة ، ووضعت المشروعات لمد منطقة أخرى بالمياه يصلح فيها للزراعة خمسة عشر ألف فدان وتدعى روضة الأبجدية .

وانطلق العمل واشتغل فيه مئات بل وألوف من العمال ، وأنشىء قصر لجلالة الملك ليكون نواة مدينة عظيمة فى هذه المنطقة ، وأنشئت المبانى العامة اللازمة لادارة مدينة ، وأنشئت بيوت للعمال وعملت المحاريث والجرارات والآلات الرافعة الضخمة التى ركبت على عيون
ابن سليمان يعمل بيديه الماء الفريدة فى كبرها وضخامتها وعمقها والتى رشحت منطقة الخرج لتكون مزرعة نجد . وألقيت البذور وغرست الأشجار واشتغل ابن

سليمان مع المشتغلين وكدح مع الكادحين ، وتصبب منه العرق وشقى وسهر ثم انتظر مع المنتظرين ثمر الكد والعمل فكان النجاح والتوفيق ، ففسائل النخيل وأشجار الأثل قد نجح غراسها وأزهرت أوراقها والغلال قد آتت أكلها كأحسن ما كانوا يتوقعون •

قال لى مدير المشروع : ان الخرج أخرجت من الفواكه والخضر فى هذه المرحلة ماسد حاجات الرياض ، بل وأغرقها بحيث وفر عليها أموالا طائلة كانت تصرفها فى هذه السبيل ، وانه مدها بالغلال والأرز بكميات ضخمة ، وقدم كل ما تحتاج اليه خيول الملك والأمراء والأتباع من العلف وقد كان مشكلة المشكلات •

ويصف أخونا الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار فى كتابه (الخرج والشرائع) ثمرات الخرج فى هذه المرحلة على طريقته الأدبيـة التى تأبى الا أن تغرق فى الأوصاف وأن تسهب وأن تبالغ ، واليك ما قاله وحذار أن تنسى فتظن أنه يصف الجنة فهو انما يتكلم عن الخرج •

« لقد أثمرت الأشجار

هذه أشجار الفواكه • البرتقال والبرقوق والتوت والتين • والتين الشوكى (البرشومى) • وأبو فروة والجوافة (الأمرود على لغـة عامة الحجاز) والخربز والتفاح والرمان والخوخ ، والليمون الحلو واليوسف أفندى والكمثرى والمنجة (الانبة) والسفرجل والمـوز والمشمش واللوز والشمام والكريز والأناناس وغير ذلك من الفواكه التى نعرفها والتى لا نعرفها كفواكه الهند الكثيرة وسواها من البلدان• أما الحبوب فهى الأرز بأنواعه ، والقمح بأنواعه والشعير والذرة البيضاء والحمراء والدخن والعدس والحمص والترمس والفول •

أما الخضروات فهى : البصل والثوم والقثاء والخيار والبـامياء والفاصوليا والبسلى واللفت والسبانخ والرجلة والبطاطس والطماطم والباذنجان الأسود والقرنبيط والقرع والرومى والفلفـل والكمون والكزبرة والملوخية والكرنب والكراث •

أما الأزاهير فهى : الورد والياسمين والفل والنرجس والأقحوان والنسرين والآس والخزامى والسوش والنيلوفر .

أما النخيل فبها منه أكثر من عشرة آلاف نخلة عدا الفسائل التى تبلغ أربعين ألفا » .

هذا هو وصف الأستاذ عبد الغفور لمنتجات الخرج فى مرحلته الثانية ولست أشك لحظة فى أن صاحبى قد فتح أحد كتب اللغة ونقل عنها هذه الأسماء ، ثم خاف أن يكون فى أى بلد من بلاد العالم زهر أو فاكهة ينبت فى القطب الشمالى أو عند خط الاستواء ولم يذكره فقال « وغير ذلك من الفواكه التى نعرفها والتى لا نعرفها ، كفواكه الهند الكثيرة وسواها من البلدان » . وسبحان الذى هو بكل شىء عليم .

نكسة مشروع الخرج

على أية حال ان دل ذلك على شىء فعلى النجاح الذى صادفه مشروع الخرج فى طوالعه الأولى ؛ ويؤسفنى أن أقول ان الصورة التى رأيتها عند زيارتى للخرج لم تكن بهذا الازدهار ، بل اننى على العكس رأيت صورة تبعث القلق فى النفس ؛ وسمعت من الخبراء الأمريكان المختصين بالعمل ما يدل على أنهم يواجهون مشكلة ان لم يتمكنوا من حلها فالآمال الضخمة التى علقت على الخرج ستصاب بكثير من الخيبة .

كان مدير المشروع العربى وهو أخ من حضرموت أول من أقلقنى ، فقد اشتكى من الأمريكان والبعثة الأمريكية وأنهم منذ جاءوا وتولوا العمل والمشروع فى تأخر مستمر . لقد اعترف لى بنجاح المشروع نجاحا فائقا عندما كان المصريون يشرفون عليه ويديرونه ، أما بعد أن ذهب المصريون فقد ساءت الأحوال ولم يعد المشروع ينتج خضروات أو فاكهة ، ولا يزيد المهيأ للزراعة عن ألف فدان سينتجون منها قمحا .

وغنى عن البيان أننى سررت وطربت فى داخل نفسى لأن أسمع الخير والثناء على المصريين والذم والنقد للأمريكان ، ولم أر فى ذلك

ما يوجب العجب أو الدهشة فالمصريون زراعيون قبل أن يوجد الأمريكان على ظهر الوجود ، وهذه البلاد بلادنا والجو جونا والطبيعة طبيعتنا ، فنحن أعرف بها من هؤلاء الأمريكان ، ومع ذلك فلم أشأ أن أسلم بسهولة أن الأمريكان يتخبطون وأن المشروع يتدهور لأن المصريين تركوه ، وذلك لسبب بسيط جدا وهو علمى بحصافة الملك ابن السعود وحصافة وزيره ، وهما ما كانا ليسكتا بأية صورة من الصور على مثل هذه الحال .

ولكن الذى حسم لى القضية هو محادثاتى مع الأستاذ حسن بدوى الخبير الزراعى المصرى المنتدب بالمملكة العربية السعودية وما طالعته فى كتابه « الزراعة الحديثة بالمملكة العربية السعودية » .

ففى سنة ١٩٤٢ م طلبت الحكومة السعودية من الحكومة المصرية أن توفد لها بعثة من مصر للزراعة والرى ، فأوفدت لها بعثة تضم عددا كبيرا من نبغاء الشباب المصرى ، بعضهم من وزارة الزراعة والبعض الآخر من وزارة الأشغال . وعلى رأس الزراعيين عمر بك خليل ، وعلى رأس المهندسين محمد بك عمر . وقد قامت هذه البعثة بعمل جليل جدا اذ وضعت الأسس لنهضة الخرج على قواعد مكينة ، ولا يزال من آثار هذه البعثة ما هو باق حتى الآن فى الجزيرة ، ونعنى به الأستاذ حسن بدوى الذى يقوم بدور المستشار الزراعى لوزير المالية وهو مفخرة من مفاخر الشبان المصريين خاصة والعرب بصفة عامة . وقد لاحظت فى تقرير البعثة اشارة الى أن أرض الخرج البالغ مساحتها ٢٥٠٠ فدان « تتطلب الاصلاح من جميع الوجوه فأولا أرضه استمحلت وظهر عليها البوار وضعفت الزراعة ... وذلك بسبب ارتفاع منسوب المياه فى جوف الأرض حتى سبب بارتفاعه تحرق جذور النباتات ، ثم يعلو حتى يصل الى سطح الأرض فيتبخر ويترك وراءه أملاحا متزهرة على سطحها تعوق الزراعة ويتبع هذه الأملاح فى الظهور

بعثة مصرية لمشروع الخرج

على سطح الأرض حشيش متأصل فى الأرض اسمه شبل معروف فى مصر بالنجيل كلاهما فى شناعته على الأرض أخبث من الآخر » •

وهكذا يتجلى من هذا التقرير أن ثمة انقلابا قد طرأ على الخرج بسبب ملوحة الأرض التى نشأت من انعدام وسائل الصرف الأمر الذى كابدناه فى مصر ، ونحن نرى أراضى المنوفية الطيبة وهى تتدهور بسرعة قبل أن نكتشف ضرورة الصرف الى جوار عملية الرى •

جولة فى الخرج :

عين سمحة العجيبة

لست رجلا زراعيا يستطيع أن يفهم فى مسائل الزراعة الفنية ، ومع ذلك فقد كان لا مناص من أن أتجول بالخرج جولتنا لأكون رأيا عاما فى الموضوع ، وكان أول ما يجب أن نراه بطبيعة الحال هو عين الماء الرئيسية المسماة : سمحة • فذهبنا اليها بالسيارة ولم نكد نصل اليها حتى رأينا منظرا عجبا فذا فريدا ، فهذه فجوة ضخمة طول أحد أضلاعها ثمانون مترا وعرضها خمسون ، وهى غائرة فى أرض صخرية ، وكأن العين قد نحتت نحتا فالجدران ملساء وعمودية ، وفى أسفلها الماء فى مساحة كبيرة يبلغ مسطحها حوالى أربعة آلاف متر مربع • ويرتعد جسد الانسان وهو ينظر الى الماء فى قاع هذه الهوة ، ولا بأس على الانسان من هذه الرعدة فهى جد طبيعية ، ذلك أن عمق الماء يزيد على ثلثمائة قدم ، وطبيعى أن يبالغ القوم فيقولون لك أن لا قاع لها يمكن أن يدرك ، ويروون أن سيارة وقعت بها فلم يمكن العثور عليها وذهبت كل المحاولات لاخراجها عبثا •

ما أعظم الطبيعة وما أروع أسرارها ! هذا هو معين لا ينضب من الماء ولا يعرف أحد بالضبط من أين يجىء ، وكل الذى نعرفه أن منطقة الخرج هى ملتقى السيول والأمطار فى هذه النواحى ؛ ومع ذلك فان الماء فى هذه العيون لا يزيد ولا ينقص ، وقد ركبت عليه آلات ضخمة رافعة للمياه ، وقام الأمريكيون بتجارب ليعرفوا اذا كانت قوة سحب المياه تؤثر فى كميتها ، فوجدوا أن الماء لا ينضب فمضوا

فى مشروعاتهم القاضية بتركيب أضخم أنواع الآلات عليها دون خوف من نقصانه أو نضوبه ٠

فمشكلة الخرج لن تكون من قلة الماء ، ولكنها كائنة فى نوع هذا الماء بالذات ، فهو ليس ماء عذبا سائغا للشرب ولكنه ليس فى ذات الوقت ماء أجاجا فهو صالح لرى الأرض ولكنه يزيد فى تعقيد المشكلات الخاصة بزراعتها ٠

هل حفرتها النيازك ؟

واتنقلنا بالسيارات لرؤية عيون أخرى مماثلة فبلغ عدة ما رأيناه ثلاثا ، والعجيب فيها كلها أنها بذات الشكل والصورة : فجوات واسعة عميقة الغور فى الأرض تشبه أن تكون أنبوبة مملوءة بالماء فى أسفلها ٠ وقد قيل فى تعليل وجودها أنها نتيجة نيازك سقطت من السماء فأحدثت فى الأرض هذه الحفر العميقة ، ولقد ارتحت شخصيا لهذا التفسير فالمنظر يوحى به فلا بد من قوة جبارة استطاعت أن تحفر هذه الحفرة بكل هذا العمق ٠ وهناك قول آخر يقول ان هذه العيون من فعل الزلازل والبراكين ، بل أن هذه الحفر بالذات هى فوهات براكين فى الأصل ٠ وعلم ذلك كله عند الله وعند علماء الجيولوجيا الذين يستطيعون أن يدركوا على الفور كيفية تكون هذه العيون ٠ وزرنا فى جولتنا محطة توليد القوى الكهربائية فوجدنا آلات جبارة تعمل بالليل والنهار وآلات أخرى فى طريقها الى التركيب ، ورأينا الماء وهو يسحب فى مواسير ضخمة من العيون ثم يقذف بعد ذلك فى مجار وقنوات ليصل الى الحقول ، ولا جدال أن ذلك أضخم شىء من نوعه وقعت عليه عينى فى كل الرحلة ٠

وفى تجوالنا بدأنا نجتاز الحقول ولفت نظرنا أول ما لفت كثرة أشجار النخيل التى نجحت نجاحا منقطع النظير فى نموها ٠ وسيبقى النخيل هو شجرة الصحراء الممتازة التى لاتعدلها شجرة أخرى ٠ النخيل والجمل هما طابعا جزيرة العرب ، واذا كان الجمل فى طريقه الى الانقراض فالنخيل يجب أن ينمو ويتكاثر فسيظل يقدم أطيب الثمرات وأوفرها حظا من القيمة الغذائية ٠

ومررنا بأراضى منسقة أحسن تنسيق وهى أجود الأجزاء الزراعية وقد أظلتها الأشجار ، وهذا القسم أطلق عليه مزرعة المصرى نسبة الى المشرف عليها وهو أحد المزارعين المصريين الذى وفد مع البعثة المصرية ، وكان من عمال وزارة الزراعة ثم اختار أن يتوطن فى المنطقة وأن يقيم بها فظل عنوانا رائعا على الفلاح المصرى وماذا يستطيع أن يفعل وكيف يمكن أن يبدع . ونودى على صاحبنا المصرى فخف مسرعا وفرح بنا وفرحنا به ، ورحت أسأله عن الحال فإذا به يردد شكوى مدير المشروع من أن الأمريكان سيتلفون كل شىء ، وأنه كان يزرع فى الخرج كل صنوف الخضروات والفواكه فمنعوه الآن من زراعة أى شبر من الأرض الا بأمرهم فبارت الأرض ولم تعد ذات غناء . ويتلفت حوله فيرى الأشجار الباسقة والأحواض الزراعية المنظمة كأحسن أحواض زراعية فى مصر ، ويقول هذا ما عملناه نحن المصريين ، أما هم فلا يريدون الا أن تعود الأرض بورا كما كانت . ويؤمن مدير المشروع العربى على أقواله ، وسرنى أن المصرى والعربى متآلفان متحابان ، وأنهما يد واحدة على الغريب الأجنبى يكرهانه ويمقتانه فهذا هو السبيل للدفاع عن النفس والكيان . مزرعة المصرى

كنت أعلم باحساسى أنهم يبالغون كما قدمت ، ولكنى لم أشأ أن أتلف عليهم نفسيتهم فوافقتهم على كل الذى قالوه .

ثم سرنا بعد ذلك على أراض شاسعة قد عبدتها الآلات وهيأتها للزراعة . وأخيرا وصلنا الى مستعمرة الأمريكان حيث تقيم البعثة التى وفدت من أمريكا لتحقيق الأحلام فى مشروع الخرج .

ولم نكد نصل الى المستعمرة حتى راعنى منظر الآلات الضخمة الجاثمة هناك ؛ جرارات ومحاريث ولوريات ثقيلة وورش لاصلاح ذلك ومئات من العمال العرب وفى وسطهم واحد أو اثنان من الأمريكان .

ورحب بنا رئيس البعثة ودخلنا الى مكتبه ، وهنا تدرك على

الفور أنك قد انتقلت الى جو أمريكى • وتحدثت مع الأمريكى وبادرت كعادتى الى مصارحته بكل شىء ، وكيف أن المشروع فى الماضى كان خيرا منه فى الحاضر وأنهم لا يزرعون الآن كل ما كان يزرع فى السابق •

مشكلة الخرج الفنية

وأسرع الرجل الى الاعتراف بذلك كله وأن مرد ذلك الى الصعوبات التى بدأت تصادفهم من طبيعة الأرض التى زرعت عاما وعامين ثم لم تعد صالحة بعد ذلك للزراعة لأنها قلوية ، وهم يبدأون الآن تجارب جديدة فيزرعون أراضى غير الأرض التى زرعت من قبل والتى لم يكن اختيارها حسنا من حيث الصرف •

والخلاصة أنهم بسبيل دراسة جديدة شاملة كاملة للمشروع ، وأن كل الذى تم حتى الآن لم يكن الا تجارب •

ولما قلت للرجل : لماذا لا تستعين بالمصريين ؟ أجاب : أن ليس هناك ما يتمناه أكثر من ذلك فأين هم ؟ • وشكا من أن الأمريكان أنفسهم لا يصبرون على العمل فى هذا المكان المهجور الذى لا يوجد به أى وسيلة من وسائل الراحة • وأنه هو نفسه قد ترك زوجته وأولاده فى الظهران ، وأنه يزورهم مرة كل شهر ، ومالم تنشأ بيوت صالحة للأمريكان فى الخرج فانه لا يوجد أى أمريكى يمكن أن يقيم به • وطلب منى أن أقنع معالى(ابن سليمان) بهذه الحقيقة • ولقد فعلت عكس ذلك فقد حاولت أن أقنع ابن سليمان أن ينفض يده من الأمريكان وأن يستعين بالمصريين •

فأجابنى أنه يدرك أنه لا يصلح للمكان الا المصريون ، ولكن المشروع أصبح فى حاجة الى آلات ضخمة جبارة ، وهذه لا سبيل للحصول عليها الا عن طريق الأمريكان الذين لا يقدمونها الا عندما يكون العاملون فى المشروع أمريكان • وهكذا انحل اللغز الذى استغلق على • لقد كان المهندسون والزراعيون المصريون يصرخون فى طلب آلة رافعة صغيرة أو جرار أو محراث فلا يصل اليهم ، ولكن عندما تولى الأمريكان العمل انهالت عليهم الآلات المطلوبة كلها فى

لماذا اختاروا الأمريكان

أسرع وقت ، لأن المسألة أصبحت عندهم مسألة كرامة أمريكا • وتشرف على هذه العملية شركة البترول الأمريكية فى الظهران ، وهى شركة ليست مختصة فى الزراعة ولكن يهمها أن تحقق رغبات الملك ابن السعود ووزير ماليته ، فهى لا تدخر وسعا فى عمل المستحيل لارضائه ، وهذا هو سبب اسناد مشروع الخرج اليهم لانجاحه •

وانى أكتب الآن هـذه السطور بعد عـام من زيارتى للخرج ، ولست أعرف أسار المشروع قدما نحو الأمام أم تأخر خطوة ثانية • والحق أن ليس هناك شىء يحزن قلب الانسان بعد هـذا الجهـد الذى بذل فى الخرج وما أنفق عليه من أموال ، أكثر من أن لا يحقق الآمال التى علقت عليه • وهذا ما يجعل الايمان يعاود الانسان من أن هذا المشروع لا يمكن أن يخيب ، بل لابد من أن يحقق أكثر من المأمول منه ، ذلك أن سنة الحياة التى لا تتبدل : أن من جد وجـد ومن زرع حصد ، وهذا مشروع وضعت فيه الدولة السعودية أملها فلا يمكن الا أن يثمر ويزهر ، والا اضطربت السنن واختلت القواعد الأزلية الخالدة [1] •

---

(١) سألت أخيرا بعض الاخوان المتصلين بوزارة المالية السعودية عن حال المشروع فأجابونى أنه لا يزال على حاله من المتاعب والمصاعب والتأخر بالرغم من الجهود المضنية والأموال الوفيرة التى تنفق فيه .

القسم الثالث

البترول .... البترول

أهى الولاية التاسعة والأربعين الأمريكية ؟

الظهران

- ١ -

وبتنا ليلتنا فى الخرج وجلسنا بعد صلاة الفجر ننتظر الطائرة ، والطائرات لا تمر فى طريقها الى الظهران على الخرج ، ولكن سمو ولى العهد أمرها بالهبوط فى الخرج لنتمكن من ركوبها الى الظهران . وكان قد رسم لنا فى البرنامج أنها ستكون لدينا قبل ظهر يوم الأحد بساعتين فنمتطيها الى الظهران لنصل اليها فى الظهر ، فنقضى بقية الأحد ثم الاثنين والثلاثاء ونستقل الطائرة بعد ذلك ظهر يوم الأربعاء عائدين . وعندما يرسم لى برنامج أو أرسمه لنفسى أصبح شديد الحرص على تنفيذه ، ولا يطيب لى خاطر الا اذا تم كما رُسم وأعتبر ذلك لونا من ألوان النجاح .

ولذلك فقد كانت سعادتى لا توصف عندما وجدنا الطائرة تحلق فى سماء الخرج فى الموعد المضروب ، ولما لم يكن للطائرة من مقصد الا نحن ، فقد بادرنا الى مكان هبوطها وبعد دقائق قليلة كانت تحلق مرة أخرى فى الفضاء وثلاثتنا داخلها ، وأعنى بثلاثتنا أنا والغندور ومرافقنا العزيز .

ولقد كانت خطتى أن أخترق الجزيرة من البحر للبحر بالسيارة ولكنه قيل لى أن هذه المسافة الباقية لنا والتى تفصلنا عن الخليج الفارسى ليست سوى دهناء أخرى كهذه الدهناء التى تعطلت فيها سيارتنا فهى تتألف من رمال سافية ، ولاشىء فيها يستحق الذكر أو النظر أو التأمل أو الاعتبار ، فلا ذكر لمعركة أو شاعر أو بطل من الأبطال ، وانما هى مجرد بحار متلاطمة من الرمال حتى نصل الى الأحساء . وهذا ما تأكد لى بالفعل وأنا أطل من الطائرة على ما تحتى من الأرض . وركوب الطائرة فى الشتاء غيرها فى الصيف ، وركوبها فى مصر وجزيرة العرب غيره فى أوربا أو أمريكا فى أجوائها الباردة . ففى الشتاء تكون السماء ملبدة بالغيوم والسحب فلا يرى الانسان نفسه الا وسط دخان ، أو فوق بحر من السحب التى تبدو بيضاء فلا يرى

من معالم الطريق شيئا ، ويتضاعف تأثير ذلك عندما يكون الانسان محلقا فوق أوربا أو أمريكا حيث الجبال الشامخة والخوف منها ، وكذلك التيارات الهوائية ، يضطران الطائرة الى التحليق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فى بعض الأحيان ، وعند هذا الارتفاع لا يمكن أن يرى الانسان شيئا بالعين المجردة حتى ولو كانت السماء صافية رائقة • أما فى مصر وفى جزيرة العرب والسودان والمنطقة الحارة كلها فالسماء صافية فى نصاعة ، وعندما لا يكون هناك جبال ولا تكون الطائرة مضطرة للتحليق على ارتفاع شاهق يصبح ركوب الطائرة أجمل من ركوب السيارة ومن القطار ، بل ومن السير على الأقدام للتمتع برؤية المناظر والتعرف على معالم الأمكنة • ان أقصى ما يراه الانسان وهو فى سيارة هى هذه الأجزاء القريبة التى تقع عليها عيناه من هذا الجانب أو ذاك ، أما فى الطائرة فنحن نرى المنظر متكاملا ونرى الأرض وكأنها خريطة مجسمة • ان السيارة تجعلنا نرى تفاصيل قرية من القرى أو شارع من الشوارع أو حديقة من الحدائق ، أما الطائرة فتتيح لنا أن نشهد المملكة كلها أو بالأحرى أجزاء كبيرة منها • لقد أتيح لى أثناء عودتى من آخر رحلاتى فى أوربا وكنا فى فصل الصيف أن أشهد الساحل الايطالى كما نراه فى المصورات الجغرافية •• وبعد قليل تجلت لنا جزيرة كريت كأنها الخط الحاجز يشطر البحر شطرين ، ثم تجلت لنا أفريقيا برمالها وصحراواتها • فمن أراد أن يرى العالم كما يراه فى المصورات الجغرافية فالطائرة سبيله ، واذا كانت السيارة هى أصلح أداة لمشاهدة التفاصيل والأجزاء فان النظرة الكلية الشاملة لا سبيل اليها الا عن طريق الطائرة •

الفارق بين الطائرة والسيارة

وعلى ذلك فقد أشبعت رغبتى فى المعرفة فى هذه المرحلة من الطريق ، فكنت كلما نظرت من الطائرة لا أجد حولى الا رمالا صفراء فاقعة تتوهج تحت حرارة الشمس • وسرت القشعريرة فى بدنى عندما تخيلت نفسى أجتاز هذه المنطقة بالسيارة • وهذه هى النفس البشرية دائما

يجسم لها الخيال المصاعب والمتاعب والأخطار التى اذا أقدم عليها الانسان لم يجدها شيئا • ولو أنى كنت أنظر من الطائرة الى هذه المساحات الشاسعة التى اجتزناها بالسيارة لبدت لى مخيفة كهذا الجزء الذى نراه الآن ، ومع ذلك فقد وصفت لك كيف اجتزناها فى سهولة وسرور وانشراح •

وأيقظنى من هذه التأملات اضطراب الطائرة فقد بدأت تضطرب بشدة وقال لنا من معنا : لقد وصلنا ، فلم نفهم علاقة الاضطراب بالوصول حتى لاح لنا بعد قليل نيران مشتعلة تنبعث من الأرض كما لو كانت تنبعث من فوهة بركان • وقال لنا من فى الطائرة : ان هذه نيران أبو قيق أعظم حقول البترول فى الظهران ، وأدركنا علاقة اضطراب الطائرة بهذه النيران فان تمدد الغازات فوقها يخلخل كثافة الهواء ويخلق تيارات من شأنها احداث هذا الاضطراب • وتجلى البحر بزرقته وهو يتداخل فى هذه الرمال والرمال تتداخل فيه • هذا هو الخليج الفارسى فى نهاية الأمر وقد أشرفنا عليه ، وقد جعلتنى مجرد هذه الحقيقة ، وأننى الآن على شاطىء الخليج الفارسى ، أحس بهذه النشوة والسعادة التى يحس بها الانسان عندما يحقق لنفسه قدرا جديدا من المعرفة • الخليج الفارسى ! ما أكثر ما نظرت اليه فى المصورات الجغرافية فلم يدر بخلدى أبدا أننى سأصل الى شواطئه فى يوم من الأيام • وما أكثر ما سمعت أن أهل العراق فى حماستهم الوطنية يأبون أن يسموه بهذا الاسم ويريدون أن يسموه الخليج العربى فثلثا الشواطىء التى تحيط به شواطىء عربية ، وها أنذا أشهد هذه الحقيقة بنفسى ، فقد وصلنا الى الخليج الفارسى ونحن فى جزيرة العرب أو قل فى مملكة ابن السعود ، ولكن التسمية قديمة عندما كانت فارس غالبة على أمرها تؤلف دولة العالم العظمى ، وسيظل للقديم حرمته •

فوق الخليج الفارسى

الخليج عربى

وجالت بنا الطائرة جولة طويلة فوق شاطىء الخليج ثم بدأت

الهبوط ، وما هو الا أن وجدنا أنفسنا مستقرين على أرض مطار الظهران • وكنت أشعر أننى مقبـل على رؤية شيء عظيم يختلف كل الاختلاف عما رأيت الى الآن • لقد وقفت بك من حين الى آخر لنسبح سويا فى عالم الذكريات لنعثر على معنى جميل ، أولنبكى مجدا دارسا ، أو لنتحسر على حضارة ذوت ، أما هنا فنحن مقبـلون على الحاضر القوى ، بل نحن مقبلون على مستقبل الجزيرة كلها ان لم يكن الشرق الأوسط بأكمله •

ويتجلى لك ذلك أول ما يتجلى فى المطار ، فنحن هنا فى مطار الظهران المستعد لهبوط أضخم الطائرات وأقواها وهو ليس الا واحدا من هذه المطارات الأمريكية التى ينشئها الأمريكان فى طول الأرض وعرضها •

هنا الولايات المتحدة

واستقبلنا مدير المطار ومدير المالية ،وساروا معنا الى استراحة المطار ، وعلى حين غرة تنسى أنك فى جزيرة العرب فقد انتقلت فى طرفة عين الى العالم الجديد : فهذه هى الأمريكية الحسناء وقد وقفت خلف البوفيه تقدم القهوة والمثلجات والجيلاتى لرواد المكان الذى زين ورتب كأى مكان مماثل له فى أى جزء من أجزاء أمريكا • واذا كان الكتاب يعرف من عنوانه فقد كان ما طالعناه بعد ذلك لا يخرج عن هذا العنوان، وأن هذا الجزء من الجزيرة العربية قد تحول الى جزء من أمـريكا ؛ ولو أننا كنا نصادف من حين لآخر هؤلاء العمال العرب ، وكان مدير المالية يزورنا من حين لآخر بعقاله الأسود وغطرته البيضاء ، ويشنف آذاننا ببعض الأبيات الشعرية التى تذكرنا بأننا مازلنا فى جزيرة العرب • وكثيرا ما كان الانسان يحس بأنه فى حلم قد اختلطت فيه الصـور كما هى العادة فى الأحلام ، فبينما هو فى أمريكا اذا به يرى صـورا عربية ، أو بينما هو فى الجزيرة اذا به يرى صورا أمريكية • لقـد اختلط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة ، ولكن هناك حقيقة واضحة صارخة ؛ هى أن العالم الجديد قد زحف عليها وصبغها بصبغته ، وستقرر الأجيال المقبلة ماذا ستكون خاتمة المطاف لهذه التجربة ، أكانت خيرا أم

شرا ؟ وثمــة حقيقة أخرى بارزة هى أنه لم يكن فى الامكان تفادى ما حدث فقد كان من المستحيل أن تمضى الجزيرة العربية غارقة فى الجهل والخمول والفقر ، وهى تحمل فى أحشائها هذه الثروة العظيمة من المال والقوة وعصب الحضارة الحديثة ••• البترول •

أخير أم شر؟

فى البيت الأمريكى :

وانطلقت بنا السيارة الى أحد بيوت الشركة الأمريكية التى أعدته للضيفان ، وسارت السيارة من المطار حتى بلدة الظهران نفسها فى طريق جميل معبد ، ثم دخلنا الى قرية الظهران الأمريكية ، ولن تستطيع أن تصفها بغير ذلك ، فلو أنك كنت فى احدى قرى البترول فى غرب آمريكا أو ولاية تكساس لما رأيت شيئا غير هذا المنظر ، فالبيوت كلها بنيت على طراز أمريكى ، بل أنها أصبحت تستجلب من أمريكا استجلابا • ونزلنا فى أحد هذه البيوت المستجلبة ، وفجأة وجدت نفسى وسط هذا الجو الذى عشت فيه ستة أشهر خلال رحلتى فى أمريكا • فهذا هو الذوق الأمريكى ، وهذه هى رائحة الطـلاء الأمريكى ، وهــذه كل مبتكرات العلم الحديث لجعل البيت جنة وسط هذا الجحيم • أرض البيت كلها بخشب الباركيه ، وجهاز تكييف الهواء يجعل الجو جميلا منشطا لقوى الانسان • وهذه حجرات النوم التى دخلنــاها لنخلع ملابسنا حجرات أمريكية بحتة استجلبت أثاثاتها من أمريكا • أما الحمام ودورة المياه ، فقد نزلت فى أكبر فنادق أمريكا فلم تكن بكل هذه الأناقة والنظافة والاستعداد ، وعندما دخلنا المطبخ وجدنا شيئا كهذا الذى نراه فى الصــور وفى السينما ؛ فالفرن الكهربائى والفريجــدير (والدواليب) وقد طليت كلها بالدوكو الأبيض فأصبحت متعة العين والفؤاد • وعندما جاء أوان تناول الطعام وجلسنا حول المائدة فى هذه الشرفة التى يحيط بها الزجاج لادخال الضوء الساطع مع الاحتفاظ بجو الحجرة ، وراح السفرجى يقدم لنا ألوان الطعام التى تتألف من ثلاث أصناف فقط ؛ قطعة من اللحم وبعض الخضار ثم الفاكهة ، جعلنا ذلك

طعام أمريكى

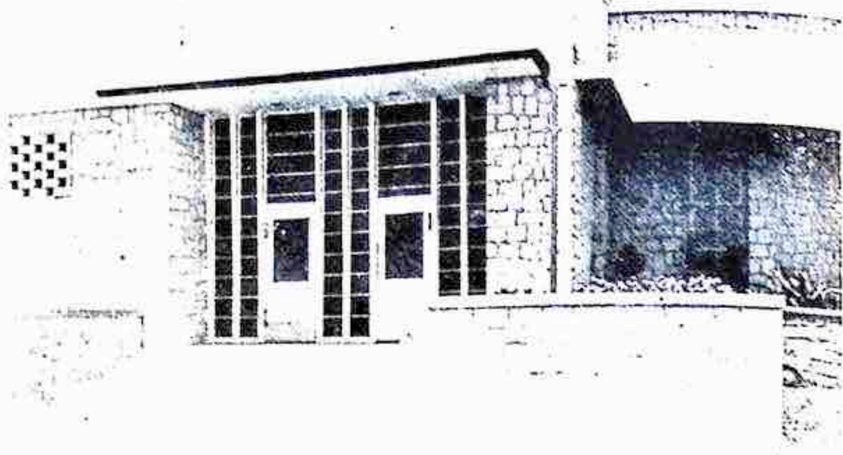
كله ننسى نهائيا أننا فى جزيرة العرب خاصة وأن السفرجى (الهندى) لم يكن يعرف العربية ، فكان حديثى معه بالانجليزية وهكذا عدت مرة أخرى الى أمريكا .

وجاءنا مبعوث الشركة المكلف بمرافقتنا وتمكيننا من رؤية كل ما نرغب فى رؤيته . فذهبنا فى صحبته لزيارة مدير عام الشركة ، ولست أريد أن أعاود التكرار فأظل أذكرك أننا حيثما رحنا أو جئنا ففى وسط جو أمريكى ، فالنساء كالرجال يجلسن الى المكاتب ويقمن بأعمالهن فى مبنى ادارة الشركة . ودخلنا حجرة المدير فاستقبلنا بهشاشة عربية ورحب بنا بذات الأسلوب الذى تراه فى كل شبه جزيرة العرب ، وقد أدرك الرجل بثاقب ذكائه أنه يجب أن يصبح عربيا فى هذا الجزء من عاداته وآدابه ، فراح يعرض علينا كل ما عنده من سجائر وسيجار ، ثم يطلب لنا القهوة والشاى والمثلجات كعصير البرتقال أو الأناناس . وكانت حجرته كحجرة أى مدير شركة أمريكى تغص بأجهزة التليفونات وآلات التسجيل والخرائط المعلقة على الجدران .

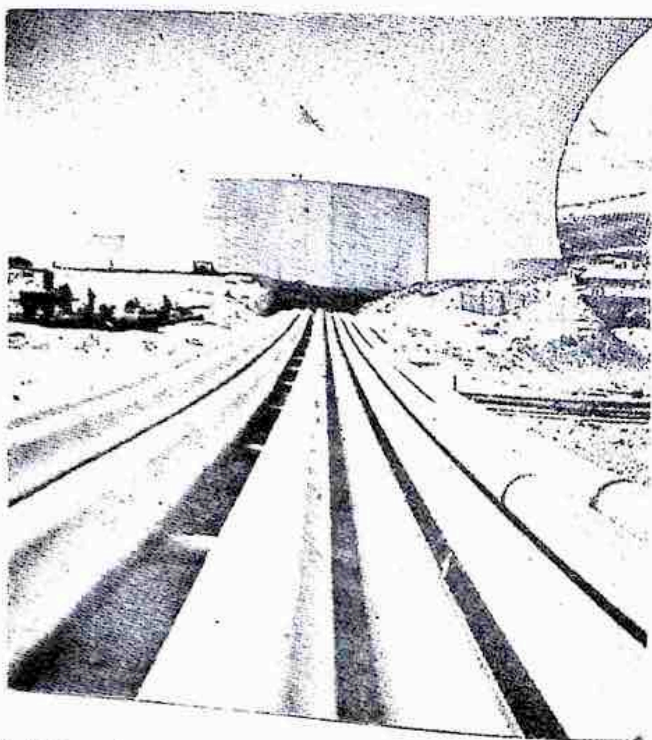
أمريكى مستعرب

وبعد أن رحب بى الرجل بصفة عامة اذا به يقول فى لهجة خطابية : انكم ضيوف الملك عبد العزيز ونحن من رعايا جلالته ، ولذلك فلكم علينا حق الأمر وعلينا الطاعة ، فماذا تريدون أن تروا ؟ ماذا تريدون أن تعرفوا ؟ كل شىء فى خدمتكم وتحت أمركم !.

ولم يكن بعد ذلك لطف عربى أصيل . قلت له اننى أريد أن أرى كل شىء وأن أعلم كل شىء . اننى لست رجلا فنيا ولكنى أحب دائما أن ألم بصفة عامة بكافة المعلومات التى يتاح لى معرفتها . أريد أن أجلس مع الاخصائيين لأعرف منهم على أى أساس يختارون منطقة معينة ليبدأوا فيها تنقيبهم عن البترول . وأريد أن أرى الجيولوجيين وهم يرتادون الصحراء بعد ذلك ليعينوا المناطق التى يبدأ منها الحفر ، ثم أريد أن أرى بئرا وقد شرعوا فى حفرها ، ثم أريد أن أرى الآبار التى فرغ من حفرها وباتت تنتج البترول ، وأريد أن أرى معامل تكرير



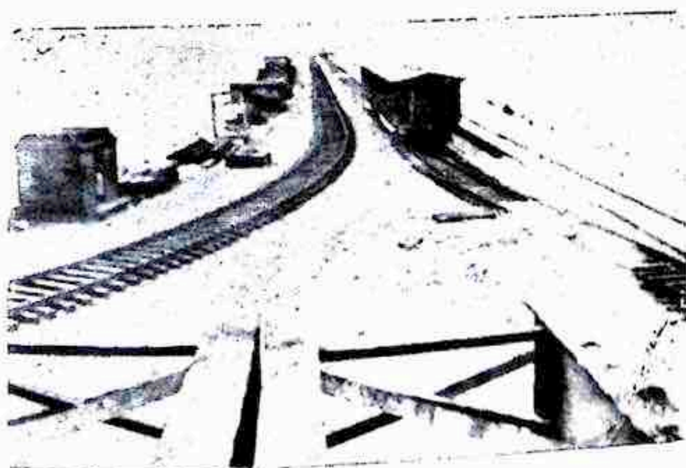
هـذا هو البيت الأمريكى الذى نزلنا فيـه ـ كأى بيت فى ولاية كليفورينا أو تكساس



أنابيب ... أنابيب هـذا هو المنظر الذى يخطف بصرك بمجرد وصولك الى منطقة الظهران



وبدأت أمثال هذا الميناء الرائعة تظهر فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ...
انه سحر البترول



وها هى السكة الحديد تشق طريقها الى قلب الجزيرة تحمل معها الحياة
الجديدة بمحاسنها ومساوئها

بعد ذلك ، ثم أريد أولا وقبل كل شيء أن أعرف قصة اكتشاف البترول فى هذه المنطقة ، ما هو تاريخ البحوث وكيف تطورت ؟ وما هو مقدار ما تنتجونه منها وما تنتظرون انتاجه فى المستقبل ، وما نسبة ذلك كله الى انتاج العالم ؟ وقد علمت أن جزيرة البحرين قريبة من هنـا فلو استطعنا أن نلقى عليها نظرة أكون شاكرا .

أسئلة

فابتسم المدير وقال : انك تريد أن تعرف كل شيء ، فما هو الوقت المخصص لمعرفة كل ذلك ؟ فأجبته : يومان اثنان ابتـداء من باكر ، ثم نصف اليوم الذى سنسافر فيه . فأجابنى : ان الوقت ضيق وما تريد أن تراه لا يقع فى صعيد واحد بل فى مسافات مترامية ، ولو استخدمنا السيارة لتنقلاتك لاحتاج ذلك منا الى أسبوع كامل ، فما رأيك فى استخدام الطائرة للتنقل بين الأجزاء المختلفة حتى تتمكن من توفير وقت الانتقال من مكان الى مكان ؟ فقلت له : اننى أرحب بذلك كل الترحيب مادام سيحقق لى أمنيتى .

فاستدعى المدير بعض أعوانه ، وكلفهم أن يقوموا بعمل اللازم منذ الغد ، وان يصاحبونا فى تجوالنا وأن يحاضرونا قبل بدء الجولة محاضرة علمية لتسهل لنا فهم ما نحن مقبلون عليه .

قلت له : علمت أنكم شرعتم فى انشاء خط سكة حديد ، وقـد أخبرنى بذلك سمو ولى العهد فكم كيلو مترا فرغتم من انشائها حتى الآن ؟ فأجابنى ان أحسن رد على هذا السؤال هو أن تركب القاطرة بنفسك . وأن تقطع بصورة عملية المسافة التى تم الفراغ من انشائها بالفعل . قال ذلك ثم استدعى مرة أخرى واحدا من المعاونين وقال له : ان ضيفنا سأل عن مقدار ما أنشأناه من السكة الحديد فأعط التعليمات ليعدوا له القاطرة فى أى وقت يشاء لكى يركبها ويكون لنفسه فكرة صحيحة .

ووزع علينا المدير بعد ذلك نشرات مطبوعة وكتبا صغيرة تحوى صورا وبيانات ومعلومات وحقائق عن تاريخ هذه المنطقة وما يجـرى

ويدور فيها ، ثم راح يلقى علينا محاضرة موجزة فى تاريخ مشروع استنباط البترول فى هذه المنطقة :

« اذا كان هناك رجل له فضل فى اكتشاف البترول فى هذه المنطقة من العالم التى أصبحت أغنى مناطقه على الاطلاق فذلك الرجل هو الملك عبد العزيز آل سعود ، الذى كانت لديه الشجاعة التى جعلته يمنح امتياز التنقيب لشركة كاليفورنيا للبترول فى سنة ١٩٣٣ » .

فضل ابن السعود فى اكتشاف البترول

بهذه العبارة استهل مدير شركة « ارامكو » حديثه معنا عن تاريخ المشروع ثم استطرد قائلا : اننا ندرك الصعوبات التى كانت تعترض منحنا مثل هذا الامتياز ، فقد مضت قرون وأجيال لم يطأ هذه الأراضى شخص غير مسلم ، وقد أصبحت هذه قاعدة يعتبر مجرد المساس بها بمثابة الكفر والمروق من الايمان فى نظر المتعصبين من بدو الصحراء ، ومع ذلك فقد أقدم ابن السعود على تحطيم هذه القاعدة فسمح لنا بالاستقرار ، وأحاطنا بجو من الأمن والطمأنينة لا نشعر بهما فى عقر بلادنا .

ونحن نعرف أنه يحق للعرب أن يسيئوا الظن بنوايا الدول الغربية التى استعمرت أجزاء كبيرة من العالم العربى والاسلامى ، فلم يكن هناك لوم أو تثريب على الملك ابن السعود فيما لو أساء بنوايانا الظن فأبى علينا هذا الامتياز ، ولكن عبقرية ابن السعود تغلبت على هذه المخاوف وأدرك أننا كشركة لا يهمنا الا أن نربح عن طريق استخدام البترول ، وأن نفيد المجتمع الذى هيأ لنا أسباب هذا الربح ، وأن مصلحتنا المحققة هى دوام استقلال هذا المجتمع وحفظ كيانه لنتمكن من الاستمرار فى أعمالنا . لقد أدرك ابن السعود بثاقب بصيرته هذه الحقائق فلم يتردد فى منحنا الامتياز ، ونحن نقدر هذا العمل العظيم من جانبه ، وقد آلينا على أنفسنا أن لا نجعله أو نجعل خلفاءه يندمون على هذه الخطوة أبدا ، ولذلك فنحن نخدمهم باخلاص ونعتبر أنفسنا من رعاياهم وفى حمايتهم ، واننا سعداء اليوم اذ نقدم

سفسطة أمريكية

لابن السعود جزاء كرمه وتسامحه بالنسبة لنا ، فسوف يجعله هذا البترول أغنى ملك ، ويجعل هذا القسم من الجزيرة من أغنى بلاد العالمين فى السنوات المقبلة .

تاريخ المشروع وتطوراته

- ٢ -

أما بقية القصة بالتفصيل فقد اطلعت عليها من هذه الكتب التى أعطاها لنا ، والتى لم أشأ أن أنام هذه الليلة الا بعد أن أفرغ من مطالعتها حتى أكون مستعدا لفهم ما سوف نقابله فى اليوم التالى من منشئات ومؤسسات .

صعوبات قاسية أمام الرواد

بدأت الشركة أعمال التنقيب فى سنة ١٩٣٣ م وكان هذا النفر من الأمريكان الأوائل الذين هبطوا الى هذا المكان مضطرين الى أن يطيلوا ذقونهم وأن يرتدوا ملابس العربان ، وكان على ابن السعود أن يحميهم برجال شرطته لئلا يفتك بهم البدو . وكان البدء شاقا وقاسيا فليس فى هذا الشاطىء الذى نزلوا اليه ، بل ليس فى الجزيرة كلها شىء ينتفع به . وكان على هؤلاء القوم أن يستوردوا كل شىء من أمريكا ، ليس فقط بالنسبة للآلات والماكينات والعمال ، بل والطعام والشراب وقطعة الصابون يغسلون بها أنفسهم والورق والمسمار والدبوس وفتلة الخيط وقطعة الدوبارة وكان يتعين عليهم استجلاب ذلك من أبعاد شاسعة سحيقة تصل الى عشرة آلاف ميل وأكثر ، وكان يجب أن يظل شريان الحياة متصلا بين هؤلاء العمال وبين أمريكا ليستطيعوا أن يواصلوا مجرد الحياة . وكان على هؤلاء الأمريكان الأوائل أن يقوموا بثلاث مهمات كل منها كان كالمستحيل ، وهى أن يجدوا البترول فى هذه القفار وكان البحث عنه بمثابة البحث عن ابرة فى قاع المحيط ، وأن يجعلوا الحياة القاسية التى تحيط بهم محتملة ، وأن يصبروا عليها وأن يكونوا أولا وقبل كل شىء جيرانا طيبين لهؤلاء البدو والعرب الذى كانت الدلائل كلها تدل على أنهم كمرجل يغلى من الحقد ضد هؤلاء الغرباء .

ولقد نهض هؤلاء الأمريكان الأوائل بهذه المهمة بكل صبر وجلد .

وبدأوا فى حفر البئر الأولى فى أسوأ الظروف ، فكبدهم ذلك من العناء ما كبدهم ، ولكنهم بعد أن أنفقوا وتعبوا وكدوا اذا بالنتيجة تخيب رجاءهم والبئر المحفورة لا تنتج شيئا له قيمة ، وحفروا بئرا ثانية فكانت أشأم من الأولى • ولكن القوم كانوا قد وطدوا أنفسهم على احتمال مثل هذه الخيبة فهم لم يقطعوا هذه الألوف من الأميال لكى يثنى عزمهم الفشل • وبدأوا بئرا ثالثة ومن جديد بدأوا يعلقون عليها الآمال ، وراحوا ينفقون عشرات الألوف ومئـــات الألوف من الدولارات ، وتمضى الشهور تلو الشهور فى هذا الحر القائظ الذى يشوى الوجوه ، وليس للقوم الا الخيام يقيمون فيها فلما بدأوا فى بناية ما يستظلون به بنوا أكواخا صغيرة ينظر اليها الانسان اليوم وقد احتفظوا بها كبعض الآثار فيعجب أن الأمريكان الأول رضوا أن يدعوا كاليفورنيا التى تفيض بالسمن والعسل وبأجمل المناظر وأجمل المتع وأجمل النساء ، كيف تركوا هذه الدنيا الصاخبة الزاهية ليعيشوا فى هذه القفار فى هذه الأكواخ الخالية من كل شىء •

توالى الفشل والخيبة

وأخيرا تم حفر البئر الثالثة ومرة أخرى لم يلق القوم سوى الفشل ؛ لقد خرج من أعماق الأرض ما يدل على أن هناك بترولا ، ولكن هذا البترول بكميات تافهة لا تستحق العناء الذى بذل من أجلها،ولا تساوى مجرد اخراجها من باطن الأرض فضلا عن شحنها الى أنحاء العالمين •

وبدأ ايمان أصحاب الشركة يدب اليه بعض الوهن ، ولكن كان هناك معين من الصبر والجلد وكان قد مضى على القوم بضعة أعوام ازدادوا فيها استقرارا وتأقلموا بالجو الى حد كبير ، واستطاعوا أن يحلوا كثيرا من مشكلات الاقامة والطعام والشراب ، واذن فليمضوا فى العمل ، فكان حفر البئر الرابعـــة فى منطقة غير المناطق السابقة ، وبعد شهور من العمل المضنى الذى لا يتصوره الانسان الا اذا رآه رأى العين نجح القوم فى تأكيد الحقيقة التى بدأت تتضح لهم ؛

وهى أنهم أخطأوا الحساب والتقدير ، وأن هذا المكان من الجزيرة خلو من البترول الذى يمكن استغلاله بطريقة اقتصادية ناجحة .

الشركة تمنى بالفشل

هل تعلن الشركة افلاسها وتدع العمل بعد أن أنفقت ما أنفقت وأسست ما أسست ؟ . اجتمع المساهمون فى أمريكا وتباحثوا فى الأمر ، وهالتهم الخسائر التى تكبدوها حتى الآن ؛ لقد بلغت الخسائر حتى نهاية سنة ١٩٣٧ م ثلاثة ملايين دولار دون أن تنتج ما يغل مليما واحدا ، وعز عليهم أن يضيع كل ذلك هباء ، فاستجمعوا عزمهم وقرروا مواصلة العمل ، فجمعوا أموالا جديدة ، وأرسلوا خبراء جددا ، ومنحوا العمال مزايا ومشجعات ومرغبات جديدة ليواصلوا العمل . وفى هذا الجو من العزم المجدد والتفاؤل بدأ حفر البئر الخامسة ، بعد أن حشدوا لها كل ما لديهم من علم وتجارب وفن ، ولكنهم انتهوا الى نفس النتيجة السابقة ، قليل من البترول لا يساوى جزءا من مائة جزء مما أنفق على استخراجه . ورأوا أن يقوموا بمحاولة أخيرة ليدعوا بعدها العمل غير آسفين ولا نادمين لانقاذ ما يمكن انقاذه من كيان الشركة الأصلية فى كاليفورنيا .

فى الطريق إلى الافلاس

وفى هذه المرة حفروا بئرين فى آن واحد : السادسة والسابعة . ووقف المديرون والمساهمون يتنسمون الأخبار الأخيرة من ساعة الى ساعة ، الى أن تم حفر البئر السادسة فاذا بالضربة تحل بهم فلم تخرج لهم البئر الا الفشل والخيبة ، وقضى على كل أمل وانهارت هذه القصور من الأمانى والأحلام التى علقها الأمريكان على العثور على البترول فى هذا المكان ، وبدأ كبار الموظفين يصدرون القرارات لتصفية الموقف ، وبدأ كثيرون من العمال الأمريكان يحزمون أمتعتهم فى سرور وسعادة لقرب عودتهم الى أمريكا وتخلصهم من هذا المكان اللعين ، واهتزت أسلاك البرق بين الظهران وكليفورنيا تقول أن كل شىء قد انتهى وأنهم فى انتظار الأمر الأخير بالرحيل ، ولكن ..

ولكن :

ولكن هذا الأمر بالرحيل لم يصدر وبدلا منه صدرت أوامر عكسية

واهتزت أسلاك البرق من كاليفورنيا الى الظهران بأمثال هذه البرقيات : المدير العام فى طريقه اليكم ، الاعتمادات المطلوبة قد فتحت ، النقود الذهبية شحنت على الباخرة وسوف تصلكم ، أصدرنا الأوامر والتعليمات بشحن عشرة آلاف طن من المواسير • ستصلكم الآلات والماكينات فى أقرب وقت • سنرسل اليكم بعض الأطباء والممرضات ـ الجميع هنا يرقصون من الفرح •

البئر السابعة :

لقد ضرب الحظ ضربته فى الساعة الأخيرة ، فهذه البئر السابعة والتى لم يكن قد تم حفرها جاءت بالمعجزة التى كان الأمريكان يؤملون فيها ، لقد تفجرت الأرض وأخرجت أثقالها ، وانطلق زيت البترول من أعماق الأرض كأقوى ما رأى الأمريكان وكأعجب ما رأى الأمريكان ، وكان ذلك فى شهر مارس سنة ١٩٣٨ م أى بعد خمس سنوات كاملة من العمل فى ظل الفشل والخيبة المتكررة • ولم تكن هذه البئر السابعة بئرا كآبار الزيت المعهودة بل كانت طوفانا ، وكانت بمثابة بحر عجاج متلاطم من البترول •

الحظ يضرب ضربته

وبدأت صفحة جديدة ، لا فى تاريخ شركة كاليفورنيا ، أو فى التنقيب عن البترول فى جزيرة العرب ، بل صفحة جديدة فى تاريخ العرب كلها • وصفحة فى تاريخ الشرق الأوسط بأكمله ، فقد أصبح هو العمود الفقرى لمجهودات انجلترا وأمريكا العالميتين ، وأصبح هو القلب الذى اذا أصيب بضربة واحدة خر الجسد على أثره مصعوقا ميتا •

هذه البئر رقم ٧ انها موجودة اليوم تحمل هذا الرقم ، ويحج اليها رجال الشركة وعمالها ينظرون اليها كنقطة التحول فى حظوظهم وحظوظ جزيرة العرب •

أرقام خيالية

ولكى تقدر خطورة هذه البئر لا عليك الا أن تسمع الأرقام الآتية :

فمنذ عام ١٩٣٣ م حتى آخر عام ١٩٣٨ م وهو العام الذى اكتشفت فيه البئر السابعة بلغ مقدار ما استخرج من البترول فى خمس سنوات كاملة ٥٨٠٫٠٠٠ برميلا ، وكان الجزء الأكبر من هذه الكمية من البئر السابعة التى كان قد بدأ استغلالها قرب آخر العام ، أما فى سنة ١٩٣٩ م أى بعد أن بدأت البئر السابعة انتاجها بالكامل فقد بلغ المستخرج ٣٫٩٣٤٫٠٠٠ أى ما يزيد على سبعة أضعاف الكمية المستخرجة فى خمس سنوات من ست آبار مجتمعة .

وبدأت قصة ألف ليلة وليلة منذ ذلك التاريخ وقصة خاتم سليمان وكنز علاء الدين وعفاريت الجن التى تنسف الجبال وتجفف البحار وتحول كل شىء الى ذهب .

البترول كالطوفان

بدأ استخراج الزيت يتضاعف فأصبح فى سنة ١٩٤٠ م ٥٫٠٧٥٫٠٠٠ برميلا ولكن الحرب فى ذلك الوقت كانت قد اشتعلت ، وبدأت الحكومة الأمريكية تمنع تصدير الآلات اللازمة لكى تواصل الشركة أعمالها فضلا عن أن تتوسع فيها ، ولكن فى سنة ١٩٤٣ ، قررت الحكومة الأمريكية أن هذا البترول لازم لمجهود أمريكا الحربى فى أوربا وفى الشرق ، فأعلنت الشركة للقيام بعملها على أوسع نطاق ، فاذا الناتج يقفز فى سنة ١٩٤٥ م الى ٢١٫٣١١٫٠٠٠ برميلا ، ويهولك هذا الرقم الذى كان منذ عام واحد لا يزيد على سبعة ملايين ، فاذا به يتضاعف ثلاث مرات فى خلال عام ، وهو شىء لا مثيل له فى تاريخ البترول فى أى مكان فى العالم ، ولكن الدهشة لا تكاد تتملكك حتى ترى نفسك مهددا بأن تصاب بالذهول عندما تعرف أن هذا الرقم قد ارتفع فى العام التالى أى ١٩٤٦ م الى ٥٩٫٩٤٤٫٠٠٠ أى ستين مليون برميل فى السنة وفى عام ١٩٤٧ م الى ٨٩٫٨٥٢٫٠٠٠ أى تسعين مليونا ، وقد قال لى المدير انهم يتوقعون انتاج مائة مليون برميل فى عام ١٩٤٩ م ولقد طالعت بعد ذلك فى تقرير الشركة عن أعمالها فى هذه السنة ان الانتاج قد تجاوز هذا القدر بمرحلة شاسعة . ولا جدال أن هذا وضع شاذ لا يسير عليه العمل فى أى مكان آخر فى العالم ، فالمعروف

استنزاف واستغلال رأسمالى

أن البترول له كميات محددة سرعان ما تنفد وكثير من الآبار التى تنتج البترول سرعان ما تجف ، ولذلك فان كل دول العالم قدوضعت سياسات خاصة بكمية البترول المستخرجة ، وهى تحظر استنزاف موارد البترول بهذا الأسلوب ، ولكن شركة أرامكو لا يهمها بطبيعة الحال الا مجرد الربح ، فهى تعمل على استجلابه والاستكثار منه ، فماذا عليها اذا سحبت كل البترول الموجود فى باطن الأرض وجففت الآبار ، بل لابد أن يكون أحد أهداف أمريكا بالذات هو الاقتصاد فى استعمال مافى باطن أرضها من البترول ، على أن تستخدم بترول الشرق الأوسط ، وهو ما فعلته فى خلال الحرب بالفعل حيث اعتمدت اعتمادا كليا على بترول الدولة العربية السعودية كما يتجلى من هذه الكميات الضخمة .

ضرورة وضع سياسة بترولية

ولذلك فاننا نتجه فى هذه الرسالة الى جلالة الملك ابن السعود وولى عهده مطالبين اياهما بوجوب التدخل لتحديد الكميات التى لا يجوز للشركة أن تتجاوزها فى انتاجها ، وأن تقدر هذه الكميات بنسبة معينة الى المخزون تحت الأرض ، كأن لا تتجاوز هذه النسبة نصفا فى المائة أو واحدا فى المائة على الأكثر ، وبذلك تضمن المملكة السعودية موارد البترول الى مائة سنة مقبلة ، أما اذا سارت الأمور بالأسلوب الذى تسير عليه الآن فان أخشى ما أخشاه أن ينزح الأمريكيون البترول ثم يدعون الجزيرة بعد ذلك قاعا صفصفا .

انتشار العمران :

وفى أعقاب البترول وفدت مظاهر العمران على أوجها ، فالظهران التى كانت تتألف من بعض العشش والأكواخ أصبحت الآن كما وصفتها لك بلدة أمريكية حافلة بمظاهر الحياة ، وقد خرجنا بعد الظهر نطوف فى أرجائها فسرنا فى هذه الشوارع المعبدة النظيفة ، وسط هذه البيوت الجميلة ولفت أنظارنا هذه الكثرة الساحقة من السيارات التى تقوم بوظيفة التاكسى ، وقد طليت باللونين الأصفر والأحمر على غرار التاكسيات فى نيويورك ، وزرنا الورش الضخمة التى ليس لها مثيل حتى الآن فى مصر من حيث حداثة الآلات وضخامتها ، ولم يكن هناك

ما يبهجنا أكثر من أن نرى العمال العرب يعملون وسط هذه الآلات كأمهر ما يكون العمال • لقد كانوا بالأمس بدوا رحلا يلتمسون رزقهم من التمر وقطرات الماء فى جوف الصحراء ، أما اليوم فهم يعملون على هذه الآلات — ويتقاضون فى اليوم ما يساوى خمسين قرشا أو سبعين أو ثمانين أو مائة فى بعض الأحيان مضافا اليها سكن بالمجان وحرارة بالمجان ليطهى عليها طعامه كذلك ، وتقدم له الأقوات كل أسبوعين بثمن مخفض يتناسب مع موارده •

عشرون ألف عامل عربى

لقد بلغ عدة هؤلاء العمال عشرين ألفا ، لاشك أنهم يؤلفون مرحلة جديدة فى تاريخ الجزيرة ، فلأول مرة فى كل حياتها يقبل العربى على حذق صناعة ومزاولة عمل يدوى • ومهما قيل فى شأن هذه الخطوة أو هذا الانقلاب فى حياة الجزيرة وما قد يجره عليها من أخطار الحرب ، فلم يكن بوسعى الا أن أباركه عندما بدأت أدخل الى المدارس التى أنشئت لتعليم هؤلاء العرب القراءة والكتابة ، ولتعليمهم قواعد الميكانيكا ولتدريبهم على مختلف الصناعات ، وعندما دخلت الى هذه المستشفى التى لم تفتح بعد ولكنها أتمت الاستعداد لهذا الافتتاح ، أدركت أن هذه دنيا جديدة كان لابد للعرب من أن يدخلوها ، فالمستشفى على أحدث طراز تبنى عليه المستشفيات فى أمريكا ، وتحتوى من الاستعداد ما أخشى أن أقول ان أكبر مستشفيات مصر لا تحويه لأن كل ما فى هذه المستشفى قد استجلب من أمريكا فى هذا العام ، أى على وفق آخر طراز وآخر ما ابتكر العلم وتطورت اليـه أجهزة ومعدات المستشفيات، وكل ذلك سيكون وقفا على علاج العمال أمريكان وعرب على السواء فبهرنى ذلك كله ، ولم أستطع اخفاء اعجابى وتقديرى لهذه النهضة على الرغم من الخوف الذى ما زال يخالط نفسى بعد أن تكشفت نوايا الأمريكان الاستعمارية •

وكنا فى تجوالنا نمر بآبار البترول التى تنتج البترول بالفعل فكان منظرها عجبا لأنها لا تزيد عن مجرد أنبوبة صغيرة تخـرج من بطن

الأرض ، وقد أحيطت بسياج ليدل على أنهـا بئر ، وتتصل هـذه الأنبوبة بأنابيب البترول الممتدة على سـطح الأرض ، والتى يندفع البترول فى خلالها حتى يصل الى أماكن التجميع أو التكرير ، وسرعان ما تكتشف هذه الآبار فى كل مكان ، وانك تمر عليها دون أن تلحظ شيئا غير عادى حتى يلفت نظرك الى منظر البئر • ولما حدثت مرافقى الأمريكانى عن بساطة هذا المنظر أجابنى أن الحال فى أمريكا وفى بعض البلاد أغرب من ذلك ، ففى الحدائق العامة وفى بيوت بعض الناس ترى هذه الأنابيب التى تدلك على وجود بئر للبترول •

النار الدائمة

ورأينا فى تجوالنا هذه النيران المشتعلة والتى رأيناها من الطائرة بمجرد اقترابنا من المكان — فسألت عن موضـوعها فقيل لى أن زيت البترول يخرج من الأرض وهو مختلط بغازات سامة لو تركت مختلطة به لسبب الأذى لكل من اقترب منه ، وهو يتلف الأوعية التى يوضع بها ، ولذلك فهم يعملون على تخليصه من هذه الغازات الأولية فى هذه الأجهزة الضخمة التى قصدناها لنقف على خبرها — ويطلقون عليها اسم المصيدة اشارة الى أنها تصيد الغازات العالقة بالبترول ، حتى اذا عزلت الغازات عن الزيت لم يبق ما يعمل بهذه الغازات الا أن تحرق ، وهذا هو سر النيران المتسعرة بدون انقطاع • ولم يكد الرجل يشرح لى هذه الحقيقة حتى اندفعت أسأله : وهلا يمكن الانتفاع بهذه الغازات على أى صورة من الصور ؟ فأجاب : اننا ننتفع بها فى توليد الحرارة التى تلزمنا للقيام بعملياتنا ، وننتفع بها فى الطهى والتدفئة داخل البيوت على الصورة التى تراها ، ولكن لا فائدة منها بعد ذلك • قلت : وهذه النار المشتعلة أبدا بهذه القوة ، هذا الجحيم المستعر ، هذه الطاقة، أتذهب هكذا هباء تتبدد فى الهواء ؟ فأجابنى : نحن نتساءل مثلك هذا السؤال ، ولم نستطع حتى الآن أن نجيب عليه ، ذلك لأننا قوم مهمتنا هى انتاج البترول ولا زيادة ، وربما اذا جىء بعلماء آخرين يجدون سبيلا لاستخدام هذه النيران ؛ أما نحن فلم نستطع أن ننتفع بهـا أى انتفاع •

وصمتنا جميعا وظللنا نحـدق فى النيران والقشعريرة تسرى فى جسدنا لمرآها ، فقد كانت نيرانا فظيعة مخيفة تتصـاعد الى عنـان السماء • وأخيرا سألته سؤالا أخيرا : أليس هناك أى خطر من هذه النيران الى جوار آبار البترول ؟ لقد كان محظورا علينا فى كثير من الأمكنة أن نشعل مجرد عود ثقاب تفاديا للخطر فكيف بهذه النيران الجبارة ؟ فأجابنى أن ليس ثمة خطر فالغاز يندفع من الأنابيب بقوة فى هذا الاتجاه ، والنار لا يمكن أن تمتد الى داخل الأنابيب لعدم وجود الأوكسجين اللازم للاحتراق بها ، فلم يبق الا أن يحترق الغاز بعـد أن يغادر الأنابيب فى هذا الطرف البعيد الذى أبعد عن البلدة وعن مواقع آبار البترول •

جبـابرة :

وانتقلنا بعد ذلك لاكمال دورتنا فى الظهران ، فكان من بين ما رأيناه تل كبير من الرمال فى ناحية من نواحى البلدة ، وأمامه آلات الحفر العملاقة التى لم تعرف فى مصر بعد ، فسألته عما تفعله هـذه الآلات فأجابنى : لقد رأينا أن نزيل هذا التل لنعبد الأرض ونزيد فى مساحة البلدة من هذه الناحية فبدأ العمل على ازالته ••• الله أكبر • لقـد كان الرجل يتكلم عن ازالة التل كما لو كان يتحدث عن ازالة كومة من القمامة لا تكلف أكثر من مكنسة فى يد فتاة صغيرة • عنـدنا فى داخل القاهرة تلول بأكملها تؤذى القاهرين وتغمر القاهرة بالتراب والأمراض والقاذورات ، ونحن ننظر اليها كما لو كنا ننظر الى جبال الهملايا ، والتحدث عن ازالة هذه التلال يعتبر لونا من ألوان التحدث عن الخرافات والمستحيلات ، وهؤلاء يزيلون التلال كما نكنس نحن الشوارع فى كل يوم بنفس السهولة وبنفس البساطة • قلت له : وأين تذهبون بهذه الرمال ؟ فأجابنى : نضعها فى هذه الأماكن المنخفضة لتتساوى التربة كلها •

وكنا طوال الوقت نشهد من حين لآخر مرور سيارات ضخمة تشبه الواحدة قطار السكة الحديد وتجر وراءها سلسلة من العربات كقطار السكة الحديد . ورأينا هذه السيارات الجبارة تجر كل شيء ، حتى البيوت التى نقيم فى واحد منها ، بأن يوضع تحت البيت عجل ثم تجره السيارة . أشياء ضخمة ، عقول جبارة ، أموال تنفق كالبحار لتدر أموالا كالمحيطات . ولم يمض لى بضع ساعات فى الظهران حتى كاد يتملكنى الدوار لكثرة ما شهدت ورأيت وسمعت ، مع أننى لم أكن قد رأيت شيئا فان برنامج الزيارة الواسعة لم يبدأ بعد ، وعدنا الى البيت وقد حل المساء وأضيئت الظهران بأنوار الكهرباء فى الشوارع والبيوت والطرقات ، وعدنا الى مقرنا لتناول العشاء وقد أتخمنا بالمعلومات ، وقد ظننا أن يومنا قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنا لم نكد نصل الى البيت حتى وجدنا سكرتير أمير الظهران محسن بن جلوى فى انتظارنا لزيارة الأمير فتناولنا عشاءنا الأمريكى على عجل وأسرعنا لزيارة الأمير .

أمير الظهران

— ٣ —

أرسل الأمير لنا سيارته اللنكولن لتحملنا اليه ولقد كنا فى عام ١٩٤٨م ومع ذلك فلا بد أن هذه السيارة كانت من طراز ١٩٥٠ م فليس فى مصر كلها سيارة تدانيها ، ولا تقولن وما هى مصر لتذكر فى عالم السيارات ، فانى أقول لك : أن لندن وباريس وموسكو دون القاهرة من حيث السيارات ، فكل هذه البلاد تستعمل سيارات من صنع بلادها ولا تسمح باستيراد غيرها ، وهى لا تصل الى مرتبة السيارات الأمريكية . أما فى مصر فقد أبى سادتها الأغنياء والكبراء الا أن يكونوا فوق الأوربيين فاستوردوا آخر طراز من السيارات الأمريكية وأغلاها ، وراحوا يستبدلونها من عام لآخر ، هؤلاء نحن فى الظهران نجد لأميرها سيارة تتقاصر دونها سيارات أغنياء مصر وكبرائها ، فالاتصال بين الظهران وأمريكا مباشر والدولارات متوفرة والحمد لله .

وسارت بنا السيارة وكانت الدنيا ليلا ، ومع ذلك فلم تستطع أن تحجب عنا الحقيقة وهى أننا نسير وسط مظاهر عمران كبير شامل ، لا فى المستعمرة الأمريكية ولكن فى البلاد العربية البحتة التى تجاور هذه المنطقة • فهذه بلدة عربية تسمى « الخبر » يتطور نموها بسرعة بعد أن لم تكن سوى بعض العشش والأكواخ ، وتنشىء الشركة الآن فيها ميناء سيكون أكبر ميناء على الخليج الفارسى،وقد خططت المدينة العربية الجديدة على أحدث خطط انشاء المدن ، بمعنى أنه رسمت لها شوارع مستقيمة وأخرى متقاطعة معها ، وهذا ما حدا بمرافقنا سكرتير الأمير أن يقول انها أعظم بلدة فى العالم ، أو لعله قال أضخم بلدة فى العالم ، ولقد أدركت فى نفسى ما يقصده ، من أنها خططت فأحسن تخطيطها والا فالبلدة لا تزيد فى النهاية عن قرية كبيرة من قرى ريف مصر • وسألت مرافقنا والسيارة تسير بنا عن اسم البلدة التى يقيم فيها أمير الظهران فأجابنى : انها الدمام • ولم يكد يلفظ هذا الاسم حتى تذكرت أنه اسم البلدة التى وجدت فيها البئر رقم ٧ ، والتى كانت نقطة التحول فى عملية التنقيب عن البترول فى هذا الجزء من العالم •

بلدة الدمام

وأخيرا وصلنا الى الدمام ، وقد رأينا فيها بالرغم من ظلام الليل ما رأيناه فى الخبر وهو أعمال البناء وأنها تجرى على ساق وقدم ؛ عشرات ومئات البيوت تبنى بعد أن توافر المال فى يد العرب من أبناء هذه المنطقة ما بين مقاولين وما بين عمال فنيين وما بين تجار ، وهو منظر لا شبيه له فى كل جزيرة العرب ، فقد تجد فى مكة أو جدة بيتا يبنى هنا أو هناك ، أما هنا فمئات البيوت تبنى فى آن واحد (ومن جاور السعيد يسعد) وهذه الملايين من الدولارات والجنيهات الذهبية التى أصبحت تتداول فى هذا الجزء من العالم لا يمكن الا أن يصل شذاها وعبيرها الى هؤلاء السكان من أبناء الساحل ، والذين لم يكن لهم فى القديم من عمل أو تجارة الا صيد اللؤلؤ فلم يكن يسد جوعهم الا بشق النفس ، وأصبح العمل فى صيد البترول أجزل وأربح فلم يستطع صيد

بين اللؤلؤ والبترول

اللؤلؤ الا أن يبنى بيتا لواحد من كبار تجاره ؛ بينا لم يهيىء للبقية الا أكواخا وأعشاشا ، أما صيد البترول فهو يبنى هذه المدن الكاملة .

ووصلنا الى قصر الأمير وقد لاح لنا على البعد بأنواره الكهربائية ، ولكنا لم نكد نجتاز عتبة بابه حتى وجدنا شيئا يخالف كل الذى لاقيناه فى بيوت أمراء المناطق حتى الآن ، ويخالف كل المخالفة ما توقعناه بعد أن ركبنا هذه السيارة الفاخرة ، فالبيت بسيط جدا وليس عليه أى مظهر من مظاهر البذخ والغنى .

هـذا هو بيت الأمير الذى يتعامل كل يوم مع مديرى شركة كاليفورنيا . لو أنه أقام فى قصر مشيد أو لو أنه اصطنع آخر المستحدثات الأمريكية لوجدنا له ألف مبرر ، وربما قيل أن واجبه يقضى عليه بذلك، فما أعجب أن يكون هذا هو الأمير الوحيد فى كل من رأينا وصادفنا يأبى الا أن يكون عربيا بدويا يعيش بسيطا كما عاش آباؤه وأجداده . كانت هذه هى الخواطر التى تملكتنى بعد أن جلست فى حضرة الأمير ، وبعد أن قابلتـه ثلاث مرات وفى كل مرة أخرج من عنده لا أعرف هـل أعجب به وأكبره أم أنتقده وأشـتد عليه ، فقد كان يزعجنى أن أرى مظاهر البداوة على أشـدها بعـد أن زالت فى بقية حواضر الجزيرة ، ثم أعود الى نفسى فأكبر هذا الاعتداد بالعروبة وهـذا التمسك بتقاليد الآباء والأجداد الذى لم يستطع كل هذا المجد الجديد الذى جاءت به أمريكا أن ينال منه .

محسن بن جلوى :

يفاجأ من يقابل الأمير محسن بن جلوى لأول مرة بما يشبه أن يكون خيبة الأمل والرجاء ، ذلك أن صاحبنا قليل الكلام الى حد يضنى النفس بل أنه جامد الوجـه ، فلا تتجلى عليه مظاهر السرور أو الابتهاج ، ولست تستطيع أن تطالع فى وجهه شيئا ، ولقد أصبنا بهذه الصدمة

عندما أقبلت عليـه محدثا بكل نفسى ، فينظر الى ولا يجيب ، فأغير موضوع الحـديث الى ناحية ثانية وثالثة حتى أظفر من حين لآخر بايماءة أو بكلمة قصيرة ، وان دلت على أن الرجل يتابع الموضوع الذى تتحدث فيه الا أنها لا تنقع الغلة ولا تشفى النفس •

وقد انصرفنا من حضرته ونحن يخيل الينا أننا لم نحظ برضائه أو نثير اهتمامه ، فاذا بنا لا نكاد نصل الى البيت حتى يقول لنا سكرتيره الذى عاد ليوصلنا : « لقد كلفنى سمو الأمير أن أدعوكم لتناول العشاء عنده غدا » وقد كان مجرد هذه الدعوة مفاجأة ، ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما لبينا الدعوة بالفعل فوجدناه قد دعا كل كبار الأمريكان زيادة فى تكريمنا ، فجاءوا جميعا يرتدون ملابس السهرة الفاخرة ، وجلسوا كما جلسنا من قبل لا يتكلمون ولا يتكلم ، فلم نكد نصل حتى أشرقت الابتسامة على وجه الأمير فنحن ضيوف الشرف فأجلسنا الى جواره ، وخصنا بالكلمات القليلة التى تفوه بها واللفتات التى التفتها ، ثم دعانا الى المأدبة وأجلسنا الى يمينه وشماله ، وجلس بقية الأمريكان بعد ذلك لا يلتفت اليهم ولا يعيرهم أى انتباه ، وكان الطعام لأول مرة فى رحلتى هذه قد مد على الطريقة العربية ، أكوام ضخمة من الأرز الناضج والى جواره الأوازى ، وما فوجئت الا بمدير شركة كاليفورنيا العربية لزيت البترول وهو يشمر عن كم (جاكتة) بدلة السهرة ويدب يده فى أكوام الأرز ثم يملأ منها قبضته ويضغط عليها بما فيها ويعصره حتى يتساقط السمن منه ثم يكوره كأحذق ما يفعل البدوى ثم يرفع بكرة الأرز الى فمه • ونظرت حولى فوجدت جميع الأمريكان يفعلون مثل ذلك ، منهم الذى يفعله لأول مرة فهو متردد متهيب ، ومنهم من سبقت له هذه التجربة أو المحنة اذا شئت فهو كمديره يعمل فى همة ونشاط ، فتغوص أصابعه فى لحم الأوزى المحمر وتخرج بفصوص اللحم فيرفعها الى فمه ثم يعقبها بكرات من الأرز • وكان هناك أمريكان يمسكون بتلابيب الخروف كما يفعل أى مقتدر فى بلادنا فيمزقه تمزيقا

أمريكا فى مأدبة بدوية

ويضع أكوام اللحم أمام رفاقه ... ولقد كنت مشدوها مذهولا من هذا المنظر ، وحاولت فى بادىء الأمر أن أجارى القوم خاصة وأنى كنت الى جوار الأمير فمددت أصابعى وأخذت قبضة من الأرز ورحت أعالجها كما يفعلون فأعصرها فى يدى ثم أكورها وألتهمها بعد ذلك فلم تطاوعنى نفسى على تكرار العمليــة أكثر من مرتين ، وقلت فى نفسى ان الله لا يستحى من الحق . والحق أننى لا أستطيع أن آكل بهذا الأسلوب ، وقد كانت هناك أطباق صغيرة ملأى بأصناف مختلفة فأخذت واحدا منها واستغنيت به عن بقية الطعام .

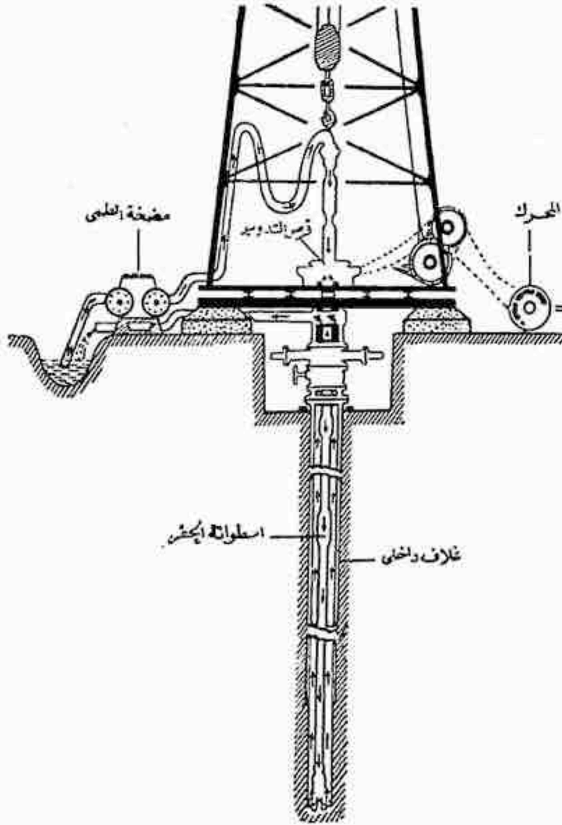
وكان الأمير كالعهد به لا ينبس ببنت شفة الا فى النادر ، وكنت أخاطب مدير الشركة بالانجليزية واصفا ما رأيت فى يومى وما تركته زيارتى لمنشئات الشركة الضخمة من أثر فى نفسى ، فيطلب المدير من مترجم الشركة الذى كان يقف بينه وبين الأمير أن يترجم لسموه هذه الأقوال . وكنت أخاطب الأمير بالعربية مباشرة فيطلب المدير من المترجم أن يترجم له ما قلت ، وعلى هذه الوتيرة انتهت المأدبة وقام الأمريكان فغسلوا أيديهم ، وبعد أن شربوا القهوة انصرفوا كأنهم التلاميذ الصغار عندما يؤذن لهم بالخروج من الفصل أو المدرسة ، فقد راحوا يتزاحمون رغبة فى الاسراع . أما نحن فقد استبقانا الأمير لنصلى معه ولنسهر معه . فأثر ذلك فى نفسى أعمق تأثير فهؤلاء الأمريكان بكل جلال قدرهم لم يعرهم بعض هذا الالتفات الذى أحاطنا به ، ولقد أرضى ذلك كبريائى ورفع قدرى أمام هؤلاء الأجانب ، وأدركت أن هذا الأمير على درجة كبيرة من قوة النفس والشخصية واذا كانت الطبيعة قد حدت من ملكة الكلام والافصاح عنده فقد عوضته عن هذا نفسا كبيرة وعقلا كبيرا فأما النفس الكبيرة فتتجلى فى هذه البساطة التى يعيش فيها وما اضطرنا أن تتصوره فقرا بالنسبة لما رأينا فى كل مكان من بيوت الأمراء والولاة . وغنى عن البيان أن بقدرته أن يكون كغيره من الأمراء والولاة ، بل وأن يزيد عليهم لاتصاله بهذه الشركة التى لن تتأخر أن تمده بكل ما يحتاج اليه

قوة نفس



مصادر البترول

نقلا عن كتاب قصة البترول



طريقة البريمة للحفر

نقلا عن كتاب قصة البترول

اليه من مال وحاجيات ، ولكن الرجل رأىأن ليس عند العرب ما يعتزون به أمام هؤلاء الأمريكان الا أن يتعففوا ، فتمسك الأمير بهذه القاعدة فأصبح الأمريكان لايمكنهم الا أن يحترموه لهذه النزاهةوهذه البساطة. والرجل يعرف من أمر نفسه أنه مهما حاول أن يقلد الأمريكان فلن ينجح وسيكون مثله مثل القرد اذ يقلد الغزال أو الغراب اذ يقلد الطاووس فيكون محل هزئهم وسخريتهم ، فالأكمل والأجمل أن يتمسك بعروبته ويتسم بطابعه الخاص ، فاذا أنكره الأمريكان فى بادىء الأمر بينهم وبين أنفسهم فلن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك فى العلن ، ثم لن يلبثوا بعد ذلك أن يدركوا عظمة نفس العربى ، وأنه وان تناول الطعام بهذا الأسلوب وعاش هذه العيشة يستطيع أن يكون رجلا شريفا عفيفا أمينا وأن يكون مديرا حازما كما هو شأن الأمير محسن ، فلا يسعهم الا أن يحترموه ويحترموا معه العرب أجمعين . وهذه هى خطة الأمير محسن وقد أحسن فيها كل الاحسان ، وحسبى أن أقول فى تصويره انه الرجل الوحيد فى كل جزيرة العرب الذى لم يرعه الأمريكان ولم يؤثروا فيه لا بأموالهم ولا بمظاهرهم ، وأنه أبى الا أن يظل عربيا مائة فى المائة .

والأمير محسن كبير العقل كما هو كبير النفس ، وقد تجلى ذلك لى عندما امتدت بنا السهرة هذه الليلة وراح من فى المجلس يعرض لمختلف القضايا لأبدى رأيى فيها ، فكان الأمير يعلق من حين لآخر تعليقاته القصيرة ولكنها كانت تجىء محكمة ، ولذلك فقد كانت تدهشنى لأنى لم أكن أتوقعها فى أى مرة من المرات ، فلم يكن مظهر وجهه يدل على أنه متتبع لما يقال فضلا عن أن يكون وعاه الى هذه الدرجة . وجاءت سيرة كتاب (هذه هى الأغلال) فقام أحد رجال حاشيته وهو مدير التعليم يدافع عن الكتاب ويحبذه ، وقد كان هذا هو آخر مكان أتصور أن أسمع فيه ثناء على كتاب ثائر على الأوضاع الاسلامية الحاضرة هذه الثورة ، فلما سألت الأمير عن رأيه فيه اذ به يقول « ان عبد الله القصيمى قد انحرف فى بعض فصول الكتاب »

وقد كدت أصفق طربا لهذا الرأى الموزون الرصين المنصف ؛ فما سمعت منه كلمة الكفر أو الزيغ واكتفى بالتعبير بكلمة الانحراف فى بعض فصول الكتاب ، وهذا ما يطابق رأيى فى الموضوع بالذات .

وهكذا كان الأمير يعلق من حين لآخر بمثل هذه الأقوال فدلنى على أنه واسع الأفق عميق التفكير .

وقد بقى أن تعرف أنه أمير حازم استتب الأمن فى عهده فوق استتبابه ، حتى أصبحت الشركة تدع كنوزها من مهمات وأدوات وأطعمة وأغذية مستوردة من أمريكا معرضة فى العراء بغير حراسة ، وبدون سور يحيط بها على الأقل ، ومع ذلك فلا تمتد اليها يد واحدة .

وأنه فى النهاية هو ابن عبد الله بن جلوى ابن عم عبد العزيز آل سعود ، والذى كان له فضل قتل عجلان أمير الرياض فى مغامرة فتحها . وأن أخاه الأكبر الأمير سعود بن جلوى أمير الأحساء ، والذى شاء أن يجعل من الظهران امارة مستقلة نصب عليها أخاه الأمير محسن ، والذى لم يعجبنا فى بادىء الأمر حتى اذا عرفنا مخبره أكبرناه واحترمناه وأعجبنا به ، وما أجمل أن تزيدك معرفة الرجل احتراما واكبارا حيث لا تزيدنا المعرفة بالناس الا ازورارا عنهم واستهانة بعقولهم وفقدان ثقة فى أخلاقهم .

قصة البترول :

أما وقد فرغنا من قصة أمير الظهران فلنقص عليك قصة البترول فى الظهران ، قصة أضخم منشآت للبترول فى العالم .

استيقظنا فى الصباح المبكر يوم الاثنين واستأنفنا جولتنا ، وفى هذه المرة لم يكن فى انتظارنا سيارة بل كانت هناك طائرة .

فوق البحرين

قلت للقوم : أما من سبيل لزيارة البحرين وهى الجزيرة المتاخمة لشاطىء الجزيرة ، والتى يوجد فيها البترول بكميات ضخمة ؟ فأجابونى بأنه لابد للهبوط فى الجزيرة من اجراءات معينة نظرا لأنها تحت الحماية

الانجليزية ، ولكن الطيار كلف بأن يطير فوق الجزيرة على ارتفاع قريب لكى نستطيع أن نرى كل معالمها .

وارتفعت بنا الطائرة وهى من طراز (بيتش كرافت) وبدأت تحوم فوق الظهران ، ثم اتجهت صوب جزيرة البحرين . ان منظر هذا الجزء من الخليج الفارسى من الطائرة يدل بوضوح على أنه ليس الا منخفضا من الأرض غمرته المياه ، ولست أشك لحظة بعد أن رأيت ما رأيت أن البترول الذى يوجد على شواطىء الخليج الفارسى انما يوجد أيضا فى قاعه ، وعندما تتطور أساليب التنقيب فتشمل البحث عن البترول تحت البحار الضحلة سيجدون تحت الخليج الفارسى بحرا آخر من البترول أسفل هذا البحر من الماء . ان الانسان يرى قاع البحر وهو فى الطائرة حتى لقد عجبت كيف تدخل السفن الكبيرة الى هذه الأجزاء من البحر ، ولكنى رأيت بعد ذلك أنها لا تدخل بالفعل ، وأنهم مضطرون أن ينشئوا أرصفة يبلغ طولها ستة كيلو متر وعشرة كيلو متر داخل المياه كما يفعلون الآن فى « الخبر » حتى تستطيع السفن أن تجد مكانا صالحا للارساء عليه . حتى اذا وصلنا الى الطرف الشرقى من جزيرة البحرين تجلى لنا أن البحر قد ازداد عمقا فى هذه الناحية ، وتجلت لنا جزيرة البحرين مبسوطة كأنها خريطة مجسدة كتلك التى نشاهدها فى المتاحف ، وتجلت لنا بأكملها وبحدودها كأنها ورقة عنب أو ورقة تين وكما تتشعب الشرايين الخضراء على صفحة ورقة التين أو العنب لتنشر الغذاء على سطح الورقة ، فكذلك كانت الطرقات تغطى صفحة الجزيرة كأنها شبكة من الشباك ، وقد كان هذا أول ما يلفت النظر . ان استخراج البترول من جزيرة البحرين قد بدأ فى عهد مبكر جدا قبل استخراجه من الجزيرة العربية وتتولاه شركة انجليزية استقرت منذ أمد بعيد فعبدت هذه الطرقات التى ليس لها مثيل حتى فى الظهران .

غابة من الأنابيب

وحومت الطائرة فوق مؤسسات البترول ومنشآته الجبارة التى تجلت لنا وهى تتألق تحت وهج الشمس . هاهى ذى غابات الأنابيب

وخزانات البترول تتجلى بكل ضخامتها وروعتها ، ومؤسسات البترول توحى لك دائما منظر الغابة حيث الأشجار المتكاثفة والأغصان المتعانقة المتشابكة ، فصناعة البترول كلها تقوم على عملية التقطير وتحليل هذا الزيت الخارج من بطن الأرض الى مشتقاته عن طريق تسخينها داخل أنابيب ضخمة ، حتى اذا تحول الزيت الى غاز هوائى راح كل نوع منه ذى كثافة معينة ينفذ الى أنابيب خاصة حيث يعاد تكثيفه فينقلب اما الى بنزين أو الى كيروسين أو سولار أو غير ذلك من الأنواع الأكثر كثافة .

فالعملية كلها تتطلب تسخين الزيت داخل أنابيب وتحليله الى مشتقاته ودفعها الى داخل أنابيب وتكثيفها ثم نقلها داخل أنابيب .

فمصانع البترول ليست فى حقيقتها الا غابة من الأنابيب . لقد شاهدنا غابة البترول ومدينة البترول حولها ثم لم نر على صفحة الجزيرة شيئا يدل على قيام عمران اللهم الا بيت الأمير أو قل قصره أو حصنه فهو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يرى من الطائرة الى جوار مؤسسات البترول ، وغير ذلك لم يكن ثمة شىء فاكتفينا بما رأيناه وطلبنا من صاحبنا الطيار أن يعود بنا الى الشاطىء لنبدأ البرنامج الموضوع . وكان أول عناصر البرنامج رؤية بئر فى مرحلة الحفر وكان يتعين علينا أن نتعمق فى داخل الجزيرة كى نصل الى هذه البئر .

وانثنت الطائرة وكرت راجعة وهؤلاء نحن من جديد نصل الى الشاطىء ونصبح فوق الظهران والنيران المستعرة تتقد فيها ، ونحن الآن فى طريقنا لنحلق فوق أعظم حقول البترول فى العالم غزارة وهو حقل أبو قيق . لقد حدثتك عن البئر رقم (٧) التى أذهلت الأمريكان بغزارة بترولها ، والتى كانت هى نقطة التحول فى أعمال الشركة وقد ذكرت لك أن الحقل الذى تقوم عليه البئر السابعة قدرت مساحته بتسعة آلاف كيلو متر مربع وهو رقم ضخم ونادر ، وبقى أن تعرف أن حقل أبو قيق تبلغ مساحته سبعين ألف ميل مربع ، وليس لذلك مثيل فى العالم من حيث السعة والضخامة . وهكذا كلما ظن القوم أنهم وصلوا

الأمريكان المذهولون

الى شىء عجيب عثروا على ما هو أعجب ولذلك فان الأمريكان هناك تراهم فى حالة أقرب الى الحمى منها الى الحالة الطبيعية ، يحدثونك بكل عواطفهم والفرح والابتهاج والفخر والاعتزاز يلوح فى كل كلمة وفى كل مقطع وفى كل حرف ينطقون به ، انهم أشبه بالرجل يدخل الى كهف سحرى فيبهره ما يرى فيه من نقود فضية ثم لا يلبث أن يرى أكداسا من الذهب فيزداد انبهارا ، ولكنه لا يكاد يفيق من هذه الصدمة الجديدة حتى يرى قناطير مقنطرة من الماس واللؤلؤ ، وهكذا يظل ينتقل فاغراً فاه كالمشدوه ، بل هو الى المصعوق أقرب . ذلك هو وصف الأمريكان الذين يعملون الآن فى منطقة الظهران ، لقد كانت الشركة تعتز بحقولها فى الظهران ، ثم فوجئت بحقول الدمام فاذا بالانتاج يقفز كما رأينا قفزة جبارة ، ثم جاء حقل أبو قيق الذى تضاءل الى جواره حقل الدمام ، ولا يزال حقل أبو قيق يظهر لهم فى كل يوم أنه أوسع وأضخم مما كانوا يتصورون ، وكلما ظنوا أنهم وصلوا الى نهاية الحقل وجدوه لا يزال ممتدا ، وحتى هذه اللحظة لم يحددوا هذا الحقل بصورة نهائية .

حقل أبو قيق العجيب

وتتجلى لك ضخامة حقل أبو قيق من الجو فى صورة هذه النيران المستعرة التى قلت لك انها عبارة عن احراق هذه الغازات التى يفصلونها من الزيت اتقاء لضررها وشرها . واذا قدرت النيران الناشئة من احراق غازات الزيت فى الظهران بشمعة فانها تقدر فى حقل الدمام ببضعة شمعات ، أما هنا فى أبى قيق فانها تقدر بمائة شمعة . لقد كنا نطير فوق منشآت البترول مرتفعين بأكثر من ألف قدم ومع ذلك فقد أوشك القلب أن ينخلع من رؤية النيران خاصة ، وراحت الطائرة ترتج وتهتز حتى صدق عليها الوصف بأنها ريشة فى مهب الرياح ، وما ذلك الا لتمدد الهواء فى هذه المنطقة من جراء اشتعال هذه النيران .

واذا كان أبو قيق هو أغزر حقول البترول فى منطقة الظهران فهو فى ذات الوقت أحدثها عمرا ، ولذلك فان العمران فى بلدة أبو قيق

لم يصل بعد الى الدرجة التى بلغها فى بلدة الظهران ، وهذه الحقيقة تبدو ساطعة من الطائرة ، فبينما الظهران توشك أن تكون مدينة كبيرة يتراءى لك من الطائرة نظامها الهندسى الجميل وبيوتها الأنيقة وأحواض السباحة بها والنوادى الرياضية ، اذ ببلدة أبو قيق وليس فيها سوى منشآت البترول الكبيرة ، ولقد أتيح لى بعد ذلك أن أجوس خلال أبو قيق بالسيارة فوجدتها فى دور الانشاء والتخطيط تسير نحو العمران بخطى سريعة ، ولن يكون بعيدا اليوم الذى تتفوق فيه على الظهران بعد أن أصبحت أكبر مراكز البترول فى العالم .

وواصلت الطائرة تحليقها وبدأنا نضرب فى بيداء الصحراء المقفرة مرة أخرى فقد كنا ذاهبين لنشهد بئرا لا تزال فى مرحلة الحفر . وبينما كانت الطائرة تطير فوق هذا الخضم ، كنت أعجب كيف يحددون فى هذا المحيط نقطة بالذات ليبدأوا منها الحفر ؟ ومرة أخرى عاد الى الشعور بأن ذلك يشبه أن يكون كالبحث عن ابرة فى أعماق البحر ، وسألت المهندسين من رفقائنا ونحن فى الطائرة أن يقربوا لى الموضوع فأجابونى بأنهم غير مختصين فى هذه المسألة وأننى سأقفه على كل هذه المعلومات بنفسى من المختصين عندما نصل الى المكان الذى نقصده .

ولكن هذا المكان الذى نقصده لم يلح فى الأفق ، وظللنا نضرب ساعة من الزمن دون أن نصل اليه حتى خيل الينا أننا قد ضللنا الطريق ، وتشكك الطيار معنا فى احتمال أنه قد ضل وأخيرا أو بعد لأى تأكد أنه لم يضل ، وعادت الينا الثقة ، وبعد قليل اقتربنا من نقطة سوداء انقشعت بالتدريج عن بئر فى مرحلة الحفر ، والبئر فى مرحلة الحفر يقوم فوقها هذا البرج الضخم من قضبان الصلب الذى يستخدم لدق المواسير فى الأرض الى أغوار عميقة ثم سحبها من حين لآخر لمعرفة نتيجة الحفر . وهبطت بنا الطائرة على مقربة من البئر وجاءت سيارة فأقلتنا الى موضعه ، حتى اذا جئناه وجدنا هذا البرج الضخم الذى حدثتك عنه

والذى يزداد ضخامة باقترابك منه وتقوم الى جواره كتلة ضخمة من الآلات اللازمة لتوليد القوى ودق الأنابيب فى الأرض ثم رفعها من حين لآخر •

غير مرغوب فينا

فظهر على الفور أننا لم نكن محل ترحيب ، وتقطب وجه المختص بعملية الحفر وزميله الأمريكى يحدثه عن هوايتنا وبعد تردد أشار الى مرافقنا أننا نستطيع أن نصعد فصعدنا الى الطابق الأول من هذا البرج حيث يقف العمال ويدور العمل •

فقاقيع غاز فى اناء ماء

وكان أول ما لاحظناه اجتماع بعض العمال وعلى رأسهم المختص بالحفر حول أنبوبة مطاطية لا يزيد قطرها عن نصف بوصة ، وقد أمسكوا بها وغمروا طرفها فى وعاء صغير به ماء ، وراحوا يرهفون السمع ويحملقون بالأعين ليروا ماذا سيحدث فى الماء ولم نكن ندرى أن الله قد شاء أن يهيىء لنا فرصة ذهبية وهو أن نصل فى اللحظة التى يخفق فيها قلب حافر البئر ومن معه من العمال •• اللحظة الرهيبة التى يتصورون فيها أنهم وصلوا الى طبقة البترول ، ويتوقعون أن يروا ما يدل على ذلك • وهذه الأنبوبة المطاطية التى أمسكوا بها متصلة بهذه الأنابيب الفولاذية الغائرة فى الأرض الى أعماق سحيقة ، فاذا اقتربت هذه الأنابيب من المناطق التى يوجد بها البترول اندفعت الغازات فى الأنابيب الفولاذية ثم فى الأنبوبة المطاطية المغمورة فى الماء فيظهر أثرها فى الماء على شكل فقاعات ، فاذا ظهرت هذه الفقاعات كان ذلك هو البشير على قرب البترول ، أما اذا لم تظهر فان ذلك هو الدليل على أنه يجب المضى فى الحفر الى أغوار أعمق على أساس أن منطقة البترول لم تأت بعد ، أو أن يكون الدليل على أن المنطقة ليس فيها بترول بالمرة •

وباستطاعتك أن تتصور مدى توتر أعصاب العمال والمشتغلين بعملية الحفر وخاصة المشرف على العملية فى هذه اللحظات الحاسمة

عندما يقترب الى العمق الذى يظن أن البترول فيه ، ثم يأمر بوضع أنبوبة المطاط فى الماء لكى يكشف هذه الحقيقة •

وفى هذه اللحظة الدقيقة وصلنا وقد شرح لنا مرافقنا الموقف بسرعة ثم راح يجحظ بعينيه الى وعاء الماء الذى وضع فيه طرف الأنبوبة وراح ينظر ورحنا ننظر معه ، فلم يبد فى الماء أى أثر لفقاقيع ، وأمر رئيس العمل أن يضيفوا بضعة أمتار من المواسير ويستأنفوا دقها فى الأرض وسرعان ماتمت هذه العملية ومرة أخرى وضعت الأنبـوبة فى وعاء الماء لاكتشاف الفقاعات فلم يكن ثم شىء ، فاذا به يصدر أمره بسحب الأنابيب كلها من باطن الأرض ، أى سحب أنابيب غائصة فى الأرض ، طولها سبعة آلاف قدم ، وذلك لكى يعرف نوع الطبقات الأرضية التى وصلت اليها الأنابيب بامتحان العينات التى تكون قد نفذت الى داخلها ، ويقف على السبب فى عدم ظهور البترول • ولم يكد المشرف على العمل يعطى الأمر بسحب الأنابيب حتى بدأت الروافع الضخمة فى سحبها من باطن الأرض فيقبل العمال عليها ليفكوها من بعضهـا لأنها ليست سوى أنابيب طول كل منها خمسة أمتار وتتصل بأختهـا بواسطة (قلاووظ) فى نهاية كل أنبوبة منها •

وأقبل علينا المهندس الأمريكى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لأول مرة ، وراح يطوف معى ليرينى الآلات التى تولد القوة اللازمة لادارة العملية ، ويرينى الطين المخصوص اللازم لعملية الحفر ، ولما كان دوى الآلات يحول بيننا وبين سماع شىء فقد اقترح علينا المهندس أن نغادر هذا المكان وأن نذهب الى المكتب والمعمل ليشرح لى ما أود أن أعرفه •

لحظة حاسمة

واعتذر لى المهندس عن أنه لم يحسن استقبالنا فقد كان متـوتر الأعصاب بسبب انتظاره ظهور الغاز ، وهى اللحظة التى يترقبونها طوال بضعة أشهر يمضونها فى الحفر قبل أن يصلوا اليها ، وكان عليه أن يصدر قرارا خطيرا فى الموضوع ، أيأمرهم بمواصلة الحفر أم يأمرهم بسحب الأنابيب كما حدث لمعرفة ماذا حال دون ظهور البترول ، والقرار

بسحب الأنابيب بعد الوصول الى هذا العمق معناه عمل بضعة أيام متواصلة فى سحب الأنابيب وفحص ما فى نهايتها من طبقات الأرض ، ثم اعادتها من جديد الى حيث كانت ، ومواصلة الحفر مرة أخرى •
قال لنا المهندس : فأما الآن وقد أصدرت القرار فقد انتهيت من مهمتى ، وأصبحت لا عمل لى حتى ينتهوا من اخراج الأنابيب ، وهو ما يستلزم أمدا طويلا ، ولذلك فانى أضع نفسى تحت خدمتكم •

قلت له : اننى أريد أن أعرف كل شىء ، ولماذا اخترتم هذه المنطقة بالذات لتحفروا فيها ؟ وما هى الأعمال الفنية التى تقوم عليها عملية الحفر ؟ واليك ما قاله لى وما طالعته بعد ذلك فى الكتب الخاصة بهذا الموضوع •

عملية التنقيب عن البترول :

تبدأ عملية التنقيب عن البترول بالتعرف على المناطق التى يظن احتمال وجود البترول فيها • ولا يزال العلماء مختلفين حتى الآن فى معرفة أسباب تكون البترول والمقول الآن: أن زيت البترول ليس الا ثمرة تحلل العناصر الحية فى باطن التربة والتى كانت فى الأصل أسماكا وحيوانات بحرية ونباتات[1] وأعشاباً ، ويعزز هذا الرأى أنهم كثيرا ما يجدون فى

(١) كانت شطآن البحار مرتعا لكثير من الطحالب والأسماك ، تقضى ما قدر لها من عمر فى هذه الحياة ، ثم يلحقها الموت ، فتتراكم جثثها واجسادها على القاع ، ويرتع الخلف ما شاءت له المقادير ثم يلحق بالسلف ، كومة فوق أخرى ، والى هذه القيعان الشاطئية تتدفق الأمواه والسيول البرية حاملة طميا وفتاتا من الصخور ، وجارفة أجداثا أخر وفروعا وأوراقا واغصانا ، وقاع الشاطىء لا يمتلىء ولا يتخم ، بل كلما القى فيه حمل وتراكمت عليه كومة ، وارتفعت عليه الرواسب ، انخفض القاع انخفاضا بطيئا ليحفظ العمق ثابتا ، ولتأتى كومة أخرى فوق سابقتها ، وهكذا تعالت وارتفعت وعظمت هذه الرواسب بما فيها من رمم واجداث ومواد عضوية • ولو كشف عن أبصارنا الغطاء ، وقدر لنا أن ننفذ ببصيرة واعية الى ذلك الماضى السحيق ، لرأينا هذه المواد العضوية جميعا لا تكاد تسرع اليها بكتريا التعفن لتتلفها حتى تحتضنها الرواسب المعدنية من طمى وطين فتحميها من التلف والفناء ...
=

زيت البترول كثيرا من المواد العضوية من بقايا الأسماك والأحياء المائية • على أن هناك آراء جديدة تفسر تكوين زيت البترول تفسيرات أخرى كقولهم انه وليد عمليات من التفاعل الكيميائى بين ما ينطوى عليه جوف القشرة الأرضية من الماء وكربورات الماء • وأيا ما كان منشأ البترول فقد أصبح للجيولوجيين الآن علامات يستدلون بها على وجود البترول فى مكان من الأمكنة ، وأضخم هذه العلامات أن ترى طبقات الأرض فى مكان ما متقوسة بحيث تشبه القبة ، فاذا وجدت طبقات الأرض على هذه الصورة فى منطقة من المناطق أقبل عليها الجيولوجيون يدرسونها بالتفصيل ، فيمتحنون ترتيب الطبقات الأرضية فيها ، فاذا كانت هذه الطبقات مرتبة بطريقة معينة زاد ذلك من احتمال وجود البترول ، ذلك أن التجارب قد دلت على أن البترول يوجد تحت طبقات معينة من المواد التى تتكون منها القشرة الأرضية • وتبدأ دراسات الطبقات فى باطن الأرض بدراسة سطح الأرض نفسه ، فهنالك علاقة كبيرة بين سطح الأرض وما تليه من طبقات ، فاذا وجد الجيولوجيون على سطح الأرض ما يشجعهم ، ذهبوا فى بحثهم خطوة

المباحث التمهيدية لكشف البترول

= ثم انتهى عصر ترسيب المواد العضوية ، وأخذ الفتات الصخرى يرقد فوق هذه الأجداث والرمم طبقة اثر طبقة ، وأناخ بكلكلها اثقالا شدادا ، فكان الضغط وكانت الحرارة ، فاستقطرت من هذه الحياة القديمة هذا الزيت الساحر الذى يقولون عنه « الذهب الأسود » ، ويسمونه زيت الصخر ، وما هو من الصخر فى شىء ، وما تجوز عليه التسمية الا كما تجوز أن تسمى الوديعة باسم من أودعتها عنده ، لا باسم مودعها وصاحبها الشرعى ، ولو أنصفنا لأسميناه « زيت الأحياء القديمة » •

ولو أن رجلا دخل الى قلب الأرض فى ذلك الحين ، وضمته بهذا العنف الذى يهرى اللحم ويحلله لكان اليوم وقودا يدفع بسيارتك فى هذه الحياة الدنيا •

ولقد استطاع بعض العلماء أن يقلدوا ما حدث فى الطبيعة ، ليستقطروا الأجداث والأموات والمواد العضوية بالضغط والحرارة فى معاملهم ، فنجحوا وأنتجوا البترول ــ انتهى (نقلا عن كتاب قصة البترول للأستاذ يوسف مصطفى الحارونى) •

أبعد فاستعملوا ما انتهى اليه العلم من أجهزة دقيقة كالسسموجراف الذى ينبىء بذبذبته على صورة مخصوصة عن زيادة الاحتمال فى العثور على البترول، فينتقل البحث خطوة أعمق حيث يشرع الجيولوجيون فى حفر آبار صغيرة على أعماق قريبة تصل أحيانا الى مائتى قدم أو أكثر أو أقل ، فيدرسون طبقات الأرض فى هذه الثقوب الصغيرة ، فاذا وجدوها على الترتيب المألوف والذى يسبق وجود البترول زاد ترجيحهم لوجوده • وبعد حسابات وتقديرات معينة يقرر الجيولوجيون الاقدام على المرحلة الأخيرة مرحلة حفر بئر كاملة والتى هى الحكم الفيصل النهائى لمعرفة ما اذا كان يوجد زيت بالفعل أو لا يوجد فيحددون للحفار التى يبدأ فيها عمله •

آلات الحفر وعمليته

وتستجلب هذه الآلات الضخمة ويركب هذا البرج الشامخ من قضبان الصلب ، الذى يبلغ ارتفاع كل منها خمسين مترا فى المكان المعين، ثم يشرع فى دق الاسطوانات فى الأرض ، وقد أصبحت هذه الاسطوانات الآن لا تدق وانما تبرم فى الأرض برما بواسطة آلات محركة قوية جدا • « وهذه الآلات تحرك قرصا أفقيا فوق فوهة البئر » وهذا القرص تنزل منه أسطوانة فى أسفلها رأس البريمة الحافرة ، وحين يدور هذا الرأس ، القوى الصلابة ذو الأسنان البارزة المتينة ، يأكل فى الصخور بقاع البئر فيبريها ، وتلك الأسطوانة التى تعمل كساق للبريمة مكونة من قطع ، كلما قاربت قطعة نهايتها ركبت بطرفها العلوى قطعة أخرى وهكذا ، ورأس البريمة نفسه قد ينبرى ويثلم فيرفع الساق قطعة قطعة لتوضع رأس أخرى ويعاد شحذ الأولى وتستأنف عملية الحفر •

غير أنا كلما تعمقنا فى باطن الأرض وارتفعت جدران البئر واستطالت، خشى معها على الانهيار والسقوط ، لذا وجب أن تحمى هذه الجدران وأن تبطن باسطوانة حديدية تمنعها من الانقضاض وسد البئر ، ووضع هذه الاسطوانة يجعل فتحة البئر واتساعها أضيق من ذى قبل ، فتستعمل آلة حفر أصغر من الأولى ، حتى اذا بعد بها الحفر ، وجب

تبطين الجزء الجديد ، دفعت أسطوانة ثانية أضيق من الأولى وأبعد عمقا ، لتغلف هذا الجزء الجديد ، وليس التغليف الثانى مقصورا على الحفر الجديد ، بل لابد أن يبدأ من سطح البئر ، فترى على السطح حلقات متداخلة ، الخارجية منها لأسطوانة التغليف الأولى ، والثانية تبطن الأولى وتذهب بعيداً لتبطن الحفر الجديد ، والثالثة شأنها مع الثانية كشأن هذه مع الأولى وهكذا ، تضيق البئر شيئا فشيئا كلما توغلنا فى الحفر •

ومن الواضح أن أسطوانة التغليف لا يدفع بها كاملة بهذا الطول الكبير دفعة واحدة الى داخل البئر ، بل تدفع فى قصبات متوالية كلما نزلت واحدة وقاربت نهايتها ، أمسكت من طرفها العلوى على السطح ، وركب اليها طرف القصبة الثانية ، ثم يهبط بهما وتركب القصبة الثالثة وهكذا [1] •• »

هاتان هما العمليتان الرئيسيتان فى حفر البئر وهما عمليتا الحفر والتبطين وهناك عملية ثالثة أكثر صعوبة ومشقة من هاتين العمليتين وهى عملية تنظيف البئر من هذا الفتات الناتج باستمرار من عملية الحفر، وسبيلهم الى هذا التنظيف أن يدفعوا بطمى سائل خلال أسطوانة الحفر الى قاع البئر ، ويدفعوه بقوة ضاغطة فيحمل ذلك الفتات ثم يخرج به عن طريق الفراغ الواقع بين أسطوانة الحفر وبين جدر البئر •

فى معمل البحوث

انتقل بنا المهندس بعد ذلك الى معمل البحوث حيث أرانى العينات المختلفة التى يستخرجونها من باطن الأرض أثناء الحفر وكيف يفحصونها تحت المجهر ليحققوا خصائصها وليعرفوا اذا كانوا يسيرون نحو الهدف أو أنهم ضلوا الطريق • ويلقى الجيولوجيون والمنقبون عن البترول صعوبات يشيب لهولها الولدان فى العثور على أولى آبار البترول فى منطقة من المناطق ، أما بعد ذلك فان العملية تصبح أكثر سهولة ؛ ذلك أن هذه البئر المكتشفة تعين لهم طبقات

(١) راجع كتاب قصة البترول (المرجع السابق) .

الأرض التى تسبق بحيرة البترول فى هذه المنطقة وترتيب هذه الطبقات ونوع الصخور والعمق الذى توجد تحته هذه البركة ، فيساعدهم ذلك كله عندما يشرعون فى حفر بئر ثانية ، اذ أنها تتقارب فى أغلب الأحيان وتتحدد خصائص كل منطقة وكل حقل من الحقول فتسهل العملية •

اندفاع الزيت فى أعقاب الغازات

وعندما تصل الأنابيب الى بحيرة البترول تندفع الغازات بمافى باطن الأرض من قوة ضاغطة ، ولا يلبث زيت البترول أن يندفع على آثار الغازات بقوة هائلة بحيث يبادر المنقبون باحكام سد فوهة البئر على الفور كى يحولوا دون تدفقه وتبدده فى الرمال ، ثم يركبون على البئر من الاجهزة والمضخات ما يتحكمون به فى ناتج هذه البئر كما قدمنا ، فلا يسمحون بتدفق البترول منه الا بمقدار معقول •

٥ آلاف برميل مقابل ١٢

ومن أراد الآن أن يذهل لمعرفة مدى ما تخرجه البئر من البترول فى منطقة الظهران فما عليه الا أن يعرف أن ما تخرجه بئر البترول فى أمريكا لا يزيد عن ١٢ برميلا فى اليوم ، بينما تخرج البئر فى الظهران خمسة آلاف برميل فى اليوم ، وهى نسبة فاحشة فى الارتفاع من شأنها أن تعرض أرصدة البترول فى حقول جزيرة العرب الى الاضطراب بل وخطر الاستنزاف • ولذلك فان شركة أرامكو تعمل على حفر آبار جديدة فى الحقول المكتشفة لتخفف الضغط على الآبار التى تنتج فى الوقت الحاضر بهذه القدرة العالية •

وكانت قد أتيحت لى الفرصة أن أرى بالأمس واليوم عينات من زيت الخام المستخرج ، فلفت نظرى على الفور قلة كثافتها على خلاف زيت البترول المصرى الذى شاهدته يوما من الأيام فى معامل التكرير بالسويس فاذا به كثيف غليظ ، فأشرق وجه محدثى المهندس بالاهتمام وأنا أقول له هذه الملاحظة وقال لى : ان مرجع ذلك هو توفر عنصر الاسفلت فى الزيت المصرى وانعدامه من الزيت

العربى [1] . وأبدى أسفه لخلو الزيت العربى من هذا العنصر الهام الذى يحتاجون اليه لتعبيد الطرقات . وقال لى : كم تتمنى لو أتيح لنا ولو بئر واحدة تخرج زيتا يحتوى على عنصر الأسفلت لشدة حاجتنا اليه ، فلا سبيل لنا الى تعبيد الطرقات الا بالصورة التى تراها وهى ليست وافية بالمرام . وطريقتهم فى التعبيد أن يرشوا بترولا خاما على أرض الطريق كل بضعة أيام فيثبت أجزاءها ويجعلها قادرة على تحمل الأثقال الضخمة التى تمر عليها ؛ وغنى عن البيان أن هذه الطريقة تكلف كثيرا جدا فضلا عن أنها لا تهيىء طرقات من الدرجة الأولى ، وان كانت تفى بالحاجة فى الوقت الحاضر .

خلو الزيت العربى من الأسفلت

وخلو زيت البترول من الأسفلت معناه ارتفاع كمية البنزين والكيروسين التى يمكن استخراجها من الزيت ، فهو من هذه الناحية أثمن من زيت البترول المصرى الذى يحوى كمية ضخمة من الأسفلت على حساب البنزين والكيروسين بطبيعة الحال ، ولكن انعدام الشيء دائما يجعل له قيمة ثمينة فانعدام الأسفلت بالكلية فى الزيت العربى جعل القوم يتحسرون ويغبطوننا لتوفر الأسفلت فى زيتنا .

الى رأس التنورة :

انتهت زيارتنا لهذه البئر (تحت الحفر) وحصلت على كل المعلومات العامة التى تهمنى فى هذه الناحية ، فعدنا الى الطائرة وامتطيناها فطارت بنا صوب الشاطىء مرة أخرى فى طريقها الى رأس التنورة حيث تقوم مصانع التكرير الكبرى التى توشك أن تفوق مصانع عبدان الايرانية على الجانب الآخر من الخليج الفارسى والتى كان يظن أنها شيء لا يحلم بالاقتراب منه فضلا عن التفوق عليه .

ورأس تنورة كما يتجلى من اسمها هى لسان من الأرض يمتد وسط الماء ، وقد اختارتها شركة أرامكو لتبنى عليها معملا لتكرير البترول لوقوعها فى مكان مناسب لعمليات الشحن والتفريغ البحريتين .

(١) وجود الأسفلت فى زيت البترول يدل على انه لم يستكمل نضجه وتقل كمية البنزين والكروسين التى يمكن استخراجها منه .

ووصلنا اليها بعد ساعة ونصف بالطائرة فنزلنا بالمطار الملحق بالمنشأة ووجدنا أنفسنا على التو نواجه شيئا يتضاءل الى جواره كل ما رأيناه حتى الآن .

وقد احتاج الأمر لكى نطوف بأرجاء المؤسسات الى استخدام السيارة فى تنقلاتنا ، فراحت تنطلق بنا وسط الآلات والأنابيب وأجهزة التقطير ومولدات الحرارة والمكثفات . وكان منظر خزانات البترول التى يستقر بها البترول بعد تكريره شيئا لا مثيل له فى أى بلد من بلاد العالم ، ذلك أن بلاد البترول الأخرى تتصرف على الفور فى الكميات الناتجة من حقولها . أما هنا فلأن البترول مخصص للاستهلاك عبر البحار ، ولأن الوسيلة الوحيدة لنقله هى ناقلات البترول التى قد يتأخر وصولها لسبب من الأسباب ، أصبح لا غنى عن انشاء مستودعات ضخمة لحفظ أكبر كمية من البترول بها ريثما يتم شحنها ، فكانت هذه المستودعات ، التى تضاءل حجمها من كثرة عددها مع أنك لو رأيت مستودعا واحدا منها على حدة لهالتك ضخامته ، ولكن عندما ترى منها مئات متجاورة تنسى حقيقة حجمها .

ولقد رأيت فى مصر كما أشرت من قبل ، معمل تكرير البترول التابع للحكومة المصرية فى السويس ، وفى طريق ذهابك اليه ترى منشآت شركة شل للتكرير قائمة ، ولو ضم معمل تكرير شركة شل الى معمل تكرير الحكومة لما زاد على أن يكون جزءا من عشرين جزءاً بالنسبة لمعمل التكرير فى رأس تنورة . وتتضاءل هذه النسبة لتصل الى أقل من جزء من مائة جزء اذا نظرنا الى مجموع المنشآت التكميلية فى رأس تنورة ، فمن ورش لاصلاح الآلات الى مخازن للمهمات ومدارس لتعليم العمال العرب مختلف أنواع التعليم الخ ...

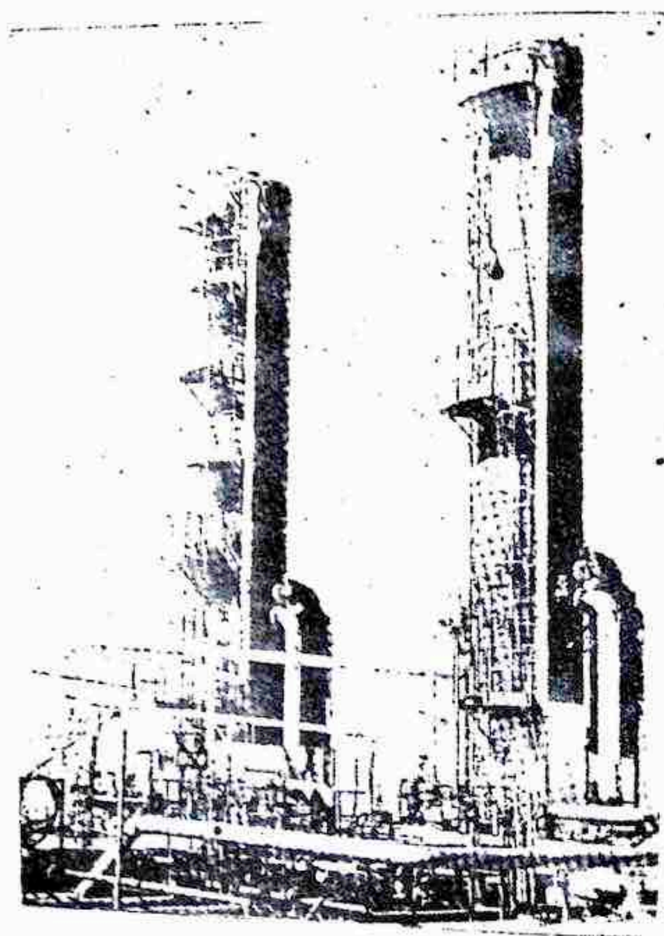
حتى لقد رأينا مدرسة لتعليم قيادة السيارات طبقا للأصول الفنية الحديثة ، لا كما هو الحال فى مصر حيث يتعلم الناس القيادة بالاجتهاد نقلا عن بعضهم .

وقدم لنا طعام الغداء فى مطعم كأحد المطاعم الأمريكية الكبيرة الذى يتسع لبضعة مئات يتناولون الطعام فى آن واحد . وعلى مائدة الطعام سمعنا نفس الشكوى التى نسمعها فى كل مكان اذا ما كنت فى منطقة الظهران الا وهى أن غزارة البترول المستكشف يوما بعد آخر تفسد دائما على القوم خططهم ومعداتهم .

ان شركة أرامكو كانت تتولى تكرير ما ترغب فى تكريره من البترول محليا فى معامل البحرين ، ولذلك فقد مدت اليها خطا من الأنابيب كان يتجلى لنا أثناء ركوبنا الطائرة .

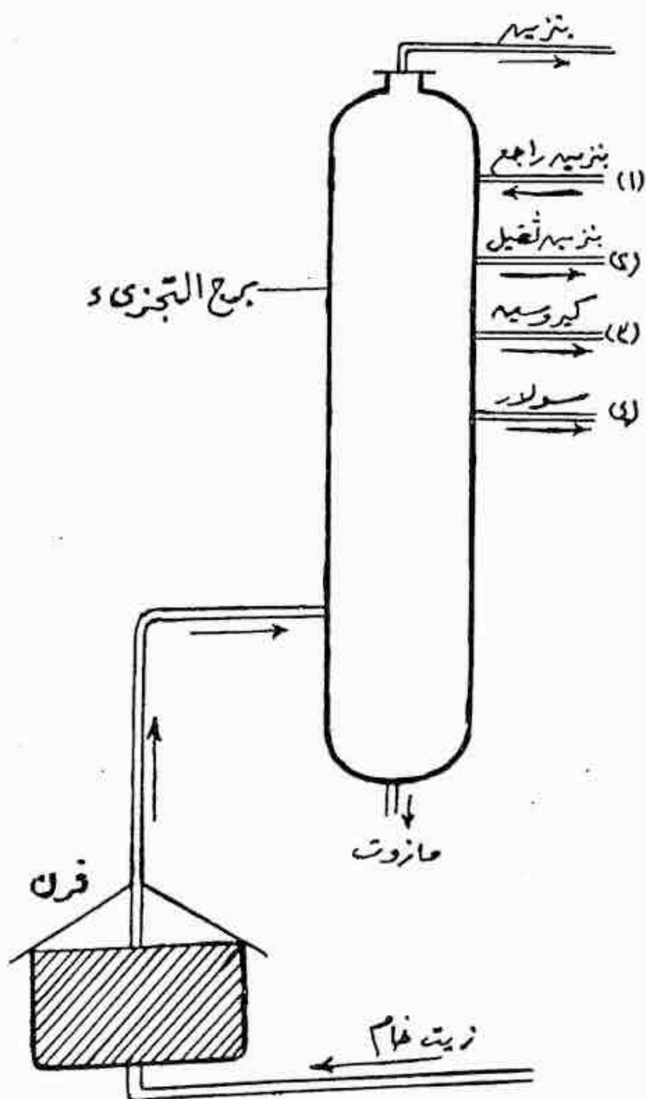
ثم رؤى أن معامل البحرين لا تستطيع أن تفى بالحاجة ، فاستقر رأى شركة أرامكو على انشاء معمل خاص بها واختارت رأس تنورة لهذا السبب ، ورأت أن تجعل انتاج المعمل يقدر بخمسين ألف برميل فى اليوم . وقد لوحظ فى هذا القدر بالاضافة الى ما يكرر فى البحرين أنه يفى بكل الحاجات المطلوبة من الزيت المكرر ، وتم الفراغ من انشاء معمل التكرير فى رأس تنورة فى سنة ١٩٤٥ م وكان يظن أن الأمر لن يحتاج الى تشغيل المعمل بكل طاقته ، فما هو الا عام آخر وعام آخر حتى كانت الشركة مضطرة الى مضاعفة انتاج المعمل ، ثم الى ما هو أكثر من الضعف فأصبح الآن يكرر ١٢٠ ألف برميل فى اليوم ، وعند كتابة هذه السطور لا بد أن يكون هذا الرقم قد جاوز المائة وخمسين ألف برميل . واليك كشفا بانتاج معمل التكرير فى السنوات المتعاقبة :

السنة	القدر بالبرميل سنويا
١٩٤٥	٣٫٤٥٢٫٣٦٣
١٩٤٦	٢٩٫٢٩٧٫١٠١
١٩٤٧	٣٩٫٠٦٥٫٠٦٠
تقدير ١٩٥١	٤٦٫٧٠٠٫٠٠٠



اجهزة تقطير البترول الضخمة فى رأس تنورة

انظر خلفه شرح طريقة التقطير



جهاز تقطير الزيت الخام

نقلا عن كتاب قصة البترول

وهكذا تكرر لك هذه الأرقام ذات القصة وهى أن نمو الانتاج فى منطقة الظهران وغزارته تفوق كل ما يمكن أن يطوف بالحساب أو الخيال • وقد وقع فى يدى تقرير الشركة عن عام ١٩٤٨ فاذا به ينص على أن مقدار ما كرر بالفعل فى هذه السنة ، القدر الذى كان محددا لبلوغه عام ١٩٥١ •

بترول الشرق الأوسط

ويحسن بنا وقد وصلنا الى هذا القدر أن نحدثك بالتفصيل عن كميات البترول فى الشرق الأوسط ونسبتها لما يوجد من البترول فى العالم ، لتقدر مدى ما أصبح للشرق الأوسط من خطورة ، وبالتالى لماذا سيكون ميدان الحرب المقبلة ، واذا كان هناك ثمة قنابل ذرية ستلقى فى الأيام الأولى من الحرب فان منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة والخليج الفارسى بصفة خاصة ستكون أول هدف عسكرى لالقاء القنبلة الذرية رقم واحد •

لقد أصبح البترول هو المادة الأساسية لحياة العالم الميكانيكية فى الوقت الحاضر ، فالطائرات والسيارات والقطارات والآلات كل هذه تدور بالبترول ومشتقاته ، ومستقبل أية أمة من الأمم سواء فى الحرب أو السلم يتوقف على كميات البترول التى تستطيع أن تسيطر عليها بعد أن أصبح البترول مادة أساسية لمئات الصناعات [1] ولقد

(١) حين تسرح الطرف فى حجراتك وحيثما تمر ببصرك فثمة اصبع للبترول : طلاء الحائط الزيتى ، والمشمع الذى فرشت به الأرض ، وما يكون فى حجرتك من أدوات البلاستيك من زر الكهرباء أو فرشة أو مشط ، انما خرجت جميعا عن البترول • ولو ذهبت مثلا الى الحمام ، فالبترول هو الذى رفع اليك الماء ، واليوم يمدك بالصابون ، اذ عنه تخرج الاحماض الدهنية التى تقوم عليها هذه الصناعة • ولو حلقت اللحية فكريم الحلاقة قد دخل فى تركيبه منتجات البترول • وما تضعه على شعرك من «البريانتين» أسهم فى صنعه البترول • وهذه مائدة الفطور قد أعدها لك وأنضجها موقد البترول • ولو تصفحت جريدة الصباح فانما قد خطها اليك البترول ، هو الذى جمع اخبارها ومدها بأحبار الطباعة ثم حملها اليك بما سير من وسائل المواصلات •
=

استطاعت الولايات المتحدة وهى أعظم الدول الحديثة انتـاجا أن تنتج فى بلادها من البترول ما استطاع حتى الآن أن يسد حاجاتها المتزايدة ،

= فاذا ما بدات فى ارتداء ملابسك فاذكر البترول ذكرا طيبـا ، اذكره فيما ترتديه من الجوارب الصناعية ، واذكره فى ملابسك الصوفية التى شحمها البترول فسهل نسجها ، ثم صبغها ورسمها باللون الذى تفخر به وتتيه ، وحذاؤك لقد صنع من الجلد الذى عولج « بزيت الجلد » عند صناعته ، وانك لتنظفه وتلمعه بما يمدك به البترول من « الورنيش » .

فلو خرجت الى عربتك أو وجدت لقدمك موضعا فى السيارة العامة فانما تركب البترول ، فهو الوقود الذى يحرك هذه الدابة الآلية .

وهو الذى يلين مفاصلها الحديدية بالتشحيم ، ويغسل بمنظفاته جوفها وامعاءها ، واليوم ينبرى ليضع لها عجلاتها من المطاط الصناعى الذى يخرج عن البترول ، وحتى الطـلاء الذى يزين العربة كان للبترول شأن فيه . وسوف تنطلق بك على طرق رصفها وعبدها ما ثقل من مشتقات البترول من الأسفلت والقار !

وانك لتخلف وراءك زوجتك وأولادك يعملون بالبترول . ينضجون الطعام ، وينظفون الأثاث ويمسحون أرض الحجرات بمركبات البترول ، فالكيروسين فى المواقد ، والورنيش المعد لتلميع الأثاث والآخر المعد لتنظيف الأرض ، يحتويان من مركبات البترول وشمعه على ما يعيد الجدة والرونق . ولو كان لهم أن يقوموا بشىء من الكى ، لنظفوا الملابس بالبترول فزالت عنها أقذارها ، وسخنوا آلاتهم بوقوده فأعادت اليها بهاءها وانسجامها ، ثم يعيدونها الى « دولاب » الملابس الذى حفل بالنفتالين البترولى ليقتل الحشرات ويقى الملابس شرها ! وأنت تذهب الى مكتبك فتنظر الى التلفون الذى يصلك بالعالم الخارجى ، ويجمع الدنيا بأسرها فيضعها فى تلك الآلة الصغيرة فوق مكتبك ، لقد صنع هذا الصندوق الأسود من البترول . ولو أشعلت سـيجارة من ولاعتك الفـاخرة فانما ذلك لأنها عمرت بالبنزين المأخوذ من البترول . واذا شئت أن تأخذ قسطا من الراحة وضايقك الذباب فاستعن عليه بالبترول !.

وقد تقصـد الطبيب فيطهر جرحك بمشتقات البترول ، ويصف لك الدواء الذى يشفيك فتعجب أن البترول قد أقحم انفه فى تركيبه ...

وفى المساء تداعبك شركة النور فتقطع عنك التيار الكهربائى (الذى هو وليد محركات تدار بالبترول) فتستنجد « بلمبة الجاز » أو بعض الشمع لينير لك السـبيل .. وليس ذلك كله سوى البترول . =

وأن يقدرها على هذا التطور الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية .
وكان لدى الولايات المتحدة فوق ذلك كله فائض استطاعت أن تصدره للعالم فكانت من أعظم الدول المصدرة للبترول فى العالم ، ولكن لكل شىء نهاية ، وقد وصلت نهاية الولايات المتحدة الأمريكية فى هـذا الباب فى سنة ١٩٤٧ م ، فبالرغم من كل المجهودات التى بذلتها الولايات المتحدة فى التنقيب عن حقول جديدة للبترول ، وبالرغم من التحسن العظيم فى وسائل التنقيب والانتاج فان سنة ١٩٤٧ م قد شهدت نقطة التحول فى تاريخ الولايات المتحدة ، فأصبح ناتج البترول فيها يسد حاجتها للاستهلاك ولا زيادة ، بل ذهب الأمر الى أبعد من ذلك فلم يعد الانتاج بحيث يكفى حاجة الولايات المتحدة وظهرت الأزمة فى بعض المناطق . وقد أصبح من الحقائق المقررة الآن أن الولايات المتحدة ستتحول الى دولة تستورد البترول . وباستطاعة الولايات المتحدة أن تستورد هذا البترول من حقول البترول فى أمريكا اللاتينية ، ومن هذه المنطقة حول البحر الكريبى ، ولكن أوربا الغربية التى وقعت الآن تحت وصاية أمريكا والتى تحتاج بدورها الى كميات كبيرة من البترول ، لم يعد هناك سبيل لمدها بحاجاتها من البترول الا من الشرق الأوسط .

وكذلك الحال بالنسبة الى قارتى أفريقيا وآسيا فهاتان القارتان لابد لهما أن تعتمدا اعتمادا كليا على بترول الشرق الأوسط .

وحينما كانت انجلترا مسيطرة على العالم كانت هى صاحبة الكلمة الأولى فى بترول هذا الشرق الأوسط ، فكانت حقول البترول

= واخيرا فان زوجتك العزيزة حين تتجمل انما تضع بعض مشتقات البترول فوق شفتيها فتنطق بحرارة الشباب ، وتنعم الخد بكريم أسهم فيه زيت البترول ، وتسوى الشعر وتزجج الرموش والحواجب بما أخرج من مركبات البترول ، ثم تطيب فتغرى وتفتن برائحتها الذكية التى لن تصدق أن البترول قد دخل فيها ... وهكذا تدين بجمالها لزيت البترول سر المرأة وسحر الرجل فى العصر الحديث ! ... (قصة البترول . المرجع السابق) .

فى ايران تحت سلطانها وحقول البترول فى العراق وفى الكويت وفى مصر تحت سلطانها ، بل أن حق التنقيب فى الجزيرة العربية السعودية كان من حقها كذلك . أما اليوم فقد دال سلطان انجلترا وأصبحت أمريكا هى التى تتولى المسئولية عن ادارة العالم ، وأصبحت انجلترا ذاتها تحت وصايتها وكفالتها ، فقد أظهرت أمريكا ارادتها فى السيطرة على بترول الشرق الأوسط ، ولم يكن من المعقول أن تستسلم انجلترا فى سهولة ، ولذلك فقد قاومت ولا تزال تقاوم ، وقد كانت قضية فلسطين هى أول مظهر من مظاهر هذا الصراع والمقاومة ، فالأمريكان قد أخذوا بناصر دولة اسرائيل ليضمنوا انشاء دولة على شاطىء البحر الأبيض تكون تابعة لهم ، وقد حاولت انجلترا أن تأخذ بعد فوات الوقت جانب العرب لتحول دون قيام دولة اسرائيل ، ولكن سياسة انجلترا فشلت على طول الخط وقامت دولة اسرائيل وانتصرت أمريكا وخذلت انجلترا ، ورأى الانجليز أن يقنعوا بالشركة مع الولايات المتحدة وأن يرضوا بمنزلة الشريك الثانى فى الشرق الأوسط ، وكان الاتفاق على تقسيم البترول هو أهم مظاهر هذه الشركة الجديدة فأعطى للأمريكان حصة فى شركات البترول الانجليزية القائمة ، وأعطى للانجليز حصة فى الشركات الأمريكية القائمة وما ينتظر قيامه فى المستقبل ، واتفق على أن تتم المشروعات بالاتفاق بين الدولتين عن طريق انشاء لجنة مشتركة من ثمانية أعضاء نصفهم من الانجليز والنصف الآخر من الأمريكان .

وبقى أن تعرف أن كميات البترول فى العالم المخزونة فى باطن الأرض تقدر بسبعين بليون وأربعمائة مليون برميل ٧٠ر٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ويوجد من هذا القدر ٢١ بليون برميل فى الولايات المتحدة بمفردها ، وتسعة بليون فى أمريكا الجنوبية و ٦ بليون فى أوربا ، وما يقرب من ٦ بليون فى روسيا و ٢ بليون فى الشرق الأقصى ، وبقية بترول العالم توجد فى الشرق الأوسط أى ٣٢ بليون . أى أنه أصبح من المقرر

الآن أن الشرق الأوسط يملك نصف بترول العالم وذلك على التفصيل الآتى :

الكويت	٩ بليون
العراق	٦ بليون
المملكة العربية السعودية	٧ بليون
ايـران	٩ بليون
دول أخرى	١ بليون
المجموع	٣٢

واذا علمت أن تنقيب البترول فى المملكة العربية السعودية لا يزال فى مرحلته البدائية جدا ، وأن تقدير ما بها من مخزونات البترول انما هو تقدير ما يوجد فى منطقة الظهران التى تم الكشف عنها ، وهذه لا تؤلف الا جزءا صغيرا جدا من منطقة الامتياز الممنوحة للشركة لتنقب فيها ، ومساحتها تبلغ أربعمائة ألف كيلو متر مربع أى ما يزيد على ولايتى تكساس وكاليفورنيا معا ، ولا تزال هذه المساحات التى لا أول لها ولا آخر عذراء لم تطرقها أقدام العلماء حتى الآن ، بل لم توضع لهـا الخرائط التفصيلية بعد ، ولهذا كله فان المتوقع أن يكون فى جزيرة العرب من البترول ما يزيد أضعافا مضاعفة على ما يظن أنه بها حتى الآن •

خط أنابيب البترول :

والمشروع الضخم الآن الذى يعمل الأمريكان على اخراجه الى حيز الوجود هو مد خط من أنابيب البترول من الخليج الفارسى حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ومن المقرر الآن أن ينتهى هذا الخط عند مدينة صيدا فى لبنان • وغنى عن البيان أن دولة اسرائيل الآن ستطالب بأن يكون هناك فرع ثان ينتهى عند مدينة حيفا • وقد قدمت اقتراحات الى الحكومة المصرية تطلب منها أن تسعى لكى تكون نهاية الخط

فى مصر عند مدينة الاسكندرية ، وان الانسان ليقف حائرا فى أمثال هذه الموضوعات • ترى لو طرح علىّ هذا السؤال : أتفضل أن ينتهى هذا الخط فى مصر أم فى غيرها من بلدان الشرق الأوسط ؟ فبماذا أجيب • ان مجرد مرور هذا الخط فى أى بلد من البلاد يعود عليها بفوائد اقتصادية كبرى ، أما نهايته فهى ثروة ضخمة فسوف تعمل فيه عشرات الألوف من العمال ، وستنشأ عند هذه النهاية معامل تكرير على أضخم طراز ، أضف الى ذلك كله أن الدولة التى سينتهى عندها هذا الخط ستضمن حاجتها من البترول قبل أية دولة أخرى فى العالم بثمن يقل عن ثمن السوق • فالفوائد الاقتصادية من الاغراء بحيث لا يمكن لأى محب لنهضة أمته الا أن يسعى فى سبيلها ، ولكننا نعرف من ناحية أخرى أن قناة السويس التى عادت على العالم كله بالخير عادت على مصر بالشؤم فأفقدتها استقلالها ، وأوقعتها فى براثن الاحتلال الانجليزى ستين سنة • وهذا الخط من الأنابيب هو قناة سويس أخرى ، بل أشد خطرا ، فهو شريان حياة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، ولذلك فسوف يجر فى أعقابه الاحتلال الأمريكانى بلا مراء ، أو على الأقل السيطرة الكاملة التى لا تقل عن الاحتلال فى زمن السلم ، والتى لا ترضى بغير الاحتلال بدلا فى أى حرب • فليس يسع الانسان الا أن يقف على الحياد لا يتمنى مد الخط فى بلاده ولا ينكر مده فيها كذلك اذا تم ذلك من خلال اتفاقات حرة روعى فيها مصلحة بلادنا فى الدرجة الأولى ، وانما يدع للحوادث والتطورات ترجيح أحد الجانبين ، فالدلائل كلها تدل عن أن العالم يتقارب ويتشابك بحيث لن يكون باستطاعة شعب من الشعوب أن يبقى فى معزل عن المشروعات العالمية بدعوى الرغبة فى المحافظة على استقلاله •

أهى خير أم شر؟

قناة السويس وأنابيب البترول

وقد بدىء بالفعل فى انشاء هذا الخط ويطلق على الشركة التى تقوم بانشائه « التابلين » والقائمون بها هم نفس القائمين بشركة أرامكو لاستنباط البترول • وسيبلغ طول الخط ١٠٧٠ ميلا يجرى منها

٨٧٥ ميلا فى أراضى المملكة العربية السعودية والباقى فى الأراضى السورية واللبنانية • وقد كان مقررا أن يبدأ العمل فى مد هذا الخط من الشرق والغرب معا ؛ ولكن اضطرابات فلسطين قد حالت دون البدء من لبنان ؛ فاستمر العمل فى أرض المملكة السعودية ويبلغ قطر الأنابيب المستعملة ٣١ بوصة وهو أكبر قطر استعمل حتى الآن فى هذا النوع من الأنابيب • وطول الأنابيب من هذا الحجم ٥٣٠ ميلا ثم يوصل اليها أنابيب يقل قطرها بوصة واحدة عن هذا الحجم أى ثلاثين بوصة ، وذلك لمسافة ٥٣٠ ميلا أخرى وفى العشرة أميال الأخيرة عند نهاية الخط تستعمل أنابيب قطرها ٢٢ بوصة ؛ وتقوم الشركة الآن بتركيب ميل من هذا الخط فى كل يوم • وسيحتاج هذا الخط الطويل الى ست محطات لضغط البترول داخل الأنابيب ، وستنشأ كلها فى داخل أراضى المملكة العربية السعودية ، وستكون كل محطة منها بمثابة نواة لبلدة تقام حولها • وعندما يتم هذا الخط سيكون بقدرته أن ينقل ثلثمائة ألف برميل فى اليوم الواحد •

هذا هو المشروع العملاق الذى يؤلف قناة سويس أخرى عبر الشرق الأوسط بأكمله ، والذى من شأنه أن يجعل هذا الشرق الأوسط أكثر دخولا وأكثر فى دائرة نفوذ الأمريكان والانجليز كما قدمنا ، ويجعله الهدف العسكرى الأول لأية حرب مقبلة تقوم بين روسيا وأمريكا ، ولقد سألت مدير شركة أرامكو وجميع المسئولين بها ماذا عساكم فاعلين فى حالة قيام الحرب وأنتم على مرمى حجر من القواعد الروسية ، فأجابونى أن هذه مشكلة المشكلات من غير شك ، ونحن لا نحب أن نفكر فيها لأن مجرد التفكير فيها يجعل الدم يتجمد فى عروقنا ، ولذلك فنحن نبعد هذا الخاطر عن ذهننا ، اننا ننتج البترول وهذه هى مهمتنا فلندع موضوع حمايتها للمختصين فى هذه الشئون ، لابد أن وزارة الدفاع الأمريكية لها خططها وبرنامجها ، وعندما تقوم نذر

الحرب ستكون هى التى تتولى هذه المهمة ولسنا نحن ، ولذلك فنحن نفكر ونضع برامجنا غير ناظرين الى هذا الموضوع فى قليل أو كثير •

السكة الحديدية :

من مشروعات شركة أرامكو أن تنشىء ميناء عميقة الغور صالحة لرسو السفن فى بلدة الدمام ، وأن تمد منها خطا حديديا الى الظهران على بعد عشرة أميال منها ، ثم الى « أبو قيق » على بعد أربعين ميلا • فلما أن سمع جلالة الملك عبد العزيز بهذا المشروع رأى أن يكون انشاء الميناء ومد السكة الحديد على حساب الدولة على أن يمد الخط الحديدى الى الرياض ، وقد كان الملك ابن السعود فى هذا بعيد النظر حريصا على أن لاتزيد الشركة فى توسيع دائرة أعمالها • وقد قبلت الشركة هذا الوضع ، فهى تقوم الآن بهذه الأعمال وتنفق عليها ولكن على حساب المملكة العربية السعودية بمعنى أن تخصم التكاليف من حصتها فى البترول • ولقد سألت عن مقدار ما تم انشاؤه من هذا الخط الحديدى كما قدمت لك فقيل لى : اركب بنفسك القاطرة واعرف ما تم • وقد كان هذا هو آخر جزء من برنامج زيارتنا لمنشآت الشركة وحدد له صباح يوم الثلاثاء ، وفى الموعد المعين ذهبنا الى المحطة فوجدنا عشرات العربات ما بين قائم منها على القضبان وبين مالا يزال فى صناديقه • وركبنا احدى القاطرات وهى من نوع الديزل على أحدث ما أخرجت المصانع الأمريكية • وسارت بنا القاطرة ضاربة فى أحشاء الصحراء حيث لا حياة ولا ظل ، وأكداس الرمال على جانب الخط الحديدى مما جعلنا ندرك أن الصعوبة الكبرى ستكون دائما هى كيفية المحافظة على هذه الخطوط من أن تردمها الرمال ، ولن تكون هذه مشكلة مستعصية فاذا كان الأمريكان والأوربيون قد نجحوا فى مقاومة الثلوج التى تسد الطريق تماما فى وجه القطارات فلن يعجزوا عن كف أذى الرمال عن خط السكة الحديد •

وبعد أن قطع القطار ما يقرب من عشرة كيلو مترات عدنا القهقرى وقد كان هناك بضع كيلو مترات وراء ذلك قد فرغ من انشائها ولكنا رأينا الاكتفاء بهذا القدر (١) . وهكذا أتيح لنا أن نشهد نقطة البدء في الزحف الأمريكي الى أحشاء الجزيرة ، أو قل زحف المدنية الغربية بكلكلها الى قلب الجزيرة ، فما عجزت السيارة والطيارة حتى الآن عن أن تحمله الى الرياض سوف تحققه السكة الحديد ؛ وهو أن تحولها بصفة نهائية الى مدينة عصرية مائة فى المائة .

وبذلك تمت لنا زيارة منطقة الظهران ومنشآتها الأمريكية التى أصبحت فى الدرجة الأولى من الأهمية والخطورة بالنسبة للأمريكان وبالنسبة للعالم .

وبدأت أسخر من هؤلاء الذين يجلسون فى المقاهى فى مصر أو فى سوريا أو فى فلسطين ثم يتمطون ويتثاءبون ويتساءلون بعد ذلك فى بلادة : لماذا لا يلغى ابن السعود امتياز البترول ؟ لماذا لا يطرد الأمريكان من بلاده ؟ وقد رأيت الجواب على ذلك بنفسى عندما بدأت أتساءل خلال هذه الأيام الثلاثة التى عشتها فى الظهران : أحقيقة أنا فى جزيرة العرب أم أن هذه قطعة من أمريكا قد طارت فى الجو واستقرت على طرف الجزيرة وخلقت منها الولاية الأمريكية التاسعة والأربعين ؟ . وكان يخرجنى دائما من تشككى هذا الشرطى السعودى الذى يقف على باب بلدة الظهران ليسمح لمدير شركة أرامكو بالمرور أو عدم المرور (كذا) .

الاحساء

— ٧ —

وعندما خيل لنا أننا قد رأينا أعجب شىء فى جزيرة العرب أبت الطبيعة ألا أن تذكرنا أن النفس البشرية ستبقى هى أعجب ما فى هذا

---

(١) جاء فى تقرير الشركة عن سنة ١٩٤٨ ، أن مقدار ما تم انشاؤه من الخط هو ٤٨ ميلا وأنه أصبح يعمل على الخط خمس قاطرات ديزل ومائة عربة .

الكون طرا ، وأن تصرفات الانسان من دون سائر الكائنات هى التى تترك أعمق الأثر فى نفوسنا .

لقد كان يمكن أن تنتهى زيارتنا عند هذا القـدر لولا أنه كان لا يزال فى البرنامج أن أرى مدينة الهفوف عاصمة الأحساء ، لنزور أمير المنطقة سعود بن جلوى الأخ الكبير للأمير محسن بن جلوى أمير الظهران ، والذى يعتبر الحاكم الحقيقى لهذه المنطقة . ولقد جاش فى نفسى أن أعدل عن هذه الرحلة لعدة أسباب : أولها وأهمها أننى كنت قد رأيت فى الظهران ما أشبع نهمى الى المعرفة ولم يبـق شىء يستحق بعد ذلك أن أراه ، وبدأ شوقى يغالبنى للعودة السريعة الى مصر . أما الأمر الثانى الذى كان يزهدنى فى هذه الزيارة فما قيل لى عن شدة حزم سعود بن جلوى الذى يصل الى درجة البطش الذى يذكرنا بأعمال آل سعود الأوائل . ولما كنت بطبيعتى رجلا حرا بكل ذرات جسدى فان الحاكمين بأمرهم يثيرون أعصابى ، ولذلك فقد تهيبت من مقابلة الأمير سعود بن جلوى ، فقد كانت هذه المقابلة تحتاج منا الى رحلة طويلة بالسيارة الى الهفوف ذهابا وايابا ، فى وقت أصبحت فى أشد الحاجة الى الراحة بعد زيارتنا المنهكة للظهران ، ولذلك فقد قررت العدول عن الرحلة ، ولكن كلمات معالى وزير المالية عبد الله السليمان راحت ترن فى أذنى : « ولا تنس أن تزور الأحساء لترى المياه الوفيرة والعيون الجارية بما لا مثيل له فى أى جزء من أجزاء الجزيرة » وهأنذا على بعد ساعتين أو ثلاث من الأحساء ثم أزهد فى رؤيتها ؟. وسرعان ما ثار فى نفسى حبى للمعرفة فقررت القيام بالرحـلة . فأعارنا الأمير محسن سيارته ، ورسمنا خطتنا على أساس أن نذهب قبل الظهـر . ثم لا نمكث بالهفوف الا مقدار ما نسلم على الأمير وتتعرف عليـه ونحييه ثم نعود على التو ، فنلقى نظرة على الطريق وعلى المدينـة ، وعلى عيون الماء التى أكثروا من التحدث عنها . وسارت بنا السيارة فى طريق عبدته الشركة حتى أبو قيق ، على بعـد أربعين ميـلا من

الظهران وهكذا أتيح لنا أن نرى مستعمرة أبو قيق وأن نجوب خلالها بالسيارة ، بعد أن شاهدناها من قبل بالطائرة ، وانتهى الطريق المعبد وبدأنا نجتاز طريقا وعرا كبقية طرقات الجزيرة حيث لا تمهيد ولااعداد . حتى اذا ما اقتربنا من الهفوف بدأنا نرى مساحات كثيفة من النخيل والأشجار والمزروعات بصورة تلفت النظر من حيث اختلافها كل الاختلاف عن كل ما رأينا من قبل ، وقصدنا بعض هـذه العيون الجارية التى أنبتت هذه الأشجار فاذا شيء أعجب من كل ما رأيناه ، فالمـاء العذب ينبع من الأرض ثم ينساب فى شكل نهيرات صغيرة ويمتد عشرات الكيلو مترات ، وليس لذلك كله مثيل فى جزيرة العرب . ان جزيرة العرب لا تعرف الأنهار الجارية التى تولدها الأمطار وان كانت تعرف السيول الجارفة أحيانا فى بعض أجزائها . والماء لا يوجد بصـفة عامة اذا وجد الا على صورة الآبار والعيون التى يستخرج النـاس الماء منها استخراجا ، اما بوساطة الدلو أو بوساطة الآلات اذا كانت العيون كبيرة وضخمة كما هو الشأن فى عيون الخرج . اما أن ينبع المـاء من الأرض ثم ينساب جاريا مؤلفا جدولا رقراقا فلست أعرف لذلك مثيلا فى كل ما رأيت وشاهدت . ولذلك فقد وقفت مذهولا أمام هـذا النبع ، والماء يخرج من فوهة الأرض ثم ينساب فى سبع جداول يذهب كل منها فى اتجاه خاص ترتوى الناس من كل فرع من هذه الفروع وتروى الأرض ، وتزرع أنواع الزرع والتمر ، وينبع الماء ويجرى هكذا مذ عرف الانسان نفسه على هذه الأرض (١) .

العيون الجارية

وحيث وجد الماء وجدت الحياة ، فاذا بنا نسير وسط مزارع تظللها الأشجار والغابات المتكاثفة من النخيل ، ووجدنا أرزا مزروعا كأروع ما وجدت أرزا مزروعا فى مصر ، فاذا عرفت أن الأرز نبات لا يعيش الا فى ماء دائم استطعت أن تدرك كيف أن الأحساء بالنسبة لسائر الجزيرة هى منطقة من الجنة ... هى منطقة من دلتا مصر جاءت فى

زراعة الأرز

(١) سميت الاحساء بهذا الاسم اشارة الى هذه المياه الجارية فيقولون حسا الماء يحسوه أى جمعه من فوق سطح الأرض .

جزيرة العرب على شاطىء الخليج الفارسى ، ولقد كنت يئست بعد أن عبرت الجزيرة من مغربها الى مشرقها ، ورأيت مشروعاتها الزراعية التى يتحدثون عنها أنه بالامكان أن تقوم زراعة ناجحة فى هذه البلاد على نطاق واسع يمكن أن يفى بحاجة سكانها الى حد ما أو الى أى حد من الحدود ، حتى اذا رأيت منطقة الأحساء ووجدت ما فيها ما رأيت من زرع وأشجار عاودنى الأمل فى امكان التطور بهذه المنطقة ، لتصبح ذات أثر فعال فى حياة الجزيرة ، وعجبت لهذا القدر الذى جعل كنوز البترول تقع الى جوار كنوز الزراعة ، وهكذا الطبيعة اذا أقبلت أعطت وسخت فى العطاء ، واذا أعرضت منعت وشحت فى العطاء . وأخيرا وصلنا الى مدينة الهفوف وهى كأكبر ما تكون مدينة فى الجزيرة كلها ، يسكنها مائة ألف أو أكثر ، واسعة الشوارع كثيرة الميادين التى تقوم فيها مبان أثرية قديمة ، فثمة مسجد كبير بناه ابراهيم باشا . وهناك حصن وقلعة تستعمل الآن سجنا ، وهناك مدرسة تدرس العلوم الحديثة يزيد عدد طلابها على الستمائة ، وقد هالنى هذا العدد الضخم وطلبت أن أزور المدرسة لأفرح برؤية مؤسسة يتعلم فيها ستمائة شاب ألوان العلم الحديث .

الحمار الحصاوى :

على أن ما يلفت نظر الانسان وهو فى منطقة الأحساء عامة والهفوف خاصة هو هذا العدد الضخم من الحمير الجيدة ، وقد قدر لنا أن نخرج من الهفوف عند الغروب فوجدنا الفلاحين وهم عائدون من الحقل كل يركب حماره ، وذهبنا الى أحد العيون الجارية الكبرى فوجدنا بها عشرات ومئات من الحمير تستحم ، وأصحابها ينتظرون خروجها من الماء ليعودوا بها الى بيوتهم ، فلما سألت عن هذه الظاهرة قيل لى ان الحمار فى الأحساء هو دابة الحمل الرئيسية وأن الحمار الذى نسميه فى مصر (بالحصاوى) هو حمار يستجلب من الأحساء فسمى (الحساوى) ثم أبدل الناس السين صادا للتخفيف . وقد كانت هذه

طرفة لطيفة لم يسبق لى معرفتها • واذا كان الحمار الجيد فى مصر يسمى بالحساوى • فان الحمار الجيد فى الحسا يسمى « بالمصرى » وذلك لأن هذا الطراز يصدر الى مصر غالبا • وعلى ذلك فقد أصبحت كلمة المصرى فى الحسا عنوانا على الحمار فلا يقال المصرى الا مشفوعة بعبارة « أكرمك الله » وهكذا احتجت الى أن أعيش قرابة أربعين سنة وأن أقطع الجزيرة العربية من مغربها الى مشرقها لكى أعرف معنى كلمة أرددها ويرددها الناس معى دون أن أدرك لها معنى وأعنى بهـا كلمة « الحصاوى » وصفا للحمار •

الأمير سعود بن جلوى :

على أنه لا مياه الحسا ولا زروعها ولا مدينتها هى التى بلغت من نفسى ما بلغه منها أميرها ؛ سعود بن جلوى •

وصلنا قصر الأمير ولعل الساعة كانت تناهز الواحدة بعد الظهر • وقد أدركنا على الفور بمجرد وصولنا أن الأمير لم يكن لديه عـلم سابق بوصولنا فان عامل اللاسلكى قد قصر فى ابلاغ الرسالة فى الموعد المطلوب • ولذلك فقد أحدث وصولنا شيئا من الحرج على ما علمنـا فيما بعـد اذ لم يكد يستقر بنا المقـام فى قصر الأمـير حتى جاءنا مدير قصره •

ورحب بنا نيابة عن سموه ؛ وأخبرنا بأن اشارة زيارتنا لم تصل الا منذ ساعة واحدة فلم يستعدوا لاستقبالنا الاستعداد الكافى •

قلت له : اننا لا نريد شيئا أكثر من أن نرى الأمير ونسلم عليه ، ونطوف بالبلدة والمنطقة طوفة سريعة ثم نعود الى الظهران حيث ينتظرنا الأمريكان للقيام بمباحثات هامة • فلن نمكث فى الهفوف الا ساعة واحدة •

لم تكد هذه الأخبار تحمل للأمير حتى جاءنا أمين القصر يقول أن الأمير يرجو أن نبيت الليلة عنده حتى يقوم لنا بالواجب ؛ فألححت فى أن تكون ضيافة الأمير لنا هى أن يسمح لنا بالانطلاق السريع ،

وأظهرت العزم والجد فى وجوب العودة الى الظهران ، وأن هذا هو قرار لا يحتمل التعديل لأننا سنسافر فى اليوم التالى فى الصباح المبكر بالطائرة الى جدة . وطالت المفاوضات بيننا ،وبين الأمير على ألسنة رسله ، فقلت لهم : أريد أولا أن أرى الأمير ثم نتفاهم معه .وقد تبين لى فيما بعد أن الرجل يعز عليه أن يقابلنى ثم لايدعونى على التو الى مائدة الطعام ، فقد كان المفروض أنه يجب أن تتناول طعام الغداء ، وقد كان هذا هو السر فى عدم اسراع الأمير لمقابلتنا ، وجلس معنا أمين القصر فراح يفيض لنا بعلمه الواسع ما أدهشنى كل الدهشة ، لقد راح يقص على تاريخ منطقة الأحساء وجغرافيتها وكل ما يتصل بها حديث العالم المتعمق ، ولا يرد على لسانه اسم بلد من بلاد العالم أو قطر من أقطاره الا وقال عنه شيئا فى معرض المقارنة . واذا جاء ذكر السياسة الدولية تحدث عنها كأى رجل كبير واقف على أسرارها وبواطنها ، ولقد ظل الرجل يدهشنا ويدهشنا بما يروى من شعر ويقص من أخبار ويظهر من علم ، حتى قلت فى نفسى : والله لو لم يكن لرحلتى الى الأحساء من ثمرة الا أنى رأيت هذا الرجل وقابلته لكفانى استفادة . وهكذا انسانا محدثنا المثقف الأديب أنه قد مضى علينا أكثر من ساعتين منذ وصولنا ، مرت كأنها دقائق لما كان يفيضه علينا من علمه وأدبه وظرفه . وأخيرا دعينا الى زيارة الأمير وقد كان ما مر بنا من انتظار مضافا الى هذه المفاوضات بيننا وبينه وما يحيط باسمه من شائعات ، كل ذلك قد جعلنا نذهب للقائه متوترى الأعصاب شديدى الهيبة والخشية من ملاقاة الرجل . ولعل من المناظر المألوفة فى كل المملكة العربية السعودية أن ترى حاشية يحملون السيوف فلم يكن مرآهم يثير فى نفوسنا أى حاسة من الحواس الا أنها شىء للزينة ، أما هنا فلأول مرة خفق قلبى لمرأى السيف فى يد الرجل الذى جاء ليرافقنا حتى مجلس الأمير .

وأخيرا ها نحن أولاء فى مجلس الأمير ، لقد طابق الخبر الخبر ،

فالرجل مهيب كل الهيبة فى حديثه مهيب فى مجلسه • انه يقل الكلام ولكنه لا يصل الى درجة أخيه الصغير الذى يصل الى حد الصمت المطبق ، فصاحبنا هذا يتكلم ولكنه لا يسرف فى الكلام • وقد عاتبنا لفكرة الاسراع فى العودة وعدم اعطائه الفرصة لاكرامنا ، فقلت له : لقد انقضى علينا قرابة شهر ونصف ونحن غارقون فى الكرم ، بحيث لم يعد هناك زيادة لمستزيد ، وما جئنا الا لنراه ، فلا يليق بنا أن نصل الى شرق الجزيرة ثم لا نرى رجلها الكبير ، ومدينتها الغناء فى الهفوف• وعند هذا القدر كنا قد فرغنا من شرب القهوة وجاء من أخطرنا بأن مائدة الطعام قد مدت ، فاعتذر لنا أنه قد سبقنا الى تناول الطعام فذهبنا وبصحبتنا الشيخ صالح أمين قصره ، فاذا بنا أمام مائدة ضخمة عملاقة تكفى لاطعام مائة من الناس فأبديت دهشتى واعتراضى على مثل هذا العمل فاذا بالشيخ صالح يفلسف لنا الموضوع بلباقته وكياسته،ويعطى لنا تفسيرا لأمثال هذه المآدب وما هو المقصود منها ؛ فيقول ان بادية العرب ليس فيها وسيلة من وسائل المواصلات وليس فيها صحف وليس فيها نواد ولا مجتمعات ، فكيف يعرف الناس نبأ وصول كبير من الكبراء أو عظيم من العظماء فى منطقة الا عن طريق مأدبة كهذه المأدبة ، فبعد أن نقوم من على السفرة سيطعم الناس مما طعمنا ، فيتساءلون عمن أقيمت له المأدبة فيقال لهم : فلان ، فيعودون الى قراهم والى نجوعهم يحملون الخبر والنبأ ، فتعرف البادية أن ضيفا قد حل على الأمير من مصر صفته كذا وكذا •

وعلى هذا الأساس تقبلنا هذه المأدبة الضخمة ، ولم نر فيها معنى من معانى الاسراف • وعدنا للأمير ثانية نستأذنه فى الرحيل ونشكره على هذه الحفاوة المنقطعة النظير • وكنت أريد أن أفرغ من هذا الواجب بأسرع ما أستطيع • ومرة أخرى احتج الأمير على أننا لا نعطيه فرصة لكى يقوم بواجب اكرامنا كما يجب ، فقلت له : وهذه المأدبة الضخمة التى أقيمت لنا رغم ضيق الوقت ، أليست شيئا تتحدث به الركبان ؟ فأجاب : ومتى كان الطعام هو كل مظاهر الاكرام ؟ •

قال ذلك ووجدته يمسك بقطعة من الورق فيخط بها بعض كلمات ثم يعطيها لسكرتيره الذى أخذها وانصرف • وشربنا القهوة مرة ثانية واستأذناه فى الانصراف فأجابنا اليه فصافحناه وانطلقنا • واذا كنت قد أكثرت من استعمال كلمة انطلقنا حتى كادت تفقد معناها فانى أرجو القارىء أن يتصور أننا انطلقنا هذه المرة حقا وصدقا ، انطلقنا كما تنطلق القذيفة فقد كان كل همي وقد فرغت من هذا الواجب أن أسرع بالابتعاد عن هذا المكان وأن أعود الى الظهران فى طريقى الى جدة ثم الى مصر •

ولذلك فقد خرجت أعدو غير ملتفت الى الوراء ، ومرقت من باب القصر كما يمرق السهم فما شعرت الا وصاحبنا الشيخ صالح ينادى علىّ يا أستاذ أحمد ••• يا أستاذ أحمد ••• فوقفت حتى أدركنى الرجل وهو يلهث ، وراح يعتب على : ما هذه العجلة يا شيخ ؟ أتعبتنى وأنا رجل عجوز • فقلت له : اننى آسف ولكنك تعرف أننا نريد أن نعود فورا ، ولم أكد أقف معه قليلا حتى كان أحد حاشية الأمير قد أدركنا ، فقال الشيخ صالح : ان الأمير يقدم اعتذاراته ويقول انه لا يجد ما يقدمه لنا على سبيل التذكار الا هدية صغيرة متواضعة من صنع بلاده، وهو يرجوكم أن تقبلوها وأن تسامحوه فى التقصير ، ثم قدم الىّ الهدية• فهل تعرف ما هى هذه الهدية الصغيرة المتواضعة ؟ • انها سيف ذهبى لا يقل ثمنه عن مائتى جنيه ، وخنجر ذهبى كذلك لأخى الغندور لا يقل ثمنه عن مائة جنيه ، ولكنه فى بهائه وروعته وجمال نقوشه قد يفوق السيف ، ولأول مرة أدركت معنى هذا التعبير الذى نطالعه فى القصص وهو « انعقد لسانه » فقد انعقد لسانى واحتجت الى زمن طويل كى تنحل عقدة اللسان عندما كان الشيخ صالح يطوف بنا أرجاء الهفوف ، ويرينا من آثارها وزروعها ومياهها ما قصصت عليك خبره من قبل •

الهدية الملوكية

قلت للشيخ صالح : ما هذا الشىء العجيب ؟ رجل لا يعرفنا من قبل دخلنا عليه خائفين منه فلم نمكث فى حضرته بلا بضع دقائق ، فيقيم لنا هذه المأدبة الكبرى ثم ينفحنا هذه الثروة الضخمة ؟ يالله ان هذا لأعجب القصص •

وطالما غمرني جلالة الملك عبد العزيز بنفحاته ، وكذلك الأمير سعود ومعالي وزير المالية ، ولكن هؤلاء عرفوني وسمعوا بي وتكلمت أمامهم وهم بحكم مراكزهم السياسية تجوز منهم هذه الأشياء ، أما هـذا فلم يسبق له أن سمع بي ولا يعرف من أمري شيئا ، فلا أكاد أقول له : السلام عليكم حتى يهبني سيفا ذهبيا ؟! هذه هي قصة من قصص الأغاني أو ألف ليلة وليلة • لطالما سمعنا عن حاتم الطائي أو معن بن زائدة ، فتخيلنا ذلك من باب الخرافات أو المبالغات على أقل تقدير ، وهأنذا أرى شيئا اذا قلته للناس لا يصدقونه •

وهكذا عدت من الأحساء بأعظم تذكار من كل رحلتي في الجزيرة وصدق الله العظيم اذ يقول : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » • فهذه الرحلة الى الهفوف قد اغتصبتها اغتصابا ، وأقدمت عليها كارها لا يدفعني الا الشعور بالواجب ، واجب المعرفة من ناحية وواجب لقاء الرجل الذي يشرف على المنطقة ، فاذا بي أعود من لدنه بهذه الهدية الثمينة التي لو لم أذهب اليه لما حصلت عليها ، والتي كانت في ضمير الغيب ، وهكذا على الانسان أن يسعى وأن يسعى دائما فهو لا يعلم متى وأين يوجد الخير •

حسين بدوي :

لم يبق عندي ما يزال عالقا في ذهني من زيارتي لشرق الجزيرة سوى شخصية أخرى لا أستطيع أن أقفل عائدا من الرحلة دون أن أقول عنها كلمة ، ألا وهي شخصية الأستاذ حسين بدوي المستشار الزراعي لوزير المالية ، فلقد رأيناه في الظهران يقوم على انشاء غراس من الطـراز الأول لوزير الماليـة في الدمام ، وحيثما سـار الأستاذ حسين بدوي يسير معه العمل والخصب والثمار ، لقد ذهب حسين بدوي مع من ذهبوا من مصر لكي يعملوا في الحجاز لمدة عامين أو ثلاثة ، ولكن الرجل طابت له الاقامة في هذا الجو العبق بالذكريات المقدسة ، فاختار أن تكون هذه البلد وطنا ثانيا له فوهبها كل اخلاصه ، ولقـد

أدرك ذلك منه معالى عبد الله السليمان وهو الأريب الذى يفهم الرجال ، فجعله مستشاره الأول ومعاونه على مشروعاته ، وراح ينتقل به من مكان الى مكان فلا يلبث المكان أن يتحول الى بستان والبستان الى ضيعة كبيرة ، ولا تلبث صنوف الفواكه كلها والخضروات كلها أن تنبت فى هذا البستان .

كم يستطيع الرجل المخلص الصادق أن يكون دائما ذا شأن كبير وأثر لا حد له فى الحياة . اننى أكتب الآن هذه السطور وأمامى كتاب الأستاذ حسين بدوى عن الزراعة فى المملكة السعودية ، وهو كتاب من شأنه أن يجعل صاحبه فى مقدمة الرواد العظام فى باب الزراعة فى المملكة السعودية ، فلو لم يكن له سوى هذا الكتاب لكفاه فخرا ، ولكن الكتاب الذى سطره حسين بدوى بعمله وجهوده فى سائر أرجاء المملكة هو شىء يجل عن الوصف والتقدير . أما نزاهة الرجل وأما زهده وقناعته وأما جلده على العمل فهذه كلها مسائل تشيد بها الركبان كما يقولون .. اننى أبعث بالتحية الى الأستاذ حسين بدوى فى مكانه ، وهو عندى بمثابة الجندى الذى يعمل لوطنه الاسلامى الكبير دون أن يدرك أحد عمق العمل الذى يقوم به .

القسم الرابع

العودة

(إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

إلى الرياض ثم جدة

— ١ —

وجاءت الساعة الموعودة التى حلقت بنا الطائرة فى طريقها الى جدة ، ولكن كان علينا أن نمر بالرياض أولا ، فقد أبى كرم ولى العهد الا أن يظللنا بضع ساعات أخرى ، فلم تكد الطائرة تهبط الى مطار الرياض حتى وجدنا الجميع فى انتظارنا ، رجال الأمير ورجال قافلتنا فتعانقنا من فرط الشوق ، مع أنه لم يمض على افتراقنا سوى ثلاثة أيام فقط ، وركبنا سيارة الأمير وبصحبتنا السيد عبد الله أبو الخير الذى وفد خصيصا لاستقبالنا ، ووقفت السيارة أمام قصر ولى العهد فوجدنا الاستعداد لاستقبالنا على ساق وقدم ، وكان موعد وصولنا يوافق هذه الحصة التى يجلس فيها الأمير لسماع الدرس الدينى ، فسألنا اذا كنا نود أن يرفع الدرس أم نستمع اليه معه حتى ينتهى ، وكان طبيعيا أن نستمتع معه بسماع الدرس الذى طالما قيل لى انه من تقاليد الملك عبد العزيز وولى عهده ، حيث يلقى أحد العلماء فى حضرته كل يوم درسا فى كتب التفسير والفقه والسنة تدور بعده المناقشة والمباحثة فيما سمعوا وطالعوا .

وكأن الأمير أراد أن يجعلنى لا أعود من الرياض الا بعد أن أكون قد رأيت كل شىء ، وقد كان هذا المنظر ينقصنى فى المرة الأولى فأدركته الآن فى هذه الزيارة العاجلة .

كان القارىء يتلو الفصل الخاص بصلح الحديبية وما جرى فيه وما يترتب عليه من أحكام ، ولم يعجبنى فيه طريقة التلاوة فقد كان يتلو تلاوة منغمة رتيبة . وكان الأفضل أن يتلو تلاوة مفصلة ، كلمة كلمة وعبارة عبارة ، حتى يكون الكلام أسرع وصولا الى العقل . ويخيل الى أن هذه هى طريقتهم التقليدية فى خطب الجمعة والقاء الدروس ، وحبذا لو عدل عنها فرفعت الغنة من الالقاء .

وانتهت تلاوة الفصل ولم تعقبه المناقشة بسبب وجودنا ، فقد

كان يجب علينا أن نعود للطائرة التى تنتظرنا • وأقبل علينا الأمير يسألنا عما رأينا فى رحلتنا ، فحدثته بالعجب العجاب مما رأيت • وأبديت آرائى فى وجوب الحصول على أكبر قدر من أسهم الشركة ما دامت تباع فى بورصات أمريكا ، حتى يصل الى يد السعوديين بعض هذه الأرباح الباهظة التى تربحها الشركة ، فأجابنى أن الفكرة لم تغب عنهم وأنهم يشجعــون الكثيرين من الحجازيين والسعوديين على اقتنـاء هذه الأسهم •

وكان الأمير يعد لى مفاجأة كبرى فاذا به يعلمنى أنه كتب لوزير المالية يعلن فيه تبرعه للبيت الأخضر التى نعمل على اقامته بمبلغ من المال بخلاف ما قد تبرع به جلالة والده ، ومرة أخرى انعقد لسانى لهذه الهبة الضخمة التى كنا أحوج ما نكون عليها لاتمام مشروعنا الذىبدأناه فى مصر ، وهو أن تتخذ لمصر الفتاة بيتا يكون داراً للعروبة كلها • وقدم لنا الأمير فوق ذلك صورته الخاصة موقعا عليها بيده الكريمة ؛ ولم يفته أن يزودنى بهذا الخطاب الذى طلبته منه لوزير المالية لكى يقيم بناء المرصد الفلكى فوق جبل أبى قبيس •

واننى أدع للقارىء أن يضع نفسه مكانى ، وأن يتصور ماذا كان يمكن أن يكون شعورى فى هذا الوقت وشعور أخى الحاج حلمى الغندور ونحن نرى هــذه الهبات تنهال علينـا كما ينهـال الغيث من السماء •

اننى رجل لا أملك شيئا أرد به على كل هذا الفضل العميم الا أن أسخر نفسى أكثر وأكثر لخدمة العروبة والاسلام ، وأن أحيا وأموت مجاهدا فى سبيل الحق والايمان بنور الله •

الى جــدة :

وودعنا الأمير ثانية وعدنا الى الطائرة التى كانت تنتظرنا على أحر من الجمر ، وعندما حلقت بنا ثانية كان الغروب قد أصبح وشيكا ،

وما هو الا بعض الوقت حتى أظلمت الدنيا فلم نعد نرى شيئا ، فرحت أعالج النوم بعد أن صليت المغرب والعشـاء وأنا جالس فى مكانى من الطائرة ، ثم رحت فى سبات عميق لم أستيقظ منه الا عنـدما كنا قد اقتربنا من جدة ، وبدت أنوارها الكهربائية ساطعة كمدينة عصرية . وعندما كانت الطائرة تهبط الى أرض (المطار) كان قلبى يوشك أن يطير من الفرح شعورا منى أن هذه هى المرحلة الأخيرة التى تسبق العودة الى الوطن .

فى رحاب الكعبة مرة أخرى :

وصلنا الى جدة فى ساعة متأخرة من الليل ، وقـد كانت جـدة مكتظة بالحجاج فلم يجد المسئولون مكانا نستطيع أن نرتاح فيـه الراحة الكاملة الا أن نبيت بمكة ، فرحبنا بهذه الفرصة التى تتيح لنـا دخول مكة مرة أخرى لنعتمر ، وقد كان قلبى يفيض رغبة فى شكر الله على ما وفقنى فى هذه الرحلة ، وما غمرنى به من نعم كانت كبراها هو هذا الهدوء الذى حل بنفسى ، وقد كنت قبل ذلك محزونا أوشك أن أتردى فى مهاوى اليأس لما حل بالعالم العربى والاسلامى من حوادث ونكبات ، ولما أصبت به شخصيا من نكبات وجراحات . فلم أكد أختم هذه الرحلة حتى وجدت الله سبحانه وتعالى قد غمرنى بكرمه وبره ، فاذا بى كانسان قد ولد من جديد ، أو بالأحرى انسان قد تطهـر مما كان قد علق به من ذنوب وران على نفسه من ظلمات ، ولم يكن هناك ما أعبر به عن شكرى لهذه الراحة النفسية الكبرى أكثر من أن أعود الى مكة مرة أخرى ، وأن أجدد بها العهود والمواثيق ، وأرفع فروض الشكر والولاء لمالك الملك الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء .

ومرة ثانية دخلنا مكة مكبرين مهللين وطفنا وسعينا الى ما قبل الفجر ، وأوينا الى فندق مصر الذى كان قد أوشك فى هذا الوقت أن يغلق أبوابه ، وسبحان الجامع والمفرق فقد كان هذا الفندق منـذ أسبوعين فقط لا يستطيع الانسان أن يجد فيه موضعا لقدم ، كان

يغص بالحركة والضجيج حتى لقد كنت أكره أن أجلس فيه لما كان يسوده من جوعاصف ••• وهاهو ذا الآن والعنكبوت يوشك أن يظلله بخيوطه وشباكه •

وعدنا فى صباح اليوم الثانى الى جدة لنقابل المسئولين جميعا نشكرهم على مالاقيناه فى رحلتنا ، ونستودع ونستأذن فى العودة الى مصر •

ولقد كان اغتباط الجميع بنا عظيما ؛ وكان فرحهم بما لاحظوه علينا من علائم السرور أعظم • وكانت جلسة ممتعة تلك التى جلسنا فيها فى مكتب الأخ العزيز سليمان الحمد وقد اجتمع حولنا سائر الاخوان يستمعون الى ملاحظاتنا عن رحلتنا • وقد كان لى ملاحظتان رئيسيتان سجلتهما فى وزارة المالية رسميا وحدثت فيهما بعد ذلك معالى الوزير الكبير عبد الله السليمان وكذلك رجال الملك •

أما الملاحظة الأولى : أو الاقتراح الأول فهو وجوب اهتمام الحكومة والأمراء وأغنياء البلاد بالحصول على أكبر قدر من أسهم شركة أرامكو ، وهى أسهم تباع فى بورصة أمريكا ، ومن السهل الحصول عليها وشراؤها ، فحرام أن تذهب كل هذه الأرباح الضخمة الى جيوب الأمريكيين دون أن ينتفع منها العرب بأكثر من هذه الأتاوة الصغيرة التى تتقاضاها الحكومة والتى لا تزيد عن ٢٥٪ من قيمة الزيت المستخرج •

وقد قيل لى أن هذه الفكرة لم تغب عن أذهان المسئولين وأن بعض أغنياء الحجاز قد شرعوا بالفعل فى اقتناء بعض هذه الأسهم وقد قال لى بعضهم شخصيا أنه يمتلك بعض هذه الأسهم بالفعل فسررت لذلك وهنأته على هذا العمل ، على أن الحكومة والأمراء والأغنياء يجب أن يمضوا فى هذا السبيل حتى نهايته تمهيدا لامتلاك الجزء الأكبر من ينبوع الثروة فى بلادهم ليكون بعد ذلك ملكا للشعب فى مجموعه صاحب الحق الأول فى كل شىء •

الملاحظة الثانية :

أما الملاحظة الثانية فخاصة بما بدأت شركة أرامكو تلجأ اليه للتحلل من التزاماتها قبل العمال . فقد كانت الحكومة السعودية موفقة كل التوفيق فيما اشترطته فى العقد من شروط لصالح عمالها ، وخاصة فى موضوع تعويضات اصابات العمل التى قدرت على أساس محترم مما يجرى فى الدول المتحضرة والمتمدينة . وذلك الى اشتراط شروط صحية أخرى واجتماعية من شأنها أن ترتفع بمستوى العمال وتعود عليهم بأعظم الفوائد . بدأت الشركة تتحلل من هذه الالتزامات بأن تعهد بالكثير من الأعمال التى كانت تتولاها بنفسها الى مقاولين من العرب بحجة تشجيع العرب على الاضطلاع بهذه الأعمال . فاذا شاءت الشركة اليوم أن تبنى بيوتا كلفت بها مقاولين من العرب ، واذا شاءت أن تعبد طرقا كلفت بها مقاولين عربا ، بل لقد وصل الأمر الى حد تكليف مقاولين عرب بمد الأسلاك الكهربائية وغيرها . وقد كان ممثل الشركة يحدثنى عن هذه الناحية فى افتخار واعتزاز ، وكيف أنهم يهيئون الفرصة للنهوض بالعرب . ولكنى اكتشفت الحقيقة وهى أن الشركة تفعل ذلك رغبة منها فى التخلص من قانون العمل الذى يسرى على عمالها فبدلا من أن يكون هؤلاء العمال تابعين لها فتلتزم حيالهم التزامات القانون يصبحون منتمين الى مقاولين فلا تعود مسئولة عنهم ، وهذا هو سر هذه الحماسة فى تكليف المقاولين بهذه الأعمال . ولو أن هؤلاء المقاولين كانوا يلتزمون نفس الشروط التى تلتزمها الشركة فى معاملة العمال لما كان لنا فى الأمر أى ملاحظة أو اعتراض ، بل لزادت حماستنا لهذا الوضع لأنه أكثر سلامة وفائدة للعرب ، ولكن المؤسف والمؤلم أن هؤلاء المقاولين من العرب يحتجون لدى الحكومة السعودية بما يسمونه (جهلا) قواعد الشريعة الاسلامية التى لا تعرف شيئا عن اصابات العمل (فيما يزعمون) ويعتبر كل ما يقع من هذا القبيل قضاء وقدرا .

وعلى هذا الأساس يتحللون من قانون العمل المفروض على الشركة ، فلا يمنحون العمال تعويضا اذا أصيبوا أو قتلوا ،بل ولا يسكنونهم فى بيوت تليق بالآدميين كما تفعل الشركة ، ولا يعنـون بهم بعض عناية الشركة •

لقد راعنى ذلك الموقف الذى يتحدث فيه جهـلة عن الاسـلام وتشريع الاسلام وانه يسمح بهذا أو لا يسمح بذلك غير مدركين أن روح التشريع الاسلامى قد فطرت على التدرج ، وعلى مقابلة كل حالة جديدة بما يلائمها ، وأن القاعدة الأساسية فى الشريعة الاسلامية « ان لا ضرر ولا ضرار » •

وليس وراء هذا الذى يعمله المقاولون من اهدار الحقوق ، اضرار بالناس • فينبغى على الحـكومة أن تضرب على أيديهم ، فاما أن يلتزموا قوانين العمل التى تلتزمها الشركة ، واما أن يكفوا عن مزاولة هذه الأعمال •

ولقد رحب رجال المالية بهذه الملاحظة وطلبوا منى أن أحـدث فيها معالى الوزير بنفسى •

فى حضرة الملك مرة أخرى :

وحدد لنا موعد لمقابلة جلالة الملك وشكره على ما غمرنا به من نعم واستئذانه فى العودة الى مصر •

وفى الموعد المضروب تشرفنا بمقابلة جلالته فاذا به يستقبلنى بأحب كلمة يمكن أن يستقبلنى بها لادخال السرور على نفسى ، وقد كانت عبارته « انت جيت يا نجدى » وهكذا دعانى نجديا ، وعندما يصف أحد الملوك ضيفه بأنه أصبح واحدا من مواطنيه فليس وراء ذلك تكريم واعتزاز ، وهذا هو شأن عبد العزيز دائما نفاذ الى القلوب قادر على اصطناع الرجال •

وعندما رحت أحدث الملك عما رأيت وشاهدت اذا به يجمل الموقف

الاقتصادى لبلاده فى كلمة واحدة وهى « الزراعة » • قال لى : ان هذه البلاد فى حاجة الى أن تزرع الكثير لاطعام أهلها ، وهناك الأرض الصالحة والأيدى العاملة ولكنا فى حاجة الى الفنيين ، وفى هذا السبيل يجب أن نعمل وسوف نعمل •

وانه لملك عظيم ومصلح من أعظم المصلحين ذلك الذى يدرك حقيقة المشكلة فى بلاده ، على خلاف ما يتصور الكثيرون منذ أقدم العصور ، فالعرب يتصورون أن الحج والحجاج هم كل مصدر رزقهم وعندما انبثق البترول فى الظهران واكتشف الذهب فى مهد الذهب ظن أن المعادن والتنقيب عنها هى التى ستكون مصدر ثروة الجزيرة وعماد حياتها • ولكن عبد العزيز يدرك أن الزراعة هى أمل البلاد المرجى ، فمن العبث أن يعيش شعب بأكمله على ما يستورده عبر البحار من طعام وشراب ولباس ، وليس عنده ما يصدره ليشترى به هذا الطعام وهذا اللباس وبقية ما يحتاجه شعب للحياة ، وهذا هو سر ما يعيش فيه أغلب سكان الجزيرة من فقر مدقع ، فالزراعة والزراعة وحدها هى التى ترفع مستوى هذا الشعب وتسد حاجته ، وتحميه من خطر الابادة المهدد بها فى الأزمات ، كقيام الحروب الدولية عندما تغلق طرق البحار • ولقد رأينا آثار النهضة الزراعية فى كل مكان ولكنها دون الغاية بمراحل ، بل انه من الخير أن يقال انها لا تزال فى دور التجارب ، وقد أعجبنى من جلالة الملك انه مدرك لهذه الحقيقة عامل على سد هذه النقص • وانتهت جلستنا مع جلالته على أحسن حال ، فانصرفنا من لدنه بعد أن دعونا له بطول العمر ، وتمنينا على الله أن يرينا اياه ثانية فى أسعد الأوقات ، وبعد أن أذن لنا بالعودة الى مصر •

مع عبد الله السليمان :

وجاءت الساعة التى اتيح لنا فيها أن نقابل وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ، وحدث عن السرور والفرح الذى غمرنا كلينا بهذا اللقاء ، فقد تعانقنا طويلا من فرط الاشتياق والسرور والاعجاب •

ولقد جلس الوزير يستمع الى ورحت أتدفق فى وصف ما رأيت وما سمعت : وما أعجبنى وما هز مشاعرى وما لاحظته هنا وهناك . ولم أكد أفرغ حتى شرع فى الكلام . فراح يرسم لى برامجه وآماله ويالها من برامج عريضة ، ويالها من آمال ؛ لو لم يكن المتكلم هو عبد الله السليمان لضرب الانسان بقوله عرض الحائط باعتباره لونا من ألوان الخيال أو الاسراف فى الأمانى .

قال لى الرجل : لقد دلتنا المباحث على أن هذه الجزيرة كانت فى قديم الزمان جزيرة غناء تغص بالرياض وبالمزروعات . انا نرى آثار القنوات القديمة وهى شىء عجيب لا يقل فى غرابته عن بناء الأهرام ، وانا لنقف أمامها حائرين مذهولين ، كيف بنى الأقدمون هذه القنوات وجروا المياه مئات الكيلومترات ! وعلى أية حال ان وجود هذه القنوات هو الدليل على أن كثيرا من بقاع الحجاز كانت تزرع على نطاق واسع وسوف نعيدها سيرتها الأولى ، بل نذهب الى أبعد مما ذهب اليه الأقدمون بعد أن سلحنا العلم الحديث بوسائل لم تكن فى متناول أيديهم .

وعرضت على الوزير ملاحظاتى وآرائى فى مختلف الشئون مما أشرت اليه من قبل ، فطلب منى شأن الرجل المجرب العامل أن أكتب له كل ملاحظاتى فى تقرير ليدرسه الدراسة الواجبة . ولما أخبرته عن اعتزامى العودة الى مصر أمهلنى يومين أو ثلاثة ، كى أتمكن من زيارة منشآت جدة الجديدة . ولكى أنزل فى ضيافة الأخ السيد سرور الصبان مدير المالية ، ولقد كان هذا اغراء لا يعدله اغراء لحملى على الانتظار ، فالسيد سرور الصبان هو أحد رجالات الحجاز الذين قامت على أكتافهم نهضة الحجاز الحديثة ، ولقد صادقته منذ أول يوم ذهبت فيه الى الحجاز ، وكنت أشعر بوحشة شديدة لو أنى لم أتمتع بمجلسه وبالتحدث اليه بعض الوقت ، وهو ما فاتنى حتى الآن طوال هذه الرحلة .

ولقد جلسنا سويا هذه الجلسة عشية سفرى وقد كانت جلسة مباركة،

وامتد بنا الحديث حتى ساعة متأخرة والحديث ذو شجون ، فما راعنى من السيد سرور الصبان الا شدة تحرره وأفكاره التقدمية ، سواءفى أمور الدين أو السياسة مما جعلنى أطمئن على أن الجزيرة بخير مادام رجالها يفكرون هذا التفكير الناضج الصادق المدرك لسير الزمن ومقتضيات العصر •

جولة فى جدة

– ٢ –

ولقد كانت جدة دائما أبدا مدينة منفرة لا يستحب المقام بها ، فاذا جاءها الحاج فهو شديد اللهفة للوصول الى مكة ، وكل ساعة يقضيها فى جدة تزيد فى عذاب شوقه الى زيارة بيت الله الحرام ، ولذلك فان الانسان يمضى وقته فى جدة وكأنه محكوم عليه بالانتظار ، وليس هناك ما هو أبغض على النفس من أن تنتظر • أما بعد أن يفرغ الانسان من مناسك الحج فان شوقه الى العودة الى وطنه يصبح متأججا كأقوى ما تكون النار استعارا ، خاصة وأن نقود الحاج تكون عند هذه المرحلة قد انتهت • فجدة فى الحالتين فى الذهاب والاياب هى المعبر والممر غير المرغوب فيه ، خاصة وأنها مدينة تعافها النفس فلا ماء فيها للشرب سوى النزر اليسير مما كان مخزونا أو مستخرجا من ماء البحر ، وهى ضيقة الشوارع مكتظة المنازل شديدة الحر كثيرة البعوض والذباب بصورة بشعة ، وفى الجملة فهى مدينة لا تطيب فيها الاقامة ولا ليوم واحد • غير أن وجود السيد محمد أفندى نصيف أو الأفندى نصيف كما يطلقون عليه قد جعل فى المدينة غرضا يزار ويحج اليه • فهذا الشيخ الجليل الذى يعد بحق عين أعيان الحجاز ، هذا الأديب والعالم التقى الورع الذى عاصر النهضة العربية منذ أول مراحلها ، وكان له شأن فى كل صفحة من صفحاتها حقيق بأن يحج الانسان

الى بيته فى جدة ؛ وأن يجلس اليه وأن ينعم بحديثه وبكرمه وضيافته ، فبيت الأفندى نصيف مفتوح لاستقبال الضيفان ليل نهار اما للنوم ، أو لتناول الطعام أو للاطلاع على مكتبته الضخمة التى كد فى جمعها حتى أصبحت واحدة ممن يشار اليهن بالبنان .

ولذلك فقد زرنا الأفندى ونعمنا بأحاديثه الطلية واجتمعنا بأبنائه ، وكان ظننا جريا على العادة أن هذا هو كل مافى جدة ، وغاب عنا أنه قد انقضت سبع سنوات منذ رأينا جدة لآخر مرة ، وأن معالمها هذه المرة قد تغير الجزء الأكبر منها والباقى منها فى طريق التغيير . فقد كان الانسان اذا نزل من الميناء يسير فى أراضٍ مسورة ودروب ضيقة ، وكان يقال عن هذه الأرض المسورة انها تضم قبر حواء ، وامعانا فى الضلال والايهام جعلوا طول هذا القبر مائة وخمسين مترا ، أو نحو ذلك ، وكانت عامة الحجاج ان لم يكن علماؤهم يفتنون بهذه الخرافة . حتى قام السعوديون فى الحجاز فوضعوا حدا لهذه المهزلة ، فهدموا هذا القبر ومنعوا الدخول الى هذه المقبرة المزعومة ، أما هذه المرة فقد هدمت هذه الأسوار فانكشفت الأرض ، وانفتح الطريق الى البحر فأصبح أمام المدينة منفسح كبير من الأرض يصلها بالبحر ، فساعد ذلك على تهويتها وخلق كورنيش للمدينة يتنزه فيه الناس بعد أن لم يكن فى جدة متنزه واحد ، الا أن يخرج الانسان منها ويبعد عنها .

المشروعات الجديدة :

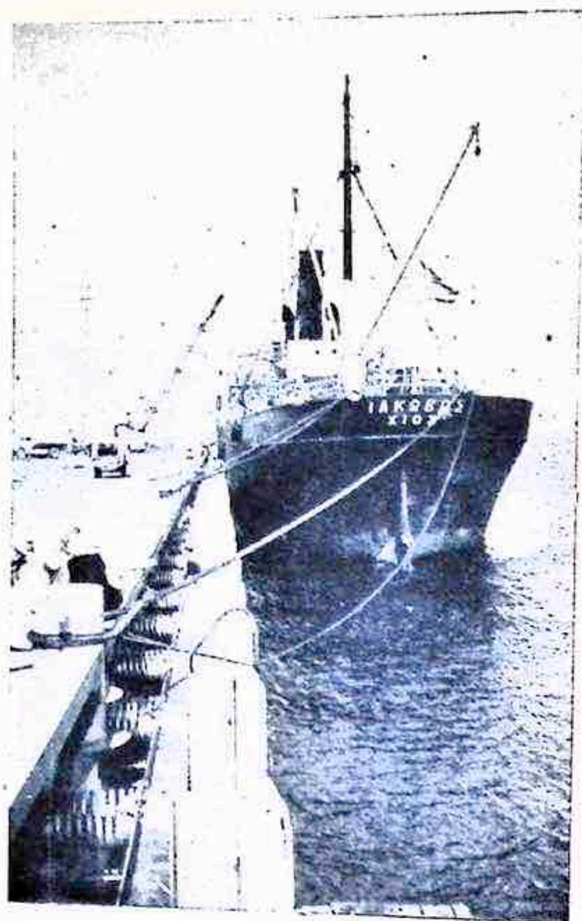
على أن الذى سيخلق جدة خلقا جديدا بعد توفر الماء بها هو مشروع الميناء الذى يجرى العمل فيه على ساق وقدم ، والذى أصبح الآن حقيقة مقررة وأنا أكتب هذه السطور . لقد ظلت جدة مدينة محرومة من أن يكون لها ميناء ، فكانت سفن الحجاج تقف بعيدا فى عرض البحر ، ثم ينزل الحجاج منها الى زوارق صغيرة تسمى السنابيك ، ولقد كانت هذه محنة من أكبر المحن التى يتعرض لها الحجاج ،

فكانوا يضعونها على قائمة العذاب الذى يجب أن يتعذبه الحاج فى سبيل تمام حجه • ولطالما رأينا مناظر تتفتت لها الأكباد والحجاج الشيوخ أو المرضى يحملون على الرؤوس وينزل بهم على سلالم الباخرة فى مخاطرة عجيبة ليوضعوا فى هذه الزوارق التى تضطرب فوق الأمواج • ثم يتكدس الناس فى هذه السنابك تكديسا عجيبا يوشك أن يجعل منهم عجينة بشرية ، ثم يقذف بهم بعد رحلة شاقة على الشاطىء • كان قلب الانسان يتفطر لهذا المنظر الذى يدل على مدى التأخر والانحطاط الذى يعيش فيه العالم الاسلامى الذى وقف حيث سارت الدنيا كلها ، ولم يقف عندما كان عليه بل لقد جعله وقوفه يأسن ويتعفن فأصبح شيئا لا يمت الى الماضى بأى صلة ، ولا يتصل بالحاضر عن أى سبيل ؛ لقد أصبح شيئا عجيبا لا تراه الا فى البلاد الاسلامية •

كل ذلك قد وضع له حد وأمر ابن السعود وزير ماليته أن يضع حدا لهذه الحالة الشاذة ، فكان مشروع الميناء حيث اختيرت جزيرة فى البحر ، وردم ما بينها وبين الساحل ، وأنشىء رصيف ضخم لترسو عليه كبريات السفن • ولقد ترتب على هذه العملية أن ألحق بجدة ساحات جديدة من الأرض متصلة بالبحر مما سيهيىء السبيل لخلق مدينة جديدة تبنى على أحدث طراز للعمران العصرى ولن تمضى بضع سنوات من الآن حتى تكون جدة هذه هى عنوان النهضة السعودية الجبارة التى رأينا آثارها من مشرق الجزيرة الى مغربها •

محطة اللاسلكى :

وانتقلنا من جولتنا فى الميناء الى مبنى المحطة اللاسلكية التى تعتبر أكبر محطة من نوعها فى الشرق الأوسط ، والتى تتصل بأمريكا اتصالا مباشرا • لقد ورثت المملكة السعودية فيما ورثت من التركة المثقلة اتفاقا بين الحجاز وبين شركة استرن التلغرافية يجعل نقل البرقيات السلكية واللاسلكية بين الحجاز وبين أفريقيا وأوربا حكرا لهذه الشركة ، وكان الاتصال مع أمريكا يتم عن هذا الطريق الذى لا طريق غيره ؛ ولكن الحكومة السعودية رأت أن تستغل هذه الثغرة فى





ميناء جدة وأرصفتها

هكذا امتدت ميناء جدة فى عرض البحر لتستقبل اضخم السفن وهكذا تم انشاء ما كان يعتبر حلما أو معجزة

احتكار الشركة والمخصص بأفريقيا وأوربا فقط فرأت أن تنشىء محطة ضخمة تربطها بأمريكا مباشرة وساعدها الأمريكان على تحقيق هذه الأمنية، فكانت هذه المحطة التى لم نرى لها مثيلا فى مصر ذاتها حيث تتلقى الآلات الاشارات مباشرة من الولايات المتحدة مكتوبة على شريط من الورق وترسلها بدورها فتستقبل فى شرق الولايات المتحدة وفى غربها مكتوبة مسجلة • وأسعدنا أن نرى اخواننا العرب يجلسون الى هذه الآلات المعقدة ويديرونها ، ولم نرى سوى أمريكى واحد يعمل فى الميدان ، وقيل لنا أنه لن يلبث أن يرفع بدوره بعد قليل •

محطة الاذاعة :

والحق بالمحطة اللاسلكية محطة للاذاعة ستكون أقوى محطات الشرق الأوسط كلها وأنى أكتب الآن هـذه السطور بعد أن أصبحت الاذاعة السعودية حقيقة واقعة وتسمع الدنيا منذ اليوم فى موسم الحج صوت مئات الألوف من الحجاج وقد اجتمعوا فى صعيد واحد يهللون ويكبرون ، أن ربعمائة مليون مسلم فى سائر أنحاء العالمين تخفق قلوبهم يوم وقفة عرفات وقد حان الوقت ليسمعوا ضجيج الحجاج ممزوجا بحفيف الملائكة وهم جلوس فى عقر دورهم •

نهضة العمران :

والخير لا يمكن أن يلد الا خيرا والنهضة تخلق النهضة . ولذلك فان نهضة الحكومة قد صاحبتها نهضة الشعب . فالمبانى الحديثة ترتفع فى كل مكان ، وأنوار الكهرباء تضىء بيوت المدينة ومتاجرها . ولقد جلسنا فى مقهى جميل أنيق مضاء بثريات الكهرباء وجيىء لنا بالجيلاتى وسائر صنوف المثلجات وذلك كله كان يعتبر خرافة من الخرافات فى جدة . ولكنها النهضة وروح التحضر والعمران عند ما تسرى فى كل مكان •

النهوض بالشعب :

على أن هذه النهضة العمرانية الكبرى ، ستظل نتائجها محدوده فى

أضيق نطاق ، ولا ينتفع بها الا الأمراء والأغنياء والكبراء والأجانب ، ما لم يدرك رجالات الحكومة السعودية أن النهضة كل النهضة فى هذه الأيام الأخيرة لا تقاس الا بشىء واحد ، وهو رفع مستوى الكتل الشعبية وجماهير المكاوحين ، والقضاء على النوارق الضخمة بين من يطلق عليهم اسم الأغنياء ومن ينعتون بالفقراء ، لأن المستقبل لا يسمح بفوارق الطبقات وأن منظر مجموع الشعب فى مدن الحجاز وفى باديتها مما يزعج النفس ويؤذى الشعور ويبعث ألم الضمير ، وقد أصبح مادة خصبة للدعاية بمرة ضد الحكومة السعودية ، بحيث أصبحت هذه الدعايات توشك أن تحجب الطفرة الجبارة التى نهضتها البلاد فى ظل جلالة الملك ابن السعود .

أننا ندرك أكثر من غيرنا ظروف الحجاز ، وندرك أن كثيرا من الحجاج يهبطون الى الحجاز فقراء ثم يستوطنونه ليعيشوا على صدقات الحجاج الآخرين ، وهذا هو سبب هذا المنظر المزرى من كثرة المتسولين والعجزة والمرضى ، ونحن ندرك أكثر من غيرنا فقر الحجاز من الناحية الزراعية ، وقد وصف فى القرآن أنه واد غير ذى زرع . وتدرك أن التماس الصدقات فى موسم الحج كان دائما هو السبيل الوحيد لاعانة عشرات الألوف من الحجازيين .

ولكن كل شىء قد تطور فى هذه الدنيا ووضعت له الأنظمة والترتيبات واللوائح ، التى ترقى به وتهذبه ، فماذا على الحكومة السعودية لو أنها ضمت الى قائمة رسومها على الحجاج ثلاثة جنيهات أو أربعة أو خمسة على شكل ضريبة اجتماعية تخصص حصيلتها للانفاق على العجزة والضعفاء والأرامل والمعوزين ، بحيث تغنيهم الحكومة عن ذل السؤال وعار التسول وعبودية التطفل .

ليس هناك ما تأباه روح الشريعة الاسلامية أكثر من أن يحترف فريق من المسلمين التسول فتموت نفوسهم ويتحولوا الى جراثيم تنخر فى عظام المجتمع ، لقد فرض الاسلام على الأغنياء حقا معلوما يؤدونه للفقراء ، ومهمة الحاكم أن يجىء بنفسه هذا الحق المعلوم ، وأن يوزعه بنفسه على

المحتاجين والمستحقين فيحفظ لهم كرامتهم ويصون أعراضهم ، ولا يرخص عزة نفوسهم بذل السؤال ، وما من مسلم يقصد الحجاز الا ونفسه مستعدة للسخاء ورفد فقرائه ؛ انه يدرك أن جيران الحرم فى حاجة ماسة الى عونه المادى ، وهو يذهب طائعا مختاراً لأداء هذا الواجب ، فلو وضعت ضريبة تصاعدية على الحجاج بحسب درجات تذاكر سفرهم ، وخصصت كما قلنا للملاجىء والمستشفيات واعانة العجزة ؛ اذن لتقبلها الحجاج بنفس راضية ، لأنها ستريح أعصابهم من هذا السيل من الشحاذين والمتسولين الذين يعترضونهم فى كل مكان وعند كل خطوة ، وفى كل حركة .

ومن ثم ستظهر النهضة السعودية بكل جلالها وروعتها .

ان الاشتراكية التى تغمر الدنيا اليوم فى شتى الصور والأشكال هى من صميم الاسلام ، ولقد صدق شاعر العربية الخالد أحمد شوقى وهو يقول فى مدح رسول الله :

الاشـــتراكيون أنت أمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئـــدا وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء الداء

والحياة العربية الأصيلة هى الاشتراكية كما تطبقها دول العالم اليوم ، والاشتراكية تكره أن يكون هناك أقوام يعيشون على السؤال ، وتكره أن يكون هناك سادة يملكون كل المال،وعبيد يتسقطون فضلات الموائد ، وتكره فى الدرجة الأولى أن لا يكون الناس سواء فى الكرامة والعزة والأنفة التى جعلتها الطبيعة من نصيب الانسان ، وصدق الله العظيم اذ يقول فى محكم تنزيله :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » فاذا ارتفعت صيحة الشعوب الآن فى كل مكان تطالب حكامها بالكرامة ، وبنصيب موفور من الرزق ، وبأن يصانوا عن ذل السؤال وعار الجهل وآلام المرض وضياع مواهب الفقر ، فهم يطالبون بحقوقهم المشروعة المقررة لهم من خالق السموات والأرض .

اصلاح خطير :

وانه ليسعدنى كل السـعادة أن أتلقى وأنا أعـد هـذا الكتاب للطبع ملحق العدد ١٣٣٥ من جريدة أم القرى الصادر فى يوم السبت ٢٣ محرم سنة ١٣٧٠ هـ والموافق ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ ميلادية وهو يحوى مرسوما ملكيا كريما رقم ١٧ أصدره الملك عبد العزيز آل سعود بعون الله تعالى وهو يقضى بفرض ضريبة كسب العمل ، وضريبة الأرباح التجارية والصناعية وايرادات رؤوس الأموال الثابتة المنقولة وقد جاء فى ديباجة القانون أن هذه الطريقة قد فرضت « لتتمكن الدولة من القيام بأعباء الاصلاحات العامة ، والعمل لرفاهية البلاد ، ورفع مستوى المعيشة » .

وهى ذات الأغراض والأهداف التى دعونا اليها فى ملاحظتنا السابقة ، ولذلك لا يسعنى الا أن أرحب كل الترحيب بهـذه الخطوة وأعدها مظهرا جديدا من مظاهر توفيق الحكومة السعودية ، وأنها تعرف دائما واجبها فى الوقت المناسب .

على أن القانون قد أعفى العائلة المالكة من دفع هذه الضرائب ، وهذا الاستثناء يجب أن يزول من القانون فورا ، لأن وجوده يتنافى وروح الشريعة الاسلامية ،التى لا تعفى الحكام من تكاليف تفرض على الشعب .

ان الملك ابن السعود الديمقراطى الاشتراكى بحكم عقيدته الاسلامية لن يرضى لنفسه أو لأولاده أن لا يعطوا القدوة لشعبهم فى أداء هذه الضريبة حتى تخف على نفوسهم ، ولا يتهامسون فيما بينهم أن الضريبة تؤخذ من فريق من الأمة لتنفق على فريق ، ليسوا هم أكثر الناس استحقاقا لهذه النفقة .

نحو الوطن

آيبون ... تائبون ... لربنا قانتون

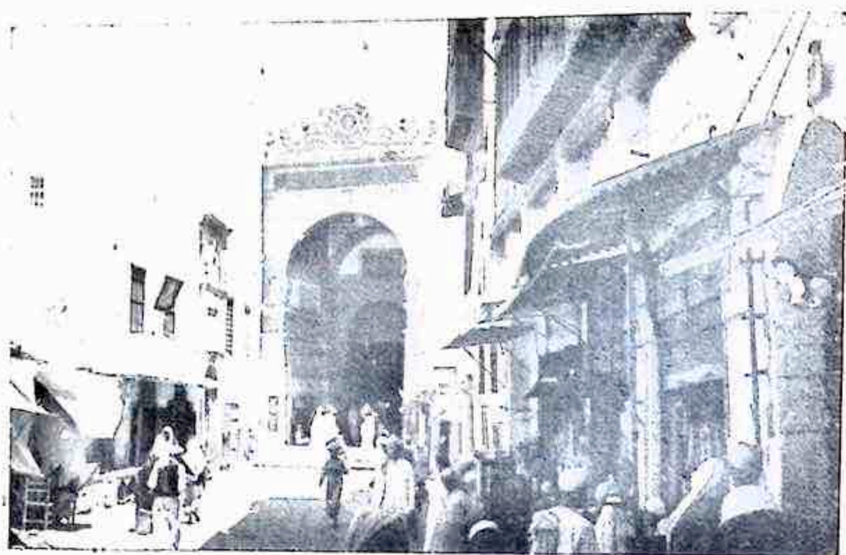
وجاءت الساعة التى تهيأنا فيها للعودة الى مصر ، فظللنا ساهرين طول الليل نرقب الفجر حيث تغادر الطائرة المطار الى الطور، بعد أن تأجل موعد سفرها يوما بعد آخر ، وقامت الطائرة هذه المرة فى موعدها المحدد فلم تكد تحلق بنا فى الفضاء حتى شعرنا بالفرح والسرور يمازجه شىء من الحزن والشجن . أما الفرح فلشفاء النفس وما منّ الله علينا من خير وبركة ، وأما الحزن والشجن فلأننا نغادر الجزيرة دون أن نحظى بزيارة الرسول وهى العزيزة على النفس الحبيبة الى القلب ، وان أنس فلن أنسى ما حييت مالاقيته فى حجاتى الثلاث السابقة من سعادة لا توصف بزيارة الرسول .

ان الفارق بين مكة والمدينة هو الفارق بين التصديق بالمجهول ومعرفة المعلوم . ففى مكة وفى عرفات نمارس ما نمارس من نسك ايمانا وتصديقا بالغيب كما أمرنا الرسول الكريم صلوات الله عليه ، فلابد من أن نعمل خيالنا كى تتذوق أسرار الحج ، ولابد من أن نفلسف كى نقبل طائعين على مايطلب منا أن نقبل عليه من رمى جمرات أو طواف وسعى .

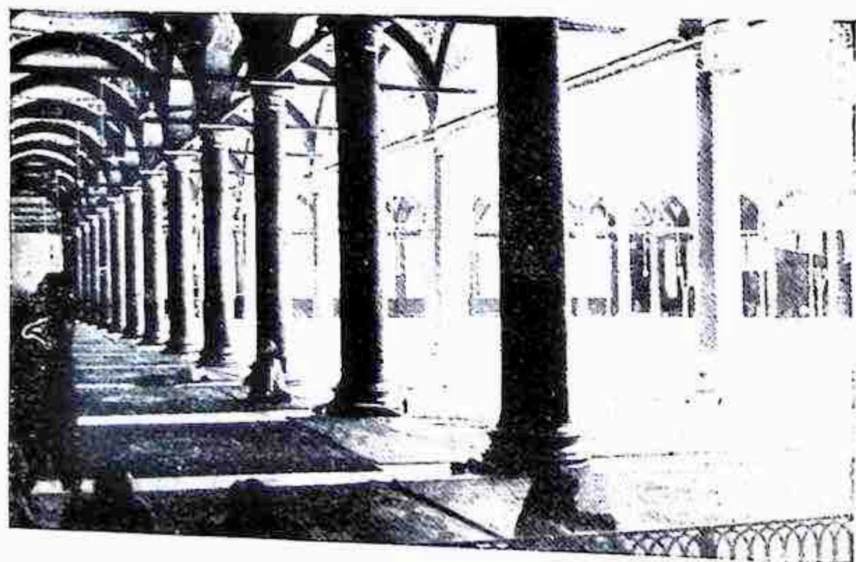
أنت فى حضرة النبى

أما فى المدينة وفى حضرة الرسول فلا مجال للخيال ولا حاجة بك الى التصديق بالمجهول ، فأنت أمام حقيقة واقعة وكل ما يحيط بك حق لاشبهة فيه فهذا أنت فى حضرة النبى ذلك الذى انبعث من ربى مكة وجبالها وبطاحها يدعو الى التوحيد والسلام ، فأنت ازاء الرجل الذى لم تعرف البشرية قبله أو بعده مثيلا ... انك فى حضرة النبى العربى الذى أضاء على العالمين .... انك فى حضرة الرسول الأمين الذى جاء بك من بلادك السحيقة وانتزعك من أحضان أسرتك وأولادك لتؤدى واجبا مفروضا لله .... أنت فى حضرة النور والهدى والرحمة التى غمرت العالمين .

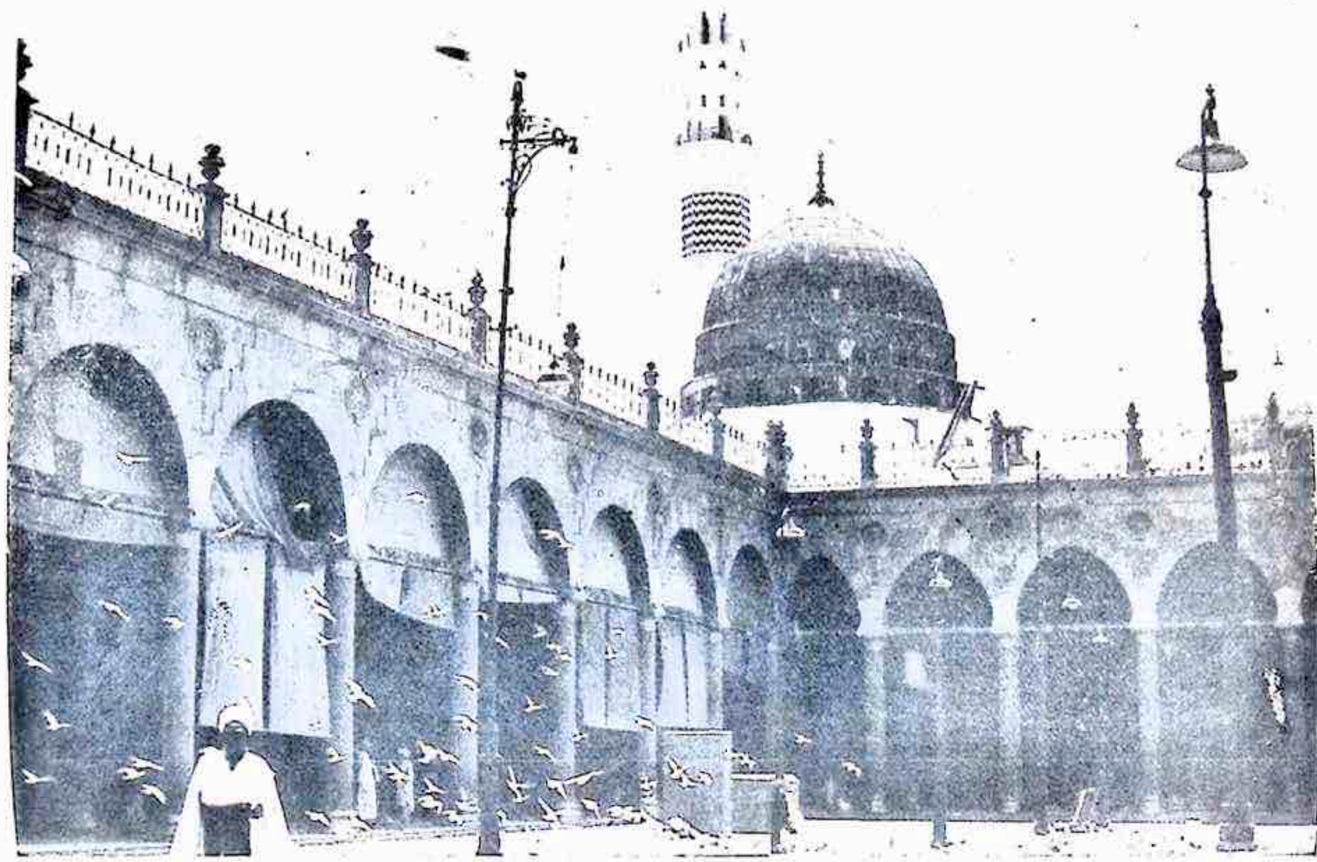
ولا مجال هناك للحدس والتخمين ، ولا مجال هناك للشك والتردد فى أنك فى حضرة الرسول ، فقد اتفق المسلمون ولم يختلف واحد منهم عن واحد أنه دفن حيث مات ، وحيث كان يعيش ، أى فى بيت عائشة الذى



باب السلام حيث تنفذ منه الى الروضة الشريفة



ثم تشق طريقك وسط هذه الأعمدة الرخامية الجميلة



وها هى القبة الخضراء الشريفة تظل جثمان سيد الخلق والناس أجمعين . ويمـلأ الحمام سماء المكان طائرا فى سـلام ودعة يشترك مع بنى الانسان فى تمجيد النبى الكريم

كان يلاصق مسجده ، وأن خلفاءه الذين جاءوا من بعده قد أدخلوا هذا البيت فى فناء المسجد الذى تصلى فيه عشرات الألوف ومئاتها منذ ذلك العهد حتى اليوم ، وليس لذلك مثيل بالنسبة لأى عظيم آخر من العظماء الذين عرفهم التاريخ فضلا عن الأنبياء ، فما من نبى يعرف له قبر على سبيل التحقيق أو حتى على سبيل الشك ، وما من عظيم قديم من عظماء العالم الكبار يعرف له قبر على سبيل التحقيق ، أما سيدنا محمد فقد انفرد من بين النبيين والرسل أجمعين ، وانفرد من بين من عرفت البشرية على اختلاف أديانها وألوانها بهذا الثبوت العلمى المؤكد لكل ما يتصل بحياته فى المدينة المنورة ومماته ، ذلك أنه كان محاطا بعشرة آلاف من الصحابة الذين عاصروه ونقلوا عنه كل كلمة وكل حركة وكل سكنة وسجلوا ذلك وشهدوا عليه ، فنقل الينا على سبيل التواتر الذى لم ينقطع قدر ساعة من زمن . هذا هو اليقين الذى يسيطر على الانسان وهو يقترب من المدينة المنورة ، ففى هذه الدروب سار رسول الله ، وفى هذه المناخات أناخ براحلته ، فاذا اقترب الانسان من المدينة فكل شىء يذكره بقول رسول الله أو فعله ، فهاتان الحرتان السوداوان هما اللتان أشار اليهما بقوله « ان الله قد حرم ما بين لابتيها كحرمة مكة » .

إجماع البشر على قبره

الحرم المدنى

وهذا هو أول الموقع حيث وصل الرسول الى مشارف المدينة على بعد فرسخين منها أول ما وصل ، وهذا هو مبرك الناقة حيث بركت ناقته . وها هو ذا مسجد قباء الذى أسس فى هذا المكان تخليدا لهذا الحادث التاريخى . ومسجد قباء الذى كرمه الله وأشاد ببنائه القرآن « لمسجد أسس على التقوى » .

انه جو معطر بالذكريات وكلها ذكريات مجيدة تبعث فى النفس السرور والسعادة ، فهى كلها فواتح الخير والنصر ، على خلاف مكة حيث لا يلقى الانسان الا كل ما يذكر بما لاقاه الرسول من عنت واضطهاد . لقد خرج الرسول من مكة شريدا طريدا فآوته المدينة ونصرته وجعلته بأمر الله سيد الجزيرة كلها بل سيد العالمين ، فكل ما فى المدينة يذكر الانسان بهذه

الصفحات المشرفة وكل سطر من سطورها وكل حرف من حروفها ، وكل ركن من أركانها ، كأنها أغنية وأنشودة تذكى فى نفسك نشوة انتصار الحق والعقيدة •

يالذكريات المدينة فى نفسى وما أحبها لقلبى ! •

هل أنسى ما حييت هذه المرات التى اجتزت فيها عتبة باب السلام كما وصفت فى مستهل هـذا الكتاب وكيف رحت أقترب فى خضوع وخشوع من حضرة النبى ؟ ! قد حدثتك كيف كنت أسرع الخطى قبل اجتياز هذه العتبة لهفة منى وشوقا للمثول فى حضرة الرسول ، فلما أن اجتزت الباب أحسست بقدمى وقد ثقلتا ، فرحت أجرهما جرا ، وأحسست بالهيبة تملأ على نفسى ، فاقتربت من المقصورة فى بطء وتثاقل ، حتى اذا وقفت فى الموقف المأمول فى حضرة الرسول انعقد لسانى فلم يتحرك ، لقد كان « المزورون »[1] يضجون حولى بهذه العبارات المحفوظة : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أكرم خلق الله ، أشهد لقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة • الى غير ذلك من الأقوال والأدعية المأثورة ، منها ما هو جليل وجدير بالاعتبار ، ومنها الأقوال التى لم يقصد منها الا أخذ أموال الحجاج ، والمهم أنها تقال فى صورة منكرة فى كلتـا الحالتين فالأصوات عالية مرتفعـة وكل زائر يحاول أن يرفع صوته فوق صوت الآخرين ، وهم فى هـذا انما يخالفون نص القرآن الذى طالب المسلمين أن يغضوا أصـواتهم فى حضرة النبى ، وأن لا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض •

« يا أيهـا الذين آمنوا لا ترفعـوا أصـواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم

---

(١) هذه الكلمة هى التى تطلق على رجال المدينة الذين يقومون بارشاد الحجاج الى المزارات والاماكن المأثورة وهى كلمة يجب ان تغـير وان تستبدل بكلمة غيرها .

لا تشعرون — ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

والأمة متفقة على أن ما يليق بجلال الرسول فى حياته هو ما يليق به فى مماته ، والماثل فى حضرته اليوم كالماثل فى حضرته منذ ألف وثلثمائة وسبعين سنة ، يتعين عليه أن يغض من صوته وأن يمتلىء خشوعا ووقارا .

وأشهد ما تصنعت شيئا من ذلك وأنا فى حضرة الرسول ، وانما انبعث الأمر طبيعيا فقد انعقد لسانى لفرط الهيبة فوقفت صامتا وأحسست بتيارات تتدفق فى قلبى حتى لكأنه كان يزداد ثقلا لحظة بعد أخرى ، وهذه التيارات تنسكب فيه ، وخيل الى أن لسانى قد تحرك بالقول ، ولكن الحقيقة أن نفسى هى التى كانت تتكلم وانحدرت الدموع من عينى وأنا أحاول أن أستجمع هذه الحقيقة الخالدة التى أمثل فى حضرتها .

هأنذا فى حضرة محمد بن عبد الله ذلك النبى الأمى الذى نعيش فى نوره وفى رحمته ... وراحت حوادث السيرة تمر فى ذهنى كما لو كنت أشهد رواية سينمائية :

استعراض سيرة الرسول

تتالت الحوادث والغزوات والصدمات والمد والجزر ثم النصر الأكبر وحجة الوداع ثم المرض الأخير مرض الموت حتى صعد الى الرفيق الأعلى ، وما من مرة وقفت موقفى هذا الا وانبعثت هذه الذكريات كلها . وذكريات الرسول تلاحقك فى مسجده حيثما ذهبت وأنى جلست وأنى أدرت البصر ، فقد تجلس الى جوار أحد الأعمدة فترفع رأسك الى قمتها فترى مكتوبا عليها أسطوانة الوفود ، أى حيث كان الرسول يجلس ثم تأتى الوفود لمبايعته ، وتلقى الاسلام على يديه ، فتتراءى للذاكرة هذه السنة التى أطلق عليها كتاب السيرة «عام الوفود» حيث قعد الرسول عن الغزو والقتال ، وجلس يتلقى عرب الجزيرة من مشرقها الى مغربها وقد جاءوا يعلنون الطاعة والدخول فى دين الله فى غير حاجة الى حرب أو قتال وصدق قول الحكيم العليم :

« اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

ولقد كان عام الوفود هو العام الذى صدق الله فيه وعده ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا . وفهم الرسول من أمر الله له بالتسبيح والاستغفار أن النهاية قد قربت بعد أن كملت الرسالة . ولقد تجلس الى جانب عمود آخر ، فترى مكتوبا عليه اسطوانة أبى لبابة ، وأبو لبابة هو ذلك الصحابى الذى بدرت منه بادرة اعتبرها خيانة للرسول ، فندم عليها ندامة كبيرة فربط نفسه الى هذا العمود ، وأقسم أن لا يأكل أو يشرب أو ينام حتى يأتى الرسول فيفك رباطه ويعفو عنه ولقد فعل الرسول ذلك وعفا عنه ، وانك لتجلس لتقرأ القرآن فى أحد هذه المصاحف الكبيرة الموجودة الى جوار الحائط فاذا بك فى هذه البقعة الطاهرة التى قال عنها الرسول : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وانك لتجيل النظر حولك فترى بيت فاطمة الزهراء وقد ضم الى المقصورة النبوية ، وقد ترى لوحة صغيرة فتطالع ما فيها فاذا قد كتب عليها : « خوخة أبى بكر » فيذكرك ذلك على الفور بما ورد فى السيرة من الأقوال الصحيحة أن كبار الصحابة كانوا قد بنوا مساكنهم حول المسجد وفتحوا فيها أبوابا على المسجد سميت خوخة ، فلما كان الرسول فى مرض الموت أمر بأن تسد هذه الأبواب كلها ولا يبقى منها الا خوخة أبى بكر ، وقد كان ذلك اعلاما من الرسول بخلافة أبى بكر ، فهذه هى خوخة أبى بكر أو بالأصح مكانها . ولا تكاد تتحرك فى المسجد حتى ترى مكانا قد ارتفع عن الأرض مقدار ذراع وأحيط بسياج ، فاذا سألت عنه علمت أنه مكان أهل الصفة الذين ورد ذكرهم فى الحديث والذين طالما أشير الى رقة حالهم فى كتب السيرة لكونهم جميعا من العفاة والفقراء وكيف كان الرسول يصرف اليهم كل ما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى رضى الله عنهما .

ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة

فاذا خرجت من أى باب شئت من المسجد وجدت الذكريات العطرة

خريطة الحرم المدنى . . . ويرى موضحا بها معالم الحرم وتطوراته

نقلا عن كتاب الرحلة الحجازية

تلاحقك ، فهذا بيت عثمان بن عفان ، وهذه بئر رومية التى اشتراها بماله ووهبها للمسلمين .

وهذا الباب يؤدى بك الى البقيع حيث يرقد عشرة آلاف صحابى أو يزيد ، ولقد كانت فى البقيع قباب شامخة تراها منشورة ومصورة فى كتاب الرحلة الحجازية للبتانونى ، ولكنا رأيناه وقد هدمت هـذه القباب كلها وأصبح البقيع مجرد ساحة من الأرض قد فرشت بالحصباء الحمراء ووضعت قطع من الحجارة البيضاء لتدل على أن فى هذا المكان جدث كبير من كبراء الصحابة ... البقيع

فهؤلاء هن زوجات النبى وقد صفت أحجار بعددهن باستثناء خديجة المدفونة فى مكة ، وهذا قبر ابراهيم ابن النبى ، وهذا قبر عثمان بن عفان ، وهذا قبر عبد الله بن الزبير ، وهذا قبر الامام مالك بن أنس ، وهذا قبر العباس عم النبى وهذا قبر الحسن بن على وليست هذه القبور كما قدمت لك الا قطعا صغيرة من الأحجار قد وضعت على الأرض .

أما أبو بكر وعمر فهما مدفونان الى جوار الرسول فى مقصورته باذن خاص من السيدة عائشة .

وهكذا يعيش الانسان فى مسجد الرسول وفيما يحيط به فى هذه الدنيا القديمة دنيا صدر الاسلام ، وتتردد حوله هذه الأسماء الضخمة التى طالما تفتح قلبه لذكراها تتردد لا على أنهـا أسماء تقرأ فى الكتب أو تسمع فى المحاضرات ، ولكنها تتردد أمامه على أنها كائنات حية قائمة خالدة وصدق الله العظيم اذ يقول : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

فالحياة تلازم هـذه الشخصيات العظيمة وهو ما يحسه الانسان وهو يستظل بظل المدنية ويستضىء بنورها .

ذكرت ذلك كله والطائرة تندفع فى الفضاء صوب مصر مارة بالمدينة المنورة دون أن يتاح لى فرصة النزول بها ؛ كان الحزن يملأ نفسى ولم يكن

يعزينى الا شيء واحد هو أن هذا النقص هو الذى سيستحثنى للعودة ثانية لاكماله اذا بقى فى العمر بقية •

فاذا سألتنى : وما الذى حال بينك وبين الزيارة هذه المرة ؟ فأقول لك : لا شيء سوى الظروف وستبقى هذه المسائل الكبرى فى حياة الانسان عرضة لاملاء المقادير ، فقد كانت رحلتى نحو الشرق مانعة من ذهابى الى المدينة ، فلما عدت من الرحلة الى جدة أصبح كل همى فى الاسراع بالعودة الى مصر فقد كان غيابى عن مقر عملى قد طال ، وكانت نفسى لم تعد تطيق احتمال هذا الفيض من الكرم الذى تحاط به فكان همى أن أهرب من هذا الجو الذى كاد يتلف على نفسى ، وكان معنى نزولى فى المدينة أن نفتح صفحة جديدة من الضيافة والاكرام يغرقوننا بها وهو مالم أعد قادرا على احتماله •

فوق المدينة :

وبدأت الطائرة تقترب من حدود المدينة ••• هذا هو وادى العقيق الذى كان زاهرا فى صدر الاسلام والذى لا تزال آثار قصوره ورياضه قائمة حتى اليوم تحدث عما كان للمدينة من عمران يضارع عمران دمشق على ما تقول بعض الروايات ، ولا عجب فى ذلك فقد كانت عاصمة أعظم دولة عرفها البشر من حيث اتساع الرقعة والغنى • وهبطت الطائرة بعض الشيء لتمكننا من رؤية هذه المغانى ، وخفق القلب ونحن نرى القبة الخضراء الشريفة تحيط بها عشرات القباب الأخرى التى تؤلف سطح الحرم المدنى وابتعدت الطائرة عن المدينة وأصبحنا فوق جبل أحد ، ولطالما جلست فى المدينة أحدق النظر فى هذا الجبل الشامخ الذى قال عنه الرسول : « أحد يحبنا ونحبه » والذى جرت عنده هذه الواقعة الخالدة التى هزم فيها جيش المسلمين بعد انتصارهم ، والتى أرادها الله لتكون درسا وعبرة للمسلمين الى أبد الآبدين : ان النبى كأى انسان آخر معرض للهزيمة اذا أخطأ أتباعه ولم ينفذوا الأوامر والتعليمات •

وهكذا علمنا الله فى هذه المعركة أن كل شيء فى هذه الدنيا يسير

سر هزيمة المسلمين فى أحـد

على سنن ونواميس ، وأن النصر ليس الا ثمرة الجهاد والتدبير والعمل وان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولا تمطر نصرا نتيجة الدعاء والبركة ، وانما النصر من عند الله يمنحه للعاملين المجدين المخلصين • ولقد انتصر المسلمون فى المرحلة الأولى من معركة أحد ، فلما أن ظن الرماة أن المعركة قد انتهت تخلوا عن مراكزهم طمعا فى الأسلاب والغنائم فخالفوا بذلك أمر الرسول الذى أوقفهم فى مكانهم وطلب منهم أن لا يبرحوه لأى سبب من الأسباب ، وقد كانوا بموقفهم هذا يحمون ظهر المسلمين ، فلما أن زالوا عن الجبل كشفت مؤخرة المسلمين ، وكان خالد بن الوليد على خيل المشركين ، فاهتبل الفرصة وكر على المسلمين الذين كانوا مشغولين بجمع الأسلاب فكان الارتباك والفزع وكانت الهزيمة التى تمثلت فى جرح رسول الله وكسر ثنتيه وشج رأسه وسريان الاشاعة أنه قد مات ، وتمثلت بالأكثر فى موت حمزة سيد الشهداء الذى لم يحزن الرسول على أحد كمــا حزن عليه • ولا يزال قبر حمزة جاثما فى هــذه البقعة الطاهرة مما يحج اليه ويزار والى جواره رفات سبعين شهيدا من شهداء أحد دفنوا حيث صرعوا بناء على أمر الرسول الذى طلب أن لا يغسلوا أو يكفنوا بل يدفنوا حيث سقطوا • ولقد صور القرآن كارثة أحد وعبرتها فأبدع تصويرها وعزى المسلمين عن نكبتهم وخفف عليهم وقع المصيبة ، ووعدهم النصر اذا اتخذوا له عدته وأسبابه ، وازدادوا ثباتا واقداما ويقينا فقال وقوله الحق :

وما محمد إلا رسول . . .

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين — ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين — ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين — وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين — أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمـا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين — ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون — وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل

انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ...

الى قوله :

« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

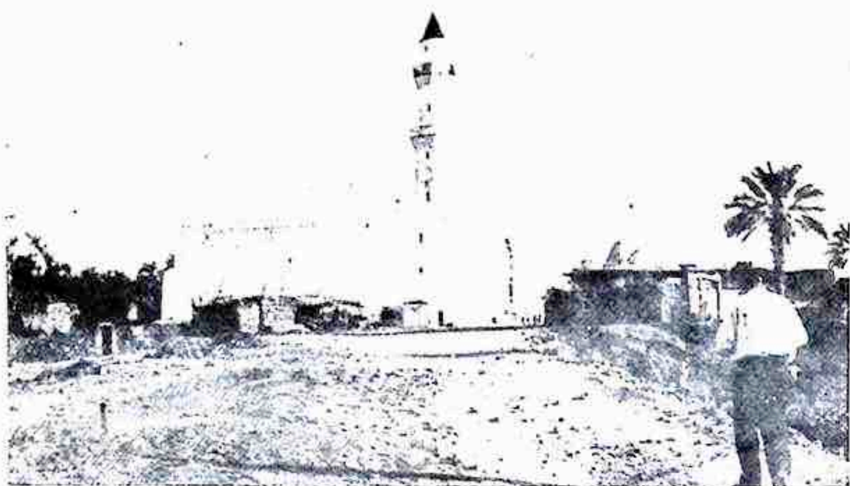
« اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » .

وهكذا صور القرآن فىسورة آل عمران موقعة أحد وما وقع فيها من انكسار بعد النصر الأول فليرجع اليها والى ما ذكر فى تفسيرها من شاء الاحاطة بتفاصيل هذه المعركة .

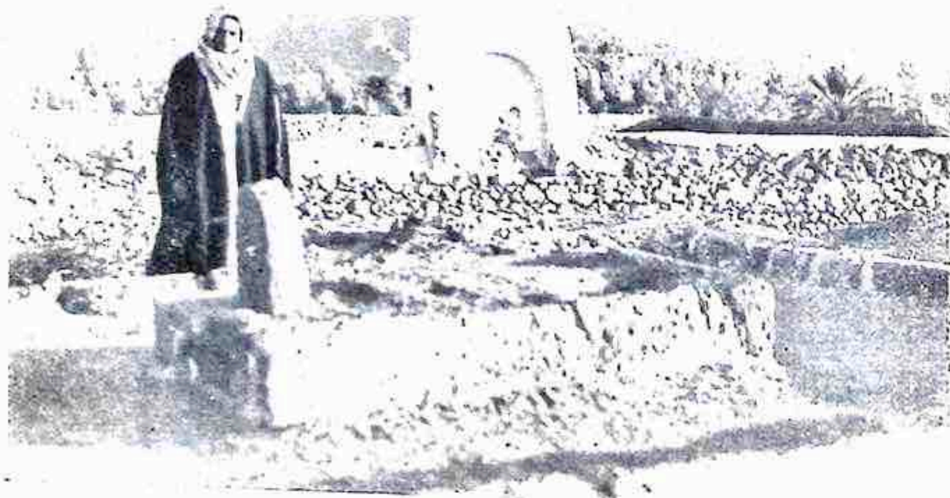
غزوة الخندق :

وعندما يخرج الانسان خارج المدينة ليزور موقع غزوة أحد لا يلبث أن يمر بموقع غزوة الخندق وهى محنة ثانية من المحن التى مرت بالمسلمين فى المدينة ، ومرة أخرى انبعثت الذكريات الى رأسى والطائرة تحوم بنا فوق المكان ، فطالما صعدت الى هذا المسجد الكائن فوق ربوة ، والمقول أن الرسول صلوات الله عليه كان يقف فيه وهو يرقب سير المعركة ومرة أخرى انبعثت الى رأسى آيات القرآن الحكيم التى تصور محنة المسلمين فى هذه الموقعة أبدع تصوير :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا — اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا — هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا —



« ولمسجد أسس على التقوى » مسجدقباء فى خارج المدينة والذى أقيم
تذكارا لمهبط الرسول أول مرة الى يثرب مهاجرا



فى بقيع الغرقد ــ قبر ابراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام



وهذا هو جبل أحد ... جبل يحب المسلمين ويحبونه



وفى هذه البقعة الطاهرة وفى هذا القبر الشرعى الذى يستمد جلاله من بساطته ترقد رفات حمزة سيد الشهداء فى ظلال جبل أحد حيث سقط فى المعركة

واذ يقول المنــافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعــدنا الله ورسوله الا غرورا — واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وماهى بعورة ان يريدون الا فرارا — ولو دخلت عليهم من أقطــارها ثم سئلوا الفتنــة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا — ولقد كانوا عاهدوا الله من قبــل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا — قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون الا قليلا — قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .

قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم ...

تذكرت ذلك كله ... وغمرنى هذا الشعور بالوجد الذى طالما غمرنى وأنا أصلى فى هذا المسجد الذى أقيم حيث كان الرسول يرقب المعركة ... فى هذا المسجد طالما صليت صلاة لم تبلغ الى عمقها أى صــلاة صليتها فى مكان آخر الا أن تكون صــلاتى فى غار حراء . فهنا بلغت الشدة بالرسول مبلغا كما يصور القرآن ... هنا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحنــاجر ... هنا ظن الناس من حول محمد بالله الظنون . فهــذه عشرة آلاف تحيط بالمدينة احاطة السوار بالمعصم ... ها هى ذى جزيرة العرب كلها قد جاءت لتحطم هذه الرسالة الجديدة ولتطفىء هذا النور الجديد ... ولقد ظن الكثيرون أن النهاية قد أوشكت بالفعل . رجل واحد لم يتطرق اليأس أو الشك الى نفسه ... رجل واحد كان يعرف حقا وصدقا أنه رسول الله وأنه لن يخزيه أبدا ... فوقف فى المحراب يصلى ويدعو ربه أن ينزل من السماء معجزة .

ولقد وقعت المعجزة وأطاحت الرياح والفتنة بعقد الجيش ووحدته ، فاختل نظامه ، وانفرط عقده وآثر المشركون الانسحاب ، لم ينالوا من الاسلام ورسول الاسلام ، فكانت هزيمة ما بعدها هزيمة ولم تسبقها من قبل هزيمة ، أن تعجز كل قبائل العرب عن قهر مدينة من المدن .

ولم يرتفع للمشركين بعد هذه الموقعة لواء أبدا ... ولم يطو للرسول

وخلفائه الراشدين بعد هذه الموقعة علم أبدا • ومن هنا كان الوجد الذى يغمر نفسى كلما وقفت حيث وقف الرسول فى هـذه المحنة • ومن هنا انبثق نشيد النصر الأكبر الذى ما فتىء المسلمون يرددونه حتى اليوم ••• الله أكبر الله أكبر صـدق وعـده ونصر عبـده وأعز جنـده وهزم الأحزاب وحده •

وهزم الأحزاب وحده . . .

ووجدت شفتى تتحركان بهذا النشيد وأنا معلق بين الأرض والسماء ، ووجدت قلبى يتجه نحو الله أسأله العون والمدد وأن يأخـذ بناصرى ويشد أزرى فى جهـادى الصغير المتواضع ، من أجـل تحرير المسلمين وانهاضهم •

ومرقت الطائرة صوب الشمال مخلفة المدينة وراءها ، محلقة فوق هذه الدروب والمسالك المؤدية الى بادية الشام ••• حيث وقعت سرية مؤتة وغزوة تبوك ، والتى كان الرسول يضع فيها الأساس لمواجهة جحافل الروم والفرس ، وتقويض هاتين الامبراطوريتين اللتين قامتا على الظلم والعسف • وهى مهمة أداها من بعده صاحباه أبو بكر وعمر على الوجه الأكمـل فتدفقت جيوشهم شرقا وغربا لا تعرف الهزيمـة ولا ترجع القهقرى فى معركة من المعارك ••• حتى ألقت اليها الدنيا الزمام بعد أن أدركت أن هؤلاء الغزاة الفاتحين لم يجيئوا للسلب والنهب والاحراق والتدمير ••• وانما جاءوا برسالة جديدة لنبى البشر رسالة عدل ومحبة واخاء وسلام •

الدخول الى الطور :

استغرقتنى التأملات ، ولم أخرج منها الا عندما وجـدت الطائرة تنحرف عن خطها الشمالى لتدرك ساحل البحر ثم تنحرف نحو الغرب لتصل بنا الى الطور وما أدراك ما الطور « والطور — وكتاب مسطور — فى رق منشور — والبيت المعمـور — والسقف المرفوع — والبحـر المسجور » •

والطور وكتاب مسطور . . .

الطور ذلك الجبل المقدس وهذه البقعة الطاهرة حيث كلم الله موسى

تكليما ، وحيث تجلى الله للجبـل ، وحيث تلقى موسى الوصايا العشر والتوراة ••• الطور وجبل الطور حيث لم يشد القرآن بواد اشادته بهذا الوادى ••• ولم يتحدث عن قدسية مكان من الأمكنة حديثه عن هذه البقعة • واقرأوا ان شئتم •

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون — فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين » •

انك بالوادى المقدس

« وهل أتاك حديث موسى — اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى — فلما أتاها نودى يا موسى — انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى — وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى — اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصـلاة لذكرى — ان الساعة آتيـة أكاد أخفيهـا لتجزى كل نفس بما تسعى — فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » •

هذا هو الطور الذى يصل اليه الحجاج المصريون بعد أوبتهم من الحجاز ليقيموا أيام الحجر الصحى الثلاث •

وانه لقـدر غريب ذلك الذى يأتى بالحجاج من الأراضى المقدسة ليقيموا أياما ثلاثة فى هذا الوادى المقدس •••

وأشهد أنهـا ثلاثة أيام مباركات يهنأ فيها الحجاج بمرحلة انتقال مما كانوا فيه والى ماهم مقدمون عليه ••• فى هذه الأيام يعيش الحجاج مرة أخرى ثلاثة أيام مع بعضهم فى اخوة ومحبة وسلام • ان الحجر الصحى يفرض عليهم أن يقيموا داخل هذه الثكنات التى يسمونها (حذاءات) وتحيط الأسـلاك الشائكة بهـذه الثكنـات حتى لا يختلط الحجاج بغيرهم ••• فلا يكون أمام الحجاج الا أن يعبدوا الله فى هـذه البقعة والا أن يتعاونوا على تدبير طعامهم وأن يرسلوا البرقيات لأقاربهم فى مصر

يخبرونهم بالوصول سالمين الى الطور ثم يتسلمون برقيات الرد عليهم بالتهنئة والتبريك .

النهـاية :

واذا كان لكل شيء نهاية فان أيام الطور والحج كلها قد وصلت الى نهايتها . وانتهت بنهايتها هذه الرحلة وجاءت الساعة التى وجدت فيها الطائرة تهبط بنـا على أرض مطار فاروق ولم أكن قد أخطرت أحـدا بموعد عودتى لأتفادى هذه الاستقبالات التقليـدية ودلفت بى احدى سيارات الأجرة فى شوارع العاصمة حتى استقرت أمام بيتىَ . وبعـد لحظات كنت مرة أخرى بين أولادى وأفراد أسرتى وقد انحدرت الدموع من عينى وتسألنىَ : زوجتى ما الذى يبكيك فقلت لها : الشكر ... الشكر لرب العالمين الذى أعادنى مرة أخرى ملتئم الجراح ... راضى النفس ، قوى النفس عظيم الأمل ، وانى اذ أخط هذه الحروف الآن بعد انقضاء أكثر من عامين على هذه الحجة المبـاركة ما زلت أشعر بقوة الدفعـة الروحية التى دفعتنى بها نحو الأمام ... ومقـدار النشاط والحيوية اللذين أمدتنى بهما فى جهادى وكفاحى نحو مثل أعلى ، وتوفير حياة أكرم وأسعد لمواطنى من المصريين والعرب والمسلمين والناس أجمعين .

« عودا يارب »

فهرس مفصل للكتاب

واجب الشكر

الآن وقد تم طبع هذا الكتاب فلست أستطيع الا أن أشكر كل الذين عاونونى على اخراجه بهذه الصورة من موظفى مطبعة مصر وعمالها .

وأشكر أخى الأستاذ ابراهيم الشورى لتوجيهاته فى اعداد الكتاب ، والأديب العالم أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر الشريف لاشرافه على تصحيح الكتاب • وأخى وزميلى حضرة اليوزباشى أحمد عشرة الذى تفضل فوضع مجموعة صوره التى صورها بنفسه للحرم تحت تصرفى .

وكذلك الأستاذ فهمى عقل صاحب جريدة الأحوال الذى قدم لى بعض الصور والكليشهات .

دار الثقافة الاشتراكية

قائمة بأسماء كتب المؤلف

	ص
١ — مشاهداتى فى جزيرة العرب	١٠٠
٢ — ايمانى — الجزء الأول (الطبعة الثانية)	٤٠
٣ — الزواج والمرأة (رسالة فى حقوق المرأة)	١٥
٤ — الاشتراكية التى ندعو اليها	١٥
٥ — وراء القضبان	٥
٦ — رسالة الحرب	٣
٧ — نحو المجد	٣
٨ — عمر بن عبد العزيز (للدكتور مصطفى الوكيل)	٣

تحت الطبع

رسالة فى الوطنية .
